تأليف: لويس بونويل

مُذكّرات بُونويل

مدونة أبو عبدو

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ترجمة: مروان حداد

مذكرات بونويل

مذكرات بونويل

الاشراف الفني : زهير الكمو

تأليف : لويس بونويل

مُذكّرات بُونويل

ترجمة : مروان حداد

منشورات وزارة الثقافة ـ المؤسسة العامة للسينما

دمشق ـ ١٩٩١

الفن السابع

« ٥ »

الإهداء

إلى صفـــاء المدني

زوجتي

وصديقتي

وحبيبتي

مروان

العنوان الأصلي للكتاب :

LUIS BUNUEL

Miultimo Suspiro

(MEMORIAS)

PLAZA

MADRID 1985

الذاكرة

كانت أمي ، خلال السنوات العشر الاخيرة من حياتها ، قد أخـذت تفقد ذاكرتها شيئا فشيئا . عندما كنت أذهب لزيارتها في سرقسطة حيث كانت تعيش مع اخواتي ، كنت أعطيها احدى المجلات ، فتتصفحها باهتمام من الصفحة الأولى وحتى الاخيرة . فيما بعد ، وعندما كانت تعيدها إلي كنت أعطيها اياها من جديد ، على أنها مجلة اخرى ، فتبادر الى تصفحها بنفس الاهتمام .

وصلت أمي الى حد عدم التعرف على أولادها . لم تكن تتعرف علينا ، بل أنها أصبحت لا تعرف من هي نفسها ، كانت من الناحية الفيزيولوجية تتمتع بصحة ممتازة ، وكانت تتمتع بمستوى عال من النشاط بالنسبة لمن هن في مثل سنها . كنت أدخل ، أقبلها وأجلس قليلا قربها ، ثم أخرج قليلا لأعود من جديد ، فكانت تستقبلني كما لو أنها كانت تراني للمرة الاولى وتدعوني للجلوس ، باسمة ، لكن دون أن تعرف ما هو اسمي .

عندما كنت أذهب الى المدرسة في سرقسطة ، كنت احفظ في الذاكرة قائمة بأسماء الملوك القوطيين ، ومساحة وسكان كل دولة أوروبية ، واكداسا من الاشياء غير المفيدة ، كنا ، في المدارس ، ننظر بازدراء الى ذلك النوع من التمارين الآلية للذاكرة ، وكان يشار الى من يمارسها ، بطريقة تخلو من الاحترام ، على أنه شخص .. قوي الذاكرة ! .. أما بالنسبة إلي فمع أنني كنت قوي الذاكرة ، الا أنني لم أكن أشعر سوى بالازدراء تجاه هذه « الاستعراضات الرخيصة » ! ..

لكن ، ومع توالي السنين ، اصبحت هذه الذاكرة ، شيئا فشيئا ، مسالة على درجة كبيرة من الاهمية ، بعد ان كنا قد نظرنا اليها ذات يوم بكثير من الاستهانة .

ودون أن نشعر ، تأخذ الذكريات بالتزاحم ، وذات يوم ، فجأة ، نبحث عبثا عن اسم صديق او قريب ، فلا نجده ، أو نحاول عبثا التقاط كلمة نعرفها ، انها على ذروة اللسان ، لكنها تصر على الفرار ، وبكثير من العناد .

امام هذا النسيان ، و « النسيانات » الاخرى ، التي لن تتأخر كثيرا في الوصول ، نبدا بادراك ومعرفة اهمية الذاكرة . لقد بدا فقدان الذاكرة الذي اخذت أعاني منه منذ سن السبعين ، بالاسماء ، وبالذكريات الاكثر قربا : اين وضعت القداحة التي كانت معي قبل خمس دقائق ؟ ، وما الذي كنت أريد قوله عندما بدأت بهذه العبارة ؟.. وهذا هو فقدان الذاكرة القريبة ، الذي يعقبه فقدان الذاكرة لما هو ابعد في الزمن قليلا ، والذي يؤثر في ذكريات الاشهر او السنوات الاخيرة:ماذا كان يدعى الفندق الذي نزلت فيه عندما كنت في مدريد خلال شهر أيار عام ١٩٨٠ ؟.. ماذا كان عنوان ذلك الكتاب الذي اثار اهتمامي قبل ستة اشهر ؟.. لا أستطيع أن اتذكر ، واحاول ذلك جاهدا ، لكن دون جدوى .. ثم يأتي أخيرا فقدان الذاكرة المتعلقة بالامور الموغلة في الزمن ، وهذا ما يمكن أن يلغي حياة بكاملها ، كالذي حصل مع أمي .

لم أشعر بعد ، بهجوم هذا الشكل الثالث من فقدان الذاكرة ، فما زلت احتفظ بماضيّ البعيد ، وبطفولتي وبشبابي . احتفظ بذكريات كثيرة وناصعة ، كما احتفظ بفيض من الوجوه والاسماء . صحيح أنني قد انسى بعضها احيانا ، لكن هذا لا يسبب لي قلقا بالغا ، فانا اعرف أنني سأستعيدها بأسرع مما أتصور ، وهذه احدى حسنات اللاشعور ، الذي يعمل ، بلا كلل ، تحت جنح الظلام .

وبالمقابل ، فانني اشعر بقلق حقيقي ، بل وحتى بالضيق ، عندما لا استطيع أن اتذكر أمرا عايشته مؤخرا ، أو اسم شخص تعرفت اليه خلال الاشهر الاخيرة ، أو حتى اسم شيء ما . وفجأة يتهدم في شيء ما ، يتفكك ، واصبح فاق القدرة على التفكير باكثر من أن كل جهدي وغضبي سيبقيان عديمي الجدوى . هل هي بداية التلاشي الكلي ؟ انه لامر فظيع ان تصبح مضطرا الى اللجوء للاستعارة أو المجاز لكي تقول : « طاولة » . أما الالم الاكثر فظاعة فهو كونك ما تزال على قيد الحياة ، الا انك ، مع ذلك ، لا تستطيع ان تتعرف على نفسك انت في أن تكون قد نسيت من انت !..

علينا أن تكون قد بدأنا بفقدان الذاكرة ، ولو جزئيا ، كي ندرك أن هذه الذاكرة هي التي تشكل كامل حياتنا . ان حياة بلا ذاكرة ليست بحياة كالذكاء الذي ان لم تكن امامه فرصة للتعبير عن طاقاته ، فهو ليس بذكاء ... ذاكرتنا هي تماسكنا ، عقلنا ، حركتنا ، شعورنا ، وبدونها لسنا شيئا .

بالمناسبة ، فكرت ذات مرة بادخال مشهد في احد الافلام ، يحاول رجل أن يروي حكاية لصديق له ، الا انه ، وباستمرار ، ينسى كلمة من بين كل أربع كلمات ... وكانت الكلمات التي ينساها في غاية البساطة ، مثل : سيارة ، شارع ، حارس ... والرجل يتعلثم ، ويتردد ، ويكثر من الاشارات باحثا عن مرادفات مناسبة .. الى أن ينفذ صبر الصديق ، فيسكت الرجل بصفعة ، ويمشي ! . احيانا ، ولكي أحمي نفسي من مخاوفي الشخصية ، اروي ، ضاحكا ، حكاية ذلك الرجل الذي ذهب الى الطبيب النفسي لانه كان يعاني من نسيان كلمة « بحيرات » . الطبيب النفسي طرح عليه بعض الأسئلة الروتينية العادية ، ثم قال له :

ـ حسن ، .. وما حكاية هذه « البحيرات » ؟

ـ اية بحيرات ؟ .. سأله الرجل ! ...

هذه الذاكرة ، الضرورية والعجيبة ، هي أيضا هشة وسريعة العطب . انها ليست مهددة بالنسيان ، عدوها القديم ، بل وأيضا بالذكريات الزائفة التي تغزوها يوما بعد يوم . مثال : خلال زمن طويل كنت أحكي لاصدقائي دائما عن عرس « بول نيزان » المثقف الماركسي اللامع خلال الثلاثينات ، كان يبدو لي في كل مرة بانني آتي الى كنيسة « سان جرمان دي بري » ، وسط الزحام ، حيث أرى المذبح والخوري « وجان بول سارتر » وشاهد الزواج . في أحد ايام العام الماضي ، قلت لنفسي : غير ممكن ، « بول نيزان » ماركسي حقيقي وزوجته ابنة عائلة من « اللا ادريين » ، ولا يمكن أن يكونا قد تزوجا في الكنيسة .. لا يمكن تصور هذا اطلاقا . فاذن ؟.. هل حصل لديّ تبادل أو تداخل مع ذكرى أخرى ؟.. هل ان الامر عبارة عن ذكرى مختلفة ؟ هل قمت بوضع اطار عائلي كنسي لمشهد كان أحدهم قد وضعه لي ؟ لم أستطع التأكد من ذلك حتى الآن .

تجتاح الذاكرة باستمرار ، التصورات والاحلام ، وحيث أن هناك اغواء ما لتصديق الحقيقة المتصورة ، فاننا نصنع حقيقة من اكذوبتنا .

في هذا الكتاب ، القريب من السيرة الذاتية ، والذي تهت فيه أحيانا ، كما في رواية من روايات الصعاليك ، تاركا لنفسي الانسياق وراء اغواء لا يقاوم ، في رواية الحكاية غير المتوقعة ، والمستمرة ، مع حذري من ايراد أية ذكرى زائفة ، أريد التأكد ان ليس لهذا اهمية كبيرة .. فأخطائي وشكوكي تشكل جزءا مني ، كما هي الحال مع يقيني ... ولانني لست مؤرخا ، لم أستعن بالملاحظات او بالكتب . و .. في كل الاحوال ، فان الصورة التي أقدمها ، هي صورتي ، مع قناعاتي ، مع ترددي ، مع تكراري ، مع « بحيراتي » .. مع حقائقي وأكاذيبي .. ، وبكلمة واحدة : ذاكرتي .

* * *

ذكريات من العصور الوسطى

كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، حينما غادرت منطقة « اراغون » للمرة الاولى . كنت مدعواً الى منزل أصدقاء لأسرتي يصطفون في « فيفادي باس » بالقرب من « سا نتاندير » ، ولدى وصولي الى منطقة الباسك ، اكتشفت ، بكثير من الدهشة ، منظرا جديدا ، غير متوقع ، يختلف كليا عما كنت عرفته حتى ذلك الحين . رايت الغيوم ، والمطر ، والغابات النشوى بالضباب ، وبالطحالب الندية بين الحصى . كان انطباعا حلوا استمر مع مرور الايام ... انا عاشق للشمال ، وللبرد ، وللثلج ، وللوديان الهائلة بين الجبال .

اراضي منطقة « اراغون السفلى » خصبة ، لكنها كثيرة الغبار والجفاف ، وقد يمضي عام كامل أو عامان دون أن تشاهد في السماء الضنينة ولو غيمة واحدة . وعندما كانت تمر بعض الغيمات الشاردة ، مصادفة ، وراء ذرى الجبال ، كان يأتي بعض الجيران الذين كانوايعملون في محل لبيع المأكولات ، ليطرقوا باب منزلنا الذي كان ينتصب فوق سقفه القرميدي مرصد صغير ، ومن هناك كانوا يرقبون لساعات عديدة، حركة الغيوم البطيئة ، ثم ليقوموا ، وهم يهزون رؤوسهم بحزن :

ـ لقد ذهبت بعيدا ... رياح الجنوب ..

كانوا على حق ، فقد كانت الغيوم تمر دون ان تفرج عن قطرة ماء واحدة ، في أحد أعوام القحط القاسية ، اقام أهالي قرية « كاستيلسيراس » المجاورة ، صلاة الاستسقاء طلبا لهطول المطر . في ذلك اليوم ، كان رذاذ بعض الغيوم السوداء قد بدأ يتساقط فوق

القرية ، إلا أن صلاة الاستسقاء لم تكن مجدية على مايبدو ، اذ لم تكن طقوس تلك الصلاة قد انتهت بعد ، حين أخذت الغيوم بالابتعاد والتلاشي، لتحل مكانها ، من جديد ، الشمس المحرقة ، عندئذ ، قام بعض الاجلاف، الذين يتواجد أمثالهم في كل مكان ، بأخذ صورة العذراء التي كانت تتقدم الموكب ، فالقوا بها من فوق أحد الجسور ، في نهر « غوادالوبه » .

يمكن القول إنه ، في القرية التي ولدت فيها (في ٢٢ شباط عام ١٩٠٠) ، امتدت العصور الوسطى حتى الحرب العالمية الاولى . كان مجتمعا منعزلا وساكنا ، حيث الفوارق الطبقية واضحة جدا . كان خضوع الطبقة العاملة « للسادة الكبار » ، الاقطاعيين ، متأصلا في جذور الأعراف القديمة ، بحيث كان يبدو وكأنه غير قابل للتغيير . فلقد نمت الحياة بصورة افقية ، رتيبة ، وجرى تنظيمها بشكل نهائي على وقع اجراس كنيسة الـ « بيلار » ، كانت هذه الاجراس تعلن عن المهمات الدينية (القداسات والصلوات) وكذلك عن المهمات الدنيوية والاعمال الحياتية اليومية . كان هناك رنين للموت ، .. وآخر للاحتضار .. عندما كان يدخل أحد سكان القرية في غيبوبة الموت ، كان يبدأ معه أحد الاجراس ضرباته البطيئة ، .. جرس كبير ، عميق وثقيل للنزاع الاخير لاحد البالغين ، .. وجرس من البرونز الخفيف لحشرجة طفل صغير .. وفي الحقول ، وفي الدروب ، وفي الشوارع ، كان الناس يتوقفون ليسألوا : « ترى ؟ من الذي يموت ؟ .. » .

كذلك اتذكر قرع الاجراس في حالة شبوب حريق ، .. وتلك التي كانت تقرع ايام الأحد تمجيدا للعيد الكبير ..

كان يقطن « كالاندا » أقل من خمسة آلاف نسمة ، وتقع هذه القرية الكبيرة من قرى مقاطعة الـ « تيرويل » ، والتي لا تعني شيئا غير عادي للسائح العابر ، عى مسافة ثمانية عشر كيلو مترا من « الكانييث» . في « الكانييث » كان يتوقف القطار الذي ينقلنا من سرقسطة . كانت تنتظرنا في المحطة ثلاث عربات خيل ، احداها ، وهي الكبرى . كانت

تدعى بالعربة المكشوفة ، ثم هناك العربة الكبيرة المغلقة ، اما الثالثة ، فكانت عربة صغيرة ذات عجلتين . وحيث ان اسرتنا كانت كثيرة العدد ، وكنا ننتقل مع مجموعة كبيرة من الحقائب ، وبرفقة الخدم ، فقد كنا نحتاج دائما لان نتكدس في كافة العربات الثلاث ، وكانت الكيلو مترات الثمانية عشر التي تفصلنا عن « كالاندا » تستغرق مايقارب ثلاث ساعات تحت أشعة الشمس اللاهبة ، لكنني لا اذكر انني قد شعرت مرة بالملل ، ولو لدقيقة واحدة .

باستثناء أعياد الـ « بيلار » ومعرض ايلول ، لم يكن يتواجد في كالاندا الا القليل من الغرباء ، أما في الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهيرة كل يوم ، فكانت تصل عربة « ماكان » الكبيرة التي تجرها مجموعة من البغال ، مثيرة وراءها عاصفة من الغبار ، لتجلب البريد ، وفي بعض الاحيان القليلة ، احد الباعة المتجولين الشاردين .

لم تشاهد القرية سيارة واحدة حتى عام ١٩١٩ ، حين اشترى واحدة ، السيد لويس غونثاليث ، وهو رجل متحرر ، عصري ، مناهض للاكليروس . اما السيدة « ترينيدا » والدته ، فقد كانت ارملة لاحد الجنرالات ، وتنتمي لعائلة ارسطوقراطية من اشبيلية . وكانت تعاني من طيش خادماتها اللواتي لم يتورعن عن الاساءة اليها بان نشرن بين سيدات المجتمع الراقي في كالاندا ، بأنها كانت،تستخدم جهازا فضائحيا، له شكل آلة القيتار من اجل غسل المناطق الحميمة من جسدها .

والسيد لويس هذا قام بتصرف حاسم عندما تعرضت كروم « كالاندا » في أحد الاعوام لهجوم آفات الكرمة كانت الكروم تموت دون ان تتلقى اية نجدة ، والفلاحون يرفضون باصرار استبدالها بالدالية الامريكية كما كان عليه الحال في كافة انحاء اوربة ، وحضر احد المهندسين الزراعيين خصيصا من التيرويل ونصب مجهرا خاصا لفحص الطفيليات، في بهو دار البلدية ، لكن دون اي تجاوب او تعاون من قبل الفلاحين ، وحينئذ قام السيد لويس باعطاء المثل والقدوة واوعز بتبديل كافة

كرومه . وعندما وصلته تهديدات بالقتل ، راح يتمشى بين كرومه حاملا بيده بندقية صيد تخوفا من ذلك العناد والتصلب الجماعي الارغواني التقليدي .

تنتج منطقة اراغون السفلى افضل زيت زيتون في اسبانيا ، وربما في العالم ، الا أن الجفاف كان يتهدد هذا المحصول الرائع باستمرار . كان بعض فلاحي كالاندا يذهبون كل عام الى الاندلس لتقليم الاشجار في مناطق قرطبة وخايين،حيث كانوامطلوبين هناك كاختصاصيين كبار . كانوا يبدؤون القطاف مع بداية الشتاء ، وكان الفلاحون يغنون خلال عملهم اغنيات خاصة بالزيتون كان الرجال يتسلقون السلالم ، ويضربون الاغصان بالعصي ، أما النساء فيجمعن حبات الزيتون المتساقطة على الارض . واغنيات الزيتون ذات الحان جميلة ورقيقة ، على الاقل في ذاكرتي ، على النقيض من النغمات الصادحة الفظة للغناء المحلي في منطقة اراغون .

احتفظ في ذاكرتي ، مابين اليقظة والحلم ، باغنية من اغاني تلك الايام ، تناقل لحنها جيل بعد جيل ، دون ان يدونها أحد ، انها أغنية « الفجر » : قبل الشروق ، تقوم مجموعة من الشبان بالطواف في الشوارع لايقاظ الحصادين الذين عليهم الذهاب الى العمل مع اولى ساعات الصباح ، ولعل بعض اولئك « الموقظين » مازالوا على قيدالحياة، ويحتفظون في ذاكرتهم بكلمات ولحن تلك الاغنية . انها اغنية رائعة ، عبارة عن مزيج من الاجواء الدينية والدنيوية ، انتقلت الينا عبر عصور موغلة في القدم . ولكم ايقظتني تلك الاغنية خلال ايام الحصاد ، قبل انقضاء الليل ، لاعود الى النوم من جديد .

أما بقية العام ، فكان اثنان من الحرس المسلحين بكرباج وقنديل ، يهدهدان لنا كل ليلة ، « شكرا لله » .. يصيح الاول .. « شكرا على الدوام » يجيب الاخر .. ثم يتابع الاول : « يا للفرحة .. انها غائمة » .. ، واحيانا : « معجزة ، انها تمطر » ..

كانت في كالاندا ثماني معاصر للزيتون ، احداها كانت مائية ، أما الاخريات ، فكانت على ماكان الحال عيه منذ أيام الرومـان : حجـر مخروطي تجره الاحصنة أو البغال ، يعصر الزيتون فوق حجر آخر . كان الامر يبدو وكأن أحدا لا يرغب في تغيير اي شيء ... التصرف نفسه .. الرغبات نفسها .. تنتقل من الاب الى الابن ومن الام الى الابنة .. لايكاد يبدأ حديث عن بارقة امل في أي تقدم أو تطور ، حتى يتلاشى سريعا ، ويمضي بعيدا .. كالغيوم !..

الموت ، الايمان ، الجنس :

صباح ايام الجمعة ، كانت مجموعة من الرجال والنسـاء ، مـن كبار السن ، تجلس قبالة منزلنا ، مستندة الى جدار الكنيسة . انهم فقراء الاحتفالات . كان احد الخدم يخرج ليعطي كلا منهم قطعة مـن الخبز ، فيقبلونها بكثير من الاحترام ، وكذلك قطعة نقود من فئة العشرة سنتيمات ، وكانت هذه تعتبر فرصة كريمة بالمقارنة مع السنتيم الواحد الذي كان يقدمه باقي أغنياء القرية .

في كالاندا ، كان أول تماس لي مع الموت ، ومع الايمان العميق ، وكانت هاتان المسألتان ، الى جانب استيقاظ غريـزتي الجنسية ، العناصر الاساسية التي شكلت قوام مراهقتي .

ذات يوم ، وخلال نزهة لي مع أبي في أحد حقول الزيتون ، نقل إليّ النسيم رائحة منفرة ومثيرة للاشمئزاز . على بضع مئات من الامتار كان هناك حمار ميت : متورم ومتفسخ بصورة مريعة ، وقد تحول الى وليمة لاعداد كبيرة من النسور والكلاب . اجتذبني المشهد واثـار اشمئزاي في الوقت نفسه . فالطيور التي كانت قد شبعت تماما ، لم تعد تقوى على معاودة الطيران ، كما ان الفلاحين المؤمنين بأن الجيف تغني التربة لا يقومون بدفن جثث الحيوانات ، بقيت مسحورا بالمشهد ، افكر بما يمكن ان يكون عليه المعنى الميتافيزيقي لما بعد هذا التعفن . إلاّ ان والدي سرعان ما امسك بي من ذراعي وأخذني بعيدا .

في مرة أخرى ، تلقى احد الرعاة العاملين في قطيعنا طعنة في ظهره ، خلال نقاش تافه ، ومات . لقد كان كل الرجال يحملون المدي في مآزرهم جرى تشريح جثته في مصلى المقبرة من قبل طبيب القرية مع مساعده الذي كان يعمل ، اضافة لذلك ، في مهنة الحلاقة ، وكان هناك ايضا اربعة أو خمسة اشخاص ، أصدقاء للطبيب . واستطعت ان اتسلل الى ذلك المكان .

استعنت بزجاجة كحول لاستمد بعض الشجاعة ، وشربت بشراهة الا ان جراتي أخذت بالتراخي عندما بدات اسمع صرير المنشار وهو يفتح جمجمة المرحوم ، وطقطقة الاضلاع وهي تتقصف واحدا بعد الاخر . وكان عليهم اخيرا أن يوصلوني الى البيت وانا في حالة سكر تام . وقد عاقبني ابي بشدة ، بسبب السكر و.. السادية .

في جنازات القرية ، كان النعش يوضع قبالة باب الكنيسة ، ثم يأخذ رجال الدين في الغناء ، بينما يبادر احدهم الى منصة النعش فيرش الماء المبارك ، وينثر بعض الرماد فوق صدر الميت بعد ان يرفع عنه الغطاء لبرهة قصيرة ، (هذا الطقس الاحتفالي انتقل الى المشهد الختامي من فيلم الذرى العاصفة) . ثم يقرع الجرس الكبير الضربات الخاصة بالموت ، وبينما يأخذ الرجال النعش الى المقبرة ، الواقعة على مسافة بضع مئات من الامتار ، نبدأ سماع صرخات الام : « آه يا ابني تركتني وحيدة ، .. لن اراك بعد اليوم » أما أخوات المتوفى ونساء اخريات من العائلة ، واحيانا بعض الجارات أو الصديقات ، فيوحدن نحيبهن مع نحيب الام ليشكلن معا جوقة من النائحات .

كان الموت يخلق احساسا دائما بحضوره ، مشكلا جزءا من الحياة ، تماما كما كان الامر في العصور الوسطى .

وكان الشيء نفسه بالنسبة الى الايمان ، فنحن الذين ترسخت لدينا الكاثوليكية الرومانية بعمق ، لم نكن نملك ان نضع موضع الشك ايا من ثوابتها ، ولو للحظة واحدة ، كان لي عم ، رجل دين ، كان

شخصا رائعا ، وكنا ندعوه بـ « العم القديس » ، كان في الصيف يعلمني اللاتينية والفرنسية ، وكنت اعاونه في تلاوة الصلوات ، كما كنت اشارك في الجوقة الموسيقية (« عذراء الكارمن » . كنا سبعة او ثمانية ، كنت اعزف على آلة الكمان ، وصديق لي على الكونترباس ، بينما كان رئيس الرهبانية في « الكابيبث » يعزف على الفيولونسيل ، وقد قمنا بهذا النشاط حوالي عشرين مرة ، دعينا خلالها الى دير الكرمليت ثم الى دير الدومينيكيين الذي اقيم عند مدخل القرية منذ اواخر القرن التاسع عشر من قبل المدعو « فورتون » احد سكان كالاندا ، الذي كان زوجا لسيدة ارسطوقراطية من عائلة كاسكاخاريس . كانا زوجين تقيين جدا بحيث لم ينقطعا عن الصلاة يوما واحدا . فيما بعد ، ومع بدايات الحرب الاهلية جرى اعدام جميع رهبان ذلك الدير .

كانت في كالاندا كنيستان وسبع رجال دين ، اضافة الى « العم القديس » ، الذي تعرض ذات مرة لحادث مزعج ، حيث وقع في حفرة للصيد ، فطلب الى ابي ان يحل مكانه في متابعة مهامه الادارية .

كان للدين حضور كلي ، يتجلى في كافة تفاصيل الحياة . وعلى سبيل المثال : فقد كان من بين تسلياتي ، أن أتلو الصلاة في عنابر الحبوب مع اخوتي ، وكان لديّ العديد من ثياب الكهنوت الرسمية .

معجزة كالاندا :

كان ايماننا ايمانا اعمى ، على الاقل حتى سن الرابعة عشرة . كنا جميعا نؤمن بالمعجزة الخارقة والشهيرة لكالاندا ، والتي كانت قد وقعت في « عام النعمة » ، عام ١٦٤٠ المعجزة منسوبة الى « عذراء البيلار » التي كان يقال بانها ظهرت للحواري « سانتياغو » في مدينة سرقسطة ، على ذروة احد الاعمدة القائمة هناك منذ أيام الحكم الروماني . و « عذراء البيلار » ، سيدة اسبانيا ، هي احدى العذراوين الاسبانيتين العظيمتين ، والاخرى هي طبعا « عذراء غواد الوپه » ـ سيدة المكسيك ـ ، والتي يبدو لي ، بالمناسبة ، أنها من مرتبة ادنى بكثير .

ما حصل في ذلك العام ، من عام ١٦٤٠ ، هو ان دولاب احدى العربات سحق ساق المدعو « ميغيل خوان بيليثير » من اهالي كالاندا ، وتوجب قطعها . كان « ميغيل » رجلا ورعا جدا ، وكان يذهب يوميا الى الكنيسة ، فيضع اصبعه في زيت مصباح العذراء ثم يدلك بها مكان القطع في ساقه . وذات ليلة نزلت العذراء من السماء مع ملائكتها ، الذين صنعوا له ساقا جديدة .

ومثل كل المعجزات الاخرى – والتي لم تكن كذلك طبعا – ، كانت هذه مدونة في العديد من المراجع الكنسية والطبية لتلك الفترة ، وكانت مادة للكثير من الصور الدينية والايقونات ، وللعديد من الكتب . كم كانت معجزة هائلة ، حتى لتبدو امامها جميع تلك المعجزات المنسوبة الى عذراء الـ « لورد » قليلة الشأن .. رجل ذو ساق ميتة ومدفونة ، .. تعوض ساقه بأخرى سليمة معافاة ! .. بالمناسبة ، فقد اهدى ابي الى الدار الرعوية في كالاندا واحدة من تلك المجموعات النحتية التي تتقدم مواكب « الاسبوع المقدس » وقد احرقها الفوضويون خلال الحرب الاهلية .

يقال في القرية ، حيث لا يشك احد من اهاليها في صحة هذه الحكاية بأن « فيليب الرابع » نفسه ، ذهب يوما لتقبيل الساق التي اعادها الملائكة .

لا اريد لاحد ان يعتقد بانني ابالغ عندما اتحدث عن التنافس ما بين « العذراوات » المختلفات . في سرقسطة ، وفي نفس الفترة ، تحدث احد الكهنة خلال موعظته الدينية عن عذراء الـ « لورو » معترفا بأفضاليا ، الا انه اشار رغم ذلك ، بانها اقل من افضال « عذراء البيلار » ، وتصادف وجود بعض الفرنسيات اللواتي كن يعملن كمدرسات لبعض العائلات المرموقة هناك ، فغضبن من كلمات الكاهن ، وشكونه الى المطران « سولديبيا روميرو » – الذي قتل بعد ذلك بسنوات على ايدي الفوضويين – ، حيث لم يتحملن التقليل من اهمية العذراء الفرنسية الشهيرة .

في المكسيك ، نقلت حكاية معجزة « كالاندا » الى احد رجال الدين الدومينيكيين الفرنسيين الذي ابتسم قائلا لي :

ـ يبدو لي ، يا صديقي ، أنك تتجاوز الحدود قليلا .

الموت والايمان ، حضور وسيطرة . .

كان فرح الحياة ، بالمقابل ، أكثر قوة . فالرغبات ، المطلوبة دائما ، كان مذاقها يطيب أكثر فأكثر كلما عملنا على ارضائها . والعوائق والموانع تزيد من حلاوة المتعة . فعلى الرغم من ايماننا الواضح ، لم يكن هناك شيء بامكانه تهدئة ذلك الفضول الجنسي . ناخذ الصبر ، وتلك الرغبة الدائمة المتسلطة . في الثانية عشرة من عمري ، كنت ما أزال اعتقد بأن الاطفال « ياتون » من باريس ـ ولو بدون البجعة ، فقد يصلون ، وبكل بساطة ، بالقطار او بالسيارة ـ ، الى أن قام زميل لي كان يكبرني بعامين ـ وقد أعدم فيما بعد على أيدي الجمهوريين ـ باطلاعي على السر الكبير . بدأت حينئذ النقاشات والافتراضات وايضاح ما هو مبهم ، والتعرف على ماهو مجهول. . . وبكلمات أخرى،ممارسة اشباع تلك الرغبة المسيطرة للجنس ، بتلك الطريقة التي عرفها جميع فتيان العالم . ان الفضيلة الاسمى ، كما كان يقال لنا ، هي العفة ، التي لا بد منها من أجل حياة كريمة .

ان معارك الغريزة الاشد ضراوة ، ضد العفة ، والتي لم تكن تمر ببساطة ، كانت تكلفنا ثمنا باهظا من الشعور بالذنب ـ كان اليسوعيون يقولون لنا ، على سبيل المثال :

ــ هل تعلمون لماذا لم يجب المسيح على « هيرودس » عندما قام هذا باستجوابه ؟ . . لان هيرودس كان رجلا داعرا ، لدرجة أن مخلصنا شعر ازاءه بنفور بالغ .

لقد تساءلت دائما عن هذا الرعب ازاء الجنس في الكاثوليكية ، ولا شك أن هذا يعود الى أسباب متعددة ، لاهوتية وتاريخية وأخلاقية ، وايضا اجتماعية .

في مجتمع منظم ، قائم على التدرج في المراتب ، يمكن للجنس ، الذي لا يحترم اية موانع او قوانين ، ان يتحول ، في اية لحظة ، الى عنصر فوضى والى خطر حقيقي . ولهذا السبب ، بلا شك ، ابدى القديس توما الاقويني والعديد من الاباء الكنسيين تشددا صارما في تعاملهم مع ذلك الموضوع الدقيق لمسألة الشهوانية .. كان القديس توما يعتقد بأن الممارسة الجنسية بين الزوج والزوجة ، عبارة عن خطيئة مغتفرة . اذ من المستحيل كبح الشهوة . والشهوة تسيء الى الطبيعة . ان الرغبة والمتعة ضروريتان وهذا ما اراده الخالق ، لكن مع استبعاد جميع الصور الشهوانية والافكار الدنسة خلال الفعل الجنسي ، هذا الفعل الذي يجب أن يكرس لمجرد فكرة واحدة فحسب ، هي أن نجلب الى هذا العالم خادما جديدا للرب .

من الواضح ، وهو ما قلته دائما ان هذا المنع الخالي من الرحمة ، والذي يخلق الاحساس بالخطيئة ، يصبح أمرا ممتعا ، وهذا ما حصل بالنسبة إليّ لاعوام عديدة . ولاسباب لم اكن أدركها ، كنت أجد دائما في الفعل الجنسي شيئا من التشابه مع الموت .. علاقة غامضة ، لكنها دائمة . حتى انني حاولت أن انقل هذا الاحساس غير القابل للتفسير ، الى صورة في « كلب اندلسي » ، عندما كان الرجل يداعب ثديي المراة العاريين كان يتخذ فجأة وجه انسان ميت . هل كان هذا ، بسبب انني ، خلال طفولتي وفتوتي كنت ضحية اضطهاد جنسي لم يعرف التاريخ وحشية مماثلة له ؟ . . .

في « كالاندا » ، كان الشباب القادرون على أخذ الاذن اللازم ، يذهبون مرتين في العام الى « ماخور » سرقسطة . في أحد الاعوام ــ عام ١٩١٧ ــ ، تعاقد أحد مقاهي كالاندا خلال اعياد البيلار مع بعض الفتيات للخدمة فيه . وخلال يومين ، تحملت تلك الفتيات ــ اللواتي كنّ يعتبرن فتيات خفيفات حسب اعراف تلك الايام ــ مازاد عن احتمالهن من التحرشات الفظة للزبائن ، الى أن نفذ صبرهن وغادرن القرية . وطبعا فان الزبائن لم يذهبوا الى ابعد من حدود « القرص » والا لما سلموا من التدخل السريع والفعال لرجال الامن .

هذه اللذة الملعونة ، والمشوقة اكثر ، والتي كانت توصف لنا على انها خطيئة مميتة ، تعاملنا معها كثيرا بالخيال ، لعبنا لعبة الاطباء مع الطفلات ، وراقبنا الحيوانات ، احد زملائنا وصل الى حد محاولة استكشاف الاجزاء الحميمة لبغلة ، ولم يترتب على محاولته هذه اكثر من سقوطه عن الكرسي التي صعد عليها لهذه الغاية . ولحسن الحظ ، فقد كنا نجهل مسألة الشذوذ الجنسي .

في الصيف ، وقت القيلولة ، والحر الثقيل ، وطنين الذباب في الازقة الخالية ، كنا نلتقي في دكان لبيع الاقمشة . ووراء الابواب المغلقة والستائر المسدلة كان شاب يعمل في ذلك الدكان يعيرنا بعض المجلات « الجنسية » (الله وحده يعلم كيف وصلت الى هناك) . كنا بالكاد نلمح فيها طرف فخذ أو ثدي . إلا ان ذلك كان كافيا لاثارة رغباتنا وايقاد مسراتنا . اليوم اصبحت تلك المجلات «الممنوعة» لا تتجاوز حدود البراءة «الملائكية كان الفصل التام مابين الرجال والنساء يزيد من احتدام حوافزنا الجنسية . واليوم ، عندما اتذكر اول انفعالاتي الجنسية ، لا استطيع ان اتخلص من استعادة رائحة الاقمشة .

في « سان سيباستيان » عندما كنت في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، كانت كبائن الاستحمام تقدم الينا وسيلة اخرى للمعلومات ، فقد كانت الحواجز الفاصلة مابين الكبائن ، تسمح ، وبكل سهولة ، بالنظر من خلال ثقوبها ، الى السيدات الواتي كنّ يتعرين في الجانب الاخر .

كانت السيدات في تلك الفترة ، يستخدمن دبابيس طويلة لقبعاتهن، وعندما كنّ يكتشفن بأنهن مراقبات ، كن يدخلن الدبابيس في تلك الثقوب دون اية مبالاة بامكانية وخزها للعين المتلصصة . (فيما بعد ، في فيلم « هو » ، تذكرت هذا التفصيل) ، ولكي نتفادى وخز الدبابيس، رحنا نضع قطعا من الزجاج امام الثقوب .

لم تكن نذهب الى كالاندا الاّ في « الاسبوع المقدس » وفي فصل الصيف . كان المنزل الذي بناه والدي قبل فترة قصيرة قد اثار

الفضوليين كثيراً ، وكان يأتي لمشاهدته حتى أهالي القرى المجاورة . كان مؤثثاً ومزخرفاً وفق ذوق تلك الفترة ، ذلك « الذوق السيء » الذي يستعيده اليوم تاريخ الفن ، والذي كان ابرز ممثليه في اسبانيا ، الكاتالاني « غاودي » .

عندما كان يفتح الباب الرئيسي ليدخل او ليخرج احدهم ، كانت تتزاحم مجموعات من الفتية تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والعاشرة ، يقفون على السلالم وهم ينظرون في دهشة الى تلك « الفخامة » في الداخل . كان اكثرهم يحمل على ذراعه اخاً صغيراً او اختاً صغيرة ، دون ان يقوى على أن يمسح عن ذلك الوجه الصغير آثار الاهمال في ماقي العينين وزوايا الفم ، بينما تكون الأمهات في الحقول او في المطبخ يقمن باعداد البطاطا بالفاصولية ، الغذاء الاساسي والدائم لرجال الأرياف .

على مسافة اقل من ثلاثة كيلومترات من القرية ، على ضفاف احد الانهار ، اوصى والدي ببناء منزل ، كنا ندعوه بالبرج . زرع حوله حديقة من الأشجار المثمرة ، تمتد نزولاً حتى اطراف بحيرة صغيرة كان ينتظرنا عندها زورق صغير . وكانت قناة ري صغيرة تقطع الحديقة للمساعدة في العناية بالخضروات والبقول .

كانت العائلة بكاملها — عشرة اشخاص على الاقل — ، تذهب يومياً الى البرج بعربتين مكشوفتين . وكانت تلك « الحمولة » من الاطفال الفرحين تخترق بشكل دائم مجموعات من الاطفال سيئي التغذية ، ذوي الاسمال البالية ، يحملون القفف ليجمعوا فيها روث الحيوانات الذي كان يستخدمه آباؤهم في تسميد الحقول . صور من البؤس ، لكننا كنا نمر بها ، على ما يبدو ، دون اي اكتراث .

كنا كثيراً ما نتناول عشاءنا الفاخر في حديقة البرج ، على الاضواء الخافتة لمصابيح الاسيتيلين ، نعود من ثم في اواخر الليل . . . حياة كسولة ، لا يتهددها شيء ، ترى ، لو كنت مكان احد اولئك الذين كانوا

يروون الارض ويجمعون في قففهم الروث ، كيف كان للذكرياتي أن تكون الآن حول تلك الأيام ؟..

لقد كنا ، بالتأكيد ، آخر ممثلي نظام قديم جداً . ندرة في المبادلات التجارية ، اطاعة تامة لدورات الحياة ، سكون للفكر . كانت معامل الزيت تشكل الصناعة الوحيدة للبلاد . وكانت تصلنا من الخارج الاقمشة والصناعات المعدنية ، والادوية ، أو على الاصح : المواد الاساسية التي يستخدمها الصيدلي في تركيب وصفات الاطباء . وكانت الحرف اليدوية المحلية تغطي الاحتياجات الاكثر إلحاحاً : نعال ، سمكري ، خزاف ، سراج ، بناء ، خباز ، حائك .. وكان الاقتصاد الزراعي يستمر في نهج شبه إقطاعي . فالمالك يعتهد الأرض لأحد المزارعين ، وهذا يتخلى له بدوره عن نصف المحصول .

ما زلت أحتفظ بحوالي عشرين صورة التقطت عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ من قبل أحد أصدقاء العائلة ، وما تزال الصور محتفظة برونقها رغم السنوات الطويلة : أبي ذو مظهر قوي ، بشاربين ابيضين كبيرين ، وقبعة كوبية ، بصورة شبه دائمة ، باستثناء صورة واحدة . امي ، في الرابعة والعشرين ، سمراء ، تبتسم وهي خارجة من الصلاة ، تتلقى التحيات من جميع أعيان القرية . والداي يتخذان وضعية للتصوير مع مظلة واقية من الشمس . أمي على ظهر حمار ــ هذه الصورة كانت تدعى « الهروب الى مصر » ــ . أنا في حقل من الذرة مع أطفال آخرين . نساء متهمكات بالغسيل ، فلاحون يسقون الغنم . اختي « كونتشيتا » صغيرة جداً ، بين ركبتي ابيها الذي يتحدث مع السيد ماكاريو . جدي يطعم كلبه . عصفور في غاية الجمال داخل عشه .

اليوم ، لم يعد في كالانذا فقراء يقفون ايام الجمع عند جدار الكنيسة ليطلبوا قطعة من الخبز . اصبحت القرية ، نسبياً ، مزدهرة ، والناس يعيشون بشكل جيد ، وقد اختفت منذ زمن البزة التقليدية وحزام القماش ومنديل الراس والبنطال ذو النطاق .

أصبحت الشوارع معبدة ومضاءة، وهناك تمديدات للمياه والمجاري، وصالات للسينما وبارات . وكما في باقي أنحاء العالم ، هناك التلفزيون الذي يؤدي مهمته بشكل فعال في عدم التعبير عن المشاهد . هناك سيارات ودراجات نارية وبرادات ، وكل وسائل الرفاهية المعدة بعناية وبطريقة مناسبة لمجتمعنا هذا ، الذي بلغ فيه التقدم العلمي والتقني حد اقصاء الأخلاق والاحساس الانسانيين بعيداً ، وبعيداً جداً .

لقد حالفني الحظ ، اذ أمضيت طفولتي خلال العصور الوسطى ، تلك المرحلة « الأليمة والرائعة » ، أليمة من الناحية المادية ، ورائعة من الناحية الروحية ، على النقيض تماماً مما نحن عليه اليوم .

★ ★ ★

طبـــول كالاندا

هنالك عادة في بعض قرى « آراغون » ، ربما تكون فريدة من نوعها في العالم ، هي طبول الجمعة المقدسة . وهذه الطبول تقرع أيضاً في « آلكانييث » وفي « ايخار » ، لكن ليس بمثل القوة الغامضة ، والتي لا تقاوم ، كما هي الحال في « كالاندا » .

وهذه العادة التي ترجع الى اواخر القرن الثامن عشر ، كانت قد اندثرت حوالي عام ١٩٠٠ ، لكن احد رجال الدين في كالاندا ، وهو الـ « موسين »(*) « فيثينته آيانيفي » أحياها مرة اخرى .

طبول كالاندا تقرع بلا انقطاع - او ما يقرب من ذلك ، بدءاً من منتصف نهار الجمعة المقدسة وحتى نفس الساعة من اليوم التالي ، أحياء لذكرى الظلمات التي سادت الأرض لحظة موت المسيح ، والزلازل والصخور التي تحطمت ، وغطاء الهيكل الذي تمزق من اعلى الى اسفل. إنه احتفال جماعي مؤثر مشحون بانفعال غريب ، أصغيت إليه للمرة الأولى وأنا في المهد ، ابن شهرين . فيما بعد شاركت فيه مرات عديدة ، الى ما قبل سنوات قليلة ، حين دعوت عدداً من الأصدقاء للتعرف على تلك الطبول ، وقد تركت لديهم نفس التأثير الذي تركته لديّ . ففي عام ١٩٨٠ ، خلال آخر زيارة لي لاسبانيا ، جرى ترتيب زيارة الى احدى قلاع العصور الوسطى بالقرب من مدريد - وكانت المفاجأة هناك هي الطبول التي استقدمت خصيصاً من كالاندا . وكان من بين المدعوين أصدقاء أعزاء « خوليو اليخاندرو » و « فيرناندو راي » و « خوسيه

---

* « Mosén » هو لقب للقساوسة في منطقة اراغون (م).

لويس باروس » ، وقد قالوا جميعاً بأنهم شعروا بحالة من التأثر ، دون أن يعرفوا لماذا. بينما اعترف خمسة منهم بأن التأثر بلغ بهم درجة البكاء.

لا ادري ما الذي يثير هذا الانفعال المشابه لما تولده الموسيقا احياناً . لا شك ان سبب ذلك ، نبضات ذات ايقاع خفي ، تصلنا من الخارج ، محدثة لدينا رعشة فيزيولوجية مستقلة كليا عن الادراك .

ابني « خوان – لويس » حقق فيلماً قصيراً « طبول كالاندا » ، وانا استخدمت ذلك الصوت العميق الذي لا ينسى في عدد من الأفلام وخاصة في « العصر الذهبي » و « ناثارين » .

أيام طفولتي ، لم يكن عدد المشاركين يزيد عن مائتين او ثلاثمائة . واليوم اصبح أكثر من ألف ، مع ستمائة او سبعمائة طبل صغير واربعمائة طبل كبير .

حوالي منتصف النهار من يوم الجمعة المقدسة ، يحتشد الناس في ساحة الكنيسة ، والكل ينتظر في صمت ، مع طبله المعلق بحزامه . واذا ما حصل ان تسرّع احد نافذي الصبر بقرع طبله ، بادر المحتشدون جميعاً الى اسكاته .

مع الجرس الأول من الاثني عشر لساعة الكنيسة ، يدوي صوت هائل كقصف الرعد في جميع أرجاء القرية ، كل الطبول تقرع في وقت واحد وبقوة هائلة ، وانفعال لا حدود له ، ينفجر في نشوة غامرة تستولي على الرجال ، وتمضي ساعتان كاملتان على هذه الحال ، الى ان ينبثق من هذا الحشد موكب ينتظم فيه الجميع ويدعى « المنادي » – والمنادي هو الطبل الرسمي – ويأخذ هذا الموكب بمغادرة الساحة الرئيسية ليقوم بجولة في ارجاء القرية . يمشي في الموكب عدد هائل من الناس ، بحيث ان نهاية الموكب تكون ما تزال في الساحة ، لم تغادرها بعد ، حين تصل طلائعه عائدة من الطرف الآخر .

يمشي في الموكب جنود رومانيون يضعون لحى مستعارة ، يطلق عليهم اسم « بوتونتون » ، وهي كلمة يذكر لفظها بإيقاع الطبل ـ ، وضباط وجنرال روماني وشخصية تدعى « لونخينوس » مزودة بدرع من العصور الوسطى ، و « لونخينوس » هو حامي جسد المسيح من مدنسيه . وفي لحظة محددة يبدأ هذا صراعه مع الجنرال الروماني ، وتشكل الطبول حلقة حول المتصارعين . يدور الجنرال الروماني حول نفسه نصف دورة اشارة الى انه قد مات ، حينئذ يبادر « لونخينوس » الى تغطيته اشارة الى دفنه . اما المسيح فيتمثل بصورة راقدة داخل نعش زجاجي .

طوال فترة الموكب ، يغنى النص الخاص « بآلام المسيح » ، والذي يتردد فيه مرات عديدة ، تعبير « اليهود الغدارون » ، هذا التعبير الذي الغاه يوحنا الثالث والعشرون . حوالي الساعة الخامسة يكون كل شيء قد اكتمل ، وترين لحظة صمت ، ليستانف من ثم قرع الطبول ، الذي يستمر حتى ظهيرة اليوم التالي دون اي توقف .

كانت اصوات الطبول تنتظم في خمسة او ستة ايقاعات مختلفة ، لم انسها حتى اليوم . وعندما كانت تلتقي في احدى الزوايا مجموعتان تقرع كل منهما ايقاعا مختلفا عن الاخرى ، كانتا تقفان وجها لوجه ، وينشب بينهما صراع حقيقي بالايقاعات . يستمر ساعة أو اكثر وتضطر المجموعة الاضعف في النهاية ، لاتخاذ ايقاع المجموعة الاخرى .

الطبول ، هذه الظاهرة المدهشة ، التي تستحوذ على اللاشعور الجماعي ، تجعل الارض تهتز تحت اقدامنا ، كان يكفي وضع اليد على جدار أي منزل ، للاحساس بارتعاشه ، وكانت الطبيعة تتابع ايقاع الطبول الذي يتواصل طوال الليل . وعندما كان احدهم ينام بسبب هدهدة دوي الطبول ، كان سرعان مايستيقظ مذعوراً لوغادرته الاصوات، مبتعدة قليلا عنه .

عند الفجر ، تكون اغشية الطبول قد تلطخت بالدم ، حيث كانت الأيدي تدمى من مواصلة القرع ، رغم انها ايدي الفلاحين الخشنة . وفي

الصباح ، وخلال قيام البعض باحياء ذكرى الصعود الى «جبل الجلجلة». بالصعود الى رابية قريبة من القرية ، يستمر آخرون في قرع الطبول ، الى أن تحين الساعة السابعة ، حيث يلتقي الجميع في الموكب المسمى « موكب الدفن » .

... ومع الجرس الأول من الاثني عشر ، تصمت كافة الطبول . حتى العام التالي . لكن ، وبالرغم من العودة الى الحياة اليومية المعتادة، فان بعض أهالي كالاندا كان يستمر في الحديث الذي يتدفق متابعاً ايقاعات الطبول النائمة .

★ ★ ★

ســرقســطة

كان والد أبي « مزارعا غنيا » اي انه كان يملك ثلاث بغلات . انجب ولدين ، أحدهما اصبح صيدليا ، والآخر ـ والدي ـ غادر كالاندا مع أربعة زملاء له لاداء الخدمة العسكرية في كوبا التي كانت ماتزال تحت الاحتلال الاسباني . وحيث انه كان يتمتع بخط جميل فقد الحقوه بالعمل في المكاتب ، بينما مات جميع زملائه بالملاريا .

عندما انهى والدي خدمته العسكرية ، قرر البقاء هناك ، والتحق بالعمل كموظف في احدى الشركات ، ومن ثم اسس محلا خاصا به لبيع الـ « عدة » والاسلحة والاسفنج .. ومواد اخرى متنوعة . كان احد ماسحي الاحذية يزوره كل صباح واصبح صديقا له ، وكذلك كان امر احد العمال المستخدمين لديه ، فأوكل اليهما والدي القيام بالعمل كشريكين وعاد الى اسبانيا مع بعض « ما كان فيه النصيب » ، قبل فترة قصيرة من استقلال كوبا ، (هذا الاستقلال الذي استقبل في اسبانيا دون أي اكتراث ، فقد ذهب الناس في ذلك اليوم ، كالمعتاد ، الى ميادين مصارعة الثيران ، وكما لو انه لم يكن يحدث شيء على الاطلاق) .

لدى عودته الى « كالاندا » ، في الثالثة والاربعين من عمره ، تزوج من فتاة في الثامنة عشرة ، امي ، واشترى ارضا كثيرة ، كما اوصى ببناء البيت والبرج .

كنت انا الولد البكر ، وقد حملت بي امي خلال زيارة الى باريس ، في فندق « رونسري » قرب « ريشيليو ـ درووو » . كان لي اربع اخوات واخوان . الاكبر من بين أخوي « ليوناردو » كان اخصائيا في الطب

الشعاعي وعاش في سرقسطة وتوفي عام ١٩٨٠ ، اما « الفونسو » الاخر ، والذي يصغرني بخمسة عشر عاما فقد كان مهندسا وتوفي عام ١٩٦١ ، عندما كنت أصور « فريديانا » . اختي « اليسيا » ماتت عام ١٩٧٧ . وبقينا اربعة ، اخواتي الاخريات : « كونتشيتا » و « مارغريتا » و « ماريا » مازلن على قيد الحياة .

منذ الايبريين والرومان ـ وكالاندا قرية رومانية ـ وحتى القوطيين الغربيين والعرب ، توالت الغزوات على الارض الاسبانية ، حتى تشكل مزيج متنوع من الدماء . في القرن الخامس عشر لم يكن في كالاندا سوى عائلة واحدة من المسيحيين القدامى ، اما باقي العائلات الاخرى ، فقد كانت من مسلمي الاندلس . في العائلة الواحدة يمكن لن تتواجد اشكال متباينة جدا ، وعلى سبيل المثال ، فاختي « كونتشيتا » تبدو كاحدى الاسكندنافيات الجميلات ، بينما اختي « ماريا » ، وعلى النقيض من ذلك فهي تبدو وكأنها قد افلتت من احد قصور الحريم .

عندما عاد والدي من كوبا ، بقي شريكاه في الجزيرة . وفي عام ١٩١٢ ، مع اقتراب الحرب في اوروبا ، قرر العودة الى كوبا . واتذكر الصلوات التي اقمناها في العائلة طوال الليالي ، « لان امام الوالد سفرة طيبة » . رفض شريكاه عودته الى العمل معهما فرجع الى اسبانيا وهو في غاية التألم . وقد ربح شريكاه ، بفضل الحرب ، ملايين الدولارات . بعد عدة سنوات ، كان احدهما يتنزه في الـ « كاستيانا » بمدريد في سيارة مكشوفة ، والتقى مصادفة بأبي ، لكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة ولا حتى التحية .

كان طول ابي مترا واربعة وسبعين ، وكان ذا بنية متينة ، وعينين خضراوين . كان رجلا صارما ، لكنه طيب جدا ، وسريع التسامح .

في عام ١٩٠٠ ، وبعد مضي اربعة أشهر على ميلادي ، قرر ابي ، بعد أن بدأ يمل الحياة في «كالاندا» أن ينتقل مع عائلته الى سرقسطة .

وهناك حل والدي في منزل هائل ، يشغل طابقا كاملا في مبنى ذي طابع بورجوازي ، كان في السابق مقرا لقيادة عسكرية ، له لا اقل من عشر شرفات . وباستثناء فترات العطل التي كنا نقضيها في « كالاندا » ومن ثم في « سان سيباستيان » فقد عشت في ذلك المنزل حتى عام ١٩١٧ ، حين حصلت على شهادة الدراسة الثانوية ، وانتقلت الى مدريد .

كانت مدينة سرقسطة القديمة ، قد تهدمت بصورة شبه كاملة ، خلال الحصارين اللذين تعرضت لهما من قبل قوات نابليون . وسرقسطة عاصمة اقليم « اراغون » كانت عام ١٩٠٠ بسكانها الذين يبلغون المائة الف ، مدينة هادئة ومنظمة . وعلى الرغم من وجود مصنع عربات السكة الحديدية فيها ، فلم يكن قد حدث فيها أي اضطراب عمالي ، في حين اطلق عليها الفوضويون ذات يوم اسم « لؤلؤة الحركة النقابية » . أما اول الاضرابات والمظاهرات التي عرفتها اسبانيا فقد حدث في برشلونة عام ١٩٠٩ ، نتيجة لاعدام الفوضوي « فيرير » (وله تمثال في بروكسل لسبب لا أعرفه) . اما سرقسطة فقد لحقت بها بعد فترة قصيرة ، وبخاصة ، عام ١٩١٧ ، حين جرى أول اضراب اشتراكي كبير في اسبانيا

كانت مدينة هادئة وبسيطة ، تخترقها عربات الخيل ، مع اولى عربات الترام . كانت الشوارع معبدة ، باستثناء ارصفتها التي كانت تتحول أيام الامطار الى مسالك موحلة . اعداد كبيرة من الاجراس في جميع الكنائس . وفي يوم « الاموات » كانت كافة هذه الاجراس تستمر في القرع بدءا من الساعة الثامنة مساء وحتى الثامنة صباح اليوم التالي « امرأة بائسة يغمى عليها وتموت بعد ان دهستها احدى السيارات » هذا النوع من الاخبار كان يظهر في الصحف بعناوين كبيرة .

كان العالم يبدو شاسعا مترامي الاطراف . الى ان اشتعلت حرب عام ١٩١٤ . كان يهزه العديد من الاحداث التي لم نكن نتأثر بها بل وقلما تثير اهتمامنا ، حتى انها لم تكن تصل الينا الا بعد ان تكون قد مرت وانقضت . فمثلا : فقد علمت انا بالحرب الروسية اليابانية التي

وقعت عام ١٩٠٥ من خلال اغلفة الشوكولاته ، حيث كان لدي - حتى معظم الاطفال الذين في مثل سني ، العديد من الالبومات التي تفوح منه رائحة الشوكولاته كذلك لم اكن قد شاهدت طوال الاعوام الثلاثة عشر او الاربعة عشر الاولى من حياتي اي زنجي او آسيوي . كانت مشاعر الكراهية لدينا ـ كاطفال ـ تتركز ازاء « البروتستانت » بسبب التحريض الذي كان يمارسه اليسوعيون ، وقد بلغ بنا الامر في احدى المناسبات ، وخلال اعياد البيلار ، الى ان قمنا برجم احد سيئي الحظ لانه كان يبيع نسخا من الكتاب المقدس بسنتيمات قليلة . اما المعاداة للسامية ، هذا النوع من العنصرية ، فلم اكتشفه الا بعد ذلك بكثير - وفي فرنسا . كانت صلوات الاسبان ورواياتهم عن آلام المسيح حافلة بالشتائم الموجهة لليهود الذين اضطهدوا المسيح ، الا ان هذا الموقف من اولئك اليهود القدامى لم يكن ينسحب على اليهود الحاليين .

كانت الشخصية الاكثر غنى في سرقسطة انذاك هي السيدة « كوفاروبياس » وكان يقال بأنها تملك ما قيمته ستة ملايين بيزيتا (وللمقارنة فان ثروة الكونت دي روما نونيس ، الرجل الذي كان الاكثر غنى في اسبانيا ، كانت تبلغ مائة مليون بيزيتا ؛ اما ابي فكان يحتل في المدينة المرتبة الثالثة او الرابعة . في وقت من الاوقات ، كان « المصرف الاسباني الامريكي » يعاني من بعض الصعوبات المالية ، فوضع ابي امواله تحت تصرفه ، مما كان كافيا ، وفق مايروى ؛ لان يتفادى المصرف الافلاس .

سأتكلم عن ابي بصراحة ، فهو لم يكن يعمل شيئا . يستيقظ ، يغتسل ، يتناول الفطور ، يقرأ الصحف اليومية ، هذه العادة التي حافظت انا عليها . بعد ذلك كان يذهب ليتفقد ما اذا كانت علب سيجاره قد وصلت من هافانا ، وهو احتياط كان يتخذه دائما . في بعض الاحيان يقوم بشراء النبيذ والكافيار ، ثم يجلس لتناول بعض المقبلات . كانت علبة الكافيار ، الصغيرة الملفوفة بعناية ، والمربوطة بشريط انيق هي الحد الاقصى لما يمكن ان يحمله بنفسه وهذا ما كانت تقضي بالتقاليد

الاجتماعية ، اذ لم يكن من الجائز لرجل في مثل مستواه ان يمشي محملا بحاجياته ، فهذا من مهمات الخدم . وكذلك كان الامر ايضا عندما اذهب الى منزل مدرس الموسيقا ، اذ كانت الخادمة التي ترافقني هي التي تحمل صندوق الكمان . في فترة ما بعد الظهر ، بعد الغداء ، والقيلولة التي لا غنى عنها ، يبدل أبي ثيابه ويذهب الى النادي ليلعب البريدج والتريسيو مع أصدقائه ، بانتظار وقت طعام العشاء .

في المساء ، كان والداي يذهبان احيانا الى المسرح . كان في سرقسطة انذاك اربعة مسارح : المسرح « الرئيسي » الذي مايزال قائما ، وهو مسرح جميل جدا ذو زخارف كثيرة ، وكان لوالدي فيه مقصورة محجوزة بصورة دائمة . كانت تقدم فيه بعض أعمال الاوبرا أو اعمال مسرحية لفرق جوالة أو امسيات موسيقية . وعلى شاكلته تقريبا كان مسرح « بيغناتيي » الذي لم يعد قائما اليوم ، ثم الـ « باررزيانا » الذي كان مسرحا خفيفا متخصصا بتقديم اعمال الـ « اوبريت » . واخيرا كان هناك السيرك الذي تقدم فيه ايضا بعض الاعمال الكوميدية ، وكانا يصطحبانني اليه كثيرا .

احدى افضل ذكرياتي هي تلك الاوبريت ذات الاستعراضات الجميلة ، المستوحاة من « أبناء الكابيتان غرانت » لـ « جول فيرن » ، والتي اتيح لي أن اشاهدها خمس او ست مرات ، دون أن أفقد تأثري الخاص بمشهد سقوط الزعيم العظيم فوق خشبة المسرح .

أما احد أهم الاحداث في حياة سرقسطة ، فكان استعراض الطيار الفرنسي « فيدريه » فللمرة الاولى ، ذهبنا لمشاهدة رجل يطير ، كل المدينة ذهبت الى ذلك المكان الذي يدعى « بوينا فيستا » الذي يحتل سفحا كاملا لاحدى الروابي . ومن هناك شاهدنا كيف كان جهاز « فيدرين » يرتفع الى حوالي عشرين مترا عن سطح الارض وسط تصفيق المشاهدين . لكن الامر بالنسبة الي لم يكن مثيرا الى درجة كافية ، اذ رحت اصطاد السحالي واقطع اذنابها التي كانت تستمر بالتلوي بين الاحجار .

كان لدي ، ومنذ أن كنت فتى صغيرا ، ميل كبير للاسلحة النارية . لم أكن قد بلغت بعد الرابعة عشرة حين كنت احمل مسدسا صغيرا من نوع « براونينغ » - وطبعا بصورة غير قانونية . ذات يوم ، ارتابت امي بالامر ، وطلبت الي ان أرفع ذراعي الى الاعلى ، اقتربت مني وتحسست جسمي ، ولما تلمست المسدس ، انطلقت هاربا بسرعة ، وهبطت السلم الى قبو المنزل واخفيت المسدس في صندوق القمامة ، لاستعيده فيما بعد .

في يوم آخر ، كنت جالسا مع صديق لي على احد المقاعد العامة ، حين ظهر اثنان من الصعاليك ، جاءا وجلسا على نفس المقعد ، واخذا يدفعاننا شيئا فشيئا الى ان وقع صديقي على الارض . حينئذ وقفت اهددهما بانني سأعرف كيف أؤدبهما فاستل احدهما « بلديريا »*، كانت ماتزال مدماة (كان يمكن الحصول عليها آنذاك لدى مغادرة حفلات مصارعة الثيران) ، وهددني بها . اخرجت مسدسي وسددته اليهما وسط الشارع فهدآ في الحال . لكنني ، عندما هما بالانصراف بادرت اليهما طالبا المعذرة ، اذ سرعان ما يزول غضبي .

كنت احيانا آخذ مسدس ابي الكبير واذهب الى الحقل لممارسة الرماية . كنت أطلب من صديق لي يدعى « بيلايو » أن يقف باسطا ذراعيه الى الجانبين بصورة افقية ، فأضع فوق كل من راحتيه تفاحة أو صفيحة صغيرة . وكل ما اتذكره الآن هو انني لم اصب مرة واحدة لا التفاحة ولا يده .

وحكاية أخرى من تلك الفترة ، .. فقد أهديت والدي طاقم صحون من المانيا (مازلت حتى الآن أتذكر ذلك الصندوق الهائل الذي جاء فيه هذا الطاقم) ، وكانت كل قطعة منه تحمل صورة امي . فيما بعد ، وخلال الحرب ، تكسرت كافة قطع الطاقم او فقدت ، وبعد الحرب بعدة سنوات، عثرت أخت زوجتي ، بطريق المصادفة ، على صحن من الطاقم ، في احد

* « Banderilla » نوع من الحراب يستخدم في مصارعة الثيران . (م)

محلات بيع الأشياء القديمة في سرقسطة ، فاشترته واهدتني اياه ، ومازلت احتفظ بـه .

لدى اليسوعيين

كانت بداية دراستي ، لدى « القلبيين » ، وهم فرنسيون في غالبيتهم ، ويكن لهم « المجتمع الراقي » تقديرا اكبر مما يكنه للعازاريين . وهم الذين علموني القراءة ، بما في ذلك القراءة باللغة الفرنسية .

في العام التالي ، انتقلت للدراسة لدى « اليسوعيين » في مدرسة المخلص ، وبقيت فيها سبعة اعوام .

مبنى المدرسة الهائل ، هدم فيما بعد ، وأقيم مكانه اليوم ، كما هي الحال في كل مكان ، ما يدعى بالمركز التجاري . في كل صباح من تلك السنوات السبع ، كانت عربة خيل ـ مازالت طقطقة زجاجها الذي لم يحكم تركيبه تضج في أذني ـ ، تاتي لتنقلني من البيت الى المدرسة ، مع اطفال آخرين . وكانت العربة نفسها تعود بي الى البيت في المساء ، اذ لم يكن لي الخيار في العودة سيرا على الاقدام ، وهو ما لم يكن يستغرق اكثر من خمس دقائق .

كان يومنا يبدأ في السابعة والنصف ، بالصلاة . كان التلاميذ الداخليون يرتدون الزي الموحد ، اما نحن (نصف الداخليين) فكان ما يميزنا هو القبعة الموشاة بشريط من الحرير .

اكثر ما اتذكره ، هو البرد الذي كان يشق أطرافنا ، والشالات الكبيرة التي كنا نتلفع بها . لم تكن هنا اية تدفئة ، وما كان يزيد الامر سوءا هو تلك التدابير المتخلفة التي كانت تمارس علينا لدى اية هفوة بسيطة ، اذ كان يطلب الى التلميذ في هذه الحالة ان يركع على ركبتيه وراء المقعد او في منتصف الغرفة وذراعاه ممدودتان الى الجانبين بصورة افقية

وفي كل يد كتاب ، كان المراقب يجلس فوق منصة عالية جدا يراقب من فوقها كامل القاعة ، بمنتهى البساطة .

كنا موضوعين تحت الرقابة الصارمة لحظة فلحظة ، وعلى سبيل المثال ، عندما كان أحد التلاميذ يذهب الى المغاسل ، لم يكن يسمح لتلميذ آخر بالذهاب في نفس الوقت ، وكان المراقب يتابع التلميذ بنظره حتى الباب ، ولدى خروجه الى الممر كان التلميذ يجد نفسه مجددا تحت رقابة رجل دين آخر ، يتابعه حتى وصوله الى نهاية الممر . وعند دخوله باب المغاسل ، كان ينتظره رجل ثالث .. كان يصار الى عمل كل ما من شأنه تفادي الاتصال فيما بين التلاميذ ..

رقابة مستمرة ، صمت خلال الدراسة ، وفي قاعة الطعام ، وفي المصلى . وفق هذه المبادىء الاساسية من المعاملة الصارمة ، سار تعليمنا الذي احتل فيه الدين بطبيعة الحال ، مكانا بارزا . دروس أصول الدين ، وحياة القديسين ، وكانت اللاتينية بالنسبة الينا امرا مستحبا . أما دراسة العلوم فلم تكن تتجاوز مجرد الاشارات الى بعض الخلاصات النظرية .

اتذكر ايضا دروس الفلسفة ، التي كان الاستاذ يشرح لنا فيها ، بابتسامة مشفقة نظرية المسكين « كانت » مثلا ، الذي أخطأ بكل أسف في تعليلاته الميتافيزيقية ، وكنا ندون ملاحظات سريعة . في الدرس التالي ، كان الاستاذ ينادي أحد التلاميذ ويقول له : « مانتيكون ادحض لي كانت » . واذا كان « مانتيكون » قد فهم الدرس جيدا ، فان مسألة هذا الدحض لا تستغرق أكثر من دقيقتين .

منذ الرابعة عشرة ، بدأت تساورني الشكوك حول التعليم الذي كان قد حاصرنا بكثير من الاحكام . كانت تلك الشكوك تتصل بمسألة وجود الجحيم ، وبخاصة حول المحاسبة النهائية . كان هناك مشهد يبدو لي غير قابل للتصور ، اذ لم يكن بامكاني أن أتصور كل الذين ماتوا واللواتي متن في كل العصور ، وفي كل البلدان ، وهم ينهضون فجأة من

تحت الارض ، كما في لوحات المصور الوسطى . كان ذلك يبدو لي مستحيلا وغير معقول ، كنت اسأل نفسي أين يمكن أن تجتمع تلك الآلاف من ملايين الاجساد .. ثم ، اذا كانت هناك محاكمة نهائية ، فماذا تفيد هذه المحاكمة الشخصية التي تلي موت الفرد ، والتي هي ، من حيث المبدأ ، نهائية ، وغير قابلة للطعن ؟..

من المؤكد ان في ايامنا هذه ، كثيرون من الذين لا يعتقدون لا بالجحيم ولا بالشيطان ولا بالمحاكمة النهائية . كما انني على ثقة من أن شكوكي القديمة هذه لا تصلح لاكثر من مادة بسيطة لتسليتهم .

على الرغم من طبيعة ذلك النظام ، مع الصمت والبرد .. فانني احتفظ بذكرى طيبة من مدرسة المخلص . لقد كنت طالبا جيدا ، غير ان تصرفاتي كانت من أسوأ التصرفات في المدرسة . خلال العام الدراسي الاخير ، امضيت معظم فترات الاستراحة واقفا على قدمي معاقبا في احدى زوايا البهو . وذات يوم ارتكبت عملا شائنا للغاية .

كنت في الثالثة عشرة ، وكان اليوم هو « الثلاثاء المقدس » ، وكنت سأذهب في اليوم التالي الى « كالاندا » لاقرع الطبل بكل قواي . أولى ساعات النهار ، وقبل الصلاة بنصف ساعة ، وعلى طريق المدرسة،التقيت باثنين من الاصدقاء . كان مقابل المدرسة ميدان لسباق الدراجات وحانة من الدرجة الدنيا . اقترح الصديقان الحميمان السيئان الدخول الى الحانة وشراء زجاجة كحول من النوع الرخيص الذي كان يسمى « قاتل الفئران » . خرجنا من الحانة وذهبنا لنشرب بالقرب من قناة صغيرة . شربت بنهم ، أما هما فلم يفعلا اكثر من أنهما كان يبلان شفاههما .. قبل أن تكون رائحة الفئران قد فارقتنا بعد .

أوصلني هذان الصديقان العزيزان الى المصلى ، وهناك جثوت مباشرة . خلال الدقائق الاولى من الصلاة بقيت راكعا وعيناي مغمضتان ، مثل الآخرين . ثم جاءت قراءة الانجيل ، وهنا كان علي أن انهض على

قدمي ، بذلت كل ما أوتيت من قوة ؛ ووقفت . حينئذ ، وبصورة مفاجئة، أحسست أن كل ما في معدتي قد انقلب ، ثم .. أخذ يتسال على بلاط المصلى .

في ذلك اليوم ــ وهو الذي تعرفت فيه على صديقي مانتيكون ــ ، اوصلوني الى المستوصف ثم .. الى البيت ، وكدت أن أطرد من المدرسة، أما والدي الذي أغضبه ذلك كثيرا ، فقد فكر بإلغاء السفر الى كالاندا ، الا انه تراجع فيما بعد عن رأيه . وبالتأكيد كان ذلك بسبب طيبته .

في الخامسة عشرة ، عندما ذهبنا لامتحان الدراسة المتوسطة ، ركلني مشرف الامتحانات بطريقة مهينة ودعاني بالمهرج ، ولست اذكر لماذا فعل هذا بالضبط . وفي المساء قلت لوالدي بانهم طردوني من مدرسة اليسوعيين . ذهبت أمي للقاء المدير ، الذي أبدى استعدادا لاعادتي ، حيث كنت قد حصلت على درجة شرف في مادة التاريخ العالمي . لكني رفضت العودة الى المدرسة . عندئذ ادخلوني احد المعاهد حيث درست مدة عامين وانهيت الدراسة الثانوية .

خلال هذين العامين الاخيرين ، جعلني احد طلاب الحقوق اتعرف على مجموعة من المصادر زهيدة الثمن ، لمواضيع في الفلسفة والتاريخ والادب، مما لم يكن يجري فيه الحديث في مدرسة « المخلص » . واخذ مجال مطالعاتي يتسع بشكل محسوس ، واكتشفت « سبنسر » و « روسو » وحتى « ماركس » ، أما قراءتي لـ « أصل الكون » لـ « داروين » فقد بهرتني واكملت فقداني للايمان .

في ذلك الوقت ، ومنذ أن بدأت الحرب الاوروبية ، تبدل كل شيء ، وتجزأ وانقسم كل شيء من حولنا ، فخلال تلك الحرب انقسمت اسبانيا الى اتجاهين غير قابلين للتفاهم ، بحيث انهما اقتتلا بعد ذلك بعشرين عاما . كل اليمين ، كل العناصر المحافظة في البلد ، أعلنت ايمانها بالحضارة الالمانية ، وكل اليسار ، والذين يعتبرون متحررين وعصريين ، تكاتفوا مع

فرنسا والحلفاء ، وعذا ما انهى الهدوء الريفي ، والايقاع البطي والرتيب، وذلك الترتيب الاجتماعي الـذي لا يناقش ... وادى .. الى انقضاء القرن التاسع عشـر .

.. كنت آنذاك في السابعة عشرة .

السينما الاولى

عام ١٩٠٨ ، وكنت ما ازال طفلا ، اكتشفت السينما . كان المكان يدعى « فارولينى » . من الخارج ، فوق الواجهة ذات البابين ، أحدهما للدخول والآخر للخروج ، كانت هناك خمسة نماذج لارغن صغير ولآلات موسيقية اخرى لاثارة الانتباه . ومن الداخل كانت البراكة المغطاة بالخيش مجهزة بمقاعد خشبية لجلوس الجمهور . كانت الخادمة المكلفة بالعناية بي ترافقني الى هناك باستمرار ، كانت ترافقني الى كل مكان ، حتى الى بيت صديقي « بيلايو » الذي كان يسكن مقابل منزلنا على الجانب الآخر من الشارع .

كان اول الافلام التي شاهدتها وملأتني اعجابا هو فيلم رسوم متحركة لخنزير يتلفع بشال ذي ألوان ثلاثة ، ويغني . اما الصوت فكان يأتي من جهاز « حاكي » وضع وراء الشاشة . وكان الفيلم بالالوان ، اتذكر هذا تماما ، مما يعني بانهم قد قاموا بتلوينة صورة فصورة .

في تلك الايام ، لم تكن السينما اكثر من لعبة جذابة ، واكتشاف تقني بسيط . وباستثناء القطار والترام اللذين كانا قد دخلا حياة الناس ، لم يكن في «سرقسطة» اي شيء مما يدعى بالتقنيات الحديثة قد دخل بصورة فعلية حيز الاستخدام . واعتقد انه لم تكن في عام ١٩٠٨ في كل انحاء المدينة سوى سيارة واحدة ، وتعمل بالكهرباء . اما السينما فكانت تعني ان غزوا لوافد جديد جاء يداهم عالمنا ذاك ، عالم العصور الوسطى .

في السنوات التالية، افتتحت في «سرقسطة» صالات سينمائية ثابتة ،

بمقاعد خشبية مشتركة او منفردة ، حسب السعر ، وفي عام ١٩١٤ كانت هناك ثلاث صالات جيدة : « صالون دوريه » و « كونيبه » ــ وهو اسم لمصور معروف ــ و « اينا فيكتوريا » . كذلك كانت هناك صالة اخرى في شارع « لوس ايستيبانيس » لم أعد أذكر ماذا كانت تدعى . في ذلك الشارع كانت تسكن ابنة عم لي ، وكنا نشاهد الافلام من نافذة المطبخ . فيما بعد سدوا النافذة وفتحوا طاقة صغيرة في أعلى الجدار ، الا اننا فتحنا ثقبا صغيرا في حائط المطبخ وأمكننا من خلاله ، وبالتناوب ، ان نشاهد تلك الصور الصامتة التي كانت تتحرك هناك في الاسفل .

لم اعد اذكر شيئا تقريبا عن تلك الافلام التي شاهدتها في تلك الفترة، وكثيرا ما تلتبس لدي مع افلام أخرى شاهدتها فيما بعد في مدريد. لكنني اتذكر ممثلا كوميديا فرنسيا كان يقع على الارض باستمرار ، وكان يدعى في اسبانيا « توريبيو » ، ــ ترى هل كان هو « اوتيسيمبه » ؟ . كانوا يعرضون ايضا افلام « ماكس ليندر » و « ميلييس » . اما الافلام الامريكية الاولى فقد وصلت فيما بعد على شكل اشرطة كوميدية حافلة بالمطاردات . اتذكر ايضا الميلودرامات الايطالية الرومانسية التي كانت تستدر البكاء، وماتزال تتراءى لي « فرانشيسكا برتيني » النجمة الايطالية الكبيرة . « غريتا غاربو » عصرها ، تبكي وهي تداعب ستائر النافذة .

« الكونت هوغو » و « لوسيلالوف » كانا كوميديين امريكيين من بين الاكثر شعبية في تلك الفترة ، بسبب افلامهما المسلسلة المليئة بالمغامرات.

في صالات السينما « بسرقسطة » كان هناك بالاضافة الى عازف البيانو التقليدي رجل يقف الى جانب الشاشة ، يعلق على المشاهد . وعلى سبيل المثال :

« اذن ، الكونت هوغو ، راى زوجته بين ذراعي رجل آخر . والآن سيداتي وسادتي ستشاهدون « الكونت » وهو يتناول من درج مكتبه مسدسا لقتل الخائنة » .

كانت السينما عبارة عن شكل قصصي جديد وغير معتاد ، بحيث ان الكثرة الغالبة من الجمهور كان يستغلق عليها ما تراه على الشاشة ، ويتعذر عليها أن تبني علاقة فيمـا بين الاحداث . لم نعمد الى تعويد انفسنا على تفهم طبيعة اللغة السينمائية ، والمونتاج ، والاحداث المتوازية او المتتابعة . . الخ . . وبقي من الصعب على جمهور تلك الفترة فك رموز هذه اللغة الجديدة ، وكان من الضروري أن يتواجد ذلك « المعلق » .

بالمناسبة ، لا يمكن لي أن أنسى إطلاقاً ، مقدار ما أثر بي ، وبكافة الموجودين في الصالة ، أولاً « ترافيلينغ »(*) شاهدته على الشاشة . وجه يتقدم باتجاهنا ، وهو يكبر شيئاً فشيئاً ، كما لو انه يود ابتلاعنا . كان لا يمكن لنا أن نتصور ، ولو للحظة واحدة ، بأن آلة التصوير هي التي كانت تقترب من الوجه ، او انها عملية تكبير للحجم عن طريق حيلة سينمائية ، كما في أفلام « ميلييس » . لقد كان ما رأيناه هو فقط ذلك الوجه الذي يتقدم باتجاهنا ، من فوق ، وهو يتعاظم في حجمه بصورة هائلة : تماماً كالقديس توما .

اظن ان امي بدأت بالذهاب الى السينما في وقت لاحق . لكنني واثق تماماً من أن أبي ، الذي توفي عام ١٩٢٣ ، لم يشاهد فيلماً واحداً طيلة حياته . ومع ذلك فقـد ذهب إليه ، مـرة ، صديق له كان يعيش في « بالمادي مايوركا » عارضا عليه تمويل شبكة « براكات » سينمائية في معظم مدن اسبانيا ، لكن أبي رفض بدعوى ان السينما لا تبدو له اكثر من لعبة مشعوذين ، ولا توحي له إلا بمنتهى الازدراء .

لو كان قد قبل عرض صديقه ، لكنت اليوم أهم الموزعين الاسبان .

لقد اعتبرت السينما ، خلال الاعوام العشرين او الثلاثين الأولى من عمرها ، مجرد تسلية شعبية ، بل وسوقية الى حد ما ، يرتادها الغوغاء ، وليس لها من مستقبل فني ، وبالتالي لم تكن تثير اهتمام أي ناقد .

---

* « Traveling » اصطلاح من اللغة الانكليزية لاحد اشكال التحرك بالكاميرا خلال التصوير السينمائي . (م)

في عام ١٩٢٨ او ١٩٢٩ ، عندما علمت امي بنيتي القيام بتحقيق أول أفلامي ، أصابتها حالة من الأسى ، بل وكادت تبكي . كما لو كنت قد قلت لها : « ماما ، أريد ان أصبح مهرجا » . كان من الضروري ان او أوسط في الموضوع كاتباً بالعدل ، كان صديقاً للعائلة . اوكلت إليه ان يوضح لها ، وبكثير من الجدية . أنه بالامكان ، عن طريق السينما ، تحقيق ارباح مالية جيدة ، بل وحتى بالامكان انتاج اعمال هامة ، كتلك الأفلام الكبيرة التي يجري انتاجها في ايطاليا حول المواضيع التاريخية . وقد اقتنعت امي ، إلا أنها لم تذهب على الاطلاق لمشاهدة ذلك الفيلم الذي قامت هي نفسها بتمويله .

★ ★ ★

ذكريات كونتشيتا

قبل عشرين عاماً كتبت أختي « كونتشيتا » للمجلة الفرنسية « بوزيتيف » بعض ذكرياتها . وهذا ما قالته حول طفولتنا :

كنا سبعة اخوة . لويس ، الأكبر ، وتليه ثلاث بنات ، كنت من بينهن الثالثة والأكثر غباءً . وقد ولد لويس في كالاندا بالمصادفة المحضة، إلا انه نشا وتعلم في سرقسطة .

وحيث انه كثيراً ما يتهمني بانني اعود في رواياتي الى فترة ما قبل الولادة ، اود ان احدد بان ذكرياتي الاكثر بعداً هي التي كنت معها في الخامسة من العمر .

كان لويس يذهب الى مدرسة اليسوعيين ، ومنذ اللحظة الاولى كانت بينه وبين أمي بعض المناوشات الصغيرة ، لانه حاول الذهاب بدون قبعة اللباس الموحد . وعلى الرغم من انها كانت قليلة الحزم مع ابنها المفضل لديها ، إلا انها ، كانت ، في هذه المسألة تحديداً ، ولا اعرف لماذا ، تبدي منتهى الحزم .

عندما كان لويس في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، طلبت امي ذات مرة من احدى البنات ان تتبعه ، وتراقب ما اذا كان سيفي بوعده بأن لا يخفي القبعة تحت سترته . والذي حصل هو انه اخفاها .

كان لويس يحصل على أفضل تقدير في المدرسة ، دون أن يبذل أدنى جهد ، الا انه ، وقبل انتهاء السنة الدراسية بفترة قصيرة ، كان

يبادر الى ارتكاب فعلة سيئة عن عمد ، لكي يتفادى « الاهانة » بأن يسمى « امبراطورا » امام الناس يوم توزيع الجوائز .

خلال طعام العشاء ، كانت العائلة عادة ، تصغي بكثير من الاهتمام لوقائع نشاطه اليومي في المدرسة . وذات ليلة ، أكد لنا لويس بانه شاهد جوربا اسود قذرا لأحد اليسوعيين في حساء الغداء . غير ان والدي الذي كان يدافع باستمرار ، ومن حيث المبدأ ، عن المدرسة وعن الاساتذة ، رفض تصديقه . وعندما أصر لويس ، طرده من غرفة الطعام فنهض خارجا ، بكثير من الوقار ، وهو يقول على طريقة « غاليليو » ، « لقد كان هناك جورب » .

في الثالثة عشرة ، بدأ لويس يتلقى دروسا على آلة الكمان ، التي كان يتعلق بها كحبيبة . كان ينتظر الى ان تنام ، فيدخل الى غرفتنا ، نحن البنات الثلاث ، ويبدأ باستعراض ما تلقاه ذلك اليوم ، والذي يبدو لي الان ، حين اعود بالذاكرة أنه على صلة ما بفاغنر ، مع أننا لم نكن آنذاك نعرف شيئا عنه ، ولا حتى لويس نفسه . لا اعتقد ان ما كان يعرفه لويس هو موسيقا حقيقية ، لكنه كان بالنسبة الي حقلا خصبا لمغامراتي المتخيلة . وقد وصل لويس الى حد تكوين فرقة موسيقية ، كانت تشارك في الاحتفالات الدينية الكبرى ، وكثيرا ما كانت تقدم اعمالا لشوبرت مثل : « بيروسي » و « ايف ماريا » . .

كان والداي يذهبان كثيرا الى باريس ، ولدى عودتهما كانا يغرقاننا بالألعاب . ذات مرة ، جلبوا لاخي نموذج مسرح تبلغ مساحته حوالي المتر المربع ، مزود ببعض الديكورات التي أتذكر منها صالة العرش والغابة اما الشخصيات فكانت من الكرتون وتمثل ملكا وملكة ومهرجا وخدما ، ولم يكن يزيد طول احداها عن عشرة سنتيمترات ، وكانت ذات رؤوس متحركة ، فضلا عن امكانية تحريكها الى الجانبين بواسطة سلك معدني . ولكي يستكمل الفرقة ، جاء لويس بحصان في حالة القفز ، كان يستخدم فيما مضى كثقالة للورق ، قبل ان يفقد قدميه المصنوعتين من الرخام

المعرّق . كما استخدم « برج ايفل » مذهبا كان موضوعا حتى ذلك الوقت في الصالون ، ولست أتذكر تماما فيما اذا كان برج ايفل هذا يمثل في الفرقة دور احدى الشخصيات أو احدى القلاع ، الا انني اذكر الان تماما انني شاهدته يدخل المسرح ، في قاعة العرش ، وهو يقوم بقفزات صغيرة ، مشدودا الى ذلك الحصان الهائل .

قبل العرض بثمانية ايام ، كان لويس يبدأ التحضيرات مع من يختارهم ، والذين كانوا ، كما في الانجيل ، قلائل ، فيضعون الكراسي في أحد عنابر الحبوب ، ويبعثون بالدعوات لفتيان وفتيات القرية ممن تزيد اعمارهم عن الثانية عشرة . وفي اللحظة الاخيرة كان يجري اعداد وجبة خفيفة من الحلوى من شراب من ماء الخل بالسكر ، على اساس أنه مشروب مبتكر لبلد غريب ، فنشربه بمتعة وخشوع . وكان من الضروري دائما أن يقوم أبي بتهديد لويس بمنع العرض لكي يسمح لنا ، نحن اخواته ، بالحضور .

بعد ذلك بعدة سنوات ، وفي احدى المناسبات الطيبة ، نظم رئيس البلدية مهرجانا في المدرسة العائدة للبلدية ، وظهر اخي على المسرح بزي غريب ، مزيج من لباس الغجر وقطاع الطرق ، وقد اشهر عددا من المقصات الهائلة وهو يغني ، وقد بقيت اتذكر كلمات أغنيته على مدى سنوات عديدة ، ويقول فيها : « بهذه المقصات ، وبرغبتي في القص ، اذهب الى اسبانيا لتسليح ثورة صغيرة » . ويبدو أن تلك المقصات أصبحت اليوم فيلم « ڤيريديانا » ، وأتذكر أن الجمهور آنذاك قابله بعاصفة من التصفيق واغرقه بوابل من السيجار والسجائر .

فيما بعد ، حين اصبح يحقق الفوز المستمر في ليّ المعاصم مع اقوى اقرانه في القرية ، راح ينظم مباريات في الملاكمة ، مستخدما اسم « اسد كالاندا » ، وفي مدريد أصبح بطل الاوزان الخفيفة ، غير اني لا املك المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع .

كان لويس ، وضمن العائلة ، قد بدا بالحديث حول رغبته بدراسة الهندسة الزراعية ، وراقت الفكرة لوالدي ، حيث رأى فيها وسيلة مناسبة لتحسين اراضينا في منطقة « اراغون » السفلى . اما والدتي - وعلى العكس ، فقد كانت غير راضية ، اذ كان من المستحيل متابعة هذا الاختصاص في سرقسطة ، وهو في الحقيقة ما كان يفضله لويس : الذهاب من سرقسطة ؛ والابتعاد عن العائلة . وحصل على شهادة الدراسة الثانوية بعلامات جيدة جدا .

كنا في تلك الفترة قد اصبحنا نصطاف في « سان سيباستيان » ، ولم يعد لويس يحضر الى سرقسطة الا ايام العطل ، أو عندما كان يحصل مكروه ، مثل يوم وفاة الوالد . وكان لويس آنذاك في الثانية والعشرين .

في مدريد ، امضى سنوات دراسته في المدينة الجامعية ، التي كانت قد تأسست قبل ذلك بقليل . معظم اولئك الذين كانوا فيها آنذاك ، اصبحوا اعلاما بارزين في الآداب او العلوم أو الفنون ، وصداقاتها اصبحت احدى اهم الامور في حياة أخي . استهواه « علم الأحياء » . وقام خلالا عدة أعوام بمعاونة العالم « بوليفار » في ابحاثه ، واصبح في تلك الفترة من انصار المذهب الطبيعي . كان غذاؤه اليومي يشبه غذاء السنجاب ، وفي الايام التي كانت تهبط فيها درجات الحرارة الى ما دون الصفر ، وعلى الرغم من الثلوج المتراكمة ، كان يستخدم رداء خفيفا جدا وينتعل صندلا من صنادل الرهبان ، دون جوارب . كان ابي يستاء من ذلك ، على الرغم من انه كان في اعماقه فخورا بابنه ، لكن مع اصراره على عدم الاعتراف بهذا ، وقد استشاط غضبا ذات مرة ، عندما رآه يغسل رجليه ويديه بالماء المثلج .

في تلك الفترة (وربما قبل ، فليس ذلك واضحاً في ذاكرتي) ، كانت لدينا فأرة ، وكنا نعاملها كواحد من افراد العائلة . كان حجمها هائلا يقرب من حجم الارانب البرية ، قذرة وذات ذنب متآكل . كنا قد احضرناها خلال احدى سفراتنا ضمن قفص ببغاء ، وقد اربكت حياتنا

بما فيـه الكفاية ، ولفترة طويلـة . ثم ماتت المسكينـة تقديسة اثر مؤشرات تسمم واضحـة . كان عنـدنا خمس خادمات ، ولم تستطع التعرف على القاتلة – على اية حال ، فإننا سرعان ما نسيناها ، وحتى قبل أن تكون رائحة الفئران قد فارقتنا بعد .

كان لدينا دائماً حيوان ما .. قرود ، ببغاوات ، صقور ، ضفادع ، حية أو جرذ افريقي كبير ، وقد مات هذا الأخير بضربة محراك طبخ ، بطريقة سادية ، من قبل الطباخة التي فوجئت به في المطبخ ، فلم تتمالك نفسها أمام لحظة الرعب هذه .

ولا انسى أبداً الخروف « غريغوريو » ، الذي كاد ان يحطم لي عظام الفخذ والحوض عندما كنت في العاشرة ، واظن انه قد جيء به الينا من ايطاليا عندما كان صغيراً جداً ، ولم اكن انا مغرمة الا بالحصان «نينه» .

كذلك كانت لدينا علبة قيمات كبيرة ملأى بالجرذان الرمادية . كانت من أملاك لويس ، الا انه كان يدعنا نراها مرة في اليوم . كان قد اختارها كمجموعة من الأزواج التي كانت تتغذى ويعتني بها بصورة ممتازة ، وتتكاثر دون توقف . وقبل أن يغادرنا ، ذهب بها الى مستودع للحبوب، ودون أن يبالي بمدى الضرر الذي سيلحق بصاحب المستودع ، أطلق لها حريتها ، مناشداً إياها « بالتوالد والتكاثر » .

كنا جميعاً نحب ونحترم كل ما له حياة ، بما في ذلك الحياة النباتية، واعتقد بأن كل الكائنات الحية ، كانت ، بدورها ، تحبنا وتحترمنا . كان بإمكاننا ان نعبر غابة تعيش فيها الوحوش الضارية دون ان نشعر بأدنى خطر ، مع استثناء واحد فحسب : **العناكب** .

انها مسوخ فظيعة ومرعبة ، تستطيع في اي وقت تشاء أن تنغص علينا حياتنا . انه داء « بونيويلي » غريب ، ذلك الذي كان يجعل منها الموضـوع الرئيسي لمسامراتنا العائليـة . كانت حكاياتنـا عن العناكب هائلة ومخيفة .

يحكي أن اخي لويس ، لدى رؤيته ذات مرة ذلك المخلوق الغريب ، ذا العيون الثماني ، والفم المحاط بالارجل المعقوفة ، فقد وعيه ، في احدى استراحات طليطلة (توليدو) ، خلال تناوله الطعام ، ولم يتمكن من استعادته الا بعد عودته الى مدريد .

اختي الكبرى ، لم تتمكن في احدى المرات ، من العثور على ورقة كبيرة بالقدر الكافي ، لكي ترسم عليها رأس وصدر العنكبوت الذي كان يتجسس عليها في احد الفنادق . وقد وصفت لنا ، وهي تكاد تبكي ، تلك الازواج الأربعة من النظرات التي رماها بها ذلك الوحش الضاري عندما قام احد خدم الفندق ، وببرود غير معقول ، بالإلقاء به خارج الغرفة ، ممسكاً به من احدى أرجله . كانت اختي تقلد ، بيدها الجميلة ، تلك الخطوات المتذبذبة والمخيفة لذلك العنكبوت العجوز ذي الشعر الكثيف المعفّر .

اما المغامرة الاخيرة ، فقد حصلت معي بالذات ، منذ زمن ليس ببعيد . كنت انزل الدرج عندما سمعت ورائي صوتاً رخواً ومنفراً . وحدست بما قد كان هو بالفعل . اجل ، كان هناك هذا العدو الازلي لعائلة بونيوريل . احسست بانني سأموت ، ولا يمكن ابدا ان انسى ذلك الصرير المخيف الذي احدثته تلك الحويصلة الجهنمية حين سحقتها قدم الفتى الذي كان يجلب الينا الصحف . كنت على وشك أن اقول له : « لقد انقذت شيئا اكثر من حياتي » . وما زلت اسأل نفسي : ترى .. لاي غرض مرعب كان يتبعني بتلك الطريقة ؟! ..

العناكب !! كانت احاديثنا ، وكوابيسنا ، ملأى بها .

لا يكاد هناك نوع من الحيوانات التي لا تحصى ، الا وامتلكه اخي لويس ، ولم أرَ في حياتي اية كائنات تلقى مثل تلك المعاملة والرعاية . كل منها حسب احتياجاتها البيولوجية الخاصة بها ، وما زال حتى اليوم يحب الحيوانات ، كما انني اظن بانه يتعامل حتى مع العناكب دون كراهية .

بونويل في شبابه ، تصوير مان راي

لحظه عمل

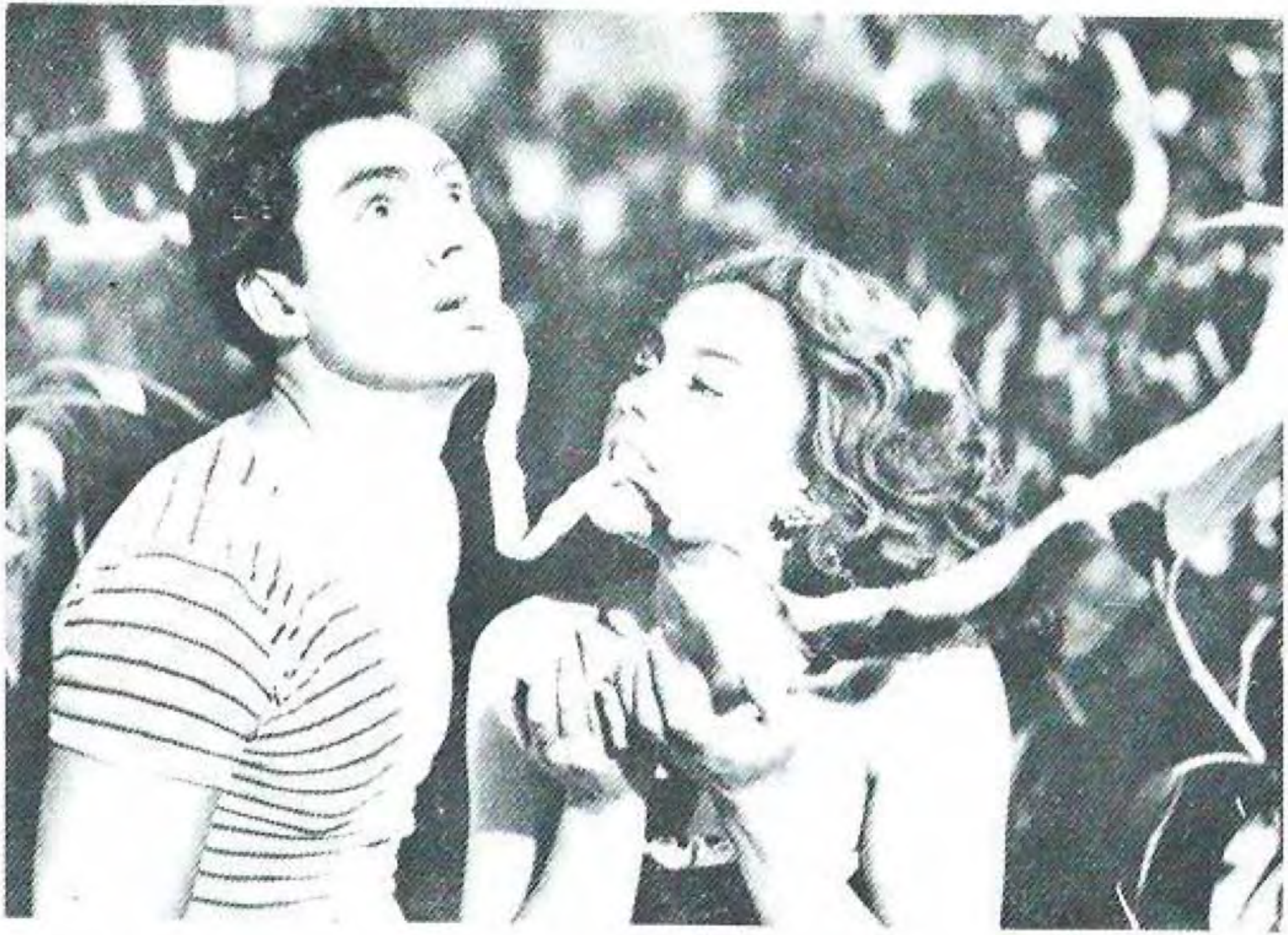

الصعود إلى السماء

بونويل مع اخته كونشيتا

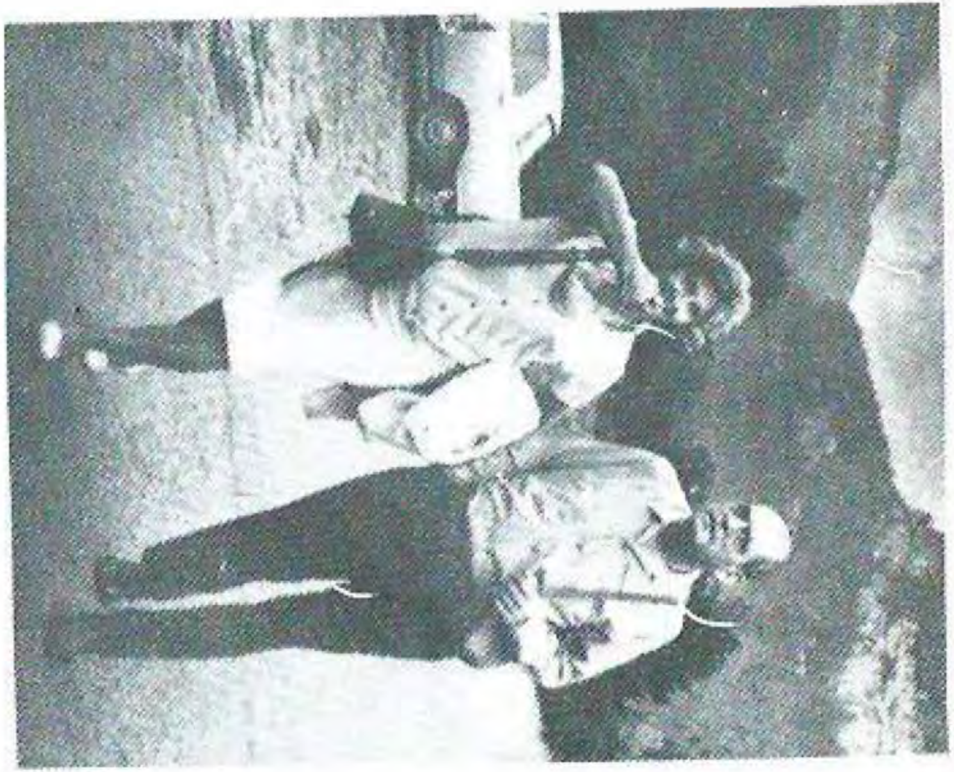

مع كارلوس ساورا ١٩٦١

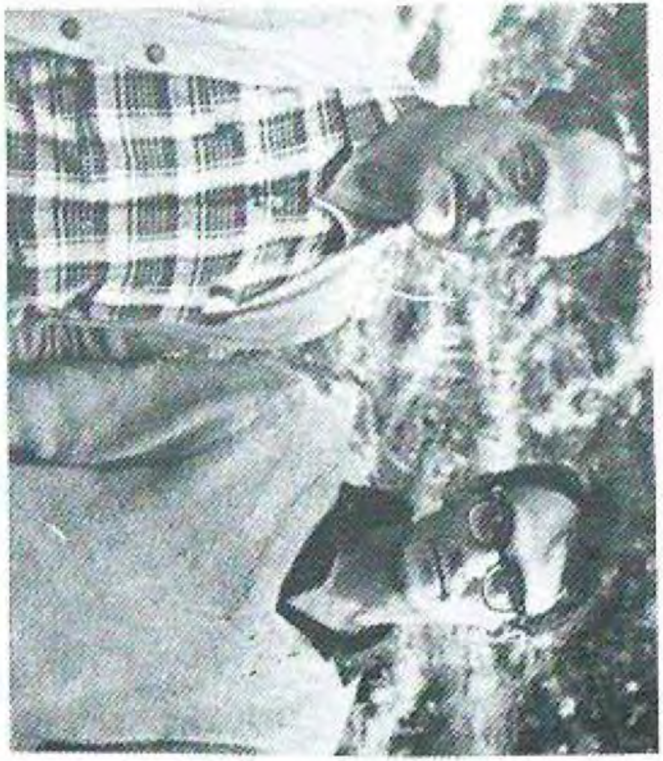

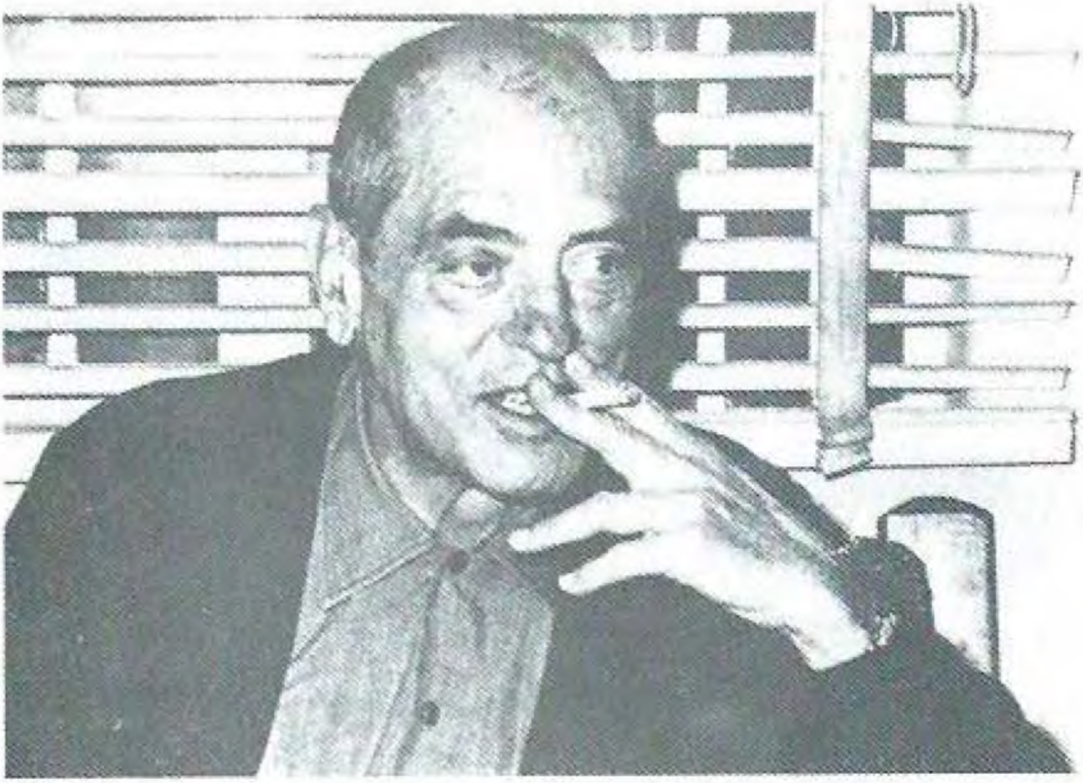

بونويل في المنزل

بونويل متنكرا

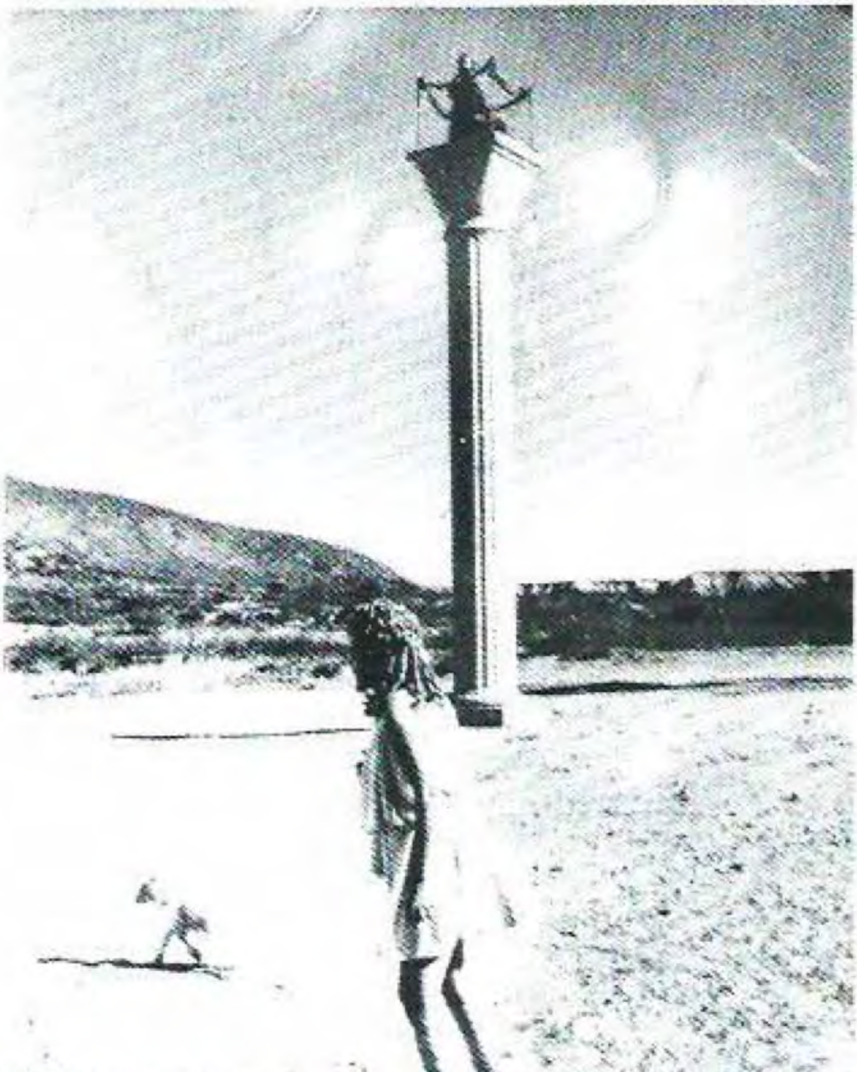

سمعان العمودي

السحر الخفي للبورجوازية

شبح الحرية

في « فيريديانا » هناك مشهد لكلب مسكين مربوط تحت عربة تمضي في مشوار بعيد . وكان لويس قد شاهد موقفاً مماثلا في الحقيقة . وبسبب تلك العادة المتأصلة لدى الفلاح الاسباني والتي تتشابه محاولة مقاومتها مع الكفاح ضد طواحين الرياح ، فقد كنت اشتري يومياً ، بناء على طلب اخي ، كيلو من اللحم من اجل كلاب الفيلم ، ومن اجل اي كلب آخر قد يمر في مكان التصوير .

خلال أحد مواسم الصيف ، التي أمضيناها في « كالاندا » قمنا « بالمغامرة الكبرى » لطفولتنا . كان لويس في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من العمر. قررنا الذهاب الى القرية المجاورة دون اذن من والدينا، وذهب معنا أبناء أعمام لنا من نفس السن . ولست أعرف لماذا خرجنا من البيت ونحن نرتدي ثياب الذهاب الى احدى الحفلات . اسم القرية « فوث » ، وتقع على مسافة خمسة كيلو مترات ، وكان لنا فيها بعض الأراضي والممتلكات . هناك قمنا بزيارات للجميع ، وقدموا لنا النبيذ الحلو والحلويات . وبسبب النبيذ تملكنا شعور غامر بالانشراح ، وبالشجاعة ، التي دفعتنا الى الرغبة في الذهاب الى المقبرة . واتذكر كيف تمدد لويس هناك على طاولة التشريح طالبا أن نخرج له أحشاءه !.. كما أتذكر أيضاً كيف كان علينا ان نكافح لمساعدة احدى اخواتنا في اخراج رأسها من ثغرة كان الزمن قد فتحها في احد القبور . لقد بقيت على تلك الحال الى ان استطاع لويس انتزاع الجص باظافره لكي يحررها .

بعد الحرب ، عدت الى هذه المقبرة ، باحثة عن تلك الذكريات ، ووجدتها أصغر واقدم ، كما اثر فيّ كثيراً انني شاهدت في احدى الزوايا تابوتاً أبيض صغيراً قد تفكك ، وبداخله جثمان محنط لاحد المخلوقات . ومن خلال ما كان البطن ، نمت شجرة من قرنفل احمر .

بعد زيارتنا تلك للمقبرة ، والتي اتصفت ولا شك بطابع تدنيسي ، شرعنا في العودة عن طريق الجبال الجرداء التي أحرقتها الشمس ، بحثا

عن احد الكهوف الغامضة ، والنبيذ الحلو مستمر في تنشيطنا لارتكاب المزيد من الاعمال الجريئة التي يتراجع امامها الكبار ، كالقفز الى اسفل هوة عميقة وضيقة ، والزحف عبر نفق للخروج منه الى اول مغارة . لم يكن مع كافة افراد هذا الفريق الباحث في الكهوف الا بقايا شمعة واحدة اصطحبناها معنا من المقبرة . تابعنا التقدم مع استمرار ضوء هذه الشمعة الصغيرة ، وفجاة ، توقف كل شيء ، فلا ضوء ، ولا حماس ، ولا فرح .. ولم يبق من حولنا الا اصوات اجنحة الخفافيش . وقال لنا لويس ، انها تنتمي الى فصيلة من خفافيش ما قبل التاريخ ، لكنه سيقوم بالدفاع عنا ضد اي هجوم قد تقوم به ضدنا ، احدنا اخذ يصرخ بانه جائع ، فعرض لويس ، وبطريقة بطولية ، ان يجعل من نفسه طعاما لنا . كنت احبه لدرجة العبادة ، لذلك فقد طلبت باكية بان ياكلوني انا بدلاً عنه . لقد كنت الاصغر والأرق ، والاكثر غباء ، بين المجموعة من الاخوة .

لقد نسيت الآن تماما ، ذلك الخوف الذي عشته في تلك الساعات ، كما ينسى الألم الجسماني . الا انني اتذكر جيداً ، الفرح الذي غمرنا لحظة خروجنا .... مع الخوف من العقاب . لكن لم يكن هناك اي عقاب ، بسبب الحالة المحزنة التي كنا عليها ، ورجعنا الى « دفء البيت » في عربة يجرها « نينه » ، كان اخي فاقداً وعيه ، ولا ادري ان كان ذلك بسبب ضربة شمس ، ام من السكر ، ام من قبيل « التكتيك » ! ...

وخلال يومين او ثلاثة استمر والدانا في التحدث الينا بالصيغة الرسمية(*) ، اما في الأوقات التي كان ابي يعتقد فيها باننا لا نسمعه ، فكان يروي مغامرتنا للضيوف ، وهو يبالغ في الصعوبات التي لاقيناها ، مشيداً بتضحية لويس . لكن احداً لم يتحدث بشيء عما يتعلق بي ، والذي كان على الأقل ، موقفا بطولياً . كان الشيء نفسه يحدث في عائلتنا دائماً ، ووحده اخي لويس كان من يعترف بصفاتي النبيلة ويثني عليها .

(*) يستخدم الاسبان كلمة « Usted » وتعني بالعربية « حضرتك » كصيغة مخاطبة في التعامل الرسمي .

وتمر الأعوام ، لويس مع دراسته ، ونحن مع تربيتنا غير المجدية كبنات عائلة محترمة ، ثم أصبحنا قلما نشاهد بعضنا بعضاً ، فأختاي الكبريان تزوجتا وهما بعد صبيتان صغيرتان . كان يروق لاخي أن يلعب « الداما » مع الاخت الوسطى ، وكانت المباريات تنتهي دائماً بصورة سيئة ، بسبب الرغبة في الفوز ، منه ومنها ، لم يكونا يلعبان على نقود ، بل كانا يدخلان في شكل من حرب الأعصاب ، عندما كانت تفوز هي ، كان لها الحق في أن تقتل وتشد له ما كان عبارة عن مشروع شاربين تحت أنفه ، وهو امر كان باستطاعته أن يتحمله ، وكان يصمد لساعات عديدة ، الا انه كان بعد ذلك ، ينتفض ليسحب الطاولة ، وليقذف بكل ما كان يصل الى متناول يده .

أما عندما كان يفوز هو ، فكان له الحق في أن يقرب من انف اختي عود ثقاب مشتعل ، ويستمر في الاقتراب شيئاً فشيئاً لكي يلزمها بان تقول كلمة بذيئة ، معينة كنا قد سمعناها من أحد سائقي العربات القدامى ، وكان هذا يحكي لنا ، عندما كنا صغاراً ، اننا اذا أحرقنا انف الخفاش فإنه يصرخ بتلك الكلمة ، كانت اختي ترفض باصرار أن تصرخ كالخفاش ، وكان الامر ينتهي دائماً على صورة غاية في السوء .

★ ★ ★

تلك المتعـــة الخاصـــة

لقد امضيت في الحانات ساعات حلوة . الحانة بالنسبة إليّ مكان للتأمل والعزلة ، ولا يمكن لي ان اتصور الحياة بدونها . هي عادة قديمة ، ترسخت مع السنين ، مثل « القديس سمعان » ـ العمودي ـ ، الذي كان يتحدث الى ربه ، غير المرئي ، من فوق عموده . قضيت في الحانـات أوقات طويلة مع الاحلام ، اتحدث فيما ندر مع النادل ، وبصـورة شـبه مستمرة مع نفسي ، مستسلما للصور التي تراودني بطريقة مدهشة . والان ، ومع هذه السنوات التي بلغتها ، والتي تماثل ما مرّ من عمر هذا القرن ، فانني قلما اغادر البيت . لكن ، عند الساعة المقدسة لتنـاول المقبلات ، وفي تلك الغرفة الصغيرة التي احفظ فيها زجاجاتي ، يطيب لي أن أتذكر تلك الحانات التي احببتها .

قبل أي شيء ، عليّ ان أوضح ، أنه بالنسبة إليّ ، لا تتماثل الحانة مع المقهى ، وعلى سبيل المثال ، ففي باريس ، لم استطع على الاطـلاق دخول حانة مريحة ، وبالمقابل فهي مدينة غاصة بالمقاهي الرائعة التي تلتقي باحداها اينما توجهت ، من بيلفيل الى أوتوي ، وليس عليك أن تخشى عدم العثور على طاولة شاغرة تجلس اليها ، أو نادل يسجل لك ما تطلب .

هل من الممكن تصور باريس دون مقاهيها .. دون مقاهي الأرصفة الرائعة ، دون أكشاكها ، ان ذلك سيكون كالحياة في مدينة دمرها تفجير نووي .

جانب كبير من نشاطات السوريالية قام في مقهى « سيرانو » في ساحة

« بلانش » . كان يعجبني أيضا مقهى « سيليكت » في « الشانزيليزيه » ، كما دعيت الى افتتاح « لاكوبول » في « مونبارناس » ، وهناك واعدني كل من « مان راي » و « اراغون » للتحضير لحفل افتتاح « كلب اندلسي » . لا استطيع ان أتذكر كل تلك المقاهي ، الا انني اريد أن أقول بأن المقهى عبارة عن ثرثرة ، ومعاشرة ، ولقاء بالقادمين والذاهبين ، وبالصخب النسائي بعض الاحيان .

وبالمقابل ، فان الحانة هي تمرين على العزلة ، عليك أن تكون ، قبل كل شيء ، هادئا ، مرتاحا ، وكسولا جدا ، هناك كل انواع الموسيقا ، لكنها موسيقا قادمة من بعيد ،بل يجب أن تكون بعيدة جدا (على عكس العادة الشنيعة التي طغت اليوم في العالم) ، مجموعة قليلة من الطاولات ، مع زبائن معتادين ، وقليلي الرغبة بالتواصل .

يعجبني مثلا بار فندق « بلازا » بمدريد ، وكونه في القبو هو أمر رائع . الـ « ميتر » يعرفني جيدا ، ويرافقني مباشرة الى طاولتي المفضلة بجانب الحائط . ... اضاءة المكان خافتة ، إلا ان الطاولات مضاءة بصورة كافية .

في مدريد يعجبني أيضا « تشيكوته » ، المليء بالذكريات الجميلة ، لكنه من النوع المناسب لارتياده مع الاصدقاء أكثر مما يناسب بالتأمل والعزلة .

في فندق الـ « باولار » ، شمالي مدريد ، والقائم في فناء أحد الاديرة القوطية الرائعة ، كنت أجلس منفردا لتناول المقبلات في الامسيات ، في قاعة طويلة جدا ذات أعمدة من الغرانيت ، ما عدا أيام السبت والاحد ، الايام المشؤومة ، التي يملأ فيها ضجيج السياح والشبان كافة الارجاء . لم يكن يحيط بي في وحدتي الا بعض نسخ من لوحات « ثورباران » أحد الرسامين المفضلين لدي . ومن بعيد ، بين حين وآخر ، كان يمر ظل صامت لاحد النوادل ، محترما عزلتي الكحولية .

استطيع القول بأنني وصلت الى أن أحب ذلك المكان تماما مثل صديق قديم . كان « جان كلود كاريير » الذي يعمل معي في كتابة السيناريو ، يتركني لوحدي مدة ثلاثة ارباع الساعة ، ثم ، وبكل دقة ، كنت أسمع وقع خطواته على البلاط الحجري ، ويأتي ليجلس في مواجهتي ، وكان عليّ ـ وهكذا كان اتفاقنا ـ أن أروي له حكاية ، قصيرة او طويلة ، ابتكرتها خلال هذه الدقائق الخمس والاربعين من التامل ، والتي قد تكون او لا تكون لها علاقة ، بالسيناريو الذي نعمل فيه . كذلك يمكن أن تكون كوميدية او ميلودرامية ، دموية او ملائكية . كان المهم هو أن أحكي شيئا فانا مقتنع بأن الخيال عبارة عن مقدرة ذهنية يمكن تمرينها وتطويرها ، تماما كالذاكرة .

فقط مع تلك النسخ من لوحات « ثورباران » والأعمدة الغرانيتية ، هذه الاحجار القشتالية الرائعة ، ومشروبي المفضل (وسأعود الى هذا في الحال) ، كنت استغرق في التفكير دون مجهود ، منفتحا على الصور التي لا تلبث أن تتزاحم في تلك الصالة . وخلال تفكيري ببعض الشؤون العائلية او الامور العادية ، كان يحصل لديّ أحيانا ، وبشكل مفاجيء ، شيء غريب كان يتجسد امامي مشهد مدهش ، اذ كانت تظهر شخصيات تبدأ في الحديث عن مشاكلها . . وفي احدى المرات ، وأنا وحيد في ركني ، انتبهت الى نفسي في احدى اللحظات وانا غارق في الضحك . وعندما كان يبدو لي ان تلك المواقف غير المتوقعة ربما تكون مفيدة للسيناريو ، كنت أعمل على استعادتها ، ساعيا الى وضع شيء من التنظيم والتوجيه لتلك الافكار المبعثرة .

احتفظ بذكرى رائعة لبار في فندق « بلازا » في نيويورك ، على الرغم من انه كان مكانا مطروقا جدا (ومحظور على النساء) . كنت اقول لاصدقائي ، وهو ما استطاعوا أن يتثبتوا منه مرات عديدة ، : « اذا مررتم في نيويورك ، واردتم معرفة ما اذا كنت هناك ، اذهبوا الى بار « بلازا » في الثانية عشرة ظهرا ، اذا كنت في نيويورك فستجدونني هناك » . وللاسف

فان هذا البار الرائع والمطل على « سنترال بارك » تم اجتياحه من قبل المطعم ولم يتبقّ فيه أكثر من طاولتين .

من بين البارات المكسيكية التي كنت أتردد عليها ، كان يعجبني في العاصمة مكسيكو ، بار الـ « بارادور » ، لكنه كان من ذلك النوع الذي تذهب اليه مع الاصدقاء ، مثل « تشيكوته » . وخلال فترات طويلة ، كنت أمضي أوقاتا جميلة جدا في بار فندق « سان خوسيه بوروا » في الـ « ميتشواكان » ، حيث تعودت الاعتزال لكتابة سيناريوهاتي ، خلال أكثر من ثلاثين عاما .

يقع الفندق على سفح شعب جبلي شبه استوائي ، وكانت نوافذ البار تفتح على منظر رائع ، وهذا يعتبر عيبا ، من حيث المبدأ . لكن ، ولحسن الحظ ، كانت تحجب المنظر ، بعض الشيء ، شجرة « ثيراندو » نمت في مواجهة النافذة . وهي شجرة استوائية ذات أغصان خفيفة متشابكة كمجموعة من الافاعي الطويلة . وكنت أدع نظري يجول في ذلك الخليط الهائل من الاغصان ، فأتخيلها خيوطا متمرجة لحكايات لا حصر لها .

بكل اسف ، ولغير ما سبب مقبول ، فقد اغلق هذا البار ، وما نزال نجد أنفسنا ، « سيلبر مان » و « وجان كلود » وأنا ، في عام ١٩٨٠ ، نتجول في أرجاءالفندقمثل ارواح حزينة ، بحثا عن ركن مقبول . انها ذكرى سيئة ، فهذه الايام المدمّرة لم تترك شيئا لم تحز به ، ولم تستثن حتى البارات .

اما الآن ، فاحب ان اتحدث عن المشروبات . وهذا موضوع كنت قد بدات الحديث فيه ولم أكمله .

اضع في المكان الاعلى ، النبيذ ، وبشكل خاص ، الاحمر . في فرنسا توجد الاصناف الافضل والاسوأ . أما انا فاشعر بمعزة كبيرة لـ « قالديبيناس » الاسباني الذي يشرب باردا في « قربة » صغيرة من من جلد الماعز ، ولـ « ييبيس » الابيض من منطقة طليطلة . اما أصناف النبيذ الايطالي فتبدو لي مغشوشة .

في الولايات المتحدة اصناف جيدة من نبيذ كاليفورنيا مثل الـ « كابيرنيت » وغيره ، واحيانا اشرب نبيذا من تشيلي أو المكسيك . ويبدو ان هذا هو كل شيء .

من المفروغ منه ، انني لا أشرب النبيذ في البار على الاطلاق ، فالنبيذ عبارة عن متعة جسدية خالصة ، لا يثير الخيال بأية صورة من الصور . في البار ، ولتحريض الخيال ، والمحافظة عليه ، يجب شرب الجين الانكليزي .

مشروبي المفضل هو الـ « دراي مارتيني » . وتقديرا للدور الاساسي الذي لعبه الـ « داري مارتيني » في هذه الحياة التي عشتها ، عليّ أن اكرس له صفحة أو صفحتين . واعتقد ان الـ « دراي مارتيني » هو ابتكار امريكي مثل باقي انواع الكوكتيل . ويتكون بشكل أساسي من الجين وبضع قطرات من الـ « فيرموت » ويفضل منه الـ « توايي برات » والذواقون الجيدون الذين يشربون الـ « دراي مارتيني » دون مزجه بشيء ، وصلوا الى حد القول بأن من المفضل ترك شعاع من الشمس يمر عبر زجاجة الـ « توايي برات » قبل أن يضاف منها الى كأس الجين . حتى لقد قيل في أمريكا الشمالية ذات يوم أن الـ « دراي مارتيني » الجيد يجب أن يتشابه مع حمل العذراء . ومن المعروف ، حسب القديس توما الاقويني ، أن القوة المولدة للروح القدس مرت عبر العذراء « مثل شعاع شمس يخترق الزجاج دون أن يكسره » ونفس الشيء مع الـ « دراي مارتيني » الا أن هذا يبدو لي مجرد مبالغة . واشير الى توصية اخرى ، فالثلج يجب أن

يكون قاسيا جدا ، لكي لا ينضح الكثير من الماء ، فليس أسوأ من مارتيني بالمـاء .

واسمحوا لي ان قدم وصفتي الشخصية ، ثمرة عبرة طويلة ، وقد حصلت معها دائما على نجاحات مرموقة :

اضع في الثلاجة كل ما يزمني : الكؤوس ، الجين ، وعاء الكوكتيل ، منذ اليوم السابق لاستقبالي الضيوف ، ولدي مقياس لدرجة الحرارة يسمح لي بالتأكد من أن الثلج هو بدرجة عشرين تحت الصفر .

في اليوم التالي،عند وصول الاصدقاء،أقوم بإخراج مايلزمني .أضع اولا فوق الثلج القاسي جدا بضع قطرات من الـ « نوايي برات » ونصف ملعقة من « الانغوسقورا » ثم أطرح السائل محتفظا فقط ، بالجليد المعطر بهاتين المادتين ثم اصب الجين الصافي ، أحركه وأقدمه .

هذا كل مافي الامر ، والنتيجة لايعلو عليها شيء .

في نيويورك ، خلال الاربعينات ، اشار علي مدير متحف الفن الحديث بوصفة مختلفة قليلا ، وذلك بوضع الـ « پرنور » بدلا من الـ « انغوستورا » الا انني رايت انها مجرد « موضة قديمة » .

اذا كان مشروبي المفضل هو الـ « دراي مارتيني » ، فانا مبتكر متواضع لكوكتيل يدعى « بونيويلوني » . في الواقع هذا مجرد تحريف لـ « نيغروني » الشهير ، لكن ، بدلا من مزج الكمباري مع الجن والسنزانو الحلو ، فانني اضع الـ « كاربانو » . وافضل تناول هذا الكوكتيـل في المساء ، قبل جلوسي لتناول العشاء ، وفي هذه الحالة ايضا ، فان سيطرة الجين من حيث الكمية ، على العنصرين الآخرين ، يشكل حافزاً جيداً للخيال . لماذا ؟ . . لا اعرف . لكنني متأكد من ذلك ، وآمل ان لا تكونوا قد فهمتم بانني مدمن على الكحول ، وطبعا كانت في حياتي مرات شربت

فيها الى درجة السقوط ارضا ، لكن الامر كان ، وبشكل شبه دائم ، عبارة عن تحقيق حالة لطيفة لاتبلغ مرحلة السكر الحقيقي ، اذ انني اتعامل مع هذه المسألة لمجرد الوصول الى نوع من الغبطة ، والراحة الهادئة ، التي لعلها تشبه مايحدثه تناول مخدر خفيف. انه شيء يساعدني على أن احيا وان اعمل . ولو سألني احد ذات مرة فيما لو كنت قد عرفت طيلة حياتي محنة افتقادي لمشروباتي ، لقلت له بأنني لا اتذكر ان هذا قد حصل ، فباستمرار كان لديّ ما أشربه ، لقد كنت دائما اتخذ كافة احتياطاتي .

وعلى سبيل المثال ، فقد عشت خمسة اشهر عام ١٩٣٠ في الولايات المتحدة الامريكية ، خلال فترة قانون « سيكا » ، واذكر انني لم أشرب في فترة من حياتي ، مثلما شربت آنذاك . كان لي في لوس انجلس صديق تاجر ، واذكر جيدا ان احد كفيه كان ينقصه ثلاثة اصابع ، وهو الذي علمني كيف اميز مابين الجين الحقيقي والجين الزائف ، اذ يكفي ان نهز الزجاجة بطريقة خاصة ، والجين الحقيقي هو الذي يحدث فقاعات .

كذلك كان يمكن العثور على الويسكي في الصيدليات بوصفة طبية . وفي بعض المطاعم كان النبيذ يقدم في فناجين القهوة . وقد تعرفت في نيويورك على واحد من اولئك الذين كانوا « يتحدثون بصوت منخفض »! ... ، يناديك على الباب بطريقة خاصة .. ينفتح شق صغير ، فتدخل بسرعة ، واذا بك تجد في الداخل ، بارا كاي بار آخر ، فيه كل شيء .
كان قانون « سيكا » عبارة عن احدى الافكار الاكثر لا معقولية في هذا القرن ، والحقيقة ان الامريكيين شربوا آنذاك كالبراميل ، والاكثر من هذا ، في اعتقادي ، انهم قد تعلموا ان يشربوا .

أعاني أيضا من ضعف خاص امام المقبلات الفرنسية ، وبيرة « غرانادينا » ــ المشروب المفضل لدى الرسام تانغي ــ ، وكذلك بيرة الـ « ماندارين كوراساو » ، التي كانت تصعد الى رأسي بأسرع مما يفعل الـ « دراي مارتيني » ، وللاسف ، فان هذين المشروبين المركبين الرائعين

هما في الطريق الى الزوال . اننا نشهد سقوطا مرعبا للمقبلات ، وهو مؤشر محزن على طبيعة هذه الايام ، . . مؤشر اضافي آخر . .

بالطبع ، ومن حين لآخر ، أشرب الفودكا مع الكافيار ، والـ « اكوافيت » مع السلمون المدخن ، احب المشروبات الكحولية المكسيكية : « الـ اتيكيلا » والـ « ميثكال » ، الا انهما ليسا سوى مشروبين متشابهين . أما الويسكي ، فانني لم أهتم به على الاطلاق ، انه كحول لا افهمه .

ذات يوم ، قرأت في واحد من تلك المقالات الطبية التي تطالعنا بها المجلات الفرنسية ــ « ماري فرانس » ان لم تخني الذاكرة ــ ، أن الجين مهدىء رائع ، ومؤثر فعال ضد الكآبة الناجمة عن السفر بالطائرة . وقررت في الحال أن اجرب مدى صدق هذا الكلام .

لقد سببت لي الطائرة الخوف باستمرار ، ذلك الخوف الدائم الذي لا يقهر . عندما كان يمر أحد افراد الطاقم بجانبي بوجه جاد كنت أقول في نفسي : « قضي الامر ، لقد هلكنا ، انني اقرأ هذا في وجهه » ، ولو حصل العكس فمر مبتسما بلطف ، اقول : « ان الامر سيء جدا ولا شك ، وهو يريد تهدئتنا » . . جميع مخاوفي تبددت ، بلمسة سحرية ، في اليوم الذي اتبعت فيه نصيحة « ماري فرانس » . واتخذت عادة اصطحاب زجاجة الجين مع كل سفرة . كنت أعمد الى تغليفها بورق الجرائد كي لا تسخن ، وفي قاعة الانتظار ، قبل الصعود الى الطائرة ، كنت ابادر ، بطريقة متسترة الى تناول بعض الجرعات ، فـ اشعر حالا بالاطمئنان والسعادة ، وانني مستعد لمواجهة أبشع الاحتمالات .

لو كان عليّ أن أعدد جميع مزايا الكحول ، لما انتهيت على الاطلاق . في مدريد ، عام ١٩٧٨ ، كنت اتوقع عدم امكانية المتابعة في تصوير فيلم « هذا الغرض الغامض للرغبة » نتيجة لسوء تفاهم مع احدى الممثلات .

فـ « سيرج سيلبر مان » ، المنتج ، كان قد قرر ايقاف العمل في الفيلم ، بالرغم مما يشكل له ذلك من خسارة جسيمة . في أمسية احد تلك الايام التقينا نحن الاثنين في احد البارات ، وكلانا يعاني من احساس بالاحباط . وفجاة ، بعد الكاس الثانية من الـ « دراي مارتيني » خطرت لي فكرة أن انفذ ذلك الدور بممثلتين ، وهو شيء لم اكن قد فعلته من قبل اطلاقا . واستقبل « سيرج » الفكرة بحماس ، وكنت قد اطلقتها في البداية على سبيل المزاح . . وتم انقاذ الفيلم بفضل احد البارات .

في نيويورك ، كنت خلال الاربعينات ، صديقا لـ « خوان نيغرين » ابن رئيس الحكومة الجمهورية ، ولزوجته ، الممثلة « روستيا دياث » . ذات يوم ، خطرت لنا ، نحن الثلاثة فكرة انشاء بار باسم « طلقة المدفع » ، تكون اسعاره مرتفعة بشكل مذهل . . . أغلى بار في العالم ، لا تقدم فيه الاّ المشروبات الفاخرة ، المنتقاة بصورة غير معتادة ، والقادمة من أرجاء العالم الخمسة .

يجب أن يكون بارا حميما ، مريحا جدا . ذا ذوق رفيع ، وبالطبع ، لا يجوز أن يزيد عدد طاولاته على العشر . وعلى الباب ، لكي تكون التسمية متطابقة ، سيوضع مدفع قديم ، بفتيل وبارود أسود ، يطلق في اية ساعة من النهار أو الليل ، في كل مرة يبلغ فيها ما ينفقه احد الزبائن الف دولار .

هذا المشروع اللطيف ، إنما المفتقر الى الروح الديمقراطية ، لم يبلغ مرحلة التنفيذ ، وبقي مجرد فكرة عابرة . وكم كان من الممتع تصور ذلك الموظف البسيط الذي يسكن بجوارنا ، وهو يستيقظ في الرابعة صباحا على صوت طلقة مدفع ، قائلاً لزوجته : « قليل ادب آخر ، انفق الف دولار » .

من المستحيل الشراب دون تدخين . بدأت في التدخين وانا في السادسة عشرة ، ولم اتركه حتى الآن . ومع ذلك فقد كانت قليلة جداً تلك الايام

التي تجاوزت فيها تدخين العشرين سيجارة . ماذا دخنت ؟ .. من كل الأصناف . دخان أسود اسباني ، ومنذ نحو عشرين عاما تعودت على السجائر الفرنسية « جيتان » أما الـ « سيلتيك » فهو اكثر ما أعجبني .

التبغ عقد زواجا مدهشا مع الكحول . (واذا كانت الكحول هي الملكة فالتبغ هو الملك) . انه الرفيق اللطيف الذي تواجه بصحبته جميع احوال الحياة . هو صديق اللحظات السعيدة والتعيسة. تشعل السيجارة احتفاء بالفرح ، وإغراقا للحزن ، وحيداً ، أو بصحبة الآخرين .

التبغ متعة ، بكل المعاني ، للنظر ، فانها لجميلة رؤية السجائر البيضاء تحت الورقة الفضية ، وكأنها قد انتظمت في صفوف للاستعراض . للشم والتمس .. لو عصبوا عينيّ ، ووضعوا بين شفتيّ سيجارة مشعلة ، لرفضت تدخينها . أحب أن اشعر بعلبة السجائر في جيبي ، افتحها . المس قوام السيجارة ، أتحسس احتكاك الورق بين شفتيّ ، استمتع بمذاق التبغ بلساني ، ارى انبثاق اللهب ، أقربه مني ، فيملؤني دفئا .

كان يعيش في المكسيك ، منفيا ، مهندس اسباني ، جمهوري ، من الباسك ، يدعى « دوربونسورو » . كنت اعرفه منذ ايام الجامعة ، وقد مات بسرطان من تلك التي تتسبب الى المدخنين . ذهبت لرؤيته في المستشفى ، كان مزروعا بالأنابيب في كل مكان من جسمه ، ويتنفس من خلال جهاز الاوكسجين . كان ينزع هذا الجهاز خفية ، بين الحين والآخر ، ليأخذ نفسا من سيجارته . لقد دخّن حتى آخر لحظات عمره ، وفيا للمتعة التي أودت بحياته .

إذن ، قرائي المحترمين ، وكختام لهذا التقدير العالي للكحول والتبغ، رفيقيّ الصداقات الراسخة والأحلام الخصبة ، سأسمح لنفسي بأن أقدم اليكم نصيحة مزدوجة : لا تشربوا ولا تدخنوا ، فهذا ضار بالصحة .

سأضيف ، بان الكحول والتبغ يرافقان ، وبكثير من اللطف ، ممارسة

الحب . وكقاعدة عامة ، يأتي الكحول قبله ، والتبغ بعده . لكن ، لاتتوقعوا مني مناجاة جنسية خارقة ، فالرجال الذين ينتمون الى جيلي ، واقصد منهم الاسبان ، لديهم خجل متوارث مع النساء ، ورغبة جنسية ، كما سبق وقلت ، ربما هي الاكثر قوة في العالم . هذه الرغبة ، التي كانت بالطبع ، ثمرة قرون طويلة لكاثوليكية منعت كافة العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية (ومايزال لهم الشكر في انهم قد تسامحوا بالعلاقات داخل نطاقها) ، وحرمت كل صورة ، وكل كلمة ، يمكن أن تكون لها صلة ، ولو من بعيد ، بفعل الحب . كل هذا أدى الى اذكاء الرغبة بصورة غير عادية ، وعندما كانت تتاح لهذه الرغبة فرصة الارتواء ، كانت المتعة الجسدية لا مثيل لها ، فقد كانت تشاركها دائماً هذه المتعة الخفية للخطيئة . وبلا ادنى شك ، فان الإسباني قد خَبِر في الوصال الجنسي متعة أعلى بكثير من تلك التي خَبِرها الصيني او رجل الاسكيمو .

في اسبانيا ، عندما كنت شاباً ، ــ ما عدا استثناءات نادرة ــ لم نكن نعرف إلا امكانيتين لفعل الحب : الماخور والزواج . عندما وصلت الى فرنسا للمرة الاولى ، عام ١٩٢٥ ، بدا لي من غير الطبيعي - بل وحتى من قبيل الخروج عن المألوف والذوق السليم ، أن يتبادل رجل وامرأة ، القبل في الشارع . كذلك فوجئت بانه من الجائز لشاب وفتاة ان يسكنا سوية دون أن يكونا متزوجين . لقد بدت لي هذه الأمور كعادات فاحشة .

لقد تبدلت أمور كثيرة ، منذ تلك الايام البعيدة وحتى الآن . فعلى الصعيد الشخصي، تراجعت لدي الرغبة الجنسية خلال السنوات الاخيرة، الى أن وصلت اخيراً الى التلاشي التام ، حتى في الاحلام . ان هذا يسعدني ، حيث يبدو لي أنني قد تحررت من ذلك الطاغية . ولو ظهر لي « مفيستو فيليس » ليساعدني في استرداد ذلك الذي يطلق عليه « الفحولة » لاجبته : « لا ، شكراً جزيلاً . هذا الامر لا يهمني ، لكن ابعث لي القوة في كبدي ورئتي كي استطيع الاستمرار في الشرب والتدخين » .

وبعيداً عن أية انحرافات من تلك التي ترصد العجائز العنينين ، اتذكر بصفاء ، لكن دون حنين ، مومسات مدريد ومواخير باريس وفتيات التكسي في نيويورك . واعتقد انني لم اشاهد طيلة حياتي إلا فيلماً جنسياً واحداً ، له عنوان لطيف ، هو « الاخت فاسيلين » . تخرج راهبة صغيرة الى حديقة الدير جارة وراءها الحدائقي ، الذي كان بدوره يمارس الجنس مع أحد الرهبان ، وينتهي الامر بان يتلبع الثلاثة معاً .

ما زلت اتصور امامي الجوربين السوداوين القطنيين للراهبة ،واللذين كانا ينتهيان الى ما فوق الركبة . « جان موكلير » من استوديو ٢٨ ، اهداني نسخة من هذا الفيلم ، إلا انني اضعتها . ذات مرة ، وضعت مع رينيه كلير ، القوي جسمياً مثلي ، خطة للدخول الى سينما للأطفال - فتشد وثاق العارض ، ونكم فمه ، ونعرض فيلم « الأخت فاسيلين » لجمهور الأطفال . كان هذا الإفساد للطفولة يبدو لنا واحداً من الأشكال الاكثر جاذبية لتهديم النظام . إلا اننا ، طبعاً ، لم ننفذ هذه الخطة .

كذلك ، ارغب بالحديث عن لقاءاتي الجنسية الجماعية الخائبة . كانت تثيرنا في تلك الايام فكرة المشاركة في لقاء جنسي جماعي . ذات يوم ، في هوليوود ، تقلم شارلي شابلن أحد هذه اللقاءات ، من اجلي انا واثنين من الاصدقاء الاسبان . وجاءت ثلاث فتيات رائعات ، لكنهن بدأن حالاً بالشجار ، اذ أن ثلاثتهن رغبن بشابلن ، ولم ينته الأمر إلا بمغادرتهن .

ومرة اخرى ، في لوس انجلس ، دعوت ، وصديقي « اوغارته » ، الى بيتي ، « لياليس » التي ظهرت في فيلم « عصر الذهب » مع صديقة لها . كانت هناك الزهور والشمبانيا ، وكل شيء قد اعد على ما يرام . وحصلت فشلاً آخر ، إذ ان الامرأتين غادرتا قبل ان تمضيا ساعة واحدة .

في الفترة نفسها ، طلب مني أحد المخرجين السوفييت ، ولم اعد اذكر اسمه ، كان قد حصل على اذن للحضور الى باريس ، ان انظم له

لقاء جنسيا جماعيا باريسيا صغيراً . توجهت الى « اراغون » الذي سألني : « حسنا يا صديقي العزيز ، هل هذا لكونك تريد أن تـ . . » وهنا ، مع كل ما يتمتع بـه اراغون من أجمل ما في العالم من اللطف والكياسة ، استخدم الكلمة التي يمكن للقارىء ان يتصورها ، لكنني لا استطيع كتابتها . بالمناسبة . فلا شيء يبدو لي بدناءة هذا الفيض من الكلمات ذات الوقع السيء ، والتي يحرص عليها كتابنا ، منذ سنوات عديدة ، في اعمالهم وأحاديثهم . هذا التحرر المزعوم ليس اكثر من تزييف خسيس للحرية . انني أرفض كل السفاهة الجنسية وكل الاستعراضية اللفظية .

على اية حال ، فقد أجبت على سؤال « اراغون » بشكل حاسم : « اطلاقاً » . ونصحني « اراغون » بأن أتخلى عن اللقاءات الجنسية الجماعية ، وكان على السوفييتي ان يعود الى بلده دون أن ينعم بذلك اللقاء المأمول .

★ ★ ★

مدريد :

المدينة الجامعية

١٩١٧ ـ ١٩٢٥

لم يكن قد سبق لي أن زرت مدريد سوى مرة واحدة ، مع أبي ، ولأيام قليلة ، عندما عدت عام ١٩١٧ مع أبوي ، للبحث عن مكان أتابع فيه دراستي . احسست بالعجز عن الحركة بسبب ريفيي ، فأخذت أراقب الناس خلسة ، كيف يلبسون ، وكيف يتصرفون ، لكي اقتدي بهم . وما زلت أتذكر أبي ، بقبعة القش ، يعطيني ايضاحاته بصوت عال في شارع « الكالا » ـ القلعة ـ وهو يشير بعصاه . بينما كنت أنظر في اتجاه آخر ويداي في جيبي ، كما لو لم أكن معه .

زرنا عدة بنسيونات من النمط الكلاسيكي ، وأكلنا فيها « كوثيدو » على الطريقة المدريدية ، بالحمص والبطاطا وشحم الخنزير والسجق وأحياناً قطعة من اللحم أو الدجاج . كانت أمي ترفض مجرد الاستماع الى الحديث عن مسألة بقائي هناك ، وخاصة بسبب تخوفها من ذلك النوع من الحرية في العادات .

أخيراً ، وبفضل توصية أحدهم هو « السيناتور بارتولوميه ايستيبان » جرى تسجيلي في المدينة الجامعية ، التي بقيت فيها سبعة أعوام . وتركت لدي ذكريات على درجة كبيرة من الأهمية والغنى ،بحيث أستطيع التأكيد ، دون أي تردد ، انني لو لم أدخل هذه المدينة الجامعية لكانت حياتي قد اختلفت كثيراً .

كانت المدينة الجامعية عبارة عن مجموعة من المناطق الجامعية على الطريقة الانكليزية ، ولم تكن تكاليفها اليومية تزيد عن سبع بيسيتات للغرفة المستقلة واربع بيسيتات للفرد في الغرفة المزدوجة . وكان والداي يدفعان تكاليف اقامتي ، بالاضافة الى عشرين بيسيتا كمصروف اسبوعي - وهو مبلغ جيد ، لم أكن قد تناولت مثله في السابق . وكنت في كل مرة اذهب في اجازة الى سرغوسة ، اطلب من أمي أن تتدبر تسديد الديون المتراكمة ، دون أن يعرف أبي شيأ عن هذا الأمر على الاطلاق .

كان مدير المدينة هو السيد « البرتو خيمينيث » ، وهو مالاقي ، ذو ثقافة عالية . كان بالامكان هناك التحضير لأي اختصاص دراسي . وكانت المدينة تشتمل على العديد من قاعات الاجتماعات وخمسة مخابر ومكتبة وعدة ملاعب رياضية ، مما كان يسمح بمتابعة العديد من النشاطات المتنوعة خلال العام الدراسي .

عندما سألني أبي ، قبل مغادرتي سرغوسه ، عما أريد أن اصبحه . وكنت لا أرغب إلاّ بمغادرة اسبانيا ، أجبته بأن حلمي الاكبر هو ان اصبح مؤلفاً موسيقياً واذهب الى باريس للدراسة في الـ « سكولا كانتوروم » . ولم يكن هذا يروق لوالدي ، اذ ان ما كان يتمناه لي ، هو مهنة جادة لأن « الكل يعرف بأن المؤلفين الموسيقيين يموتون جوعاً » . حينئذ حدثته عن ميلي للعلوم الطبيعية وعلم الحشرات ، فنصحني : « اعمل مهندساً زراعياً » . وبصورة ما ، بدأت دراسة الهندسة الزراعية . لكن ، للأسف ، مع انني كنت الاول في مادة البيولوجيا ، فقد رسبوني بمادة الرياضيات ثلاثة أعوام متتالية . كنت اتوه باستمرار في الأفكار المجردة ، كانت بعض الحقائق الرياضية واضحة بالنسبة إليّ ، غير انه لم تكن لديّ الطاقة الكافية لمتابعة التشعبات المتوالدة لأحد البراهين .

عندما أغضبت هذه العلامات المتدنية ابي ، الزمني بالبقاء في سرغوسة لعدة اشهر لمتابعة دروس خصوصية . وعندما عدت الى مدريد في آذار ، لم اجد غرفة شاغرة في المدينة الجامعية ، فقبلت دعوة « خوان ثينتينو »

شقيق صديق لي هو « اوغوستو تينتينو » . كان يدرس الطب ، ويذهب يومياً بصورة مبكرة جداً . قبل أن يغادر كان يمضي وقتاً طويلاً أمام المرآة في ترتيب شعره . لكنه كان يفعل ذلك فقط من الجهة الأمامية . تاركاً مؤخرة راسه دون ترتيب . وبسبب هذا السلوك الغريب ، الذي كان يتكرر يوما بعد يوم ، انتهيت خلال اسبوعين او ثلاثة الى كراهيته ، على الرغم من معروفه معي ، وهي كراهية غير عقلانية . جاءت من احد التلافيف الغامضة للاشعور .

ولكي أرضي والدي ، غيرت الاختصاص ، وقررت دراسة الهندسة الصناعية ، وهي دراسة تتضمن كل الانظمة التقنية والميكانيكية والكهرطيسية ، وتستغرق ستة اعوام ، نجحت في امتحان الرسم الصناعي وقسم من الرياضيات (بفضل الدروس الخاصة) ، وخلال الصيف ، في « سان سيباستيان » تحدثت الى اثنين من اصدقاء أبي ، أحدهما « آسين بالاثيوس » وكان مستعربا بارزا ، والآخر كان مدرسا لي في معهد سرغوسة ، عن متاعبي مع الرياضيات ، وعن مللي وعدم رغبتي في متابعة اختصاص يستغرق كل تلك الاعوام ، فتدخلا لدى والدي الذي اقتنع بان يدعني انصرف الى ميلي باتجاه العلوم الطبيعية .

كان متحف التاريخ الطبيعي يقوم على مقربة من المدينة الجامعية ، وقد عملت هناك مدة عام كامل ، بمتعة كبيرة ، باشراف «ايغناثيو بوليفار» أشهر عالم حشرات في العالم خلال تلك الايام . ومازلت استطيع حتى اليوم ، التعرف ، ومن النظرة الاولى ، على الكثير من الحشرات ، واعطاء اسمائها باللاتينية .

بعد تلك السنة ، وخلال رحلة الى « الكالا دي هيناريس » تحت اشراف « آميريكو كاسترو » الاستاذ في مركز الدراسات التاريخية ، علمت أن عددا من الدول يطلب اساتذة مساعدين للغة الاسبانية ، ودفعتني غبتي بالسفر الى أن أتقدم في الحال لهذا الغرض . لكنهم لن يقبلوا طلاب العلوم الطبيعية ، ولكي أحصل على منصب الاستاذ المساعد كان علي أن

ادرس الادب او الفلسفة ، وكان هذا ما انهى دوراني وبشكل حاسم ، وبدأت التحضير للاجازة في الفلسفة ، التي كانت تتألف من ثلاثة فروع : التاريخ والآداب والفلسفة . واخترت التاريخ .

هذه التفاصيل اصبحت ثقيلة ، أعرف ذلك ، لكن اذا كان لابد من متابعة طريق الحياة المذكورة خطوة فخطوة ، ومعرفة من أين يبدأ والى أين يذهب ، لابد من ان نميز ما بين مالا حاجة لنا به ، عما لا غنى لنا عنه.

في المدينة ايضا ، كان لدي اهتمام بالرياضة . كنت كل صباح ، اجري عبر ميدان الفروسية الخاص بالحرس المدني ، بسروال قصير وقدمين حافيتين ، حتى في الايام التي كانت تكتسي الارض فيها بالجليد. كما كونت فريقا رياضيا للكلية ، شارك بمسابقات جامعية عديدة ، حتى انني مارست الملاكمة ، كهاو ، غير أنني لم أشارك الا في مباراتين ، فزت في الاولى لعدم التكافؤ مع الخصم ، اما الاخرى فقد خسرتها بالنقاط في خمس جولات بسبب افتقاد الرغبة في الصراع ، حيث لم افعل اكثر من مجرد حماية وجهي .

كان أي تمرين يبدو لي جيدا ، حتى تسلق واجهة المدينة الجامعية . لقد حافظت طوال حياتي ـ او اقل قليلا ـ على قوتي العضلية التي اكتسبتها في ذلك الحين . وكانت منطقة الوسط لدي قوية بشكل خاص ، وقد توصلت الى تنفيذ ما يشبه بعض فقرات السيرك ، اذ كنت استلقي على الارض ، ويقوم اصدقائي بالقفز فوق بطني . وكان من بين اختصاصاتي الاخرى « المكاسرة » بالمعصم ، وكثيرا ما تنافست في هذا المجال ، على طاولات البارات والمطاعم ، وحتى عمر متقدم .

في المدينة الجامعية ، وجدت نفسي امام اختيار لا مفر منه ، تمثل بالمحيط الذي كنت أعيش فيه والحركة الادبية التي كانت ناشطة فيمدريد آنذاك ، واللقاء مع عدد من الاصدقاء المتازين . اما في اية لحظة تقررت حياتي ، . . يبدو لي اليوم من المستحيل أن أستطيع تحديد ذلك .

كانت اسبانيا تعيش في تلك الايام ، فترة اتصورها الآن ــ بالمقارنة مع ما تلاها ــ هادئة نسبيا . كان الحدث الكبير هو ثورة « عبد الكريم » في مراكش ، والاخفاق الكبير الذي عانت منه القوات الاسبانية في « أنوال » عام ١٩٢١ ، وهو العام الذي كان علي فيه ان أبدأ خدمتي العسكرية . قبل ذلك بفترة قصيرة ، كنت قد تعرفت بشقيق عبد الكريم ، وكان هذا سببا في أنهم رغبوا فيما بعد بايفادي في مهمة الى مراكش ، لكنني رفضت

في ذلك العام ، وبسبب حرب مراكش ، أوقف العمل بالقانون الذي كان يسمح بدفع مبلغ من المال لقاء تقصير مدة الخدمة . وجاء تصيبي في فرقة للمدفعية ، كان قد تقرر اعفاؤها من الذهاب مجددا الى مراكش بعد أن حققت بعض الامجاد في الحرب الاستعمارية . ومع ذلك ، فذات يوم ، وتحت ضغط الظروف ، قالوا لنا : « غدا سنذهب » . في تلك الليلة فكرت بالفرار بصورة جدية ، وهو ما نفذه فعلا اثنان من الاصدقاء، اصبح احدهما مهندسا في البرازيل .

أخيرا ، الغي امر الذهاب ، وامضيت كامل خدمتي في مدريد ، دون أن يحصل ما له اية اهمية خاصة . واستطعت أن اعود الى اللقاء باصدقائي ، حيث كان يسمح لنا بالخروج كل ليلة للمبيت في المنزل ، باستثناء ايام المناوبة . واستمر هذا اربعة عشر شهرا .

خلال ليالي المناوبة ، عرفت آمرا جديدا علي ، هو « الحسد » . كنا ، خلال فترات انتظار دورنا في الحراسة ، ننام بألبستنا ، بل وحتى بأسلحتنا وذخيرتنا ، بسبب كثرة حشرات البق . في الغرفة المجاورة كان ضباط الصف يلعبون الورق ، الى جوار مدفآتهم الكبيرة وهم يتناولون كأسا بعد آخر من النبيذ الجيد . كان أكثر ما أرغب ؛ في العالم ، خلال تلك اللحظات ، هو أن أكون ضابط صف .

هناك بعض مراحل من حياتي لا اتذكر منها أكثر من صورة او احساس

او انطباع ، وأظن أن الشيء نفسه يمكن أن يحدث لكم مع الآخرين : كراهيتي لـ « خوان ثينتينو » وشعره غير المرتب ، والحسد تجاه مدفأة ضباط الصف .

وخلافا لمعظم اصدقائي ، وعلى الرغم من شروط الحياة غير المريحة ، وعلى الرغم من البرد ، والملل ، فانني احتفظ ببعض الذكريات الجيدة عن « اليسوعيين » ، وعن الخدمة العسكرية ، فهناك رأيت وتعلمت أشياء لا يمكن تعلمها في أي مكان آخر .

بعد حصولي على الاجازة الجامعية ، التقيت بالضابط الذي كان رئيسي في الخدمة العسكرية ، في احدى الامسيات الموسيقية ، ولم يزد عن قوله لي :

ــ لقد كنت مدفعيا جيدا .

....

عاشت اسبانيا لعدة سنوات تحت الحكم الديكتاتوري لـ « بريمو دي ريڤيرا » والد مؤسسة « الكتائب » . وقد بدأت الحركة العمالية والنقابية والفوضوية بالنمو ، مع الولادة المتواضعة للحزب الشيوعي الاسباني .

ذات يوم ، لدى عودتي الى سرغوسة ، علمت في المحطة ، انه في اليوم السابق ، كانت مجموعة من الفوضويين ، قد قامت ، في شارع مكتظ بالناس ، باغتيال « داتو » رئيس مجلس الوزراء ، وفي السيارة التي استقليتها من هناك ، أراني السائق آثار الرصاص في شارع « الكالا » .

في يوم آخر ، علمنا ، وبكثير من الفرح ، أن عددا من الفوضويين ، بقيادة « اسكاسو » و « دوروتي » ــ ان لم تخني الذاكرة ــ اغتالوا « سولديڤيا روميرو ــ رئيس أساقفة سرغوسة » الشخصية السمجة والمكروهة من الجميع بمن فيهم عمي الكاهن . ذلك المساء احتفلت المدينة بأسرها بأن شربت نخب « طلوع روحه » .

استطيع القول ، من ناحية ثانية ، أن وعينا السياسي ، كان بالكاد قد اخذ بالاستيقاظ ، باستثناء ثلاثة أو أربعة من بيننا . أما الآخرون ، فلم يكن تشعر بضرورة هذا الوعي السياسي حتى عام ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ ، قبل اعلان الجمهورية . كنت ، حتى ذلك الحين ـ مع استثناءات نادرة ـ لا مفر لي أكثر من اهتمام محدود بأولى المجلات الفوضوية والشيوعية ، ومن خلال هذه الاخيرة تعرفنا على نصوص لـ « لينين » و « تروتسكي » .

كانت المناقشات السياسية الوحيدة التي أشارك فيها ـ في مدريد ـ هي تلك التي كانت تجري في منتدى مقهى « بلاتيرياس » في شارع مايور. وقد لعب هذا المنتدى دورا هاما جدا في حياة مدريد ، عموما ، وليس فقط في الحياة الادبية . كان الناس يلتقون هناك ، ضمن مجموعات مهنية، ودائما في نفس الامكنة ، فيما بين الثالثة والخامسة بعد الظهر ، أو بدءا من التاسعة مساء . كان المنتدى يضم مابين الثمانية والخمسة عشر عضوا ، وجميعهم من الرجال ، ولم تظهر أولى النساء الا مع بداية الثلاثينات ، ومع ذلك فقد كان ذلك على حساب النيل من سمعتهن .

في الركن الذي كانت تلتقي فيه الندوة السياسية ، من منتدى مقهى « بلاتيرياس » ، كان يتواجد « سامبلانكات » ، وهو فوضوي من أراغون ، كان يكتب في عدة مجلات من بينها « اسبانيا الجديدة » ، وكان تطرفه معروفا ، لدرجة أن الشرطة كانت تقوم باعتقاله بصورة آلية اثر أي حادث أعتداء ، وهذا ما حصل بعد اغتيال « داتو » . كما كان يتردد الى هناك ، بين الحين والآخر ، « أوخينيو دورس » ، و « سونتالاريا » الذي كان يدير في اشبيلية صحيفة ذات اتجاهات فوضوية ، في الايام التي كان يتواجد فيها بمدريد .

وقد اتيح لي هناك ، التعرف على ذلك الشاعر الغريب والرائع ، الذي يدعى « بيدرو غارفياس » ، وهو انسان كان يستطيع أن يمضي خمسة عشر يوما وهو يبحث عن كلمة « نعت » مناسبة ، وكنت عندما اراه ابادر فورا الى سؤاله :

ـ هل عثرت على هذا « النعت » ؟

ـ « لا ، مازلت مستمرا بالبحث » . كان يجيبني وهو يبتعد ، مستغرقا في التفكير .

مازلت احتفظ في ذاكرتي ، باحدى قصائده . وهي بعنوان «الغريب»، من كتابه « تحت جناح الجنوب » :

« تنساب آفاق من عينيك
ينسال حفيف رمال بين الاصابع
وحزمة من احلام منهارة
فوق كتفيك المرتعشين
الجبل والبحر ، كلباك ،
كانا يقفزان اثر خطواتك
الجبل ناهل ، البحر واثب . »

كان « غارفياس » يتقاسم غرفة متواضعة مع صديقه « اوخينيو مونتيس » في شارع « اوميا ديرو » . ذات صباح ذهبت لرؤيتهما ، حوالي الساعة الحادية عشرة . واذكر كيف كان « غارفياس » ، خلال حديثه ، يقوم ، وبحركة بطيئة ومتثاقلة ، بابعاد « البق » الذي كان يسرح فوق صدره .

خلال الحرب الاهلية ، نشر عدة قصائد وطنية ، لم تعجبني كثيرا. ثم هاجر الى انكلترا دون معرفة كلمة انكليزية واحدة ، وقد استضافه انكليزي لايعرف شيئا عن اللغة الاسبانية . ومع ذلك فقد كانا يتحادثان، لساعات طويلة ، وبكثير من الحيوية والنشاط .

بعد الحرب ، جاء الى المكسيك ، كالكثيرين من الاسبان الجمهوريين،

وعاش كالمتسول ، كان شديد القذارة ، يتجول بين المقاهي وهو يقرا قصائده بصوت مرتفع ، ثم مات وهو في غاية البؤس .

....

كانت مدريد ، العاصمة الادارية والفنية ، ماتزال مدينة صغيرة . وكثيرا ما كنا نتنقل ، سيرا على الاقدام ، من أحد اطراف المدينة الى طرفها الآخر . كان الناس جميعا ، يعرف بعضهم البعض الآخر ، واللقاء بين المعارف في أي مكان وأية لحظة كان أمرا عاديا ومالوفا .

ذات مساء ، ذهبت مع أحد الاصدقاء الى « كاستيا » ، فرأيتهم قد وضعوا فيه بعض الحواجز لكي يعزلوا قسما من الصالة ، وقال لنا النادل أن « بريمودي ريڤيرا » سيأتي لتناول طعام العشاء مع شخصين أو ثلاثة. وعندما وصل ، أمر بازالة الحواجز في الحال . ولما رآنا بادرنا :

ـ « مرحبا يا شباب » !.. نخب صحتكم !..

التقيت ايضا ب « الفونسو الثالث عشر » . كنت اطل من نافذة غرفتي بالمدينة الجامعية واضعا قبعة القش فوق شعري المرتب باتقان وبمثبت الشعر ، واذ بسيارة الملك تتوقف فجأة أمام النافذة وكان برفقته السائق واثنان من المرافقين . (كنت أيام الشباب متيما بالملكة الحسناء ڤيكتوريا) . ترجل الملك من السيارة وتوجه اليّ بالسؤال ، كان يبحث عن عنوان ما . وعلى الرغم من أنني كنت اعتبر نفسي فوضويا في ذلك الوقت ، فقد ارتبكت ، وأجبت بادب جم ، وحتى أنني دعوته بصاحب الجلالة . لكن ، عندما ابتعدت السيارة ، لاحظت بانني لم انزع قبعتي .

رويت هذه المغامرة لمدير المدينة الجامعية ، غير أن سمعتي في مجال المزاح ، دفعته الى أن يعمد الى التأكد من مدى صدقي عن طريق احد سكرتيري القصر .

في احد المنتديات ، كان الجميع يصمتون فجاة ، في بعض الاحيان ، ويشيحون بأنظارهم ، عندما كان يدخل المقهى ، احد الاشخاص ممن كانوا يعتبرون كـ « نذير شؤم » . كان الكثيرون في مدريد ، يعتقدون بضرورة تفادي الاقتراب من اشخاص معينين لانهم كانوا يجلبون الحظ السيء . ونظرا لان عدة ممثلين توفوا بعد تصوير أفلام معي ، فقد اتهمني بعض الاصدقاء بأنني « نذير شؤم » ، وهذا ليس صحيحا ، وانفيه بكل قواي . حتى اذا لزم الامر فـان اصدقاء آخرين يمكن أن يشـهدوا في صالحي على هذا .

في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، عرفت اسـبانيا جيلا من الكتاب العظام الذين كانوا معلمين فكريين بالنسـبة الينا . وقد تعرفت بمعظمهم ، وكان من بينهم « اورتيقا إي غاسيت » و « أونامونو » و « بابيه انيكلان » و « اوخينيـو دورس » وغيرهـم . تعرفت أيضـا بـ « قالدوس » العظيم ، وكان اكبر سنا من هؤلاء الآخرين ، ومن مدرسة اخرى . وقد اعتدت عليه فيما بعد « نازارين » و « تريستانا » .والحقيقة اقول بانني قد رايته مرة واحدة فحسـب ، وكان ذلك في بيته كان عجوزا جدا وشبه اعمى ، يجلس قرب المدفاة ، واضعا دثارا على ركبتيه .

كان « بيو باروخا » أيضا روائيا بارزا ، لكنه لم يثر اهتمامي علـى الاطلاق . كذلك اود أن أشير الى « انطونيو ماتشـادو » والشـاعر الكبير « خوان رامون خيمينيث » و « خورخيه غيئين » و « ساليناس » .

ذلك الجيل الشـهير ، الذي يقف بثبات ، ودون ان تطرف له عـين ، في جميع متاحف الشمع باسبانيا ، هو الذي أعقبه ما دعي بجيل ١٩٢٧ ، الذي انتمي انا اليه ، ومنه رجال مثل « لوركا » و « البرتي » والشاعر « آلتو لاغيره » و « ثيرنودا » و « خوسـيه بيرغامين » و «بيدرو غارفياس». وما بين هذين الجيلين ، كان هنـاك رجلان عرفتهما عن قرب . « مورينو ڤيبا » و « رامون غوميث دي لاسيرنا » .

ومع أن « مورينو ڤيا » ، (اللاڤي ، مثل بيرغامين وبتكاسو) ، كان يكبرني بخمسة عشر عاما ، فهو لم يكن ينفصل عن مجموعتنا . كان يقطن في المدينة الجامعية بترخيص خاص ، وخلال وباء الانفلوانزا عام ١٩١٩ الذي قتل الكثيرين ، بقينا وحدنا في المدينة ، كان رساما وكاتبا موهوبا ، وكان يعيرني الكتب ، ومنها « الاحمر والاسود » . والذي قرأته خلال أيام الوباء . في تلك الفترة اكتشفت أيضا « آبولينير » في « المغني الفاسد » .

أمضينا سنوات تجمعنا صداقة حميمة ، وعندما أعلنت الجمهورية عام ١٩٣١ ، عهد الى « مورينو ڤيا » بالاشراف على مكتبة القصر الملكي . وفيما بعد ، خلال الحرب الاهلية ، انتقل ، منسحبا الى ڤالنسيا، مثل سائر المثقفين ذوي الاهمية الخاصة . التقينا فيما بعد في باريس، ثم في المكسيك ، وهناك توفي ، عام ١٩٤٨ ، وكان آنذاك عاطلا عن العمل .

أما « رامون غوميث دي لاسيرنا » ، الذي كنت على وشك ان ابدأ معه عملي كسينمائي بعد بضع سنوات ، فقد كان ، خلال الاعوام التي امضيتها في المدينة الجامعية ، شخصية ادبية هامة ، بل وربما الشخصية الاكثر شهرة في الآداب الاسبانية . كان مؤلفا للعديد من الاعمال القيمة ، وكان ينشر في جميع المجلات .

ذات يوم حضر عرضا للسيرك في باريس ، بدعوة من قبل مجموعة من المثقفين الفرنسيين ، حيث كان يعمل « آل فراتيلليني » . وهناك امتطى « رامون » أحد الافيال وهم بالقاء بعض الفكاهات ، ولم يكد يتلفظ بكلمات قليلة حتى كان الجمهور قد غرق بالضحك ، وفوجيء رامون بهذا « النجاح الباهر » ، اذ انه لم يلحظ ان الفيل كان قد عمد الى قضاء بعض حاجاته الضرورية وسط الساحة .

كان « غوميث دي لاسيرنا » يلتقي بمجموعته الادبية في مقهى «پومبو» على مسافة بضع خطوات من « بويرتا ديل سول » ، أيام السبت ، من التاسعة مساء وحتى الواحدة بعد منتصف الليل . ولم يكن يفوتني أي

من تلك اللقاءات ، التي كنت أتواجد فيها مع معظم اصدقائي . وكان يشارك في هذه اللقاءات « خورخيه لويس بورخيس » من حين لآخر .

اخت « بورخيس » تزوجت من « غييرمو دي توريه » ، الشاعر ، والذي كان كناقد اكثر اهمية ، وقد تعرف بشكل وثيق على الطليعة الفرنسية ، كما كان من الاعضاء الاكثر اعتبارا في الـ Ultraismo الاسبانية . كان معجبا بـ « مارينيتي » وكان يتفق معه على ان « قاطرة » يمكن ان تكون أجمل من لوحة لـ « بيلاتكيث » ، ولهذا فليس بمستغرب انه كتب :

ارغب بها كحبيبة

تلك المروحة المتنفخة

لطائرة مائية

كانت أكثر المقاهي الادبية في مدريد أهمية هي مقهى « خيخون » الذي مازال قائما ، و « لاغرانجا ديل إينار » ومقهى « كاستيا » و « فورنوس » و « كوتس » ومقهى « لامونتانيا » الذي كان يبدل طاولاته الصغيرة باستمرار كلما لطخها الرسامون (وكنت اذهب اليه يوميا بعد انتهاء الدروس ، لكي أتابع الدراسة) ، ومقهى « پومبو » حيث كانت لقاءات « غوميث دي لاسيرنا » أيام السبت . كنا نصل ، يحيي بعضنا البعض الاخر ، نجلس ، نطلب ما نشربه ، وهو ، بصورة شبه دائمة ، القهوة والكثير من الماء (كان عمال الخدمة لا يتوقفون عن جلب الماء) ؛ وتبدأ الحوارات التائهة ، والتعليقات الادبية حول آخر الاصدارات ، وآخر القراءات ، والاخبار السياسية . كنا نستعير كتبا ومجلات أجنبية ، ونتناول الغائبين . واحيانا كان أحد المؤلفين يقرأ بصوت عال ، قصيدة أو مقالا ، فكان « رامون » يبدي رأيه الذي كان محترقا دائما دون ان يكون معفيا من النقاش في بعض الاحيان ، وكان الوقت يمضي سريعا ، وفي كثير من الليالي ، كنا ، وضمن مجموعة من الاصدقاء ، نتابع أحاديثنا خلال تجوالنا في الشوارع .

كان طبيب الامراض العصبية « سانتياغو رامونه اي كاخال » الحائز على جائزة نوبل ، واحد العلماء الاكثر اهمية في عصره ، يذهب كل مساء الى مقهى « برادو » فيجلس وحيدا الى طاولة في عمق المقهى . في ذلك المقهى ، وعلى مسافة طاولات قليلا منه ، كان يجتمع منتدى للشعراء ال Ultraista ، وكنت انا منهم .

صديق لنا ، هو الصحفي والكاتب « آراكيستين » ـ الذي أصبح فيما بعد ، وخلال الحرب الأهلية ، سفيرا في باريس ـ التقى في الطريق ذات مرة ، مع شخص يدعى « خوسيه ماريا كارتيرو » وهو روائي من الدرجة الدنيا ، وعملاق طوله متران ، كان يوقع اعمال بالاسم المستعار « الفارس الجريء » . « كارتيرو » أمسك ب « آراكيستين » من ياقة سترته ، شاتما اياه وهو يلقي في وجهه مقالا كان صديقنا قد نشره متناولا اياه بصورة سلبية ، (وهو على كثير من الصواب) . لكن « آراكيستين » اجابه بصفعة ، ثم قام المارة بالتفريق فيما بينهم .

هذه الحادثة احدثت ضجة كبيرة في الوسط الادبي ، وقررنا اقامة حفلة تكريم ل « آراكيستين » ، وجمع التواقيع تأييدا له . أصدقائي Ultraista ، يعرفون صلتي ب « كاخالا » ، فطلبوا الي ان أحصل على توقيعه الذي سيكون التوقيع الاكثر اهمية بين الجميع .

ذهبت اليه ، الا أن « كاخال » ، الذي كان قد اصبح عجوزا جدا ، رفض التوقيع ، معتذرا بأن صحيفة A.B.C التي كان ينشر فيها « الفارس الجريء » عادة ، كانت قد بدأت بنشر مذكراته ، وخشي ان هو وقع ، ان تقوم الصحيفة بفسخ العقد معه .

ومن جهتي انا أيضا ، ولو كان هذا لاسباب مختلفة ، ارفض دائما توقيع العرائض التي تقدم الي ، لان اكداس التواقيع لا تفيد بأكثر من اراحة الضمير ، انا اعرف طبعا ان موقفي قابل للنقاش ، لذلك أطلب لو حدث لي امر ما ، لو وضعوني في السجن مثلا ، او اختفيت ان لايقوم احد بالتوقيع من اجلي .

البرتي ، لوركا ، دالي

كان رافائيل البرتي ، المولود في « بورتودي سانتا ماريا » قرب « قادس » واحدا من اهم وجوه مجموعتنا . وهو يصغرني بسنتين – ان لم اكن مخطئا ، وكنا نعتبره منذ البداية رساما . وبعض رسومه التي نفذها نجار الذهب كانت تزين جدران غرفتي . ذات يوم ، ونحن نتناول كأسا ، قال لي صديق آخر لنا هو « داماسو الونسو » – الرئيس الحالي للاكاديمية الملكية للغة الاسبانية

– أتعرف من هو شاعر كبير ؟ . . البرتي !

وعندما رأى دهشتي ، قدم لي ورقة قرات فيها قصيدة ، مازالت اذكر بدايتها :

الليلة التي أعدمت

على مشنقة فوق شجرة ،

افراح جاثيــة

تقبل وتمسح النعالا

في تلك الأوقات ، كان الشعراء الاسبان يعمدون الى البحث عن صور وتعابير غير متوقعة ، مثل « الليلة التي أعدمت » ، و « نعال الليلة » ، وقد اعجبتني في الحال تلك القصيدة التي نشرت في مجلة « الافق » والتي سجلت بداية « البرتي » . وتوطدت صداقتنا ونمت ، وكنا ، في تلك السنوات من حياتنا في المدينة الجامعية ، لا نكاد نفترق . عدنا فيما بعد للقاء في مدريد مع بداية الحرب الأهلية . ثم ذهب « البرتي » الى موسكو حيث قلد وساما من قبل « ستالين » . وخلال أيام فرانكو عاش في الارجنتين وايطاليا ، ومن ثم عاد ليعيش الان في اسبانيا .

الشاعر « اينوخوسا » ، كان ابن اسرة غنية من اصحاب الاراضي

في منطقة « مالاقا » ـ اندلسي آخر ـ ، عصري وجريء في اشعاره ، محافظ في افكاره وسلوكه السياسي ، التحق بالحزب اليميني المتطرف لـ « لامامييه دي كليراك » ، واعدم من قبل الجمهوريين . عندما تعارفنا في المدينة الجامعية ، كان قد نشر كتابين او ثلاثة من نتاجه الشعري .

« فيديريكو غارثيا لوركا » ، لم يصل الى المدينة الجامعية الا بعد وصولي اليها بعامين ، جاء من غرناطة بتوصية من استاذه في علم الاجتماع السيد « فرناندو دي وس ريوس » ، وكان قد نشر كتابا في النثر : « انطباعات ومشاهد » ، تحدث فيه عن اسفاره مع السيد فيرناندو ومع اخرين من الطلبة الاندلسيين .

لامع لطيف ، مع ميل واضح للاناقة ، وربطة العنق المعقودة باتقان والنظرة الداكنة البراقة . كان فيديريكو ذا جاذبية ومغناطيسية لا يمكن لاحد مقاومتهما ، كان يكبرني بسنتين ، وابنا لاحد أصحاب الأملاك الأغنياء الريفيين ، جاء الى مدريد ، في البداية ، لدراسة الفلسفة ، لكنه سرعان ما تخلى عن الدروس وانخرط في الحياة الادبية ، لم يتأخر في التعرف على الجميع وفي جعل الجميع يتعرفون عليه . كانت غرفته في المدينة الجامعية تقع في واحد من اماكن الاجتماعات الاكثر اهمية في مدريد .

بدات صداقتنا العميقة منذ لقائنا الاول . وعلى الرغم من التناقض الذي كان قائما بيننا ، والذي كان تناقضا لا حدود له ، بين الاراغوني الفظ والاندلسي الصافي ، او لربما بسبب هذا التناقض نفسه ـ ، كنا نتواجد معا بصورة شبه دائمة . كنا نذهب في الليالي الى أحد الاماكن الخلوية وراء المدينة الجامعية (كانت الحقول تمتد انذاك حتى الأفق) وقد اخذت اتحول شيئا فشيئا ، بمعاشرته ، الى الانفتاح امام عالم جديد راح يبشرني به يوما اثر يوم .

جاء احدهم ، ذات مرة ، ليقول لي ان المدعو « مارتين دومينغيث » وهو فتى باسكي ، يؤكد ان لوركا شاذ جنسيا ، ولم استطع تصديقه ،

اذ لم يكن هناك ما يسمح الافتراض بأن فيديريكو كان كذلك . بالمناسبة . لم يكن في مدريد آنذاك اكثر من اثنين او ثلاثة من المعروفين بالشذوذ الجنسي .

كنا جالسين في قاعة الطعام ، واحدنا بجانب الآخر ، مقابل طاولة الرئاسة ، التي كان يجلس اليها في ذلك اليوم « اونا موتو » و « اوخينيو دورس » و السيد «البرتو » مديرنا . بعد تناول الحساء ، قلت لفيديريكو بصوت منخفض

ـ لنذهب خارجا ، أود أن أتحدث اليك بأمر خطير جدا .

وافق بشيء من الاستغراب . قمنا ، اخذنا اذنا بالخروج قبل ان ننهي طعامنا . وذهبنا الى حانة قريبة . هناك ، ومباشرة ، قلت لفيديريكو بانني انوي ان اتضارب مع « مارتين دومينغيث » الباسكي .

ـ لماذا ؟ سألني لوركا .

ترددت لحظة ، لا ادري كيف أوضح له ، وفجأة سألته :

ـ هل صحيح انك شاذ جنسيا ؟

انتصب واقفا وكأنه جرح في الصميم ، وقال لي :

ـ انت وانا ، انتهى كل ما بيننا .

وذهب .

وبالطبع ، فقد تصالحنا في الليلة نفسها . لم يكن لدى فيديريكو اي شيء من التخنث ، ولا ادنى حد من التكلف . كذلك لم تكن تروق له السخرية ولا المزاح الذي ... الاحترام ، من مثل ما فعل اراغون ، ذات مرة على سبيل المثال ، عندما جاء الى مدريد بعد عدة سنوات ليعقد لقاء في المدينة الجامعية ، اذ سأل المدير ، غامزا منه ـ وقد حقق ما رمى اليه ـ هل تعرف حضرتك مرحاضا ممتعا .. ؟

امضينا معا ، نحن الاثنين وحدنا ، او برفقة آخرين ، ساعات لا تنسى لقد جعلني لوركا اكتشف الشعر ، وخاصة ، الشعر الاسباني ، الذي كان يعرفه بصورة رائعة . كذلك ساعدني في التعرف على بعض الكتب ، مثل « الاسطورة الذهبية » ، اول كتاب وجدت فيه شيئا يتعلق بالقديس سمعان العمودي ، والذي اصبح فيما بعد « سمعان الصحراء » . لم يكن فيديريكو يؤمن بالله ، الا انه كان قد حافظ وتربى على مفهوم فني عميق للدين .

احتفظ بصورة فوتوغرافية لنا نحن الاثنين ، جالسين داخل مركبة من الكرتون لاحد المصورين ، في اعياد مهرجان سان انطونيو بمدريد عام ١٩٢٤ . وعلى ظهر الصورة كتب فيدريكو في الساعة الثالثة صباحا (ونحن الاثنين ثملان) ، قصيدة مرتجلة في اقل من ثلاث دقائق ، وقدمها الي . ومع الزمن اخذ اثر قلم الرصاص يمحي شيئا فشيئا ، فقمت بنسخها كي لا افقدها . يقول فيها :

اول المهرجانات التي بعث بها الله
هو مهرجان سان انطونيو دي لافلوريدا
لويس : في جمال الفجر
تغني صداقتي دائما مزدهرة
القمر ، ضوء عظيم ، وعجلة
للغيوم العالية الهادئة
قلبي ضوء ، وعجلة
في الليلة الخضراء والصفراء
لويس : صداقتي الحارة
تعقد ضفيرة مع النسيم .
الطفل يعزف على البيانو الصغير

حزينا ، دون ابتسامة واحدة ،
تحت الأقواس الورقية ،
اشد على يدك الصديقة .

فيما بعد ، عام ١٩٢٩ ، وفي كتاب اهداه الي ، كتب بعض أبيات من الشعر غير منشورة أيضا ، تعجبني كثيرا :

سماء زرقــاء
حقــل اصفــر

جبــل ازرق
حقـل اصفــر

عبر الصحراء الواسعة
راحت تســير زيتونة

زيتونــة
وحيــدة .

سلفادور دالي ، ابن كاتب بالعدل في « فيغويراس » وصل الى المدينة الجامعية بعدي بثلاث سنوات ، للتخصص في الفنون الجميلة . ولا ادري لماذا كنا ندعوه بالرسام التشيكوسلوفاكي . ذات صباح ، وانا امر امـــام غرفته ، وكان الباب مفتوحا ، رأيته يقوم بوضع اللمســات الأخيرة للوحة من الحجم الكبير ، فأعجبتني كثيرا . وفي الحال ذهبت الى لوركا والاخرين لأقول لهــم :

ــ الرسام التشيكوسلوفاكي يعمل على انجاز لوحة جميلة جدا .

جاء الجميع الى الغرفة ، مبدين اعجابهم باللوحة ، ودخل دالي فــي

مجموعتنا . وللحقيقة اقول : انه وفيدريكو اصبحا افضل اصدقائي : وكنا نحن الثلاثة نلتقي سوية بصورة دائمة . وقد احس لوركا تجاه دالي بشغف حقيقي ، وهو شعور لم يكن بالمقابل ، مختلفا لدى دالي .

كان دالي فتى خجولا ، ذا صوت أجش وعميق ، وشعر طويل جدا قام فيما بعد بتقصيره . كان لديه نزق دائم تجاه المتطلبات الحياتية اليومية ويحرص على ارتداء زي غريب عبارة عن قبعة كبيرة جدا وربطة عنق عريضة وسترة امريكية تصل حتى الركبتين . وقد تسبب هذا في انه كان يعطي الانطباع انه يفعل ذلك بدافع الاثارة ولفت الانظار ، في حين كان يفعل ذلك وبكل بساطة ، لان ذلك يروق له . ولم يكن يمنعه عن الاستمرار في هذا السلوك ، تعرضه احيانا الى شتائم الناس في الشارع .

دالي كتب الشعر ايضا - ونشر . في عام ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ ، وهو في تلك السن المبكرة ، اشترك في مدريد باحد المعارض ، مع رسامين آخرين مثل « بينادو » و « فينييس » . في حزيران (يونيو) ، عندما كان عليه أن يتقدم الى امتحان القبول للفنون الجميلة ، جلس امام هيئة الامتحان الشفهي ، وفجأة صرخ :

ـ لا اعترف لأي من الجالسين هنا بالحق في امتحاني . انا ذاهب .

وذهب بالفعل ، وجاء والده من كاتالونيا الى مدريد لمحاولة اصلاح الامور مع ادارة الفنون الجميلة ، لكن دون جدوى ، وطرد دالي .

لا استطيع أن افصل يوما بيوم كيف كانت سنوات لقاءاتنا تلك ، احاديثنا ، عملنا ، نزهاتنا ، سكرنا ، مواخير مدريد (الأفضل في العالم دون شك) ، وسهراتنا الطويلة في المدينة الجامعية . افتتنت بالجاز لدرجة انني بدأت بالعزف على « البانجو » ، اشتريت اسطوانات امريكية كثيرة وجهاز استماع ، وكنا نستمع بنشوة ، ونحن نشرب الـ « غروغس » بالروم ، الذي كنت أقوم بتحضيره بنفسي ، (كان الكحول ممنوعا في المدينة الجامعية ، بما في ذلك النبيذ مع الطعام ، وكنت أتذرع بالحاجة الى ازالة

البقع عن الأغطية البيضاء . كنا احيانا ننفذ عملا مسرحيا ، وغالبا ما كان ذلك « دون خوان تينوريو » لـ « كوريا » . واحتفظ بصورة فوتوغرافية أظهر فيها كـ « دون خوان » مع لوركا الذي ادى دور « اسكولتور » ، من الفصل الخامس ، واعتقد انني ما زلت احفظ الدور في الذاكرة .

عملت أيضا ما كنا ندعوه بـ « ندى الربيع » . وكان هـذا عبارة عن تصرف احمق ، يتمثل بإفراغ سطل من الماء فوق راس اية واحدة . تذكر « البرتي » ذلك حين شاهد « فرناندو راي » وهو يرش « كارول بوكيه » بالماء على رصيف احدى المحطات في « هذا الغرض القاتم للرغبة » .

« التبجح » هـو من ملامح السلوك الاسباني . وهـو تعبير عن روح علوانية ، وعجرفة « ذكورية » ، واعتداد مفرط بالنفس . وقد ارتكبت ذلك مرات عديدة ، وبخاصة ، ايام المدينة الجامعية ، الا انني كنت اندم في الحال . وعلى سبيل المثال : كانت تعجبني رشاقة وجمال فتاة تتردد على الـ « بالاس ديل بيلو » ، وكنت أدعوها بالشقراء ، دون معرفة بها ، وكنت اذهب الى هناك لمجرد الاستمتاع بمشاهدتها وهي ترقص . كانت زبونة عادية وليست راقصة محترفة . ذات يوم قرر « دالي » و « بيبين بينو » الذهاب معي لمشاهدتها بعد أن ملوا من سماعي وأنا اتحدث عنها . كانت الشقراء ترقص مع رجل رصين ، ذي نظارتين وشاربين صغيرين ، وقد أطلقت عليـه لقب « الطبيب » . واعلن دالي انه خـاب أمله بصورة مريعة . واستنكر ازعاجي له على هذا النحو ، قائلا لي إن شقرائي لا تتمتع بأية فتنة ولا بأي ظرف .

ـ ذلك لأن رفيقها غير مناسب على الاطلاق ـ اجبته .

نهضت ، اقتربت من الطاولة التي كانت تجلس اليها الفتاة و«الطبيب» وقلت لهذا :

ـ أنا جئت مع صديقين لمشاهدة الآنسة وهي ترقص ، الا ان حضرتك قد أفسدت كل شيء . كفَّ عن الرقص معها . هذا كل ما عليك أن تفعله .

استدرت وعدت الى طاولتنا ، متوقعــا بين لحظة واخــرى أن أتلقى زجاجة على قمة راسي ، حسب العادة التي كانت شائعة تلك الايام . الا ان شيئا من ذلك لم يحصل ، والطبيب . الذي لم يجبني - نهض وانتقل الى الرقص مع اخرى . اقتربت من الشقراء خجلا ونادما وقلت لها :

ــ آسف جداً لما فعلته . حتى أنني ارقص بشكل اسوأ منه .

كان هذا حقيقة ، وبالمناسبة فإنني لم ارقص مع الشقراء على الاطلاق .

....

خلال الصيف ، عندما كان الاسبان يذهبون في اجازاتهم . كان يصل الى المدينة الجامعية ، مجموعات لأساتذة من امريكا الشمالية مع زوجاتهم ، وبعضهن كن جميلات جداً ، وكان الغرض تحسين اسبانيتهم . وكانت تنظم من اجلهم الزيارات واللقاءات المختلفة . وفي لوحة الاعلانات المعلقة في البهو كان يمكن مثلا قراءة : « غداً زيارة الى طليطلة مع (اميريكو كاسترو) » .

ذات يوم ، كان الاعلان : « غداً زيارة الى « برادو » مع « لويس بونيويل » . تبعتني مجموعة حسنة التغذية من الأمريكيين الشماليين ، الذين يتركون ، للوهلة الأولى ، انطباعا بالسذاجة . عندما كنت ارافقهم في قاعات المتحف ، كنت اقول لهم أول ما كان يدور في مخيلتي . مثلا : ان « غويا » كان مصارع ثيران ، وكانت له صلات مشؤومة مع « دوقة آلبا » ، وان لوحة « إحراق الملحدين » هي عمل عظيم لكونها يظهر فيها مائة وخمسون شخصا ، وانه ، وكما يعلم الجميع ، فإن اية لوحة تستمد قيمتها من عدد الشخصيات التي تظهر فيها . وقد أصغى اليّ الامريكيون بجدية كاملة . حتى أن بعضهم راح يدوّن الملاحظات . لكن هذا لم يمنع من أن بعضهم ذهب وشكا امري للمدير .

التنويم المغناطيسي :

في تلك الايام . اخذت اتدرب على التنويم المغناطيسي ، بطريقة عفوية وتلقائية ، واخذت اقوم بتنويم الكثيرين ببساطة متناهية ، ومنهم ، بشكل

خاص ، معلون المحاسب في المدينة الجامعية ، المدعو « ليشكانو » ، الذي كنت اجعله ينظر الى اصبعي بصورة ثابتة ، وقد كلفني ايقاظه ذات يوم كثيراً من الجهد .

فيما بعد ، قرأت كثيراً من الكتب الجادة حول التنويم المغناطيسي ، وجربت وسائل متعددة ، لكن لم تواجهني اية حادثة على درجة من الغرابة مثل حادثة « رافائيلا » .

في ماخور ذي مستوى جيد بشارع الملكة ، كانت تعمل انذاك ، من بين من يعملن ، فتاتان في غاية النشاط ، كانت احداهن تدعى « لولا مدريد » والأخرى « تيريستيا » .

كانت « تيريستيا » تتخذ لها عشيقاً يدعى « بيبه » ، وهو رجل من الباسك ، قوي ولطيف ، وكان يدرس الطب . ذات ليلة كنت آتناول كأساً في منتدى طلبة الطب بمقهى « فورنوس » في شارع « الكالا » عند زاوية « بيليغريوس » ، حين جاء من يقول لنا انه في بيت ليونور (هكذا كان يدعى الماخور) قد حدثت « دراما » . « بيبه » الذي كان يتعامل بكثير من البساطة مع مسألة ان تتركه « تيريستيا » لبرهة من أجل « العناية » بأحد الزبائن ، علم بانها قد تعلقت برجل آخر ، دون أية مبالاة به ، وكان هذا مما لا يسمح به ، وحوّله الى وحش كاسر ، لدرجة انه انهال بالضرب على هذه المتعلقة الأهواء « تيريستيا » .

ذهب طلاب الطب في الحال الى بيت ليونور ، وذهبت أنا معهم . وجدنا « تيريستيا » غارقة بدموعها ، وعلى وشك الاصابة بانهيار عصبي . نظرت اليها ، حدثتها ، أمسكت بيديها وطلبت اليها ان تهدأ وان تنام ، ففعلت ، فاستغرقت في شبه غيبوبة: لا تسمع ولا تجيب على احد سواي . ثم قلت لها بعض العبارات المطمئنة والمهدئة التي تساعدها على التماسك والاستيقاظ بطريقة لطيفة . حينئذ ، دخل احدهم وقال شيئاً مذهلاً : واحدة تدعى « رافائيلا » ، هي أخت « لولا مدريد » كانت تعمل في المطبخ ، وراحت نائمة بصورة مفاجئة خلال قيامي بتنويم « تيريسيتا » . ذهبت

الى المطبخ ، وبالفعل ، شاهدت فتاة في حالة غيبوبة . كانت نحيفة ومشوهة قليلا وحولاء . جلست امامها ، حدثتها برفق وانا أمسح عليها بيدي ، وايقظتهـا .

كانت « رافائيلا » حالة غريبة فعـلا ، فذات يوم راحت في غيبوبة ، دونما سبب سوى مروري أمام باب الماخور . وأستطيع التأكيد بأن هذا كله صحيح ، وقد تحققت منه بكل الوسائل الممكنة . لقد قمنا معا بتجارب عديدة ، حتى أنني شفيتها من حصار بولي بتمرير يدي بلطف فوق بطنها وأنا احدثهـا ، الا أن الأكثر غرابة من بين تلك التجارب هـو ما حصل في سيناريو مقهى « فورنوس » .

كان طلاب الطب ، الذين يعرفون « رافائيلا » لا يثقون بي تماما ، مثلما كان موقفي منهم . ولكي أتفادى أي « مقلب » ، لم أقل شيئا عما اقوم بإعداده . جلست الى طاولتها ــ كان مقهى « فورنوس » يقع على مسافة دقيقتين من الماخور ــ ، واخذت أفكر بتركيز في « رافائيلا » ، آمرا إياها ــ دون أن اتكلم ــ بأن تاتي لتجلس الي . بعد عشر دقائق ، ظهرت رافائيلا عند باب المقهى ، بنظرتها التائهة ، ودون ان تعرف اين هي . امرتها بأن تجلس الى جانبي ، أطاعت ، حدثتها ، هدأتها ، وافاقت بلطف .

بعد هذه الحادثة . بسبعة او ثمانيـة أشهر ، ماتت « رافائيلا » في المستشفى ، وكان وضعها ينبيء بذلك . وقد اثر موتها بي ، وتخليت عن ممارسة التنويم .

في مرات عديدة مارست بعض الالعاب المتعلقة بالعرافة والتكهن . وعلى سبيل المثال ، لعبة القاتل : في احدى الغرف ، حيث يوجد حوالي اثني عشر شخصـا ، انتقي امـرأة بحيث تكون متميزة بالحساسية (تجربتان بسيطتان أو ثلاث تسمح باكتشافها) . اطلب من الآخرين أن يختاروا من بينهم قاتلا وضحية وأن يخفوا سلاح الجريمة في مكان ما . خلال قيامهم بالاختيار أغادر الغرفة ، ثم اعود للدخول . يعصبون عيني وامسك بيد المرأة ، ونقوم بدورة بطيئة في أرجاء الغرفة . وكقاعدة عامة ــ وليس دائما

ـ كنت اكتشف بسهولة تلمة الشخصيتين المختارتين . وكذلك مخبأ سلاح الجريمة ، مستهديا ـ ودون أن تعرف المرأة بالأمر ـ بتقلص يدها البسيط جداً والذي لا يكاد يحس به .

هناك لعبة أخرى ، اكثر صعوبة : اخرج من الغرفة ، بنفس الشروط : وكل واحد من الموجودين عليه حينئذ أن يختار ويلمس غرضاً ـ قطعة اثاث ، لوحة ، كتاب ، قطعة زينة ـ ، مما يوجد في الغرفة ، مجتهداً في ان يجد علاقة حقيقية ، أن يجد تآلفا ما ، مع الغرض المختار ، وأن لا يجري هذا الاختيار دون تفكير . عندما اعود للدخول ، عليّ أن اتكهن بما اختاره كل واحد . انه مزيج من الفعل المنعكس والحدس ، وربما ايضاً « التخاطب عن بعد » . خلال الحرب ، في نيويورك ، قمت بهذه التجربة مع عدد من مجموعة السرياليين المقيمين في الولايات المتحدة : « أندريه بريتون » و « مارسيل دوشان » و « ماكس ارنست » و « تانغي » . في الكثير من المرات لم اكن ارتكب خطأ واحداً ، وكنت اخطىء في مرات اخرى .

وذكرى اخيرة ، فذات ليلة قمنا ، انا و « كلود جاجيه » في الـ « سيليكت » بباريس بطرد كل الزبائن من البار ، وبكثير من الفظاظة ، ولم نبق سوى امرأة واحدة . كنت ثملا قليلا ، جلست امامها وقلت لها في الحال بانها « روسية » من موسكو ، واضفت تفاصيل اخرى كانت كلها صحيحة . وقد دهشت المرأة ، وأنا كذلك ، حيث كانت تلك هي المرة الاولى التي نلتقي فيها .

....

اعتقد بأن السينما تمارس نوعا من التنويم المغناطيسي على المشاهد . ويكفي للتأكد من هذا ، النظر الى الناس اثناء خروجهم من الصالة بعد مشاهدة فيلم سينمائي ، صامتين ، مطرقي الرؤوس ، شاردين . بينما يبدو جمهور المسرح او مصارعة الثيران او الرياضة اكثر طاقة وحيوية . هذا التنويم المغناطيسي ، الخفيف ، وغير المحسوس ، ناتج ولا شك ، وفي المقام الاول ، عن الظلام في الصالة ، لكن هناك ايضا تبدل حجم اللقطات

والاضاءة وحركات آلة التصوير، مما يضعف الحس النقدي لدى المشاهد، ويمارس عليه نوعا من الاستلاب، بل وحتى الاغتصاب .

. . . .

وبما انني اتذكر الآن أصدقائي في مدريد ، فانني اود ان اذكر أيضا « خوا نيغرين » . الذي أصبح رئيسا لمجلس وزارء الجمهورية ، كان قد درس لعدة سنوات في المانيا ، وكان استاذا ممتازا للفيزيولوجيا . ذات يوم قمت بالتوسط من أجل صديقي « بيبين بيو » الذي كان يرسب دائما في امتحانات الطب ، لكن دون جدوى .

اود أيضا أن آتي على ذكر « اوخينيو دورس » العظيم ، الفيلسوف الكتلاني ورسول الـ « باروك » (والذي لم يكن مجرد ظاهرة عابرة ، بل كان مدرسة في الفن والحياة) وصاحب عبارة تصلح للاجابة على اولئك الباحثين عن الابتكار مهما كلف الامر : « كل ما ليس من التقاليد هو انتحال » . لقد بدا لي دائما ان في هذه المفارقة ، حقيقة عميقة .

كان « دورس » الذي يدرس بمعهد عمالي في برشلونة ، يشعر بالعزلة عندما يأتي الى مدريد ، ولهذا كان يرتاح لمعاشرة الطلاب في المدينة الجامعية ، وللتردد بين الحين والآخر الى مقهى « خيخون » .

كانت في مدريد ، آنذاك ، مقبرة مهجورة ، فيها قبر « لارا » شاعرنا الرومانسي الكبير . وكان فيها اكثر من مائة شجرة سرو ، هي الاجمل من نوعها في العالم . كما كان فيها Sacramental « سان مارتين » ذات ليلة قررنا الذهاب لزيارتها مع « اوخينيودورس » وكافة أعضاء المنتدى ، وكنت قد مهدت لتلك الزيارة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، بأن اعطيت عشر بسيتات للحارس .

في المساء ، توغلنا ، بمنتهى الصمت ، في المقبرة القديمة المهجورة ، تحت ضوء القمر . شاهدنا ضريحا مفتوحا بعض الشيء ، عند أسفل بعض

الدرجات ، ومن خلال خط باهت من النور ، استطعت أن أتبين غطاء تابوت قد ارتفع قليلا واطل من الفتحة شعر نسائي وسخ وجاف ، وبانفعال ناديت على الآخرين الذين هرعوا الى الضريح .

كان ذلك الشعر الميت المضاء بالقمر ، الذي ألمحت اليه في « شبح الحرية » ـ هل يستمر الشعر بالنمو في القبر ؟ ـ ، من أكثر الصور التي شاهدتها ، رعبا ، في حياتي .

« خوسيه بيرغامين » الرقيق ، الحاد ، المالاقي ، صديق « بيكاسو » ومن ثم صديق « مالرو » ، والذي يكبرني بعدة سنوات، كان شاعرا وكاتبا شهيرا ، وكان متزوجا من احدى بنات أرنيتشيس ، الكاتب المسرحي (الابنة الاخرى تزوجت من صديقي « أوغارته ») ، وهو ابن لوزير سابق « بيرغامين » كان يهوى «اللعب بالكلمات ، والمفارقات ، كما كان مهتما بالاساطير الاسبانية القديمة . وكنا خلال تلك الفترة قلما نلتقي ، الا أننا من ثم ، وخلال الحرب الاهلية ، اصبحنا صديقين حميمين .

فيما بعد ، عام ١٩٦١ ، لدى عودتي الى اسبانيا لتصوير « ڤيريديانا » كتب إليّ رسالة رائعة . وكان يقول انه مع الاتصال بأرض الوطن تستعاد القوى . وقد عرف المنفى ، كآخرين كثيرين ، ولفترة طويلة . في السنوات الاخيرة التقينا كثيرا ، وهو يعيش الان في مدريد ، مستمرا في الكتابة وفي الكفاح .

يطيب لي أيضا أن اذكر « اونامونو » فيلسوف « سالا مانكا » الجامعي . وهو أيضا ، مثل « دورس » كان يأتي لزيارتنا كثيرا في مدريد . كان مبعدا الى جزر الكناري من قبل « بريمودي ريڤيرا » ، ثم أصبح منفيا في باريس . كان رجلا شهيرا ، رصينا جدا ، متحذلقا بما فيه الكفاية ، ودون ذرة واحدة من روح الدعابة .

.. الآن ، ارغب بالحديث عن طليطلة (توليدو) .

رهبانية طليطلة :

يبدو لي أن ذلك كان عام ١٩٢١ ، برفقة العالم اللغوي « سولاليندة » عندما اكتشفت طليطلة . وصلنا من مدريد بالقطار ، وبقينا هناك يومين أو ثلاثة . اتذكر عرضا لـ « دون خوان تينوريو » وسهرة امضيناها في الماخور . وحيث انه لم تكن لدي أدنى رغبة بلمس الفتاة التي كانت برفقتي فقد قمت بتنويمها مغناطيسيا وأرسلتها لتقرع باب العالم اللغوي .

منذ اليوم الاول ، كنت مأخوذا بأجواء المدينة ، التي يصعب وصفها ، أكثر من جمالها السياحي . وقد عدت اليها مرارا مع أصدقائي من المدينة الجامعية . في يوم القديس يوسف من عام ١٩٢٣ ، أسست « رهبانية طليطلة » التي عينت نفسي رئيسا لها .

هذه الرهبانية ، استمرت بالعمل ، وبقبول الاعضاء الجدد ، حتى عام ١٩٣٦ ، وكان « بيبين بيو » أمينا للسر . اما من بين المشاركين في التأسيس فقد كان هناك « لوركا » واخوه « باكيتو » و « سانتشيس فينتورا » و « بيدرو غارفياس » و « اوغوستوكا ستيغو » والرسام الباسكي « خوسيه اوثيلاي » ، وامرأة واحدة ، عظيمة جدا ، وتليمذة لـ « أونامونو » في « سالامانكا » ، وهي أمينة المكتبة « ارنستينا غونثاليث » .

بعد ذلك ، كان يأتي الفرسان ، وعندما أقلب احدى القوائم القديمة ، التقي بـ « هيرناندو لولو فينييس » و « البرتي » و « واغارته » و « جان » زوجتي و « أورغويتي » و « سولاتينده » و « سلفادور دالي » (مع اشارة مطرود ، سجلت فيما بعد) و « اينوخوسا » ـ أعدم ـ و « ماريا تيريزا ليون » زوجة البرتي ، والفرنسيان ، « رينيه كريفيل » و « بيير أونيك » .

في الاسفل ، يأتي الاكثر تواضعا ، وهم حملة الدروع ، ونجد من بينهم « جورج سادول » و « روجيه ديسورمبير » وزوجته كوليت والمصور « ايلي لوتار » و « آلييت ليجاندر » ابنة مدير المعهد الفرنسي في مدريد ، والرسام « أورتيث » و « آنا ماريا كوستوديو » .

رئيس تشريفات حملة الدروع كان « مورينو ڤيا » الذي كتب فيما بعد مقالا هاما حول « رهبانية طليطلة » . ثم يأتي في الترتيب حملة الدروع وكانوا اربعة ، وفي الاخير ، في اسفل القائمة ، يأتي ضيوف ضيوف حملة الدروع ، وهما « خوان ڤيثنس » و « مارنيلينو باسكوا » .

كان ، للحصول على مرتبة فارس ، لا بد من محبة طليطلة دون حدود والسكر لمدة ليلة كاملة على الاقل ، مع التشرد في الشوارع . أما أولئك الذين كانوا يفضلون النوم باكرا ، فلم يكن باستطاعتهم الحصول على أكثر من لقب « حامل درع » ، ولن أتحدث عن الضيوف وضيوف الضيوف .

قرار احداث هذه الرهبانية اتخذته ، مثلما يفعل جميع المؤسسين بعد القيام بدراسة وافية . كانت تلتقي هناك مجموعتان من الاصدقاء ، حيث تذهبان للشراب في حانات طليطلة ، وكنت من افراد احدى هاتين المجموعتين . ذات مرة كنت اتنزه في الدير القوطي الكاتدرائية ، وانا في حالة سكر شديد ، عندما سمعت صوت غناء آلات العصافير ، وشيء ما قال لي ان عليّ الدخول حاملا في الرهبانية ، لا لاصبح راهبا ، بل لاسرق صندوق الدير .

ذهبت الى الدير ، فتح لي البواب الباب ، وجاء راهب ، حدثته عن رغبتي الفاجئة والحارة ، في أن أصبح راهبا . وحيث لاحظ ، ولا شك ، رائحة النبيذ ، فقد رافقني عائدا بي الى الباب الخارجي .

في اليوم التالي ، اتخذت قرار تاسيس « رهبانية طليطلة » . كان النظام بسيطا جدا : على كل واحد أن يتبرع بعشر بيستيات للصندوق المشترك . وهذا يعني ان يدفع لي عشر بيستيات للمبيت والطعام . ثم كانت هناك ضرورة الذهاب الى طليطلة قدر المستطاع ، ووضع النفس تحت تصرف معايشة اقصى حد من الخبرات التي لا يمكن أن تنسى .

اما المكان الذي كنا نبيت فيه ، وهو مختلف جدا عن الفنادق المتعارف

عليها . فقد كان بصورة شبه دائمة هو « خان الدماء » ، حيث وضع « سيرفانتيس » « الخادمة المحترمة » . هذا الخان لم يتبدل الا قليلا منذ تلك الايام : حمير في الحظيرة ، جوذيون ، شراشف قذرة ، وطلاب ... وطبعا فليست هناك تمديدات مياه ، وهذا ما لم نكن نوليه الا اهتماما بسيطا ، فقد كان مطلوبا من أعضاء « الرهبانية » الامتناع عن الاغتسال طيلة فترة بقائهم في المدينة المقدسة .

كنا ، وبصورة شبه دائمة ، نتناول طعامنا في المطاعم الشعبية مثل « لافينتاي دي آيرس » ، في الضواحي ، حيث كنا نطلب دائما « عجة الحصان بلحم الخنزير » ، وحجل مع نبيذ « بيبس » الابيض . وفي العودة كنا نقوم بالتزام لا بد منه عند ضريح الكاردينال « تافيرا » الذي نحته « بيرّوغيته » حيث نمضي بضع دقائق من الخلوة امام التمثال المضطجع للكاردينال الميت ، المصنوع من الرخام المعرّق ، ذي الخدين الشاحبين والغائرين ، والذي التقطه النحات قبل ساعة أو ساعتين من بداية تعفنه . هذا الوجه يشاهد في « تريستانا » ، حيث تنحني « كاترين دونوف » على الصورة الثابتة لهذا الميت .

بعد ذلك ، كنا نصعد الى المدينة لنضيع في متاهات شوارعها ، نتصيد المغامرة . ذات يوم دعانا رجل اعمى الى بيته ، وقدمنا الى عائلته من العميان . لم يكن هناك اي مصدر نور في المنزل ، ولا لمبة واحدة ، انما كانت على الجدران لوحات لمقابر ، مصنوعة من الشعر وقبور من الشعر ، واشجار سرو من الشعر .

كثيرا ماكنا ، بسبب تناول الكحول ، وفي حالة تقرب من الهذيان نقبّل الارض ، ونصعد الى برج اجراس الكاتدرائية ، ونذهب لايقاظ ابنة أحد الكولونيلات التي كنا نعرف عنوانها ، ونصغي ليلة بكاملها الى اغاني الراهبات والرهبان ، من خلال جدران دير « سانتو دومينغو » . كنا نتجول في الشوارع ونحن نقرأ القصائد بصوت عال ، ترده جدران

العاصمة القديمة لاسبانيا ، المدينة الايبيرية ، الرومانية ، القوطيـة الغربيـة ، اليهودية ، والمسـيحية .

في وقت متاخر من احدى الليالي ، والثلج يتـساقط ، سمعنا ، « اوغارته » وانا ، خلال تجوالنا في الشوارع ، وبشكل مفاجيء اصوات اطفال وهم يغنون « جدول الضرب » ، وكان الصوت يتوقف بين الحين والآخر ، لنسمع اصوات ضحكات الاطفال وصوت المعلم الاجش ، ثم ثم تستأنف الاغنية .

استطعت ان ارفع نفسـي حتى احدى النوافذ ، مستعينا بكتفـي صديقي ، الا أن الاصوات سكتت بشكل مفاجيء ، ولم أستطع أن أشاهد سوى الظلام ولا ان اسـمع الا الصمت .

كانت لنا مغامرات اخرى ، أقل هذيانا . كان في طليطلة مدرسـة حربية ، وكان كلما وقع شجار بين أحد طلابها وبعض المواطنين ، تكاتف رفاق هذا الطالب للانتقال بطريقة متوحشـة من ذلك السفيـه الـذي تجرأ على التشـاجر مع واحد منهم ، لقد كانوا رهيبين فعلا . في أحد الايام مررنا في أحد الشوارع باثنين من هؤلاء الطلاب ، فاقدهم أحـدهما علـى الامساك بذراع « ماريا تيريسا » زوجة « البرتي » وقال لها : « كم أنت شيقة ! » . قاومتـه وهي تشتم ، وانبريت أنا للدفاع عنهـا بتسـديد اللكمات للاثنين . « بيير اونيك » جاء لمساعدتي وأخذ يركل أحدهما الذي كان مطروحا على الارض . وليس لنا أن نتباهى بما فعلنا ، فقد كنا سبعة أو ثمانية ، بينما لم يكونا سوى اثنين . وعندما هممنا بالانصراف ، تقدم منا اثنان من الحرس المدني ،وبدلا من توبيخنا نصحانا بمغادرة طليطلة بأسرع ما يمكن ، لكي نتفادى انتقام طلاب المدرسـة الحربية . لم نكترث بالامر ، وللمرة الاولى ، لم يحصل أي شيء .

اتذكر واحدا من نقاشاتنا انا ولوركا في « خان الدم » ذات صباح قلت له فجأة ، وبكل بسـاطة :

ـ فيديريكو ، مـن الضروري جـدا أن أقـول لـك الحقيقة . الحقيقة عنك .

تركني أتحدث لبرهة ، ثم سألني :

ـ هل انتهيت ؟

ـ نعـم

ـ حسن ، الان دوري ، سأقول لك ما أعتقده عنك . انت تقول ، مثلا ، انني كسول .. اطلاقا ،.. في الحقيقة ، أنا لست كسولا ، أنا ... ثم يستمر بالحديث عن نفسه هو خلال عشر دقائق .

منذ عام ١٩٣٦ ، عندما اخذ فرانكو طليطلة (تسببت المعارك آنذاك بتدمير « خان الدم ») ، اقلعت عن الذهاب الى المدينة ، ولم أعـاود زيارتي اليها حتى عام ١٩٦١ ، عندما عدت الى اسبانيا ، « مورينوڤيا » اشار في مقالة له ، ان احدى فرق الفوضويين عثرت في بداية الحـرب الاهلية بمدريد ، وخلال عملية تفتيش ، على وثيقة « رهبانية طليطلة »، اما سيء الحظ الذي كان يحتفظ بهذه الوثيقة ، فقد وجد نفسـه في مأزق حرج ، لتوضيح كون هذه الوثيقة لاتتعلق باشراف حقيقيين ، وكاد الامر يكلفه حياته .

في عام ١٩٦٣ ، فوق قمة الجبل المشـرف على طليطلة ونهر الـ « تاخو » أجبت على أسئلة « اندريه لابارت » و « جانين بازان » لصالح برنامـج للتلفزيـون الفرنسي ، وطبعـا ، لم يكن بالامكـان أن يغيب السؤال التقليدي :

ـ ماهي بتقديرك ، العلاقات القائمة فيما بين الثقافـة الفرنسية والثقافة الاسبانية ؟

ـ الجواب بسيط جدا ، ـ اجبت . الاسبان ، وانا منهم علـى

سبيل المثال ، يعرفون كل شيء عن الثقافة الفرنسية . أما الفرنسيون ، من ناحيتهم ، فيجهلون كل شيء عن الثقافة الاسبانية ، خذوا مثلا « السيد كاربير » ـ والذي كان حاضرا ـ كان استاذا للتاريخ ، وحتى وصوله الى هنا ، حتى يوم امس بالذات ، كان يعتقد أن « طليطلة » هي ماركة محركات .

ذات يوم ، في مدريد ، دعاني لوركا للغداء ، مع المؤلف الموسيقي « مانويل دي فايا » الذي كان قد وصل من غرناطة . سأله « فيديريكو » عن أصدقائنا المشتركين ، وورد ذكر رسام اندلسي يدعى « مورثيو » :

ـ كنت في منزله قبل بضعة أيام ـ قال فايا ـ .

ثم روى الحادثة التالية ، والتي تبدو لي ذات دلالة على نزعة معينة توجد لدينا جميعا :

« مورثيو » استقبل « فايا » في مرسمه ، تأمل الموسيقي جميع اللوحات التي أراه اياها الرسام ، وهو يعلق في كل منها بعبارة اطراء ، دون أي تحفظ . بعد ذلك ، ولدى مشاهدته لوحات أخرى وضعت على الارض ، وجوهها الى الحائط ، سأل عما اذا كان باستطاعته أن يراها أيضا . اجاب الرسام بالنفي ، وانها لوحات لاتعجبه ، ويفضل أن لايريها لاحد .

الح « فايا » ، واخيرا ، اقتنع الرسام ، وادار ، مكرها ، احدى اللوحات ، وهو يقول :

ـ ارأيت كم هي سيئة ؟!

« فايا » اعترض ، فقد بدت له اللوحة جيدة جدا .

ـ لا ، لا ـ اجاب « مورثيو » ـ الفكرة العامة تعجبني ، بعض التفاصيل لاباس بها ، لكن الخلفية ليست مناسبة .

ـ الخلفية ؟ ـ سأل « فايا » ـ وهو يتابع تأمله للوحة ، مقترباً منها قليلا .

ـ نعم ، الخلفية ، السماء ، الغيوم . هذه الغيوم سيئة جداً . اليس كذلك ؟

ـ بالفعل ـ وافقه الموسيقي اخيرا ـ ، ربما تكون على حق ، قد تكون الغيوم ليست في مستوى بقية اللوحة .

ـ اتظن ذلك ؟

ـ نعـم

ـ اذن اسمع ـ قال الرسام حينئذ ـ ، في الحقيقة ان الغيوم هي اكثـر مايعجبني ، واستطيـع القـول انهـا أفضـل ما عملته خـلال الاعوام الاخيرة .

طيلة حياتي ، كنت التقي بامثلة مشابهة لهذه الحالـة ، والتي ادعوها بـ « مورثية » . كلنا « مورثيون » بعض الشيء . « نوزاج » يقدم الينا في « جبل بلاس » حادثة نموذجية لهذه الحالة ، من خلال الشخصية الرائعة لكاهن غرناطة . « المورثية » تتولد من سعي الى الاطراد لايرتوي. تستنفد كل امكانيات المديح ، ثم يثير احدهم انتقادا ، مجرد انتقاد واحد معلل ، ودون حد أدنى من الماسوشية ـ بصورة عامة ـ ، لكي يزيد من ارباك ذلك الغافل الذي لم يتمكن من ادراك الفخ .

خلال تلك الاعوام ، افتتحت في مدريد صالات سينمائية جديدة ، لاجتذاب ذلك الجمهور الذي كانت تتنامى مواظبته يوما بعد يوم . كنـا نذهب الى السـينما احيانا مع أحدى الصديقات ، لمجرد امكانية الاقتراب منها في الظلام . وفي هذه الحالة ، كانت كل الافلام جيدة . وفي مرات اخرى ، كنا نذهب مع اصدقاء المدينة الجامعية ، وفي هذه الحالة كنا نفضل الافلام الكوميدية الامريكية ، وكنا نستمتع بمشاهدة بين توربين

و « هارولد لويد » و « باستر كيتون » وكل اعمال « ماك سينيت » ، اما شابلن فكان لدينا في المقام الثاني .

لم تكن السينما بعد ، سوى وسيلة للتسلية ، ولم يكن احد منا يعتقد انها قادرة على ان تكون وسيلة تعبير جديدة . وبدرجة اقل ، كان اعتقادنا انها من الممكن ان تكون فنا اما ماكنا نعتبره كذلك فهو فقط الشعر والادب والرسم . ولم يكن يخطر ، على الاطلاق بانني ساكون سينمائيا في يوم من الايام .

ومثل الاخرين ، فقد كنت اكتب القصائد ايضا . وقد نشرت لي اولاها في مجلة « اولترا » ــ وربما كان ذلك في « الافق » ــ ، وكانت بعنوان «اوركسترا سيون » ، قدمت من خلالها ثلاثين آلة موسيقية ، من خلال عبارات وادبيات ـشعرية خاصة بكل آلة منها . « غوميث دي لاسيرنا » هنأني بكل حرارة ، وطبعا ، لانه كان علي ، وبكل بساطة ، ان اعترف بتأثيره .

كانت الحركة التي تمثلتها الى حد ما ، تدعى «Los Ultraistos» والتي زعمت انها الطليعة المتقدمة للتعبير الفني . تعرفنا بـ « دادا » و « كوكتو » ، وكنا نكن التقدير لـ « مارينيتي » . أما السريالية فلم تكن قد وجدت بعد .

كانت المجلة الاكثر اهمية ، التي تعاونا معها جميعا ، تدعى « لاغازيتا » ليتيراريا » ، وكان مديرها هو « خيمينيث كابايرو » ، وعلى صفحاتها كان يلتقي كل جيل الـ « ٢٧ » ، واحد كتاب المرحلة السابقة . كانت المجلة تكرم ايضا الشعراء الكتلانيين أولئك الذين لم نكن نعرفهم ،وكذلك المؤلفين البرتغاليين ، ذاك البلد الذي كان بالنسبة الينا ابعد من الهند .

انني ادين بالكثير لـ « خيمينيث كابايرو » الذي مازال يعيش في مدريد ، لكن كثيرا ما تنتهي الصداقة بصورة سيئة مع السياسة . اذ ان مدير الـ « غازيتا لتيراريا » الذي لم يكن يوفر اية فرصة في سبيل

الدعوة الى الامبراطورية الاسبانية الكبرى ، كان ممثلا للاتجاهات الفاشية . بعد عشر سنوات ، وعلى ابواب الحرب الاهلية ، عندما كان كل واحد يمضي باتجاه اختيار معسكره ، التقيت بـ «خيمينيث كابايرو» على رصيف محطة الشمال في مدريد ، الا اننا مررنا ، احدنا بالآخر ، دون ان نتبادل التحية .

نشرت في الـ « غازيتا » قصائد اخرى ، وبعثت اليها ، فيما بعد ، من باريس ، بمقالات في النقد السينمائي .

خلال ذلك ، استمريت في ممارسة الرياضة . احدهم ، ويدعى « لورنثانا » وكان بطل ملاكمة للهواة ، قدمني الى « جونسون » الهائل . كان هذا الزنجي الجميل كالنمر ، بطلا للعالم في الملاكمة لسنوات عديدة . وقيل انه ارتكب غشا في مباراته الاخيرة ، اذ عمد الى الفوز عن طريق المال . وقد تقاعد وعاش في الـ « بالاس » بمدريد مع زوجته « لوثيا » . وعلى ما يبدو ، فان تصرفاته لم تكن تخلو من العيوب . فكثيرا ما كنت في الصباح أخرج لممارسة رياضة المشي مع « جونسون » و « لورنثانا » ، حيث كنا نذهب من الـ « بالاس » حتى ميدان سباق الخيل ، الواقع على مسافة ثلاثة او اربع كيلو مترات ، ثم ، وعندما كنا نتبارى في لوي المعاصم، كنت أفوز على الملاكم .

....

أبي مات عام ١٩٢٣

تلقيت برقية من سرغوسة تقول : « بابا مريض جدا، احضر حالا » . وتمكنت من رؤيته حيا ، واهنا جدا (توفي بالتهاب الرئة) ، وقلت له انني جئت الى منطقة سرغوسه للقيام بدراسات في علم الحشرات على الطبيعة . طلب مني ان اكون جيدا مع امي ، ومات بعد ذلك باربع ساعات .

في تلك الليلة اجتمعت العائلة بكاملها ، ولم تكن الأمكنة كافية . الحدائقي والحوذي ناما على فراش وضع لهما على أرض الصالون . احدى الخادمات ساعدتني في الباس ابي الميت ، وفي عقد ربطة عنقه . ومن أجل أن نلبسه حذاءه كان علينا أن نقص الحذاء من احد طرفيه .

الجميع ناموا ، وبقيت وحدي ساهرا . ابن عم لنا : هو « خوسيه آموروس » وصل من برشلونة في قطار الواحدة صباحا . كنت قد شربت الكثير من الكونياك وجلست الى جانب السرير . . بدا لي والدي وكأنه يتنفس . خرجت الى الشرفة للتدخين . بينما كنت انتظر وصول العربة التي بعثت بها الى المحطة لجلب ابن عمي . كنا في شهر آيار (مايو) والجو تملؤه رائحة زهور الاكاسيا . . وفجأة سمعت ضجة في غرفة الطعام ، كما لو ان كرسيا قد ارتطم بالحائط ، التفت براسي واذ بي أشاهد أبي واقفا وهو يشير إلي بيديه مهددا متوعدا .

استغرق هذا الهذيان ـ الوحيد من نوعه مما مر بي في حياتي ـ حوالي عشر ثوان ، وثم تلاشى . ذهبت الى الغرفة التي ينام فيها الخدم ورقدت الى جانبهم . في الحقيقة لم اكن اشعر بالخوف ، فقد عرفت انني كنت في حالة هذيان ، الا انني لم ارغب بالبقاء وحيدا .

كانت الجنازة في اليوم التالي . في ذلك اليوم نمت في السرير الذي مات فيه أبي. وعلى سبيل الاحتراس، وضعت مسدسه ـ البالغ الجمال، والمزيّن بالاحرف الاولى من اسمه ، بالذهب والصدف ـ ، تحت الوسادة، كي أطلق على الشبح فيما لو عاد . لكن هذا لم يحدث .

تلك الوفاة ، كانت تاريخا فاصلا بالنسبة إليّ . وما زال صديقي القديم « مانتيلون » يذكر كيف انني بدات محاولا استخدام احذية ابي ، وفتحت ادراج طاولة مكتبه ، وشرعت في تدخين الـ « هافانا » ، فقد كنت قد توليت رئاسة العائلة . كانت أمي بالكاد قد بلغت الاربعين . بعد فترة قصيرة اشتريت لنفسي سيارة « رينو » .

لولا موت أبي ، لكنت قد بقيت طويلا في مدريد . كنت قد انجزت الاجازة في الفلسفة ، ولم تكن لدي النية في متابعة الدكتوراه . كنت اود أن أرحل مهما كلف الامر . فقط كنت انتظر الفرصة .

وقد لاحت عام ١٩٢٥ .

* * *

باريس

١٩٢٥ ــ ١٩٢٩

عام ١٩٢٥ ، علمت بانه ستنشأ في باريس منظمة تدعى « الجمعية الدولية للتعاون الفكري » تحت اشراف « عصبة الامم » ، وكان معروفا مقدما ان « اوخينيو دورس » سيكون ممثل اسبانيا فيها .

اعربت لمدير المدينة الجامعية عن رغبتي بمرافقة « اوخينيو دورس » بصفة شيء من قبيل سكرتير له ، وافق وكان الترشيح مقبولا . وحيث ان المنظمة لم تكن قد انشئت بعد ، فقد طلب مني الانتقال الى باريس ، والانتظار هناك ، مع توصية واحدة هي ان اقرأ يوميا : «Le Temps» وال «Times» ، كي اتقن الفرنسية ، اللغة التي اعرفها قليلا ، وابدأ صلتي باللغة الانكليزية .

دفعت لي امي اجرة السفر ، ووعدتني بان تبعث إليّ بالمال شهريا . لدى وصولي الى باريس، ودون أن تكون لديّ فكرة مسبقة عن المكان الذي سأبيت فيه ، توجهت مباشرة الى فندق «رونسيري» في «پاساج جوفروا»، حيث كان والداي قد أمضيا شهر العسل عام ١٨٩٩ وتسببا بمجيئي الى هذا العالم .

نحن ، «الاجانب المقيمين»(*) :

بعد وصولي بثلاثة أيام ، علمت أن « اوتامونو » موجود في باريس ،

(*) التعبير الاسباني هو «Los Metecos» وبالفرنسي «Las mttèque»

اذ كان عدد من المثقفين الفرنسيين قد استأجروا مركبا وذهبوا الى جزر الكناري ، حيث كان مبعدا ، وجاؤوا به . كان يأتي يوميا الى ندوة تعقد في الـ « روتوند » . وهناك كانت أولى صلاتي مع اولئك الذين كان اليمين الفرنسي يدعوهم ، باحتقار « الاجانب المقيمين » ، وهم الاجانب الذين يعيشون في باريس ويحتلون ارصفة المقاهي .

عدت ، ودون أدنى جهد ، الى عاداتي المدريدية : فكنت اذهب يوميا الى « روتوند » ، حتى أنني في مرتين أو ثلاث ، رافقت « اونامونو » سيرا على الاقدام حتى مسكنه الكائن قريبا من الـ « ايتوال » حيث كنت امضي ساعتين جميلتين من النزهة والمحادثة .

في الـ « روتوند » ، ولم يكن قد مضى أسبوع على وصولي ، تعرفت على واحد يدعى « آنغولو » ، كان يدرس طب الأطفال ، وقد دلني على الفندق الذي يقيم فيه ، في شارع كلية الطب ، على مسافة خطوات قليلة من بولفار سان ميشيل . الفندق جميل ومتواضع ، ويقع الى جانب ملهى صيني . أعجبني وانتقلت اليه .

في اليوم التالي ، كان عليّ البقاء في السرير بسبب الانفلونزا . وفي الليل ، عبر جدار غرفتي ، كنت اسمع أصوات الالات الايقاعية في الملهى الصيني . ومن النافذة ، كنت أرى مطعما يونانيا في الجهة المقابلة ، والى جواره حانة . نصحني « آنغولا » بأن اكافح الانفلونزا بالشامبانيا ، ولم اتلكأ أبدا في التنفيذ . واكتشفت حينئذ احد الأسباب التي جعلت من جماعة اليمين يستهينون ، بل وحتى ينفرون من « الأجانب المقيمين » . كان الفرنك ، لأمر لا أعرفه ، قد انخفضت قيمته كثيرا ، وكانت العملات الأجنبية ، وبخاصة البيسيتا ، تسمح للاجانب بالحياة كالامراء أو أقل قليلا . كانت زجاجة الشمبانيا التي كافحت معها بانتصار ضد مرضي تكلفني بيسيتا واحدة لا غير ، وكان هذا يعادل أحد عشر فرنكا .

في حافلات باريس ، كانت الاعلانات تطالعنا في مكان بعبارة : « لا تبددوا الخبز » ، ونحن نشرب الـ « مويه شاندون » ببيسيتا واحدة للزجاجة .

ذات ليلة ، وكنت قد شفيت ، دخلت وحدي الى الملهى الصيني . وسرعان ما اتجهت احدى فتيات اللهو العاملات هناك ، الى طاولتي ، وبادرتني بالحديث ، كما لو انها كانت تقوم بواجب مطلوب منها . وهذا سبب ثان لاندهاش اسباني في باريس . كانت تلك المرأة تعبر بصورة مدهشة وتتحدث بطريقة رقيقة وفطنة وطبيعية . لم تكن بالطبع تتحدث في الأدب أو الفلسفة ، بل تحدثت عن النبيذ وعن باريس وعن امور الحياة اليومية . لكن هذا كان من خلال عفوية مرهفة ، ودون أي اثر لتكلف او تحذلق . لقد تم لي اكتشاف علاقة بين اللغة والحياةلم تكن معروفة لديّ. لم أمارس الجنس مع تلك المرأة ، كما لم أعرف اسمها ولم أعد لرؤيتها . لكنها كانت أول اتصال حقيقي لي مع الثقافة الفرنسية .

الأسباب الأخرى للدهشة كانت عديدة : تبادل القبلات في الشارع ، هذا التصرف الذي كان يفصح عن هوة بعيدة ما بين فرنسا واسبانيا . كذلك امكانية ان يعيش رجل وامرأة معا دون رابطة الزواج .

كان يقال في باريس آنذاك، ان في هذه المدينة، العاصمة الفنية للعالم، دون منازع ، خمسة واربعين الف رسام — رقم مدهش — وكثيرون منهم كانوا يترددون الى مونبارناس (كانت المونمارتر بعد الحرب العالمية الاولى قد أصبحت موضة قديمة) .

« ليه كابيه دار » ، أفضل محلات تلك المرحلة دون شك ، أفردت عددا خاصا للرسامين الاسبان الذين كانوا يعملون في باريس ، والذين كنت اتردد عليهم بصورة شبه يومية . من بينهم « ايمانويل دي لاسيرنا » وهو أندلسي أكبر مني قليلا ، و « كاستانيير » ، الكتلاني الذي افتتح مطعم « الكتلاني » مقابل استوديو بيكاسو في شارع « غران أوغستين » ، و « خوان غيرسي » الذي زرته مرة وحيدة في منزله بالضواحي ، ومات بعد فترة قصيرة من وصولي الى باريس . شاهدت ايضا « كوسيو » ، وهو قصير وأعرج وأعور ، وكان ينظر بشيء من المرارة الى الرجال الأصحاء

والاقوياء . فيما بعد أصبح رئيسا لكتيبة من مجموعات « الكتائب »(*) كما أصاب شهرة خاصة كرسام ، قبل أن يموت في مدريد .

« بوريس » ، بالمقابل ، دفن في باريس ، بمقبرة مونبارناس . اتى من جماعة الـ « Ultraista » . كان رساما جادا ومشهورا ، وقد زرت بصحبته و « هيرناندو فينيس » الكثير من المتاحف الهامة .

كان لهؤلاء الرسامين منتدى خاص ، وكان يتردد اليه أيضا الشاعر التشيلي الشهير « ويدوبرو » وكاتب من الباسك يدعى « ميليكوا » قصير ونحيف . فيما بعد ، واثر العرض الافتتاحي لـ « العصر الذهبي » ، ولسبب لا اعرفه ، قام العديد منهم ـ ويدوبرو وكاستانيير وكوسيو ـ بارسال رسالة إلي ملأى بالشتائم . وقد تباعدنا لفترة ثم تصالحنا .

كان افضل اصدقائي من بين جميع أولئك الرسامين هما « خواكين بينادو » و « هيرناندو فينيسي » . وهيرناندو ، ذو الأصل الكتلاني ، الذي يصغرني سنا ، كان صديقا مدى الحياة . تزوج من امرأة اكن لها الكثير من الود هي « لولو » ابنة « فرنسيس جوردان » ، الكاتب الذي كان يلتقي كثيرا مع الانطباعيين .

كان لجدة لولو صالون أدبي ، أواخر القرن التاسع عشر ، وقد أهدتني لولو شيئا فريدا كانت تحتفظ به من تلك الجدة . هو «مروحة»، كتب عليها معظم كتاب آخر القرن الماضي ، وكذلك بعض الموسيقيين (ماسينيه وغونو) ، بضع كلمات ، نوتات موسيقية ، أبيات من الشعر ، أو ، ببساطة ، مجرد تواقيع . ميسترال ، الفونس دوديه ، هيريديا ، مالارميه ، زولا ، ثم آخرون مثل النحات رودان، اجتمعوا في هذه المروحة، هذا الشيء البسيط ، الذي لخص ذلك العالم . اتأملها بين الحين والآخر ، ويمكن ان تقرأ فيها ، على سبيل المثال ، مقطعا لالفونس دوديه : « مع الصعود الى الشمال ، تنتظم العيون ، وتنطفىء » ، وقريبا جدا من

(*) «Falange» .

هذا ، بعض العبارات الحاسمة لـ « ادمون دي غونكور » : « كل كائن ليس ليس لديه اغوار من الحب الشغوف للنساء والزهور والقطع الفنية والنبيذ او لأي شيء مهما كان ، كل من ليس لديه عرق حائر قليلا ، كل كائن متوازن بصورة تامة : لا يمكن أبدا ، ابدا ، أبدا ، أن يمتلك موهبة أدبية» .

أخيرا ، اورد من بين تلك الكتابات ، ابياتا من الشعر لـ « زولا » (نادرة جدا) :

ما اريده لملكتي

طريق أخضر امام بابي

مهد من وردة بريّـه

طويل كثلاثـة اعواد من القش

في استوديو الرسام « مانولو انخلس أورتيث » في شارع « فير سانجيتوري » ، تعرفت ، بعد وصولي بفترة قصيرة ب « بيكاسو » الذي كان مشهورا ويدور حوله النقاش . على الرغم من صراحته ومرحه ، بدا لي باردا وأنانيا ــ لم يتشذب حتى فترة الحرب الاهلية ، حين اتخـذ موقفا ــ ، ومع ذلك ، فقد كنا نلتقي كثيرا ، اهداني لوحة صغيرة ــ امرأة على الشاطيء ــ وقد فقدت خلال الحرب .

كان يحكي عنه ، بمناسبة حادثة السرقة الشهيرة لل « جوكوندا » قبل الحرب العالمية الاولى، عندما استدعي صديقه «آبولينير» للاستجواب أمام البوليس ، وجاء دوره هو للافادة ، انه تخلى عن الشاعر ، تماما مثلما أنكر القديس بطرس ، المسيح .

فيما بعد ، عام ١٩٣٤ ، قام الخزاف الكتلاني « آرتيغاس » ، وهو صديق حميم لبيكاسو ، بصحبة أحد التجار ، بزيارة في برشلونة لوالـدة الرسام ، التي دعتهما الى الغداء . وخلال تناول الطعام ، كشفت السيدة للرجلين عن وجود صندوق في « سقيفة » المنزل ، مليء بالرسوم التي

نقلها بيكاسو خلال طفولته ومراهقته . طلبا منها الاطلاع عليها ، وصعدا الى « السقيفة » ، فتحا الصندوق ، قدم التاجر عرضا ، وعقد الصفقة ، واستلم حوالي ثلاثين لوحة .

في باريس ، وفي وقت لاحق ، قام هذا التاجر بتنظيم معرض في احدى صالات عرض « سان جيرمان دي بريه » . وحضر بيكاسو ، الذي كان مدعوا الى الـ « Vernissage » ، تامل اللوحات ، واعترف بها ؛ وبدا عليه التأثر . لكن هذا لم يحل ، لدى مغادرته ، دون ذهابه الـى البوليس للتبليغ عن التاجر والخزاف . وقد نشرت صور هذا الأخير في احدى الصحف ، كما لو كان محتالا دوليا .

لا اريد ان يسألني احد عن رأيي في قضايا الرسم ، فليس لدي رأي ، ومسألة علم الجمال لم تشغلني يوما . لست من هؤلاء الذين يستطيعون ان يمضوا الساعات في المعارض ، دون أن يتوقفوا عن الايماءات والحركات ، وهم يتحدثون ويرتجلون اي شيء على الفور . لقد عايشت لحظات كنت أبلغ فيها حالة من الاشباع بسبب ذلك الاستسهال غير المعقول . الشيء الوحيد الذي يمكني قوله هو أن الـ « غيرنيكا » لا تعجبني على الاطلاق ، على الرغم من انني ساعدت في تعليقها . ينفرني كل ما يتعلق به ، سواء الفاتورة الجليلة لاعماله ، أو التسييس على حساب فن الرسم ، ومهما كلف الامر . واتشارك في هذه الكراهية مع « البرتي » و « خوسيه برغامين » ، وهو امر اكتشفته منذ فترة قريبة . ونتمنى نحن الثلاثة لو نقوم بتفجير الـ « غيرنيكا » ، لكننا مع الأسف اصبحنا مسنين جدا بالنسبة لامكانية القيام بوضع القنابل .

كنت قد اوجدت لنفسي بعض العادات في مونبارناس ، اذ لم يكن قد وجد « الاكوبول » بعد ، كنا نذهب الى الـ « دوم » والى « لاروتوند » والى الـ « سيليكت » ، والملاهي الاكثر شهرة في تلك الايام .

كانت الاستوديات التسعة عشر لـ « الفنون الجميلة » تقوم سنويا بتنظيم حفل راقص ، وكنت افترض أن هذا لابد وان يكون شيئا هائلا .

بعض الاصدقاء الرسامين قالوا لي أنه أفضل حفل جنسي جماعي في العالم ، وفريد من نوعه . وقررت أن أشارك فيه .

قدموني الى أحد أولئك الذين اطلقوا على أنفسهم اسم « منظمين » والذي باعني بطاقات دخول وجيهة ، كبيرة الحجم ، وباهظة الثمن . قررنا الذهاب كمجموعة : صديق سرغوسه يدعى « خوان ڤيثينس » والنحات العظيم « خوسيه دي كريفت » مع زوجته ، وواحد من تشيلي لم أعد أذكر اسمه ـ برفقة صديقة له ـ وأنا . ذلك الرجل الذي باعني بطاقات الدخول لفت نظري بأن علينا أن نقول بأننا تابعون لاستوديو سان جوليان .

وجاء يوم السهرة . بدأ الاحتفال بعشاء نظمه استوديو سان جوليان في أحد المطاعم . خلال العشاء ، نهض أحد الطلاب ، ووضع خصيتيه بصورة متأنية في صحن ، وقام بجولة حول صالة الطعام . وحيث أنني لم يسبق لي أن شاهدت شيئا مشابها في اسبانيا ، فقد كنت خائفا .

بعد ذلك ، ذهبنا الى صالة « واغرام » حيث سيجري الاحتفال الراقص ، حيث وقف شريط من رجال البوليس ليحول دون الفضوليين وهناك شاهدت مشهدا آخر غير معقول بالنسبة الي : امرأة عارية بالكامل جاءت ممتطية كتفي أحد الطلاب الذي يرتدي زيا آشوريا ، وكان رأس الطالب يحجب المنطقة الجنسية للمرأة . ودخلا وسط صرخات المتجمهرين .

لم أستطع ان اتخلص من دهشتي . وسألت نفسي : في أي عالم نزلت ؟ كان الدخول الى صالة « واغرام » محروسا من قبل الطلاب الاشد بأسا في كل استوديو اقتربنا ، وقدمنا بطاقاتنا الفاخرة ، لكن دون فائدة اذ لم يسمحوا لنا بالدخول . أحدهم قال لنا :

ـ لقد غشوكم .

بقينا واقفين في الشارع ، فالبطاقات غير صالحة .

« دي كريفت » الذي غضب واخذ يصرخ بكل الاشكال ، تركوه يدخل مع زوجته ، اما انا وفيثينس » والتشيلي ، فلا . رفيقة التشيلي كانت ترتدي معطفا رائعا من الفرو ، وقد اعجب بهـا الطـلاب كثيرا ، وارادوا ان يسمحوا لها بالدخول ، الا انها رفضـت الدخول وحدهـا ، فقاموا برش القطران على ظهر معطفها .

ولم استطع المشاركة في ذلك الاحتفال الجنسي ، الافضل من نوعه في العالم ، وقد اندثر هذا التقليد فيما بعد . وحول ما حصل في الداخل راجت شائعات عن فضيحة . فالاساتذة ، وجميع الذين كانوا مدعوين ، بقوا وحيدين حتى الساعة الثانية عشرة ، حينئذ ، وحسب ما قيل ، بدا ما هو اكثر سوءا ، فهؤلاء الذين بقوا ، وهم في غاية السكر ، ذهبوا للغطس في نوافير ساحة الكونكورد ، وبقوا هناك حتى الساعة الرابعة او الخامسة صباحا .

بعد اسبوعين او ثلاثة ، التقيت ببائع بطاقات الدخول المزيفة ، الذي خدعني ، وهو يمشي بصعوبة بالغة مستعينا بعكاز ، ولما رايته على تلك الحال ، زالت لدي كل رغبتي في الانتقام .

لم يكن « لاكلوسيري دي ليلا » في ذلك الحين ، اكثر من مجرد مقهى ، وكنت اتردد عليه بصورة شبه يومية ، والى جانبه كان الـ « بال بولييه » الذي كنا نتردد عليه ايضا باستمرار ، ونحن متنكرون . ذات ليلة ذهبت الى هناك فيزي راهبة . كان تنكرا متقنا ، لاتنقصهالتفاصيل ، وكان برفقتي بعض الاصدقاء ، من بينهم « خوان فيثينس » الذي كان متنكرا هو الآخر بزي راهب ، واذ بنا نلتقي برجلي بوليس قادمين باتجاهنا . وبدات ارتعش تحت روائي الابيض ، حيث ان دعابات من هـذا النـوع يعاقب عليها في اسبانيا بالسجن لمدة خمس سنـوات . الا أن رجلي البوليس مرا وهما يبتسمان ، حتى ان احدهما بادرني قائـلا بكثـير من اللطف :

ـ مساء الخير ايتها الاخت ، هل يمكنني أن افعل أي شيء من اجلك؟

كان « اوربيا » نائب قنصل اسبانيا ، يرافقنا بعض المرات الى الـ « بال بوليه » . وذات ليلة طلب منا لباسا تنكريا ، فخلعت لباس الراهبة الذي كنت ارتديه واعطيته اياه ، فقد كنت ، وعلى سبيل الاحتياط ، ارتدي تحته لباس لاعب كرة قدم .

فكرت مع « خوان فيثينس » بافتتاح ملهى في بولفار « راسبيل »، وسافرت الى سرغوسة لاطلب من امي المال اللازم ، لكنها لم توافق . بعد فترة قصيرة نفذ « فيثينس » الفكرة ، مقابل المكتبة الاسبانية في شارع « غي لوساك » . ومات في بكين بعد الحرب ، بسبب المرض .

في باريس ، تعلمت الرقص بصورة جيدة ، وكنت اذهب لهذه الغاية الى أحد المعاهد . كما تابعت الجاز باعجاب ومازلت أعزف على البانجو . كان لدي ستون أسطوانة على الاقل ، وهي كمية يعتد بها بالنسبة لتلك الايام . كنا نذهب لسماع الجاز في فندق « ماكما هون » وللرقص في « قصر مدريد » بغابة بولونيا ، أخيرا ، كنت في المساء أواظب على دروس اللغة الفرنسية .

كنت قد قلت ، بأنني لم أكن قد عرفت بمجرد وجود اللاسامية ، الى أن وصلت الى فرنسا . لقد اكتشفتها في باريس ، وبصورة فاجأتني كثيرا . ذات يوم روى أحدهم لعدد من الاصدقاء أن اخاه دخل في اليوم الفائت الى مطعم بالقرب من الـ « ايتوال » ، ولدى رؤيته احد اليهود يأكل هناك ، صفعه بقوة ، طارحا اياه ارضا . ووجهت أسئلة عديدة حول الامر ، وكنت أتلقى عليها اجابات مبهمة . كانت هذه المسألة غير قابلة للفهم بالنسبة لاسباني .

في تلك الايام ، كانت مجموعات من اليمين تقوم بتنظيم غارات في مونبارناس . كانوا يقفزون من سياراتهم الشاحنة حاملين عصيا صفراء ملوحين بها في وجوه « الاجانب » الذين كانوا يجلسون في افضل مقاهي

الارصفة . وقد حصل في مرتين او ثلاث أن وزعت على عدد منهم بعض الكلمـات .

انتقلت الى غرفة مفروشة في الرقم (٣ مكرر) بساحة السوربون ، الساحة الصغيرة الريفية ، الهادئة والمشجرة . كانت عربات الخيل ماتزال تشاهد في الشوارع الى جانب السيارات القليلة . كنت بالغ الاناقة ، استخدم قبعة وحذاء بكعب عال . وكان جميع الرجال يضعون القبعات . في « سان سيباستيان » كان كل من يخرج حاسر الرأس يعرض نفسه للاعتداء أو لوصفه بأنه شاذ جنسياً . ذات يوم ألقيت بقبعتي على رصيف بولفار سان ميشيل ودستها بقدمي الاثنتين معاً ، وودعتها الى الأبد .

في ذلك الحين أيضا ، تعرفت بفتاة رقيقة وسمراء ، فرنسية ، تدعى « ريتا » . التقيت بها في الـ « سيليكت » ، وكان لها عشيق أرجنتيني لم يحصل انني شاهدته اطلاقاً . كانت تقطن في فندق بشارع « ديلامبر » . وكنا نخرج كثيرا للذهاب الى الملهى أو السينما ، لا أكثر ، كنت الاحظ اهتمامها بي ، ولم أستطع ، بدوري ، أن أكون غير مكترث بها .

عندما ذهبت الى سرغوسة لأطلب مالا من امي ، تلقيت ، بعد وصولي بقليل ، برقية من « ڤيثينس » يعلمني فيها أن « ريتا » قد انتحرت . وحسب المعلومات القضائية ، تبين ان الامور سارت بشكل سيء جداً بينها وبين صديقها الارجنتيني (ربما جزئياً بسببي) . ففي اليوم الذي سافرت فيه ، شاهدها تدخل الى فندقها ، وتبعها حتى غرفتها . لا يعرف ما الذي حصل هناك بالضبط ، لكن « ريتا » ، في النهاية ، أشهرت مسدسا صغيرا واطلقت النار على عشيقها ثم أطلقت على نفسها .

كان « خواكين پينادو » و« هيرناندو ڤينيس » يقيمان معاً في استوديو . كنت عندهما ذات مرة ، ولم يكن قد مضى على وصولي الى باريس أكثر من أسبوع ، حين جاءت ثلاث فتيات لطيفات كن يدرسن علم التشريح في نفس الحي .

كانت احداهن تدعى « جان روكار » وقد بدت ، بالنسبة إليّ : جميلة جداً ، أصلها من شمالي فرنسا ، وكانت قد تعرفت على الأوساط الاسبانية في باريس عن طريق خياطتها ، وكانت تمارس الجمباز الايقاعي، حتى انها كانت قد فازت بميدالية برونزية في الألعاب الاولمبية بباريس عام ١٩٢٤ تحت ادارة « ايرين بوبارت » .

جاءتني في الحال فكرة ميكيافيلية ـ لكنها ذات خلفية ساذجة ـ ، للفوز بالفتيات الثلاث . في سرغوسه كان ضابط في الخيالة قد حكى لي عن مستحضر مقوّ للقدرة الجنسية ، شديد الفعالية ، هو « كلور هيدراتو دي يوهيمبينا » ، القادر على قهر أعتى مقاومة .

اقترحت الفكرةعلى « پينادو »و« فينييس » : ندعو الفتيات الثلاث، نقدم لهن الشمبانيا ، ونضع لهن في الكأس بعض النقاط من الـ « كلور هيدراتو » ، وكنت أؤمن فعلا بامكانية نجاح هذه الخطة . لكن «فينييس» أجابني بأنه كاثوليكي ولا يمكن ان يشارك في دناءة كهذه على الاطلاق .

بكلمات أخرى ، لم يحصل أي شيء ، باستثناء انني أصبحت ، فيما بعد ، التقي باستمرار بـ « جان روكار » لأنها ، مع الأيام ، أصبحت زوجتي ، وما تزال .

اول اخـراج

خلال تلك السنوات الأولى من تواجدي في باريس ، والتي كنت فيها التقي فقط بالاسبان ، قلما سمعت حديثاً عن السرياليين . ذات ليلة ، أثناء مروري من أمام « كلوسيري دي ليلا » شاهدت قطعا من الزجاج المكسور على الأرض ، وعرفت ان السبب هو انه ، خلال عشاء تكريمي لـ « مدام راشيلد » قام اثنان من السرياليين ـ لا أذكر من كانا ـ بشتمها وصفعها ، متسببين بمشاجرة عامة .

وللحقيقة اقول بأن السيريالية لم تثر اهتمامي كثيراً للوهلة الأولى . كنت قد كتبت عملا من حوالي عشر صفحات ، عنوانهـا ، بكل بسـاطة « هاملت » ، وقدمناه نحن بأنفسنا في بهو الـ « سيليكت » . وكانت تلك خطواتي الاولى كمخرج .

في أواخر عام ١٩٢٦ ، اتيحت لي فرصة كبيرة . كان « هيرناندو ڤينييس » ابن أخ لعازف البيانو اللامع « ريكاردو ڤينييس » الـذي عرّفني على « ايريك ساتي » .

في ذلك الوقت ، كان في امستردام اثنتان من افضل الفرق الموسيقية الكبيرة في اوروبا . كانت الاولى تقدم ، وبنجاح كبير ، « حكاية جندي » لـ « ستراڤنسكي » وكانت الثانية تعمل تحت ادارة « منغلبرغ » العظيم . ولكي تقوم هذه الاخيرة بمنافسة الفرقة الاخرى ، أراد « منغلبرغ » تقديم « ريتا بلو ميس بيـدرو » لـ « مانويل دي فايّا » ، وهـو عمل قصير مستوحى من احد فصول « دون كيخوته » ، ليكون خاتمة لامسـية موسيقية . وكانوا يبحثون عن مدير للمنصة .

كان « ريكاردو ڤينييس » يعرف « منغلبرغ » . وكنت ، بسـبب « هاملت » قد عقدت بعض الصلات ، ولو أنها كانت ، للحقيقة ، قليلة جدا . الخلاصة .. عرضوا عليّ ادارة المنصة ، ووافقت .

كان عليّ أن اعمل مع قائد اوركسترا ذي شهرة عالمية ، وعدد من المغنين المعروفين . أجرينـا التمارين لمدة خمسـة عشر يوماً في بيت « هيرناندو » بباريس . الـ « ريتابلو » هو في الواقع مسرح صغير للاعب العرائس ، ونظرياً ، كل شخصياتـه عبارة عـن دمى تغني عن طريق الدوبلاج باصوات المغنين . اما أنا فقد قمت بادخال أربع شخصيات من لحم ودم ، شاركت ، مع وضع الاقنعة ، باستعراض « ميس بيدرو » . أما الدوبلاج الصوتي فقد جـرى تنفيذه من قبل المغنين الذين كانوا يتواجدون في الجانب المخصص للفرقة الموسيقية . وبالطبع ، فقد اعطيت

الادوار – الصامتة – الاربعة لاصدقائي . « بينادو » قام بدور صاحب الخان ، وابن عمي « رافائيل ساورا » دور « دون كيخوته » ، كما كان من المشاركين الرسام « كوسيو » .

قدمنا ثلاثة او اربعة عروض في امستردام في مسرح غاص بالحضور . في الليلة الاولى نسيت القيام باعداد الاضاءة . وبمساعدة أحد الكهربائيين، تمكنا بعد ساعات طويلة من العمل ، من اعداد كل شيء للعرض الثاني ، الذي تم بشكل طبيعي .

لم أعد ، فيما بعد ، الى الادارة المسرحية ، الا مرة واحدة ، في المكسيك ، وبعد ذلك بكثير ، عام ١٩٦٠ . كان العمل هو « دون خوان تينوريو » لـ « تورثيا » . قدمنا ثلاثة عروض في عيد جميع القديسين ، كما هي العادة في اسبانيا ، وكان النجاح هائلا ، وتحطمت ، بسبب الزحام ، نوافذ المسرح الزجاجية . في ذلك العرض الذي لعب فيه « لويس الكوريثا » دور « دون خوان » ، احتفظت لنفسي بدور « دون دريغو » والده . لكن الصمم كان يحول دون امكانية متابعتي للنص . مثلت ، سهواً ، بالقفازات ، واضطر « الكوريثا » الى تعديل طريقته في التمثيل ، اذ كان يأتي للامساك بي من مرفقي لتنبيهي الى توقيت اداء عباراتي في الحوار .

العمل في السينما :

كنت اتردد على دور السينما باستمرار ، منذ وصولي الى باريس ، اكثر بكثير مما كنت افعل في مدريد . وكان ذلك يبلغ ثلاث مرات يومياً . في الصباح وبفضل عرض خاص بالصحافة ، سهّل لي احد الاصدقاء امكانية حضوره ، كنت اشاهد افلاما أمريكية في مكان قريب من صالة « واغرام » . بعد الظهر كنت اشاهد فيلماً في صالة الحي . وفي المساء كنت اذهب الى « ڤيوكولومبييه » أو « ستوديو اورسولينسي » .

لم يكن حضوري لعروض الصحافة ، تطفلاً خالصاً ، اذ كنت أكتب النقد لـ « فوي فولانت » و « كاييه دار » ، كما كنت ابعث بمقالاتي الى مدريد . اذ كتبت حول «ادولف منجو» و«بستركتيون» و«شتروهايم» .

من بين الافلام التي اثرت بي أكثر من غيرها ، لا يمكن أن انسى « الدارعة بوتمكين » . لدى الخروج من العرض ، في شارع بمنطقة آليسيا ، كدنا أن نضع المتاريس ، ولزم ان يتدخل البوليس . خلال سنوات طويلة ، كنت ارى هذا الفيلم ، الافضل في كل تاريخ السينما . الآن لست ادري .

اتذكر ايضا أفلام « بايست » و « الرجل الاخير » لمورنلو ، وقبل كل شيء أفلام « فريتز لانغ » .

عندما شاهدت فيلم « الموت المتعب » ادركت ، ودون أدنى شك ، انني اريد أن اصبح سينمائياً ، لم تعجبني فيه القصص الثلاث ، بل المقطع الاوسط ، وصول الرجل ذي القبعة السوداء ــ في الحال بدا لي انه تعبير عن الموت ــ الى قرية فلمنكية ، ومشهد المقبرة . كان في هذا الفيلم شيء ما ، اثر فيّ بعمق ، مضيئاً حياتي . هذا الاحساس تعاظم مع أفلام اخرى مثل «Los Nibelungos» و « ميتروبوليس » .

أصبح سينمائيا ؟ كيف ؟ .. أنا اسباني ، وناقد في المناسبات . لم تكن لدي تلك التي تسمى « علاقات » .

قبل ان اغادر مدريد ، كنت اعرف اسم « جان ايبشتاين » الذي كان يكتب في « ليسبري نوفو » . كان هذا المخرج ذو الأصل الروسي ، يعتبر احد الاكثر شهرة في السينما الفرنسية ، الى جانب آبل غانس ، ومارسيل ليربييه . وقد علمت انه ، بالتعاون مع ممثل روسي مهاجر وممثل فرنسي ، نسيت اسمه ، قام باحداث شيء من قبيل معهد الممثلين . وفي الحال ذهبت لتسجيل نفسي . كان جميع الطلاب

ـ باستشنائي ـ من الروس البيض المهاجرين . شاركت لفترة اسبوعين أو ثلاثة ، في التمارين والارتجال . كان ايشتاين يقول لنا مثلاً : « أنتم محكومون بالموت ، في اليوم السابق للتنفيذ » ، وكان يقول لأحدنا بأن يكون متأثراً ويائساً ، ولآخر بأن يكون وقحاً وسليطاً ، وكنا نفعل ما نستطيعه .

كان يعد الجيدين بأدوار صغيرة في أفلامه . عندما تسجلت ، كان يقوم بانجاز « مغامرات روبير ماكير » ، لكن الوقت كان قد فات للظفر بدور ما . عندما انهى الفيلم ، ذهبت اليه في استوديوهات « الباتروس » الكائنة في « مونتروي ـ سو ـ بوا » ، وقدمت نفسي . كنت أعرف انه يحضّر لفيلم «Mauprat» . استقبلني ، وقلت له :

ـ اعرف انك بصدد تحقيق فيلم . انني أهتم بالسينما كثيراً ، لكنني لا افهم شيئاً في الامور التقنية ، وربما لن يكون باستطاعتي ان اكون نافعاً جداً بالنسبة إليك ، الا انني لن اطلب نقوداً . دعني أقوم بدهان الديكور، او تبليغ الاوامر ، .. اي شيء ، ووافق . كان العمل في «Mauprat» (في باريس ، وأيضاً في روموراتتين و شاتوريو) هو أولى خبراتي السينمائية . في ذلك الفيلم عملت شيئاً قليلاً من كل شيء ، بما في ذلك، العمل كبديل لممثلين في مشاهد السقوط . في مشهد إحدى المعارك ، كنت اؤدي دور شرطي من أيام لويس الخامس عشر (أو لويس الرابع عشر)، حيث اتلقى عياراً نارياً وانا أقفز فوق حافة أحد الجدران المرتفعة ، وكان عليّ ان أقع من ارتفاع ثلاثة امتار . وصنعوا لي فراشاً فوق الأرض لتخفيف الصدمة ، الا انني ، على الرغم من ذلك ، لم أسلم من الاصابة.

خلال التصوير ، توطدت الصداقة بيني وبين كل من الممثل « موريس شولتز » والممثلة « ساندا ميلوفانوف » ، كما اثارت الكاميرا اهتمامي بصورة غير عادية ، في الوقت الذي كانت ما تزال فيه ، بالنسبة إليّ ، مجهولة بالكامل . كان المصور « البير دوفيرجيه » يعمل بمفرده دون

مساعد. كان يقوم بنفسه بتبديل مخازن الافلام والقيام بكافة التحضيرات، كما كان يقوم بنفسه بادارة المحرك اليدوي لآلة التصوير ، محافظا باستمرار على سرعة واحدة .

لم تكن الاستوديوهات معزولة صوتياً ، فالأفلام كانت ما تزال صامتة . بعض الاستوديوهات ـ كاستوديو « ايبيني » مثلاً ـ كان ذا جدران زجاجية ، من الأعلى وحتى الاسفل ، أما مصادر الاضاءةوعاكسات النور ، فقد كانت من القوة ، بحيث كان علينا جميعاً استخدام النظارات ذات الزجاج الدخاني لحماية اعيننا واتقاء الأضرار الجسيمة .

بعد «Mauprat» بدأ ايبشتاين التحضير لـ « سقوط بيت آشر » عن « ادغار آلان پو » مع « جان ديبو كورت » وزوجة « آبل غانس » في الدورين الرئيسيين ، فأخذني كمساعد ثانٍ ، ونفذت كافة المشاهد الداخلية التي جرى تصويرها في « ايبيني » . ذات يوم بعث لي مسؤولا الانتاج الى صيدلية قريبة لشراء « هيموغلوبين » . كان الصيدلي ، على ما يبدو ، يكره الاجانب ، اذ انه ، حين لاحظ من لهجتي انني اجنبي ، رفض كلياً الاهتمام بي ، بل وشتمني .

في الليلة التي انتهى فيها تصوير المشاهد الداخلية ، وخلال تلقينا التعليمات للتواجد في اليوم التالي في المحطة ، حيث كنا سنغادر الى « دوردونيا » لتصوير المشاهد الخارجية ، قال لي ايبشتاين :

— ابق قليلاً مع المصور ، سيأتي آبل غانس لاجراء بعض الاختبارات لفتاتين ، وأتمنى لو انك تقوم بمساعدته .

وبفظاظتي المعتادة ، أجبته بانني اعمل كمساعد له وحده ، ولا علاقة لي بالسيد « آبل غانس » ، الذي لا تعجبني أفلامه (ولم يكن هذا صحيحا ، اذ أن فيلمه نابوليون الذي جرى تنفيذه للعرض بثلاث شاشات ، كان قد أثار اعجابي كثيراً) ، واضفت بان « غانس » يبدو لي مبتذلاً .

حينئذ اجابني ايبشتاين بهذه العبارة التي مضى عليها الآن كل هذا الزمن ، وما زلت أتذكرها كلمة فكلمة :

ــ كيف يجرؤ اجدب صغير مثلك على الحديث هكذا عن مخرج بهذه الاهمية ؟

ثم أضاف ، بان عملنا معا قد انتهى . وهكذا كان . ولم اشارك في التصوير بالمشاهد الخارجية لـ « سقوط بيت آشر » . ومع هذا ، فبعد برْهة قصيرة ، وكان قد استعاد بعض هدوئه ، اوصلني بسيارته الى باريس ، وخلال الطريق أعطاني بعض النصائح :

ــ انتبه ، الاحظ أن لديك اتجاهات سيريالية . ابتعد عن هؤلاء الناس.

استمريت بالعمل في السينما ، هنا وهناك . .

في استوديوهات « آلباتروس » بـ « مونتروي » ، قمت بدور صغير لمهرب في « كارمن » مع « راكيل ميلر » من اخراج « جاك فيدير » المخرج الذي ما زلت معجبا به . قبل ذلك بعدة أشهر ، عندما كنت اعمل في معهد الممثلين ، ذهبت لمقابلة زوجته « فرانسواز روسي » بصحبة روسية بيضاء كانت تطلق على نفسها اسم « آدا برازيل » .واستقبلتنا « فرانسواز روسي » بكثير من اللطف ، لكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً من اجلنا .

« بيناذو » و « هيرناندو » ظهرا أيضا في « كارمن » ــ التزامنا تجاه اسبانيا ــ ، كعازفي غيتار . في أحد المشاهد ، وكانت فيه كارمن جالسة الى طاولة برفقة « دون خوسيه » ، طلب مني « فيدير » ان ابادرها ، خلال مروري بها ، بحركة غزل عابرة . ونفذت . إلا ان حركة الغزل ، كانت على ما يبدو اراغونية ، بحيث تلقيت على اثرها صفعة رنانة من الممثلة .

قدمني « البير دو ڤيرجيه » مصور ايبشتاين (الذي صور لي فيما بعد « كلب اندلسي » و « العصر الذهبي ») الى اثنين من المخرجين

« ايتيفان » و « نالپاس » اللذين كانا يحضران لفيلم مع « جوزفين بيكر » هــو «La sirène des Tropiques»، ولم يكن هذا الفيلم الذي صوّر في استوديو « فرانكور » من افضل ذكرياتي ، فنزوات البطلة كانت تبدو لي مما لا يمكن احتماله . ذات يوم ، وكنا بانتظارها ، جاهزة للتصوير في التاسعة صباحا ، وصلت في الخامسة بعد الظهر ، ثم أغلقت وراءها باب غرفتها بعنف ، وأخذت بتكسير زجاجات الماكياج . وسأل احدهم عن السبب في كل هذه الثورة ، فأجيب : « ربما ان كلبها مريض » .

كان الى جانبي في تلك اللحظة « بيير باتشيف » الذي ظهر أيضاً في الفيلم ، وقلت له :

ــ انها ... أمور السينما ..

فأجابني بجفاء :

ــ ربما هي أمور سينماك ، لكن ليس سينماي .

لم استطع إلا أن أعطيه الحق . وقد أصبحنا فيما بعد صديقين . وشارك في « كلب اندلسي » .

كان « ساكو وفانزيتي » قد اغتيلا في الولايات المتحدة ، وثار هيجان في كل مكان طوال ليلة بكاملها ، وسيطر المتظاهرون على باريس . ذهبت الى الـ « ايتول » مع احد الكهربائيين العاملين في الفيلم ، وهناك شاهدت بعض الرجال يطفئون شعلة قبر الجندي المجهول بالتبول عليها . قام الناس بتحطيم واجهات المخازن ، وكان كل شيء يغلي . الممثلة الانكليزية التي كانت تعمل في الفيلم قالت لي بأنهم قد أطلقوا النار على بهو الفندق الذي تقيم فيه ، وكان بولفار « سيباستوبول » مستهدفاً بشكل خاص . واستمر توقيف المشتبه بهم في أعمال العنف والسلب الى ما بعد مضي عشرة أيام على تلك الليلة .

تركت العمل في «La sirène des Tropiques» قبل البدء في تصوير المشاهد الخارجية ، بمحض ارادتي .

الأحلام .. وأحلام اليقظة

لو قالوا لي ، بقي لك من الحياة عشرون يوماً ، ماذا تفضل أن تفعل في الساعات الأربع والعشرين من كل يوم من هذه الأيام التي سوف تعيشها؟ لأجبت : أعطوني ساعتين من الحياة الفاعلة ، وعشرين ساعة من الاحلام ، شرط أن اتذكرها فيما بعد ، لأن الحلم موجود لمجرد الذكرى التي نتعلق بها .

أعبد الاحلام ، ولو كانت أحلامي كوابيس ، وهو ما يحصل في معظم الحالات . انها مزروعة بالعقبات التي أعرفها واعترف بها ، لكن ليس لهذا أهمية لديّ .

هذا الجنون الخاص بالاحلام ، بمتعة أن أحلم ، وهو ما لم أحاول أبداً ايجاد تفسير له ، يشكل أحد النزعات الدفينة التي قربتني من السريالية . « كلب اندلسي » ــ وسأعود اليه فيما بعد ــ ولد من تمازج ما بين أحد احلامي ، وحلم لـ « دالي » . وفيما بعد أدخلت احلاماً في أفلامي ، محاولاً تفادي المظهر العقلاني ، أو التفسير الذي يمكن أن تنطوي عليها . ذات يوم قلت لمنتج مكسيكي : « اذا كان الفيلم اقصر مما يجب ، فبإمكاني أن أضيف اليه حلماً » . ولم ترق له دعابتي كثيراً .

يقال بأنه ، خلال الحلم ، يقوم الدماغ بحماية نفسه تجاه العالم الخارجي ، وهو أقل حساسية ازاء الضجيج والروائح والضوء . لكن ، وبالمقابل ، فهو يبدو أنه يجري قصفه من الداخل بعاصفة من الاحلام التي تتزاحم أفواجها . آلاف ملايين الصور تتدفق كل ليلة ، لتتلاشى في الحال ، بعد أن تكسو الارض برداء من الاحلام الضائعة . كل شيء ،

كل شيء على الاطلاق . يجري تصويره في هذه الليلة او تلك ، في دماغ أو في آخر ، ثم يمحى .

لقد وصلت الى حد تصنيف حوالي خمسة عشر حلما متكررا . طاردتني طيلة حياتي ، كرفاق سفر أوفياء . بعضها بسيط جداً : اسقط برفق في هاوية ، أو انني ملاحق من قبل نمر او ثور ، وادخل في غرفة ، اغلق الباب ، لكن الثور يحطمه ، ليتابع ملاحقتي .

او ان علي أن أخضع للامتحان من جديد ، وفي أي عمر . أكون معتقدا انني قد نجحت في كل شيء ، لكن يتضح أن عليّ التقدم للامتحان مرة اخرى ، وطبعا فانني أكون قد نسيت ما يجب عليّ معرفته .

وحلم آخر ، يحصل باستمرار مع العاملين في المسرح والسينما : عليّ أن اظهر على المسرح خلال دقائق قليلة لأداء دور لا أعرف منه كلمة واحدة . هذا الحلم يمكن ان يطول ويتعقد كثيراً . أكون خائفا ومذعوراً، بينما الجمهور قد نفذ صبره واخذ يصفر . ابحث عن أحدهم ، عن المخرج ، لاقول له : هذا رهيب ، ماذا افعل ؟ ويجيبني ببرود بأن عليّ أن اتماسك لأن الستارة سترفع ، ولا يمكن الانتظار اكثر من ذلك .. ، واكاد أختنق من الضيق . عملت على اعادة بناء بعض صور هذا الحلم في « سحر البورجوازية الخفي » .

وضيق آخر : العودة الى الثكنة . في الخمسين او الستين من العمر، اعود الى ثكنة مدريد التي كنت قد أمضيت فيها خدمتي العسكرية ، مرتديا لباسي العسكري القديم ، وأنا أمشي ملتصقاً بالجدار ، خوفا من أن يتعرف احد عليّ ، شاعراً في اعماقي بشيء من الحياء لكوني قد أصبحت جندياً في سني هذه . لكن ما الحيلة والأمر هو كذلك ، وعليّ ان اتكلم مع العقيد كي أشرح له حالتي . كيف يمكن بعد كل هذا الذي رأيته وعشته ان أكون ما ازال باقياً في الثكنة ؟ .

في مرات أخرى ، بعد ان تقدمت في السن ، اعود الى بيت الاسرة في كالاندا ، حيث أعلم بان هناك شبحاً متخفياً . أتذكر شبح والدي بعد موته . ادخل بشجاعة الى احدى الغرف المظلمة ، وانادي على الشبح ، كائناً من كان ، أستفزه بل وحتى اشتمه . حينئذ اسمع جلبة ورائي مع انصفاق باب ، وأستيقظ مذعوراً دون ان اكون قد رايت احداً .

ويحصل معي ايضا ، ما يحصل مع الجميع . حلم مع ابي الذي يجلس الى المائدة بوجه جاد ، يتناول طعامه ببطء ، وبمقادير قليلة جداً ، ودون أن يتحدث . انا أعرف انه ميت ، واهمس الى والدتي أو الى واحدة من اخواتي : « اهم شيء ، هو ان لا يتحدث احد بذلك » .

خلال الحلم ، اشكو الحاجة الى المال . ليس معي شيء . حساب المصرف صفر . كيف سادفع للفندق ؟ . هذا أحد الكوابيس التي كانت تطاردني بكثير من الإلحاح . وما تزال .

من حيث مدى هذا الالحاح ، يمكن ان يكون هناك أيضاً «حلم القطار»، هذا الحلم الذي طاردني مئات المرات . المضمون هو نفسه باستمرار ، الا ان الطابع والتفاصيل كانت تطرأ عليها تبدلات غير متوقعة . اذهب في قطار ، لا اعلم الى اين . الحقائب موضوعة في المكان المخصص لذلك . وفجاة يدخل القطار الى احدى المحطات ، ويتوقف ، انهض للنزول قليلا الى الرصيف ، كي أحرك ساقي بعض الشيء ، وأتناول كاساً في بار المحطة .

مع ذلك ، فأنا حذر جداً ، اذ انني قد سافرت مرات كثيرة في هذا الحلم ، واعلم انني حالما اضع رجلي على الرصيف ، فان القطار ينطلق بصورة مفاجئة . انه فخ يتربص بي .

لهذا كنت في حالة دائمة من عدم الثقة ، فاضع ، متمهلاً ، احدى قدمي على الارض ، ناظراً الى اليمين والى اليسار ، وانا اصفر من قبيل

التمويه . القطار ساكن ، مسافرون آخرون ينزلون بكل اطمئنان ، حينئذ أقرر أن أضع قدمي الثانية . في تلك اللحظة يندفع القطار مثل قذيفة مدفع . وأسوأ ما في الامر هو انه يكون قد أخذ حقائبي معه . وأبقى وحيداً على رصيف أصبح خاليا بشكل مفاجىء ، واستيقظ .

احيانا ، عندما كنت اعمل مع « جان كلود كاريير » ونشغل غرفاً متجاورة ، كان « كاريير » يسمعني وأنا أصرخ ، عبر الجدار الفاصل ، ولم يكن يبالي على الاطلاق ، فقد كان يعرف : « انه القطار .. وقد ذهب » . وبالفعل ، ففي اليوم التالي ، كنت استيقظ متذكراً هذا القطار الذي فرّ بصورة مفاجئة ، مرة اخرى ، تاركا إياي في منتصف الليل وحيدا على رصيف المحطة ، ودون حقائب .

لم أحلم مرة واحدة ، انني في الطائرة ، وأتمنى لو اعرف لماذا .

اعتقد انه ليس هناك من احد يهتم بأحلام الآخرين . لكن كيف لي ان أروي حياتي الخاصة دون ان اتكلم عن الجانب غير المرئي ، الجانب المتخيّل وغير الواقعي ؟ . لكنني لن أطيل كثيرا . بضعة احلام أخرى ، وكفى .

اولاً ، حلم ابن عمي « رافائيل » ، الذي نقلته بشكل شبه تام في « سحر البورجوازية » ، انه حلم يتصل بالموت ، سوداوي وجميل . ابن عمي « رافائيل ساورا » مات منذ فترة ، انني أعرف ذلك ، ومع هذا فانني التقي ، فجأة في شارع مقفر واسأله مندهشا : « ماذا تفعل هنا؟ » . يجيب بحزن : « انني امرّ من هنا كل يوم » . فجأة اجد نفسي في بيت مليء بنسيج العناكب ، حيث ارى « رافائيل » داخلاً . اناديه ، لكنه لا يجيب . أخرج . وفي نفس الشارع المقفر ، انادي هذه المرة على امي واسألها : « امي ، امي ، ماذا تفعلين تائهة بين الظلال ؟ » .

هذا الحلم أثر بي بشكل بالغ ، وكان عمري سبعين عاماً عندما زارني . في وقت لاحق زارني حلم آخر ، أثر بي بقوة أكبر . شاهدت

فجاة العذراء المقدسة يغمرها النور وهي تمد إليّ يدها برفق ، وحضور قوي . كانت تحدثني ــ أنا الكافر ، الشرير ــ بكل حنان العالم ، مع خلفية من موسيقا شوبرت ؛ كنت اسمعها بكل وضوح . ــ في فيلم «La Viá Láctea» عملت على اعادة بناء هذه الصورة ، لكن لم تكن لها قوة الايمان التي كانت تمتلكها في الحلم ــ . جثوت ، وامتلأت عيناي بالدموع ، وشعرت فجأة بالايمان يغمرني ، ايمان عميق لا يتزعزع . عندما استيقظت امضيت دقيقتين أو ثلاثاً الى أن تمالكت نفسي . كنت أكرر ، وانا نصف نائم : اجل ، اجل ، ايتها العذراء المقدسة مريم ، أؤمن ! . وكان قلبي يخفق بقوة .

ساضيف بأن هذا الحلم كان له بعض الطابع الجنسي ، وطبعاً ، فان الجنس بقي ضمن الحدود العفيفة للحب العذري . لكن ، ربما لو كان هذا الحلم قد طال اكثر ، لتخلت تلك العفة عن مكانها مفسحة المجال لرغبة حقيقية . لست أدري ، كنت اشعر ، ببساطة ، انني مفتون ، مثار ، منتش ، هذا الاحساس الذي أعرفه جيداً ، طوال حياتي ، وليس فقط في الحلم .

وحلم آخر الآن انه ، للأسف ، غادرني منذ حوالي خمسة عشر عاماً . كيف يمكن أن يستعاد حلم مفقود ؟ . كنت كثيراً ما اجد نفسي في كنيسة . اضغط على زر مخفي وراء احد الأعمدة ، فيدور المذبح حول نفسه ببطء ، كاشفاً عن دَرَج سري . فأنزل بقلب خافق الى قاعات واسعة تحت الأرض . كان حلما طويلاً ، مزعجا بعض الشيء ، لكنه كان يعجبني .

ذات ليلة ، في مدريد ، استيقظت غارقا في الضحك ، دون أن استطيع السيطرة على نفسي ، سألتني زوجتي عما يضحكني ، فأجبتها: « كنت أحلم أن أختي « ماريا » تقدم الي مخدة كهدية » . انها عبارة اقدمها الى المحللين النفسيين .

اخيرا ، بعض كلمات حول « غالا » . انها امرأة سعيت دائما الى اتقائها ، ولا انكر ذلك . تعرفت بها في « كاداكيس » عام ١٩٢٩ بمناسبة

معرض برشلونة الدولي . جاءت مع « بول ايلوار » ، زوجها ، وابنتها الصغيرة سيسيل . كان يرافقهم « ماغريته » وزوجته ، وصاحب صالة عرض بلجيكي .

نزلت انا في بيت لـ « دالي » على مسافة كيلو متر واحد من « كاداكيس » ، ونزلوا هم في احد فنادق القرية . قال لي دالي وهو في غاية التوتر : « لقد وصلت امراة رائعة » . بعد الظهر ، خرجنا جميعا لتناول كاس ، ثم قرروا مرافقتنا حتى بيت « دالي » بقصد التنزه . في الطريق ، وخلال تحدثنا بامور غير ذات اهمية ، قلت ــ وكانت غالا الى جانبي ــ ان اكثر ما يثير نفوري في المرأة هو ان تكون ذات عضلات بارزة ..

في اليوم التالي ، ذهبنا للسباحة ، فلاحظت أن عضلات « غالا » هي من ذلك النوع الذي قلت عنه انه يثير نفوري .

بين عشية وضحاها ، اصبح « دالي » انسانا آخر ، كل التوافق في الافكار الذي كان قائما فيما بيننا زال وتلاشى ، بما في ذلك ما كنت قد حادثته ، عن العمل معه في سيناريو « العصر الذهبي » . لم يعد يتحدث الا عن « غالا » ،بل واخذ يعيد كل ما كانت تقوله . تغير بصورة كاملة .

ايلوار والآخرون سافروا بعد أيام قليلة ، تاركين في « كاداكيس » غالا وابنتها سيسيل . ذات يوم خرجنا في مركب مع زوجة احد الصيادين واسمها « ليديا » ، لكي نتناول طعام الغداء بين الصخور . اشرت لـ « دالي » الى احدى زوايا الشاطىء الصخري ، وقلت له انها تذكرني بـ « سوروليا » وهو رسام مغمور في فالنسيا . فصرخ دالي مستنكرا :

ــ كيف يمكن ان ترتكب هذه الاخطاء الشنيعة بحق صخور جميلة كهذه ؟

تدخلت « غالا » في الحديث ، معطية إياه الحق . وكانت بداية سيئة . بعد الغداء ، وبينما كنا نشرب بكثرة ، عادت « غالا » لمهاجمتي، ولا اذكر بالضبط لماذا . نهضت غاضبا وطرحتها على الارض وانا امسك بتلابيبها .

ركضت الصغيرة سيسيل مذعورة فوق الصخور ، مع زوجة الصياد . وجثا « دالي » على ركبتيه متوسلا الي كي اسامحها . اما انا ، وعلى الرغم من شدة غضبي ، فقد بقيت مسيطرا على نفسي ، عازما بانني لن اقتلها .

اخيرا ، تركتها وشأنها . وبعد يومين سافرت مع ابنتها .

فيما بعد ، رووا لي ان « ايلوار » ـ في وقت لاحق اقمنا بعض الوقت في نفس الفندق في أعلى مقبرة مونمارتر بباريس ـ ، لم يكن يتحرك الا وهو يحمل مسدسا صغيرا ذا قبضة مرصعة بالصدف ، اذ كانت « غالا » قد قالت له بأنني كنت اريد قتلها .

كل هذا ، لكي اعترف بانني ذات ليلة ، في المكسيك ، بعد خمسين سنة ، وانا في الثمانين حلمت ب « غالا » .

رأيتها من ظهرها ، في شرفة احد المسارح . ناديتها بصوت هامس . نهضت واقتربت مني ، وقبلتني بحب من شفتي ، ومازلت اتذكر عطرها ونعومة بشرتها .

كان هذا ، بلا شك ، الحلم الاكثر مفاجأة في حياتي . اكثر من حلم العذراء .

بمناسبة الحديث عن الاحلام ، اتذكر الآن هذه الواقعة التي حدثت في باريس عام ١٩٧٨ . صديقي « خيرونيا » ، الرسال المكسيكي الرائع ،

جاء الى فرنسا مع زوجته « كارمن پارّا » وهي مهندسة ديكور مسرحي ، وابنهما ذي السبعة أعوام . الزوجة عادت من ثم الى المكسيك وبقي الرسام في باريس . وبعد ثلاثة أيام وصله بأن زوجته تقدمت بطلب للطلاق ، مما أدهش الرجل ، الذي سأل عما دفعها الى ذلك فأجابه المحامي بانه حلم شاهدته .

وتطلقا .

في الاحلام ، ولا اعتقد أن حالتي غير معتادة ، لم استطع على الاطلاق ان امارس الحب بطريقة حقيقية كاملة ومشبعة . والعائق الذي يتكرر اكثر من غيره هو نظرات الآخرين . فعبر احدى النوافذ المطلة على الغرفة التي كنت اتواجد فيها مع امرأة ، كنت افاجأ باشخاص يراقبوننا ويبتسمون .

كنا نستبدل الغرفة ، وأحيانا البيت بكامله ، لكن هذا كان دائما دون جدوى . اذ كانت تلك النظرات الفضولية الساخرة تستمر في مطاردتنا . وعندما كنت اعتقد ، اخيرا ، أن لحظة الايلاج قد حانت ، كنت أفاجأ أن الفرج قد انسد ، وأحيانا لا أجده ، اذ يكون قد امحى ، كما في جسم تمثال املس .

في أحلام اليقظة ، بالمقابل ، والتي مارستها طوال حياتي بلذه . المغامرة الجنسية طويلة ومعدة بشكل دقيق ، سواء استطاعت بلوغ هدفها أم ، حسب الحالة . ومثلا ، فقد كنت وانا شاب صغير احلم خلال اليقظة بملكة اسبانيا الجميلة « ڤيكتوريا » زوجة « الفونسو الثالث عشر » . حتى انني في الرابعة عشرة تصورت سيناريو صغيرا ، وهو الذي كان اصلا لـ « ڤيريديانا » : ذات ليلة ، كانت الملكة تنسحب الى مخدعها . كانت وصيفاتها يساعدنها كي تنام ، ثم يتركنها وحيدة . حينئذ كانت تشرب كاسا من الحليب ، وضعت لها فيه منوماً لا يقاوم . بعد لحظات ، وعندما تكون قد نامت بعمق ، كنت ادخل الى المخدع الملكي حيث استطيع الاستمتاع بالملكة على هواي .

تكاد تكون احلام اليقظة ، باهمية الاحلام ، وهي مسيطرة وغير متوقعة . كنت طوال حياتي ، اتخيل ، وبكثير من المتعة ، مثلما قد يحدث للكثيرين ، انني لا أرى ولا أمس . وبهذه المعجزة ، أصبح الرجل الاقوى في العالم ، والذي تستحيل اصابته . وقد طاردتني احلام اليقظة خلال فترة طويلة ، وبأشكال متعددة ، خلال الحرب العالمية الثانية . كانت تدور بشكل اساسي حول فكرة « الانذار النهائي » ، وكانت يدي التي لا ترى ، تمتد لى « هتلر » بورقة كتبت عليها بأن امامه اربعا وعشرين ساعة كي يأمر باطلاق الرصاص على « غورنغ » و « غوبلز » وجميع افراد الزمرة ، والا سيقضى عليه .

كان هتلر ينادي على مساعديه وامناء سره ، ويصرخ « من جلب هذه الورقة ؟ » وكنت انتظر في احدى زوايا مكتبه ، بصورة غير مرئية ، لاراقب المشهد ، واتفرج على هيجانه غير المجدي .

في اليوم التالي ، كنت اقتل « غوبلز » مثلا ، ومن هناك انتقل الى روما ـ حيث يستمر تواجد اليد غير المرئية في كل مكان ـ ، لعمل الشيء نفسه مع « موسوليني » . ثم انتقل الى امور عديدة ، من بينها انني كنت ادخل الى غرفة نوم سيدة رائعة ، فاجلس على أحد المقاعد واشاهدها وهي تتعرى شيئا فشيئا ، قبل أن أعود من جديد لتقديم انذاري الى الفوهرر .

أيام كنت طالبا في مدريد ، وخلال النزهات التي كنت اقوم بها مع « بيبين بيو » الى جبال « غوادارام ا» ، كنت احيانا اتوقف مشيرا له الى المناظر الرائعة والجبال المحيطة بنا وأقول له : « تصور أن حولنا من كل الجهات ، أسوارا ذات فتحات ، وخنادق ، وآثارا معمارية . وكل ما في الداخل هو ملكي . عندي جنود وفلاحون نعيش سعيدين بكل هدوء ، ونرمي بالسهام جميع الفضوليين الذين يحاولون الاقتراب من البوابات» .

كانت هناك جاذبية مبهمة ازاء العصور الوسطى تجلب الى مخيلتي

باستمرار صورة السيد الاقطاعي ، المعزول عن العالم ، الذي يحكم مقاطعته بيد من حديد ، لكنه طيب في أعماقه . لا يعمل شيئا هاما ، مجرد حفل جنسي جماعي صغير بين الحين والآخر ، يشرب الـ « هيدروميل » ـ مشروب من الماء والعسل ـ ، والنبيذ الجيد ، امام نار الحطب التي تشوى عليها حيوانات كاملة . الزمن لا يبدل شيئا من الامور . والسفر لا وجود له .

أتصور ايضا ، ولاشك أنني لست الوحيد في ذلك ، أن انقلابا غير متوقع ، وبارادة إلهية ، يجعل مني ديكتاتورا للعالم . أتولى كافةالسلطات ، ولا شيء يمكنه الوقوف أمام رغباتي . وأول قراراتي ستتوجه لمحاربة وسائل الاعلام ، مصدر كل الهموم .

ثم ، وعندما يدب في نفسي الرعب ، امام الانفجار السكاني الذي يثقل على المكسيك ، اتصور بانني سأستدعي مجموعة من علماء الحياة ، وأعطيهم أمرا قاطعا بأن يطلقوا على الكوكب جرثومة مرعبة ، تخفف عنه الفي مليون من السكان . مع انني سأبدأ بأن أقول لهم بشجاعة : «ان على هذه الجرثومة ان تهاجمني انا ايضا » . ثم ، وبصورة سرية ، ابدأ بتنظيم قائمة بالاشخاص الذين يجب انقاذهم ، بعض افراد عائلتي ، افضل أصدقائي ، عائلات وأصدقاء اصدقائي . ابدأ لكنني لا اكمل . اصرف النظر .

خلال الاعوام العشرة الأخيرة ، تصورت أيضا أن أحرر العالم من البترول ، وهو مصدر آخر للازعاج ، بأن اقوم بتفجير خمس وسبعين قنبلة نووية تحت الارض في الحقول الاكثر اهمية . لقد بدا لي العالم بلا بترول ـ ومازال ـ نوعا من الفردوس الممكن ، في اطار مملكتي الخيالية التي تنتمي الى العصور الوسطى . لكن يبدو لي أن القنابل الخمس والسبعين يمكن أن تخلق بعض المشاكل على مستوى التنفيذ . لذلك يفضل التريث ، ولعلنا نعود الى هذه المسألة .

ذات يوم ، وكنت مع « لويس الكوريثا » في « سان خوسيه بوروا » اعمل في احد السيناريوهات ذهبنا ، نحن الاثنين ، الى النهر ، ومعنا بندقية . لدى وصولنا الى الضفة ، أمسكت فجأة ب « الكوريثا » من ذراعه وأشرت اليه باتجاه الضفة الاخرى . كان هناك طير هائل يقف فوق احد الاغصان ، انه نسر !

سدد « لويس » البندقية وأطلق ، فسقط الطير وسط الاحراج . عبر « لويس » النهر غائصا في الماء حتى كتفيه . باعد مابين الاغصان ، واذ به يجد طيرا محنطا ، وقد ربطت الى احدى ساقيه بطاقة صغيرة كتب عليها اسم المخزن الذي أشتريته منه ، وثمنه .

في يوم آخر ، كنا ، « الكوريثا » وأنا ، نتعشى في قاعة الطعام بسان خوسيه . كانت هناك امرأة رائعة الجمال ، وحيدة ، تجلس الى طاولة قريبة . في الحال ، وكما هو طبيعي ، فقد اتجهت نظرات « لويس » اليها. وقلت له :

ـ لويس ، انت تعرف اننا جئنا الى هنا كي نعمل ، ولا احب أن تضيع الوقت في التفرج على النساء .

ـ نعم ، اعرف ذلك ـ اجاب ـ آسف .

واستمرينا في تناول العشاء .

بعد برهة قصيرة ، عاد « لويس » للنظر باتجاه هذه الجميلة الوحيدة، فاقدا قدرته على مقاومة رغبته في ذلك ، ابتسم لها ، وبادلته هي الابتسامة .

انا غضبت ، وذكرته بأننا جئنا الى « سان خوسيه » لنكتب سيناريو، كما قلت له أيضا أن اسلوبه هذا يثير نفوري . اغتاظ كثيرا وأجابني بأن

الذوق يفرض عليه كـ « جنتلمان » ان يرد الابتسامة لامرأة ابتسمت له. فنهضت مستنكرا تصرفه وذهبت الى غرفتي .

« الكوريتا » هذا ، انتهى من تناول عشائه ، وانتقل ليجلس الى جارته الجميلة . تعارفا . تناولا القهوة ، وتحادثا قليلا ، ثم اصطحب « الكوريتا » صيده الى غرفته . عرّاها بافتتان ، فاكتشف وشما على بطنها من أربع كلمات : « مع تحيات لويس بونيويل » .

كانت المرأة ، احدى مومسات المكسيك الانيقات ، اتفقت معها على المجيء الى « سان خوسيه » دافعا لها كل ما طلبته من أجل تنفيذ تعليماتي بكل دقة وأمانة .

وطبعا ، فان حادثتي الشر والومس ، كانتا مجرد دعابتين متخيلتين، لا أكثر الا انني على يقين من ان « الكوريتا » كان سيقضي نحبه ، على الاقل في الحادثة الثانية .

* * *

أنـا والسريالية

١٩٢٩ ـ ١٩٣٣

فيما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ ، عدت مرات عديدة الى اسبانيا ، والتقيت بأصدقاء المدينة الجامعية . خلال واحدة من تلك الزيارات ، قالا لي « دالي » بحماسة ، أن « لوركا » كتب عملا رائعا هو « غـرام السـيد بير ليمبلين مع بيليسا في حديقته » .

ـ يجب ان تقرأه .

وبدا فيدريكو متحفظا ، اذ انه كثيرا ما كان يعتبرني ـ وليس بـلا سبب ـ بدائيا وفظا اكثر ممايمكن احتماله في كيفية نظرتي التقويمية الى الادب الدرامي . وذات يوم ، وكان ذاهبا الى منزل أحد الارستقراطيين رفض حتى ان يصطحبني معه . على اية حال ، وتحت اصرار « دالي » وافق على ان يقرأ لي العمل . اجتمعنا نحن الثلاثة في قبو فندق « ناسيو نال » الذي كان مقسمابحواجز خشبية على طريقة حانات وسط اوروبا .

بدأ « لوركا » بالقراءة . وقد سبق ان قلت انه يقرأ بطريقة رائعة ، مع ذلك ، كان هناك ما لم يعجبني في حكاية ذلك العجوز مع الفتاة ، والتي ينتهي الفصل الاول منها مع وصول الاثنين الى سرير ذي مظلة وستائر وعندئذ يخرج « جني » من قفص القن ليقول : « حسنا ، ايها الجمهور المحترم ، حينئذ ، فان السيد بير ليمبلين وبيليسا . . . »

قطعت عليه القراءة ، ضاربا على الطاولة ، وقلت :

ـ يكفي ، فيديريكو ، هذا « زبالة » .

شحب وجهه ، ثم اغلق المخطوطة ونظر الى دالي ، الذي التفت اليه بدوره ، قائلا له بصوته القوي :

ـ بونيويل على حق . انه « زبالة » .

ولم أصل الى معرفة كيف كان ينتهي هذا العمل .

على ان اعترف بأن الاعجاب الذي اكنه لمسرح لوركا كبيرا . فحياته شخصيته كانتا تتفوقان على عماله ، التي كثيرا ما تبدو لي متفاصحة ومتكلفة .

في وقت ما، فيما بعد، حضرت افتتاح «يرما» في **«المسرح الاسباني»** الجديد ، مع امي واختي « كونتشيتا » وزوجها . كنت في تلك الليلة اعاني كثيرا من « العرق الانسر » الذي اجبرني على الجلوس رافعا احدى رجلي على كرسي صغير .

ارتفعت الستارة . وظهر راع ، اخذ يعبر المسرح ، ببطء شديد ، لاعطاء الوقت الكافي لقراءة قصيدة طويلة ، وهو يلف على ساقيه قطعا من جلد خروف مربوطة باحزمة جلدية . استمر على هذه الحال دون بارقة أمل في ان ينتهي ، وحاولت ان اتحمل ، بصبر نافذ . واخذت المشاهد تتوالى . . . بدا الفصل الثالث ، بعض النساء يغسلن الثياب الى جانب دركور ساقية . ولدى سماعهن صوت اجراس صغيرة يهتفن :

« القطيع ! . . جاء القطيع ! » .

في مؤخرة الصالة ، كانت اثنتان من الدليلات العاملات هناك تقومان بقرع تلك الاجراس ، كل من في مدريد وجد في هذا العرض جدة وحداثة ، لكنه كان بالنسبة الي ، في غاية الاغاظة . وخرجت من المسرح وانا استند الى ذراع اختي .

كان اتجاهي الى السريالية قد ابعدني عن هذه « الطليعة » المزعومة . وبقيت كذلك لفترة طويلة .

وكنت قد اخذت اشعر بانجذاب أكثر فاكثر الى شكل التعبير الاكثر لاعقلانية ، والذي قدمته السريالية . هذه السريالية المضادة لما كان

يحاول « جان ايبشتاين » عبثا اقناعي به . في مجلة « الثورة السريالية » ظهرت صورة فوتوغرافية لـ « بينجامين بيريه » يشتم فيها كاهنا ، وكان لها تأثير عميق لدي . وفي نفس المجلة نشر استفتاء حولا امور الجنس ، اثار اهتمامي . كانت الاسئلة موجهة الى مختلف اعضاء المجموعة ؛ وكان من الواضح أنهم جميعا اجابوا بحرية وصراحة تامتين ، وهو ما يبدو اليوم عديم الاهمية طبعا . « اين تفضل ان تمارس الحب ؟ مع من ؟ كيف تمارس العادة السرية ؟ » الا ان هذا كان بالنسبة لتلك الايام شيئا غير عادي ، وكان بلا شك الاول من نوعه .

في عام ١٩٢٨ ، وبمبادرة من جمعية الدراسات والمؤتمرات في المدينة الجامعية ، جئت الى مدريد ، لاتحدث عن سينما الطليعة ، واقدم مجموعة من الافلام : « انتراكت » لرينيه كلير ، مقطع الحلم من « بنت الماء » لرينوار ، **« لا شيء سوى الساعات »** لكافالكانتي ، بالاضافة الى عدة امثلة تقنية كتلك التي تظهر خروج « نخبة المجتمع المدريدي » كما يقال ، في هذا اللقاء ، الذي لاقى نجاحا حقيقيا . بعد العرض اعترف لي « اورتيغا اي غاسيت » انه لو كان أصغر سنا لتفرغ للسينما .

في تلك الاوقات كنت بلا شك الاسباني الوحيد ـ من بين الذين غادروا اسبانيا ـ الذي لديه المام بالسينما . ولهذا السبب ، على ما يبدو ، وبمناسبة الذكرى المئوية لوفاة « غويا » ، طلبت الي لجنة غويا في سرغوسه أن اكتب واحقق فيلما عن حياة هذا الرسام الاراغوني ، منذ ولادته وحتى وفاته . وقمت باعداد سيناريو متكامل مستعينا بنصائح تقنية من ماري ايبشتاين ، اخت جان .

قمت بعدئذ بزيارة الى « بايه انكلان » في دائرة الفنون الجميلة ،حيث علمت انه يقوم هو ايضا بالتحضير لفيلم حول حياة « غويا » ، وكان علي ان انحني باحترام امام هذا الاستاذ عندما انسحب لصالحي بعد ان قدم الي بعض النصائح .

اخيرا الغي المشروع لاسباب مالية . واليوم استطيع القول : « لحسن الحظ » .

اكن تقديرا حقيقيا لـ « رامون غوميث دي لاسرنا » . كان السيناريو الثاني الذي عملت فيه ، مستوحى من سبع او ثماني حكايات قصيرة لهذا الكاتب . ولكي احقق صلة فيما بينها ، فقد اخترت ان اقدمها على شكل مجموعة مواد مختلفة منشورة في احدى الصحف . يقوم رجل بشراء صحيفة في طريقه ، ثم يجلس على احد المقاعد لقراءتها . حينئذ تبدأ حكايات « غوميث دي لاسيرنا » في الظهور ، واحدة اثر اخرى . حيث كان يطالع في كل باب من الصحيفة ، حادثا او واقعة سياسية او خبرا رياضيا ... الخ واعتقد ان النهاية كانت بأن ينهض الرجل وهو يدعك الصحيفة ويرمي بها

بعد عدة اشهر ، حققت اول افلامي « **كلب اندلسي** » واحس « غوميث دي لاسيرنا » بانه قد خدع بعض الشيء عندما الغيت مشروع الفيلم الذي بني على حكاياته ، الا ان هذا الاحساس زال عندما قامت مجلة « لاريفو دي سينما » بنشر السيناريو .

كلب اندلسي ١٩٢٩ :

ولد هذا الفيلم من تلاقي حلمين . دعاني « دالي » لقضاء عدة ايام في بيته ، ولدى وصولي الى « فيغويراس » ، رويت له حلما كنت قد رايته قبل فترة قصيرة : غيمة تقطع القمر ، وموسى حلاقة تشق عينا . وقال لي بدوره انه في الليلة الاخيرة راى في الحلم يدا مملأى بالنمل . وأضاف : « اذا انطلقنا من هذا ، هل نستطيع أن نصنع فيلما ؟ » .

ترددت في البداية ، لكن سرعان ما باشرنا العمل في فيغويراس . كتبنا السيناريو في اقل من اسبوع ، متبعين قاعدة بسيطة جدا ، وضعناها باتفاق مشترك : عدم قبول اية فكرة او صورة يمكن أن يكون هناك اي مجال لتفسيرها بشكل عقلاني او سيكولوجي او ثقافي ، وفتح كل الابواب على اللاعقلانية ، دون أن نتطلب اكثر من ان تؤثر الصور فينا ، ومن غير أن نعمل على معرفة السبب .

لم يحصل فيما بيننا ، ولا في اية لحظة ادنى نقاش . كان اسبوعا من

التوافق الكامل . كان احدنا يقول مثلا : « الرجل يمسك بـ «كونترباس» . « لا » ـــ يجيب الآخر . وكان الذي اقترح الفكرة يوافق في الحال على هذا الرفض ، ويرى فيه موقفا صحيحا .

وبالمقابل ، فعندما كانت الصورة التي يقترحها احدنا تلقى قبولا من الآخر ، فاننا كنا نبادر في الحال الى ادخالها في السيناريو ، دون أي نقاش

عندما انتهينا من ذلك ، توقعت مباشرة ان يكون الفيلم غير مالوف على الاطلاق ، بل واستفزازيا ، ولن يقبل به أي نظام انتاجي طبيعي . لذلك طلبت من امي بعض المال كي انتج الفيلم بنفسي . واقتنعت بفضل احد اصدقاء العائلة ، واعطتني ما طلبته .

عدت الى باريس ، وبعد ان كنت قد بددت نصف المال الذي أخذته من أمي في صالات التسلية ، قلت لنفسي انه من الضروري أخذ الامور بشيء من الجدية ، وان علي ان افعل شيئا . اتصلت بالمثلين « بيير باتشيف » و « سيمون مارووي » والمصور « دوفيرجيه » ، ومع استوديوهات بيلانكور ، حيث جرى تصوير الفيلم خلال خمسة عشر يوما .

في البلاتوه ، لم تكن اكثر من خمسة أو ستة . كان الممثلون لا يعلمون اي شيء على الاطلاق عما كانوا يفعلونه . كنت اقول لباتشيف مثلا : « انظر من النافذة كما لو كنت تستمع الى فاغنر ، لكن بتاثر أكبر . » لكنه لم يكن يعرف الى ماذا ينظر . كنت أمتلك من الناحية التقنية ، بعض المعلومات والافكار الكافية . كما كنت متفاهما بشكل عام مع المصور « دوفيرجيه » .

انتهينا من تصوير الفيلم ومن مونتاجه ، لكن ، ماذا يمكن أن نفعل به ؟ كان « تيرياد » الذي يعمل في « كايبه دار » قد سمع عن « كلب اندلسي » وذات يوم قدمني في الـ « دوم » الى « مان راي » . وكان هذا قد انتهى قبل وقت قصير من تصوير فيلم بعنوان « سر قصر دي » ـــ وهو وثائقي حول المنزل الريفي العائد لآل نوآي وعن ضيوفهم ـــ ، في « يير » ، وكان يبحث عن مادة لاستكمال الزمن اللازم لبرنامج عرض .

واعدني ((**مان راي**)) للقائه بعد ايام في بار « لاكوبول » ــ الذي كان قد افتتح قبل عام او عامين ــ ، وقدمني الى ((**لويس أراغون**)) ، وكنت اعرف ان الاثنين ينتميان الى المجموعة السيريالية . كان « اراغون » الذي يكبرني بثلاث سنوات يتحلى بأجمل ما في الاخلاق الجيدة الفرنسية . تحادثنا قليلا ، وقلت له ان من الممكن ، بصورة من الصور ، اعتبار فيلمي سيرياليا . أو ان هذا ما يبدو لي .

شاهد « مان راي » و « اراغون » الفيلم في اليوم التالي في «استوديو اورسولين » ، ولدى خروجنا قالا لي ، باعجاب واضح ، انه يجب تعميم الفيلم باقرب ما يمكن .

كانت السيريالية ، عبارة عن دعوة نسمعها هنا وهناك . في الولايات المتحدة أو المانيا او اسبانيا او يوغوسلافيا . كان هناك اشخاص يستخدمون شكلا من أشكال التعبير الغريزي وغير العقلاني ، حتى قبل أن يتعرف بعضهم الى البعض الآخر . والقصائد التي كنت قد نشرتها في اسبانيا قبل أن اسمع اي حديث عن السيريالية ، كانت شاهدا على هذه الدعوة التي كانت تقودنا جميعا باتجاه باريس .

كذلك كان الامر ايضا ، عندما علمنا ، دالي وانا ، في سيناريو « كلب اندلسي » ، فقد مارسنا نوعا من الكتابة الآلية ، وكنا سيرياليين « دون لافتة » . وعلي هنا أن أضيف بأن لقائي بالمجموعة كان جوهريا وحاسما فيما يتعلق ببقية حياتي .

جرى ذلك اللقاء في مقهى « سيرانو » في « بلاس بلانش » ، حيث كانت تنعقد جلسات المجموعة يوميا . قدموني الى ((**ماكس ارنست**)) و ((**اندريه بريتون**)) و ((**بول ايلوار**)) و « تريستان تسارا » و ((**رينيه شار**)) و « بيير اونيك » و « تانغي » و « هانز آرب » و « مكسيم الكساندر » و « ماغريت » . كان الجميع هناك باستثناء « بنجامين بيريه » الذي كان آنذاك في البرازيل . هناوني وقدموا لي كأسا ، ووعدوني بأن

لا يتغيبوا عن حضور الفيلم ، الذي كان « اراغون » و « مان راي » قد تحدثا عنه امامهم بكثير من الاعجاب .

جرى تنظيم ذلك العرض الاول لـ « كلب اندلسي » بدعوات ذات قيمة في « اورسولينس » ، والتقت هناك نخبة باريس ، أي الارستقراطيون والكتاب والرسامون الشهيرون (بيكاسو ، لوكور بوزييه ، كوكتو ، كريستان بيرار ، والموسيقي جورج اوريك) ، وبالطبع ، كانت هناك مجموعة السيرياليين بكاملها .

خلال العرض ، كنت متوترا جدا ، وهذا متوقع طبعا . جلست وراء الشاشة مع جهاز « فونوغراف » ، وكانت تتناوب خلال العرض ، رقصات التانغو الارجنتينية مع « **تريستان وإيزولدا** » .

وكنت قد وضعت بعض الحجارة في جيبي ، كي اقذف بها الجمهور لو فشل الفيلم ، اذ كان السيرياليون قد استقبلوا « القوقعة والكاهن » (فيلم جيرمين دولاك عن سيناريو لانتونين ارتو) ، بالاستنكار والصفير ، وكان الفيلم قد اعجبني . وتوقعت ان يحدث معي ما هو أسوأ من ذلك .

الا انني لم أكن بحاجة للحجارة ، فما كاد الفيلم ينتهي حتى سمعت دوي التصفيق ، من وراء الشاشة ، وتخلصت من قذائفي بكل هدوء .

جرى دخولي في المجموعة السيريالية ، بمنتهى البساطة ، وقبلت في الاجتماعات التي كانت تنعقد يوميا في « سيرانو » ، واحيانا في منزل « **بريتون** » في الرقم ٤٢ من شارع فونتين .

كان « سيرانو » مقهى حقيقيا في الـ « بيغال » وشعبيا ، بمومسات وقوادين . كنا نأتي عادة ، بين الخامسة والسادسة بعد الظهر ، وكانت المشروبات عبارة عن « بيرنو » و « ماندارين كوراسو » و « بيرة بيكون » (مع نقطة من الغرانادينا) .

كان المكان يبدو كحانة اسبانية ، كنا نقرأ ، نناقش هذا المقال أو ذاك ، نتحدث حول المجلة ، أو عن شهادة علينا ان نتقدم بها ، أو عن رسالة علينا ان نكتبها ، او عن تصريح ما ، كان كل منا يتقدم بفكرته ويبدي رايه ، وعندما كان الحديث يتعلق بموضوع محدد واكثر سرية ، كان الاجتماع ينعقد في استوديو « بريتون » القريب جدا من هناك .

عندما كنت أصل متأخرا ، لم أكن أصافح باليد الا القريبين من المكان الذي سأجلس فيه ، واكتفي بتحية بريتون ، أن كان بعيدا عني ، باشارة من يدي ، ذات يوم سأل بريتون احد اعضاء المجموعة : « هل لدى بونويل شيء ضدي ؟ » ، فأجابه ليس هناك شيء ضدك ، الا أنه لا يستسيغ هذه العادة الفرنسية في مصافحة الجميع كل لحظة .

ومثل باقي اعضاء المجموعة ، فقد كنت اشعر بميل نحو تصور معين للثورة . لم يكن السرياليون ارهابيين ، ولم يكونوا من ذوي النشاطات المسلحة ، بل كانوا يكافحون ضد مجتمع يكرهونه ، مستخدمين الفضيحة كسلاح رئيسي ، ضد عدم المساواة الاجتماعية ، واستغلال الانسان للانسان ، والتأثير المخدر للدين ، والعسكرية الفظة ، والمادية . كنا نرى في الفضيحة ، ولوقت طويل ، عامل كشف فعال ، قادر على اظهار تلك الوسائل السرية والكريهة التي يستخدمها النظام ، الواجب تهديمه . ولم يتأخر البعض في الابتعاد عن هذا الخط في العمل ، للانتقال الى العمل السياسي الحقيقي ، وبشكل خاص ، الى الحركة الوحيدة التي كانت تبدو لنا في ذلك الحين ، جديرة بأن تدعى ثورية : الحركة الشيوعية ، التي أصبحت موضوع نقاشات ونزاعات لا تنقطع . ومع ذلك ، فان الهدف الحقيقي للسريالية ، لم يكن خلق حركة ادبية أو تشكيلية ، ولا حتى فلسفية ، جديدة ، بل كان ما ترمي اليه هو تفجير العالم ، وتغيير الحياة.

كان معظم أولئك الثوريين ــ تماما « كأبناء الذوات » الذين كنت اتردد عليهم في مدريد ــ من أبناء الأسر البورجوازية ، الذين تمردوا على

البورجوازية ، وهكذا كان حالي انا أيضا ، الا أنني ، بالاضافة الى ذلك، كان لدي شيء من الفطرة السلبية ، المدمرة ، التي كنت احس بها دائما ، اكثر من احساسي بأي ميل للبناء . ومثلا ، فقد كانت فكرة احراق متحف ، تبدو لي دائما اكثر جاذبية من افتتاح مركز ثقافي او اقامة مستشفى . الا أن أكثر ما كان يسحرني في مناقشاتنا في « سيرانو » هو وضوح المظهر الاخلاقي ، فللمرة الاولى في حياتي التقيت باخلاق متماسكة وصارمة ، دون أية شائبة . وبالطبع : فان تلك الاخلاق السريالية ، الهجومية والمتبصرة ، كانت مناقضة للاخلاق السائدة ، والتي كانت تبدو لنا بغيضة ، وكنا نرفض كليا تلك القيم التي كان مضطلحا عليها . كانت تحدد اخلاقنا معايير اخرى : تمجيد العاطفة ، الشتيمة ، الضحكة الساخرة . لكن ، وداخل هذا المجال الجديد ، الذي كانت آفاقه تتسع يوما بعد يوم ، كانت كل افكارنا ، واشاراتنا ، وردود افعالنا ، معللة ، ولا تنطوي على أي ظل من الشك . كان كل شيء يقف على قدميه ، واخلاقنا التي كانت اكثر تطلبا ، كانت ، في الوقت نفسه ، اكثر رسوخا وتماسكا من تلك الاخلاق الاخرى .

واضيف ـ وهذا ما كان لدالي الفضل في أن الاحظه ـ ، بأن السرياليين كانوا جميلين : اندريه بريتون ، اشقر داكن ، ذو جمال مضيء وملفت للانظار . وجمال اكثر رقة لاراغون . ثم « ايلوار » و « كريفيل » و « دالي » نفسه و « ماكس ارنست » بوجهه المندهش كوجه عصفور ، ذي العينين الصافيتين ، و « بيير اونيك » ، وجميع الآخرين : مجموعة من الوجوه الحارة ، ذات المروءة ، والتي لا يمكن أن تنسى .

بعد « العرض الظافر » لـ « كلب اندلسي » ، اشترى الفيلم «موكلير» صاحب « أستوديو ٢٨ » اعطاني في البداية الف فرنك . بعد ذلك ، وحيث ان الفيلم حقق نجاحا (استمر عرضه ثمانية اشهر) ، فقد اعطاني الفا اخرى ، ثم أخرى .. وفي مجموعها كانت ، على ما اذكر ، سبعة او ثمانية آلاف فرنك .

وصلت الى البوليس اربعون او خمسون شكوى من اشخاص يطلبون فيها : « **يجب منع هذا الفيلم القذر والقاسي** » . ومن ثم بدأت سلسلة من الشتائم والتهديدات التي لم تنقطع عن ملاحقتي حتى الشيخوخة .

كان من جملة ما حصل خلال العرض ، اجهاضان ، الا أن الفيلم لم يمنع . كنت قد وافقت على عرض من « اوريول وجاك بروتيوس » لنشر السيناريو في « ريفو دي سينما » التي كانت تصدر عن « غاليمار » . وحصل ان المجلة البلجيكية « فاريتيه » قررت أن تصدر عددا خاصا عن الحركة السريالية ، فطلب مني «ايلوار» ان انشر السيناريو في «فاريتيه» وكان علي ان اقول له بانني آسف جدا لانني اعطيته لـ « ريفودي سينما » وقد أثار هذا مشكلة تسببت لي بأزمة ضمير حادة . كما كشف بصورة ملموسة ، اسلوب التفكير لدى السرياليين .

فبعد عدة ايام من حديثي مع « ايلوار » سألني « بريتون » :

ــ بونيويل ، هل تستطيع ان تأتي الى منزلي الليلة ؟ هناك اجتماع صغير .

وافقت دون أن ارتاب بأي شيء . كان هناك اجتماع للمجموعة بكاملها ، وقامت باجراء محاكمة بكل معنى الكلمة . واتهمني « أراغون » ، الذي قام بدور المدعي العام ذي الصلاحيات الكاملة . وبكلمات قاسية جدا ، بانني تخليت عن السيناريو لمجلة بورجوازية . وفضلا عن هذا ، فان النجاح التجاري لـ « كلب اندلسي » بدأ يصبح امرا مثيرا للشكوك اذ كيف يمكن لفيلم تحريضي كهذا ان يملأ صالة السينما ؟ كيف يمكن تفسير ذلك ؟

كان علي أن أدافع عن نفسي ، وحيدا ، امام المجموعة ، وكان الأمر صعبا ، حتى انني سمعت بريتون يسأل :

ــ هل انت مع البوليس أم معنا ؟

وجدت نفسي في مواجهة دراماتيكية حقيقية ، مع انني ، اليوم ، كثيرا ما ابتسم لقسوة ذلك الاتهام . وقد كانت أزمة الضمير تلك ، المغيظة جدا ، هي الاولى في حياتي . بعد عودتي الى البيت ، وانا غير قادر على النوم ، اخذت اقول لنفسي : « أجل ، اني حر في أن اعمل ما اريد ، انهم لا يملكون اي حق تجاهي . استطيع ان اقذف بالسيناريو في وجوههم وامشي . لماذا علي ان امتثل لهم ؟ انهم ليسوا افضل مني » .

وفي الوقت نفسه كنت اشعر بقوة اخرى تقول لي : « انهم على حق ، اعترف بذلك . لقد اعتقدت ان قاضيك الوحيد هو ضميرك ، لكنك مخطىء فهؤلاء الرجال الذين تحبهم وتثق بهم ، يعتبرونك واحدا منهم ، لست حرا كما تتصور ، وحريتك ليست اكثر من شبح يطوف العالم بمعطف من ضباب ، كلما حاولت الامساك به ، فر منك دون ان يخلف لك الا ذلك الاثر الرطب بين الاصابع » .

هذه الازمة الداخلية ، عذبتني لفترة طويلة ، ومازلت افكر فيها حتى اليوم . وعندما يسالني أحد : ماذا كانت السيريالية ؟ اجيب بصورة لا تتغير : حركة شعرية ثورية **واخلاقية** .

اخيرا سألت أصدقائي الجدد عما يريدون ان افعله ، فاجابوني : « الحيلولة دون ان ينشر غاليمار السيناريو » . لكن كيف سألتقي بغاليمار كيف أتكلم معه . وقال لي بريتون : « ايلوار سيرافقك » .

ذهبنا نحن الاثنين ، بول ايلوار ، وانا ، لنتكلم مع غاليمار . قلت لهم انني قد عدلت عن رأيي ولم اعد ارغب بنشر السيناريو في « ريفو دي سينما » ، فاجابوني بانه لم يعد هناك مجال لاعادة النظر ، فاولا انا اعطيت وعدا ، كما ان مدير المطبعة اوضح بأن اللوحات انتهى تركيبها .

عدت ، واعلمت المجموعة . القرار الجديد : يجب ان آخذ مطرقة ، واعود الى غاليمار ، واحطم اللوحات .

ومن جديد ، عدت الى غاليمار ، وبصحبة ايلوار ايضا ، مع مطرقة كبيرة خبأتها تحت المعطف . لكن الوقت كان قد فات ، فالمجلة كانت قد طبعت ، وبوشر بتوزيعها .

كان القرار الاخير ، ان تنشر « فاريتيه » سيناريو « كلب اندلسي » ايضا ـ وهكذا كان ـ ، وان أبعث الى ست عشرة صحيفة باريسية برسالة « احتجاج غاضب » ، أشرح فيها بأنني كنت ضحية مؤامرة بورجوازية مشينة . وقامت سبع او ثماني صحف بنشر الرسالة .

بالاضافة الى ذلك ، فقد كتبت اعترافا لـ « فاريتيه » و « الثورة السيريالية » اعلنت فيه بأن الفيلم ، برأيي ، ليس سوى دعوة عامة للقتل .

كان « بنيامين بيريه » الشاعر السيريالي المفضل لدي : حرية مطلقة، الهام شفاف ، يغرف من نبع دونما أدنى جهد ، ليخلق باستمرار عوالم جديدة .

عندما دخلت المجموعة ، كان « بيريه » في البرازيل ، كممثل للحركة التروتسكية ، لم اكن قد رأيته في الاجتماعات ، ولم أتعرف به الى أن عاد من البرازيل مطرودا ، وبعد ذلك التقينا كثيرا في المكسيك . عندما كنت اصور فيلمي المكسيكي الاول « الكازينو الكبير » ، جاءني يطلب عملا، اي عمل ، وقد حاولت مساعدته وهذا ما كان صعبا للغاية ، اذ كنت انا نفسي في حال غير مستقرة ، كان يعيش في المكسيك مع الرسامة « ريميديوس فارو » (وربما انهما قد تزوجا ، لست ادري) . وكنت اكن لها تقديرا مماثلا لما كنت اكنه لماكس ارنست . « بيريه » كان سيرياليا بطبيعته ، متحررا من اي التزام ، وفقيرا بصورة شبه دائمة .

تحدثت عن « دالي » الى المجموعة ، وأريتهم صورا فوتوغرافية لعدد من لوحاته ، (من بينها بورتريه كان قد رسمها لي) ، ولم يثر اهتمامهم

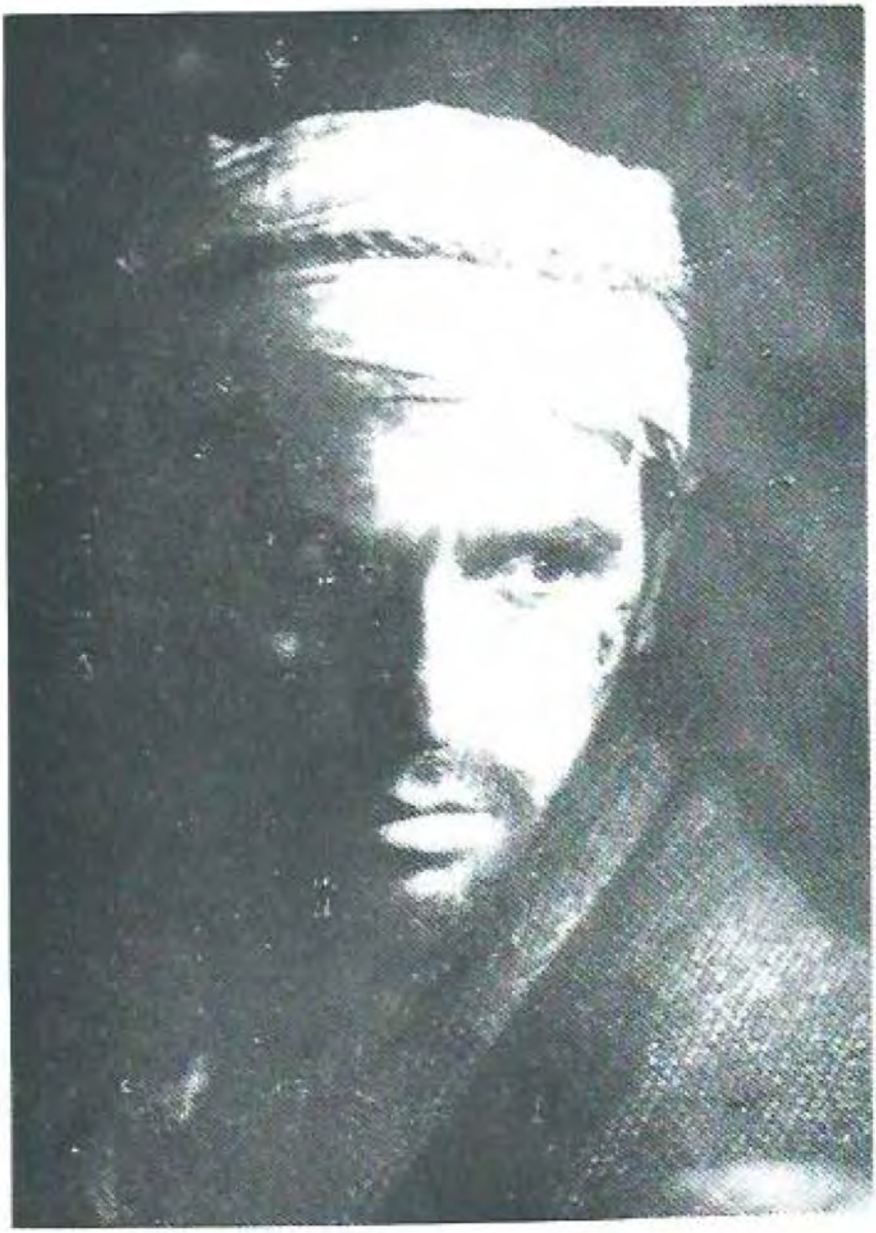

ناشرین

المسيح الكهربائي

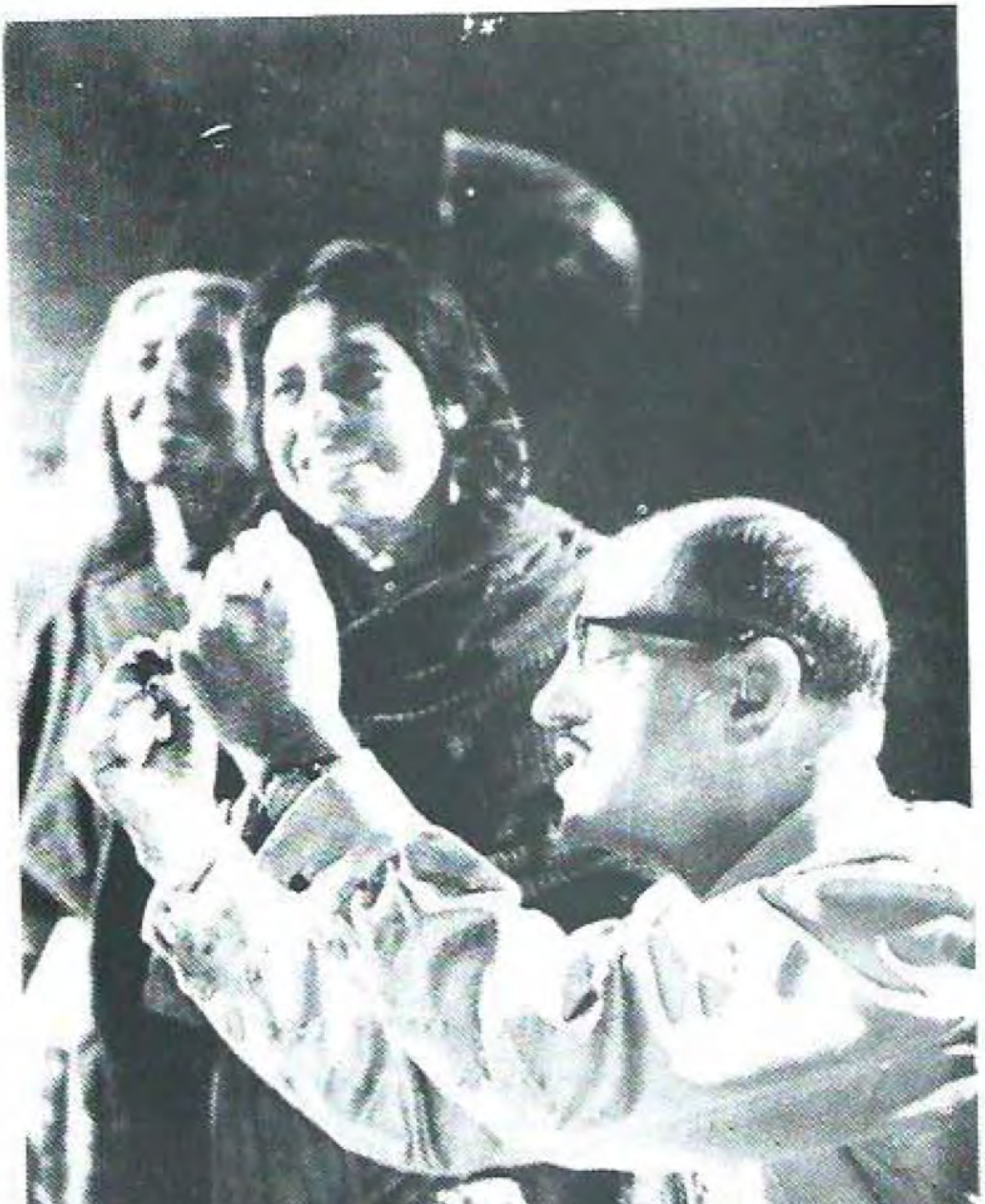

لقطة عمل في فيلم نانارين

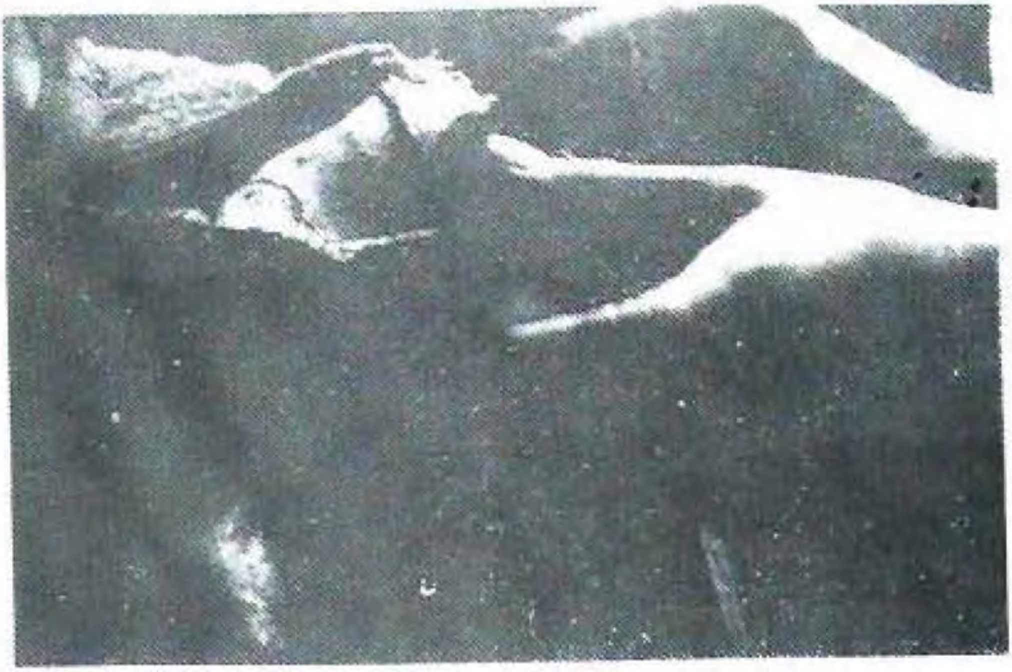

غشارين

تاتارین

ناتارین

كثيرا ، الا ان السيرياليين غيروا موقفهم منه بعد ان شاهدوا لوحاته الاصلية التي جلبها من اسبانيا ، وقبلوه في المجموعة في الحال ، وبدأ يشارك في الاجتماعات . كانت صلاته ممتازة مع «**بريتون**» الذي تحمس لاسلوبه . اما «**غالا**» فسرعان ما انعكس تأثيرها على دالي ليصبح «**عاشقا للدولار**». ومن ثم ، بعد ثلاث أو اربع سنوات ، أبعد عن الحركة .

كانت تتشكل داخل المجموعة ، تجمعات صغيرة ذات تآلف خاص . ومثلا ، فقد كان أقرب الاصدقاء الى « دالي » هما « ايلوار » و «كريفيل». اما انا فكنت متفقا في المزاج بصورة كبيرة مع « اراغون » و « جورج سادول » و « ماكس ارنست » و « بيير اونيك » .

كان « بيير اونيك » ، الذي طواه النسيان اليوم ، يبدو لي آنذاك فتى رائعا (أنا أكبره بخمس سنوات) ولامعا ومؤثرا ، وصديقا محبوبا جدا ، كان ابنا لخياط يهودي ، وحاخام في الوقت نفسه ، لكنه – بيير – كان ملحدا . ذات يوم نقل الى ابيه رغبتي بان اتحول الى اليهودية – لمجرد اثارة فضيحة لاسرتي – ، وقد اعرب الاب عن استعداده لاستقبالي ، الا انني تراجعت عن هذه الرغبة ، مفضلا البقاء مخلصا للمسيحية .

أمضينا معا سهرات كثيرة برفقة صديقته « آنيس كابري » ، وامينة مكتبة عرجاء بعض الشيء الا انها في غاية الجمال اسمها «يولاندا أوليفييرو»، ومصورة فوتوغرافية اسمها « دينيس » . كنا نتبادل الحديث ، وبأقصى صراحة ممكنة ، حول امور الجنس ونمارس بعض الالعاب التي كنت اصفها بال « ماجنة » .

نشر « اونيك » كتابا يضم مجموعة قصائد بعنوان « مسرح الليالي البيضاء » ، كما صدر له كتاب آخر بعد وفاته . أدار مجلة للاطفال كان يصدرها الحزب الشيوعي الذي شعر اونيك حياله بكثير من التعاطف .

خلال الحرب ادخل « اونيك » في معسكر للسجناء في النمسا ، وعندما

علم بتقدم القوات السوفييتية ، فر للالتحاق بهـا . ويعتقد بان انهيارا ثلجيا في احد الجبال جرفه ، ولم يعثر على جثته .

كان « لويس اراغون » يمتلك وراء مظهره المتكلف روحا متماسكة . وهناك من بين جميع الذكريات التي احتفظ بها عنه ، واحدة لا يمكن ان انساها ابدا ، وقد استمرت لقاءاتنا حتى عـام ١٩٧٠ ، كنت اسكن في شارع باسكال ، وذات صباح ، حوالي الساعة الثامنة وصلتني منه رسالة يطلب فيها مني أن اوافيه بأقرب وقت ممكن ، حيث أنه ينتظرني ليطلعني على امر في غاية الخطورة .

وصلت الى بيته في شارع « كامبان برومبير » بعد نصف ساعة وبكلمات قليلة ، قال لي بأن « ايلزا تريوليه » تركته الى الابد ، وان السيرياليين نشروا كتيبا ضده ، وان الحزب الشيوعي ، الذي هو عضو فيه ، قرر فصله . كان يشعر ، بسبب هذا التراكم غير المعقول لمجمل هذه الظروف ، بأن حياته كلها قد انهارت ، وفقد اهتمامه بكل شيء . لكنه ، ومع كل هذا اليأس ، كان يذرع ارجاء الاستوديو بخطواته الثابتة التي لا يمكن ان يكون هناك ما يفوقها اثارة للاعجاب .

في اليوم التالي ، كان كل شيء قد انتظم ، عادت اليه « ايلزا » وتراجع الحزب الشيوعي عن فصله ، كما توقف السيرياليون عن الانشغال به .

وما زلت احتفظ من ذلك اليوم بشهادة ، هي عبارة عن نسخة من « المظلوم الظالم » مع اهداء من « اراغون » يقول فيه « ان هناك اياما تكون فيها شاكرا لصديق جاء يشد على يدك ، في وقت كنت تعتقد فيه ان كل شيء قد انتهى » .

كان هذا قبل خمسين عاما .

« البرت فالنتين » كان احد اعضاء المجموعة خلال فترة وجودي فيها .

كان مساعدا لـ « رينيه كلير » وكان يشارك في تصوير « الحرية لنا » .. ولم ينقطع عن ان يردد على اسماعنا : « اعتقد بانه فيلم ثوري بحق ، وسيعجبكم كثيرا » . في حفل الافتتاح ، كانت هناك المجموعة بكاملها ، الا ان الفيلم كان مخيبا للآمال بصورة كبيرة ، حيث لم يكن له من الثورية الا ادنى الحدود ، مما ادى الى ان يطرد « البرت فالنتين » من المجموعة ، بسبب خداعه لنا . فيما بعد التقيت به مرارا في مهرجان كان ... كان لطيفا جدا ، ومغرما الى اقصى حد بالروليت .

« رينيه كريفيل » كان يتمتع بلطف نادر ، كان الوحيد الشاذ جنسيا في المجموعة ، الا انه كان يحاول باستمرار السيطرة على هذا الانحراف . هذا الصراع ، المثقل بنزاعات لا تنتهي فيما بين الشيوعيين والسيرياليين انتهى به الى الانتحار ، ذات ليلة ، في الساعة الحادية عشرة ، وقد عثر على جثته في اليوم التالي عند بوابة البناية التي كان يسكن فيها . ولم اكن آنذاك في باريس ، لقد أسف الجميع لموته ، هذا الموت الذي تسببت به حالة من الكآبة الشخصية .

« اندريه بريتون » كان على درجة عالية من التهذيب كما كان مفرطا في المجاملة لدرجة انه كان يقبل أيدي السيدات . كان ذواقة للدعابة الرفيعة ، ويبغض الدعابات الثقيلة ، محافظا في كل اموره على قدر من الجدية . واعتبر الشعر الذي كتبه عن زوجته ، الى جانب اعمال « بيريه » اجمل الذكريات الادبية عن السيريالية .

كان هادئا ، وجيها ، انيقا ، سليم الاحكام ، الا ان هذا كله لم يكن يمنعه من الانفجار ، بعض الاحيان ، في نوبات غضب مفاجئة ومخيفة . كان يلومني باستمرار لعدم تقديمي جان ، الزوجة الموعودة ، الى السيرياليين الآخرين ، ويتهمني بانني غيور ، مثل جميع الاسبان وذات امسية قبلت دعوته للعشاء في منزله مع جان .

كان على العشاء أيضا « ماغريته » وزوجته ، وبدأ اللقاء في جو مكفهر ،

اذ ، ولسبب غير مفهوم ، لم يرفع بريتون نظره عن صحنه ، واستمر مقطبا جبينه ، وهو يتحدث بكثير من الاقتضاب . وبينما نحن نتساءل فيما بيننا عما يمكن ان يكون قد حدث ، فوجئنا ببريتون ينفجر مشيرا الى زوجة « ماغريته » ، مستنكرا كونها تضع حول رقبتها سلسالا من الذهب ، قائلا ، بكثير من الانفة ، بان هذا استفزاز لا يحتمل ، وانه كان بامكانها وضع شيء آخر عندما تأتي للعشاء في بيته . وانبرى « ماغريته » للدفاع عن زوجته ، واستمر الشجار لفترة غير قصيرة ، وبصورة غاية في العنف ، وبذل « ماغريته » وزوجته جهدا بالغا لكي لا ينصرفا قبل انتهاء السهرة . وقد استمرت العلاقات فاترة بين الطرفين لفترة طويلة .

كان بريتون ايضا يولي الكثير من الاهتمام لبعض التفاصيل التي لا تحظى بنفس الاهتمام لدى الآخرين . بعد أن زار « تروتسكي » في المكسيك ، سألته عن الانطباع الذي تركته لديه هذه الشخصية ، فأجابني :

ـــ « تروتسكي لديه كلب ، وهو يحب هذا الكلب كثيرا . ذات يوم ، وكان الكلب الى جانبه ، ينظر اليه ، قال لي تروتسكي : هذا الكلب له نظرة انسان ، اليس كذلك ؟ ... أتعرف .. لا أستطيع ان افهم كيف يمكن لرجل مثل تروتسكي ان يقول حماقات كهذه ، فالكلب ليست له نظرة انسان . الكلب له نظرة كلب ! » وقد قال لي ذلك بكثير من الغيظ .

في يوم آخر ، خرج من منزله وهو يركض ، لكي يقلب بركلة من قدمه صندوق بائع متجول لنسخ من الكتاب المقدس .

كان «بريتون» يكره الموسيقا ، مثل الكثيرين من السرياليين، وبخاصة الاوبرا ، وفي محاولة مني لاخراجه من هذا الضلال ، تمكنت ذات يوم من اقناعه بمرافقتي الى الاوبرا الكوميدية ، مع آخرين من المجموعة ، كان من بينهم طبعا « ريثيه شار » و « ايلوار » كان العمل المقدم هو « لويز » لـ « شار بانتيير » ، ولم اكن قد رأيته سابقا . ولم تكد الستارة ترفع ، حتى بدأ احساسنا بعدم الارتياح ، بسبب الديكور والشخصيات .. ولم

يكن هناك اي وجه للشبه مع الاوبرا الكلاسيكية التي كانت تعجبني . دخلت الى المسرح امراة تحمل قدرا للحساء وهي تغني اغنية الحساء ... لقد كان هذا اكثر مما يمكن احتماله . نهض بريتون وانصرف غاضبا لاحساسه بأن المسالة كانت مجرد مضيعة للوقت . ولحق به الآخرون ، وأنا أيضا .

خلال الحرب ، كنت التقي دائما ب « بريتون » في نيويورك ، ثم في باريس ، وكنا صديقين جيدين باستمرار . وعلى الرغم من الجوائز التي كنت أحصل عليها في العديد من المهرجانات ، فهو لم يهددني على الاطلاق « بالحرمانية » ، حتى انه قد اعترف لي بأن « فريديانا » أبكاه ولو انه ، بالمقابل خدع بعض الشيء ب « الملاك المدمر » . ولا اعرف لماذا .

عام ١٩٥٥ ، التقيت به في باريس ، ذات يوم ، كنا ذاهبين الى قصر اليونسكو ، وجدنا الوقت مبكرا قليلا فعرجنا على الطريق لتناول كأس . سالته عن سبب طرد « ماكس ارنست » من المجموعة بتهمة حصوله على الجائزة الكبرى في بينال البندقية :

ــ « ماذا تريدني ان اقول لك يا صديقي ؟ ــ أجابني ــ لقد انفصلنا عن دالي لانه تحول الى تاجر تافه . الآن حصل الشيء نفسه مع ماكس » وران صمت قصير قبل ان يضيف ، وفي وجهه ألم عميق وحقيقي : « انه لمن المحزن أن يكون علينا الاعتراف بهذا ، عزيزي لويس ، لكن ليست هناك فضيحة » .

عندما مات بريتون ، كنت في باريس ، وذهبت الى المقبرة . ولكي لا يتعرف علي أحد ، فيكون علي أن اتحدث مع أشخاص لم أشاهدهم منذ اربعين عاما فقد تنكرت بعض الشيء ، بارتداء قبعة وتظارات ، وانتحيت أحد الجوانب .

كان فصلا سريعا وصامتا ، ثم ذهب كل في طريقه . حزنت لانه لم يكن هناك من قال كلمة واحدة الى جوار قبره ، شيئا من قبيل : وداعا .

بعد « كلب اندلسي » كان من المستحيل علي التفكير بتحقيق واحد من تلك الافلام التي تدعى « تجارية » أردت ان أظل سرياليا مهما كلف الامر وحيث انه بدا لي من المستحيل ان اطلب تمويلا جديدا من امي ولم يكن هناك حل آخر ، فقد قررت ان اتخلى عن السينما .

ومع ذلك ، فقد كنت اتصور عشرات الافكار والمشاهد ، مثل فكرة عربة ملأى بالعمال تخترق قاعة انيقة ، أو اب يقتل ابنه ببندقية صيد لانه اسقط له رماد سيجارته .

وكنت اسجلها ، لعل وعسى . وخلال زيارة الى اسبانيا رويت بعض هذه الافكار للالي الذي ابدى اهتماما كبيرا بها . وها نحن من جديد امام مشروع فيلم آخر ، لكن كيف السبيل الى تحقيقه ؟

عدت الى باريس ، ورتب لي « زيرفوس » من الـ « كابيه دار » لقاء مع « جورج هنري ريفيير » ، الذي اقترح علي ان يقدمني الى آل « نواي » الذين كانوا قد « عبدوا » **« كلب اندلسي »** . اجبته ، من حيث المبدأ ، بما كان علي ان اجيبه به ، وهو انني لا اتوقع اي خير من الارستقراطيين . واجابني « زيرفوس » و « ريفيير » . — انت مخطىء ، انهم اشخاص رائعون ، ومن المناسب ان تتعرف بهم .

اخيرا ، وافقت على الذهاب لتناول العشاء في منزلهم برفقة « جورج ونورا اوريك » كان بيتهم الواقع في ساحة الولايات المتحدة ، بيتا رائعا ، يحوي مجموعة من الاعمال الفنية التي لا يمكن تصورها . بعد العشاء ، وامام نار المدفاة ، قال لي « شارل دي نواي » :

— الامر يتلخص بما يلي : تحقيق فيلم من عشرين دقيقة ، مع حرية كاملة . لكن بشرط وحيد : لدينا التزام مع سترافنسكي ، الذي سيضع الموسيقا .

ـ آسف جـداً ـ اجبت ـ فكيف يمكنكم ان تتصوروا انـه بامكاني التعاون مع انسـان يجثو على ركبتيه ويقوم بالضرب على صدره ؟

فهذا ما كان يقال عن ستـرافنسكي .

وبدا من « شارل دي نواي » رد فعل لم اكن اتوقعه سمح لي من خلاله باول فرصة لتقديره . قال لي ، ودون ان يرفع صوته :

ـ انت على حق ، سترافنسكي وانت نقيضان. اختر بنفسـك موسيقيا لفيلمك وستجد شيئا آخر لستـرافنسكي .

وافقت . وقبضت سلفة على أجري ، وذهبت الى « فيغويراس » لاجتمع بـ « دالي » وكان ذلك يوم عيد الميلاد من عام ١٩٢٩ .

وصلت الى « فيغويراس » عـن طريق « سرغوسة » ـ حيث كنت اتوقف دائما لرؤية عائلتي ـ . وفوجئت هناك بصرخات غاضبة . كان مكتب والد دالي « الكاتب بالعدل » في الطابق الارضي ، والعائلة (الاب والعمة والاخت آنا ماريا) تسكن في الطابق الاول ، فتح الاب الباب بشكل فظ ، غاضب ، وقذف بابنه الى الشارع ، ناعتا اياه بأبشع الصفات ، وكان « دالي » يرد مدافعا عن نفســه . ولما اقتربت ، اشار الاب الى ابنه وهو يقول لي بانه لا يريد أن يرى هذا الخنزير في بيته بعد اليوم . وكانت المسألة التي ادت الى غضب الاب (والتي كان لها ما يبررها) ، هي التالية : خلال معرض اقيم في برشلونة ، كان « دالي » قد كتب على احـدى لوحاته ، بالحبر الاسود وبخط رديء . « ابصق بمتعة على صورة امي » .

طلب مني « دالي » المطرود من « فيغويراس » الذهاب معه الى منزلهم في « كاداكيس » وهناك انصرفنا للعمل يومين او ثلاثة ، ولكن ، وكما بدا لي ، فان متعة العمل في « كلب اندلسي » كانت قد تلاشت بالكامل . هل كان ذلك بتاثير **« غالا »** ؟ لم نكن متفقين في أي شيء . كان كل منا يستقبل اقتراح الآخر بصورة سيئة ، بل ويقاومه .

افترقنا بصورة ودية ، وكتبت السيناريو بمفردي في « ير » بمزرعة « شارل وماري لور دي نواي » كانا يتركاني وشأني طيلة النهار ، وفي المساء أقرأ لهما الصفحات التي كتبتها ، ولم يكن لديهما أي اعتراض ، كان كل شيء يبدو لهما ولا ابالغ . « رائعا وممتعا » .

اخيرا ، اصبح فيلما بطول ساعة ، اطول بكثير من « كلب اندلسي » . كان دالي قد بعث الي بعدة افكار في رسالة ، وقد ظهرت منها في الفيلم واحدة على الاقل : رجل يسير في حديقة عامة واضعا حجرا فوق راسه . يمر بجانب تمثال . التمثال كان يضع ايضا حجرا فوق رأسه .

عنـدما شاهد دالي الفيلم بعد انجازه اعجب بـه كثيرا وقال لي : **« كانه فيلم امريكي »** .

جـرى التصوير بكثير من الحـرص ، ودون تبذير وكلفت « جان » خطيبتي بمهمة تنظيم الحسابات . وعنـدما انتهينا من العمل . قامت بتسليم كافة القيود لشارل دي نواي ، واعادت اليه الوفر الذي حققناه .

ترك « شارل » اوراق الحسابات فوق احدى الطاولات ، وانتقلنا الى غرفة الطعام . وتبين لي فيما بعد ومن خلال بقايا ورقة محترقة استطعت التعرف عليها انه قام باحراق اوراق حساباتي ، لكنه لم يفعل ذلك امامي ، ولم يكن في هذا التصرف اي قدر من التظاهر ، وكان هذا اكثر ما اعجبني .

جرى تصوير « العصر الذهبي » في استوديوهات «بيلانكورت» ، وكان « ايزنشتين » يصور في « بلاتوه » مجاور **«سوناتا الربيع»** ، الذي سأتحدث عنه فيما بعد . « ليا ليس » بطلة الفيلم ، كان قد بعث بها الي احد الوكلاء ، في الوقت نفسه مع « ايلزا كوبرين » ابنة الكاتب الروسي الكسندر ولم أعد أذكر لماذا اخترت « ليا ليس » . قام « دوفرجيه » بالتصوير وتولى مارفال ادارة الانتاج مثلما فعل في « كلب اندلسي » .

تولى مصمم مناظر روسي بناء ديكورات الاستوديو وصورت المشاهد

الخارجية في « كاتالونيا » بالقرب من « كاداكيس » ، وفي ضواحي باريس. قام « ماكس ارنست » باداء دور رئيس اللصوص ، و « بيير بريفير » بدور اللص المريض . ومن بين الضيوف الذين يظهرون في الصالة ، كانت هناك « فالنتين هوغو » الطويلة والجميلة ، الى جانب الخزاف الاسباني الشهير « آرتيقاس » صديق بيكاسو ، وهو رجل قصير ، وضعت له شاربين هائلين . ورات السفارة الايطالية في هذه الشخصية تلميحا الى الملك « فيكتور عمانويل » الذي كان صغير الحجم ، وقدمت احتجاجا .

العديد من الممثلين تسببوا لي بمتاعب ، وبخاصة ، المهاجر الروسي الذي قام بدور قائد الفرقة الموسيقية ولم يكن جيدا . بالمقابل ، كنت سعيدا جدا بالتمثال الذي صنع خصيصا للفيلم . « **جاك بريفير** » يشاهد في الفيلم للحظة وهو يعبر احد الشوارع ، اما الصوت الآتي من خارج الكادر ــ كان « **العصر الذهبي** » هو الفيلم الناطق الثاني او الثالث الذي جرى تصويره في فرنسا ــ فقد كان صوت « **بول ايلوار** » . ومازلتاتذكر جيدا ما كان يقوله : « **قريبا من الراس تكون الوسادة اكثر نضارة** » .

اخيرا ، قام بدور « ذوق بلانجيس » في القسم الاخير من الفيلم ــ تكريم دي ساد ــ ، ممثل كان متخصصا باداء دور المسيح ، وقام بذلك في عدة أفلام خلال تلك الفترة ، ويدعى « ليونيل سالم » .

لم أعد الىمشاهدة الفيلم فيما بعد ، ويستحيل عليّ اليوم أن اقول أي راي فيه . أما « دالي » الذي ظهر اسمه في البطاقة التقنية للفيلم ، والذي قارنه بفيلم أمريكي (من الناحية التقنية للفيلم) ، فقد كتب فيما بعد بأن اسهاماته في عمل السيناريو كانت « **تعرية الآلية المنحطة للمجتمع الراهن** » .

كان « العصر الذهبي » ، بالنسبة إليّ ، وبشكل خاص ، فيلما عن حب مجنون ، عن قوة دفع لا تقاوم ، تعمل في كل الظروف على دفع الواحد باتجاه الآخر ، الرجل والمرأة ، اللذين لايمكن لهما أن يلتقيا على الاطلاق.

خلال تصوير الفيلم ، هاجمت المجموعة السيريالية ملهى في بوليفار « ايدغار كينيه » ، كان قد استولى ، وبكل بساطة ، على عنوان قصيدة « لوتر يامون » « أناشيد مالدورور » ومعرف مدى الاحترام الذي كان يكنه السيرياليون ل « **لوتريامون** » .

مراعاة لكوني اجنبيا ، وتفاديا للعواقب الجنائية التي كان يمكن أن تترتب على هجوم ضد مكان عام ، فقد اعفيت ، مع آخرين ، من المشاركة في هذه المهمة ، التي كانت شأنا وطنيا . أما الملهى فقد نهب ، وتلقى « آراغون » طعنة بمدية .

تصادف في ذلك المكان وجود صحفي روماني ، كان قد تحدث بصورة جيدة عن « كلب اندلسي » ، لكنه استنكر بشدة اقتحام السيرياليين للملهى بعد ذلك بيومين جاء الى « بيلانكورت » ، فعملت على طرده خارجا .

كان العرض الاول مخصصا لمجموعة من المقربين ، وقد جرى في بيت « آل نواي » الذين وجدوا الفيلم ــ وكانوا يقولون هذا دائما بلكنة بريطانية خفيفة ــ « رائعا وممتعا » .

•

بعد مدة من الزمن ، نظموا عرضا في صالة سينما « بانتيون » ، في الساعة العاشرة من صباح احد الايام ، ودعوا اليه « النخبة » ، وبخاصة مجموعة من ارستوقراطيي المدينة . كان « ماري لور وشارل » يستقبلان المدعوين عند الباب ، (هذا ما رواه لي خوان فثينس حيث انني لم آكن وقتها في باريس) . كانا يشدان على أيدي المدعوين بحرارة ، حتى انهما كانا يقبلان البعض منهم . وبعد انتهاء العرض عادا ليتخذا مكانهما عند الباب لوداع المدعوين وتلقي انطباعاتهم ، لكن المدعوين كانوا ينصرفون مسرعين ، بكل جدية ، ودون أن يتفوهوا بكلمة واحدة .

في اليوم التالي ، طرد « شارل دي نواي » من نادي الفرسية ، كما كان على امه ان تقوم بزيارة الى روما للتفاوض مع البابا ، حيث كان يجري الحديث ايضا عن امكانية حرمانه كنسيا .

ثم جرى عرض الفيلم ، في « استوديو ٢٨ » حيث سبق وعرض « كلب أندلسي » ، واستمر عرضه ستة أيام وسط اقبال جماهيري حاشد بعد ذلك ، واثر هجوم الصحافة اليمينية على الفيلم ، قام أعضاء في تنظيمات يمينية متطرفة بمهاجمة صالة السينما ، وحطموا لوحات المعرض السيريالي الذي كان مقاما في رواق الصالة ، كما ألقوا بالمتفجرات على الشاشة ، وكسروا المقاعد . وكانت ((**فضيحة العصر الذهبي**)) .

بعد ذلك باسبوع ، قام مدير البوليس « شياب » ، باسم النظام العام ، وبكل بساطة ، بمنع الفيلم ، **وهو منع استمر خمسين عاما** ، دون أن تتاح أية امكانية لمشاهدة الفيلم ، الا في العروض الخاصة والنوادي السينمائية . أخيرا في عام ١٩٨٠ ، جرى توزيع الفيلم في نيويورك ، ثم في باريس عام ١٩٨١ .

•

لم يتصرف « آل نواي » معي بصورة سيئة على الاطلاق ، بسبب ذلك المنع . بل انهم ، وعلى العكس ، هنأوني على الاستقبال الحار الذي لقيه الفيلم من قبل مجموعة السيرياليين .

كنت القاهم دائما في كل مرة اذهب فيها الى باريس . عام ١٩٣٣ نظموا احتفالات في « يير » ، واعطي فيه الحق لكل من الفنانين المدعوين بأن يفعل ما يشاء . « دالي » و « كريفيل » اللذان كانا مدعوين ، اعتذرا لسبب لم أعد أذكره . أما « داريوس ميلو » و « فرانسيس بولنك » و « جورج أوريك » و « ايغور ماركيفيتش » و « هنري سوغيه » فقد قام كل منهم بتأليف واخراج عمل على المسرح البلدي لـ « يير » ، ((**كوكتو**)) صمم اعلانات البرنامج ، كما قام « كريستيان بيرار » بتصميم البسة المدعوين ، (كانت هناك مقصورة خاصة بالمدعوين المتنكرين) .

وبتحريض من « بريتون » الذي كان للمنظمين تقدير خاص لديه ، وكان يحض على التعبير عن هذا التقدير ، ـ كان يسألني باستمرار ! متى

ستعطينا شيئا للمجلة ؟ ـ ، قمت ، وخلال ساعة واحدة ، بكتابة نصوص « **الزرافة** » .

قام « بيير أونيك » بتصحيح كتاباتي الفرنسية ، ثم ذهبت الى « **جياكوميتي** » في مرسمه (كان قد انتظم في المجموعة) ، وطلبت اليه ان يرسم ويقص على الخشب الرقيق (المعاكس) زرافة بالحجم الطبيعي ، وافق « جياكوميتي » ورافقني الى « ير » وقام هناك بتنفيذ الزرافة . كانت بقعها مركبة بمفصلات يمكن رفعها لقراءة ما تحتها ، وهي العبارات التي كتبتها خلال ساعة ، ولو كان عليّ أن احقق ما ورد فيها ، لكنت بحاجة الى ان انفق اربعمائة مليون ددولار . وقد نشر النص بكامله في مجلة « السيريالية في خدمة الثورة » . تحت احدى البقع ، كان من الممكن ان نقرا مثلا : « فرقة مؤلفة من مائةموسيقي تبدا العزف في احد الاقبية » . وتحت اخرى : « المسيح يضحك مقهقها » ، (واعتز بأنني كنت مبتكر هذه الصورة التي استخدمت فيما بعد مرات كثيرة) .

نصبت « الزرافة » في حديقة دير سان بيرنار من املاك « آل نواي » وكان قد اعلن على المدعوين بأن هناك مفاجأة . قبل العشاء ، طلب اليهم الخروج لقراءة ما هو مكتوب تحت البقع ، وخرجوا ، وبدا ان الفكرة حازت على اعجابهم .

بعد تناول القهوة ، عدت مع « جياكوميتي » الى الحديقة ، الاّ ان الزرافة كانت قد اختفت ، دون أن يكون هناك اي اثر ، او اي تفسير . هل كانت فضائحية اكثر من اللازم ، بعد فضيحة العصر الذهبي ؟ .

لا أعرف ماذا حصل للزرافة ، كما لم يأت على ذكرها امامي لا شارل ولا ماري لور ، على الاطلاق ، ولم اجرؤ على السؤال عن السبب في ذلك الاستبعاد المفاجيء .

بعد تمضية عدة ايام في « ير » ، قال لي « روجيه دي سورمير » ،

قائد الاوركسترا ، انه ذاهب الى مونتيكارلو لقيادة العرض الاول للباليهات الروسية الجديدة ، ودعاني لمرافقته فوافقت في الحال . وجاء بعض المدعوين ، ومن بينهم كوكتو ، لوداعنا في المحطة ، وحذرني احدهم ! « كن حذررا مع الراقصات ، انهن صغيرات جدا وبريئات جدا ، ويتقاضين اجورا بائسة ، لا داعي لأن تصبح احداهن حاملا » .

في القطار ، وخلال ساعتي الرحلة ، استغرقت في احلام اليقظة ، كعادتي . كنت أرى ذلك السرب من الراقصات ، كالحريم ، يجلسن في صفوف عديدة من المقاعد ، بجواربهن السوداء ، بانتظار اوامري . كنت اشير لاحداهن باصبعي فتنهض وتقترب مني طائعة ، عندئذ كنت ابدل رأيي ، وأشير لأخرى ، فتذعن كالاولى . ولم يكن هناك ما يفسد عليّ هذه التهويمات الجنسية ، بينما كان القطار يهدهد لي بصوت عجلاته وتواتر اهتزازه اللذيذ .

اما في الواقع ، فهذا هو ما حصل :

كان « دي سورمبير » يتخذ من احدى الراقصات صديقة له . بعد العرض الاول اقترح عليّ الذهاب لتناول كأس في احد الملاهي مع صديقته وفتاة اخرى من الفرقة . وطبعا ، لم يكن لديّ أدنى اعتراض .

إلاّ انه حصل قبل ذهابنا ، وبعد أن سار العرض بصورة طبيعية ، أن أغمي على اثنتين او ثلاث من الراقصات ، مع انتهاء العرض ، بسبب الانهاك ، ومن بينهن كانت صديقة « دي سورمبير » . (هل حقاًلايتقاضين اجورا مناسبة ولا يتغذين جيدا ؟) . عندما افاقت من الاغماء ، طلبت من احدى زميلاتها – وهي روسية بيضاء في غاية الجمال – ، أن ترافقنا. وذهبنا نحن الاربعة الى احد الملاهي ، كما كان الاتفاق .

سار كل شيء بصورة ممتازة ، ولم يتأخر « دي سورمبير » في الانسحاب مع صديقته ، تاركا إياي انفرد مع الروسية البيضاء ،

حينئذ ، ولا اعرف لماذا ، انطلقت بحماس وانفعال ، بكل تلك الفظاظة التي تطبع علاقاتي مع النساء ، في نقاش سياسي حول روسيا والشيوعية والثورة . كان أول ما قالته هو اعلانها ، بكل صراحة ، انها ضد السوفييت ، وانها لا تتردد في الحديث عن جرائم النظام الشيوعي ، ثرت ووصفتها بالرجعية القذرة ، ولم تمض برهة قصيرة حتى نهضت ، تاركا لها بعض النقود لتأخذ سيارة اجرة ، وذهبت الى بيتي .

فيما بعد ، لمت نفسي كثيرا ، بسبب غضبي في ذلك اليوم .. وفي أيام اخرى كثيرة .

من بين المآثر الجميلة للسيريالية ، تبدو لي إحداها ذات نكهة جميلة خاصة ، كان بطلاها « جورج سادول » و « جان غابان » .

ذات يوم من عام ١٩٣٠ ، كان « **جورج سادول** » و « جان كوبين » يجلسان في مقهى باحدى مدن الاقاليم ، وبينما هما يطالعان احدى الصحف ، وقع نظرهما على نتائج امتحانات المدرسة الحربية بـ « سان سير » . وكان الاول ، بين كافة أفراد الدفعة ، اسمه « كيلر »(*) .

كان سادول وكوبين وحيدين ضجرين ، ليس لديهما مايفعلانه ، وفجاة ، خطرت لهما فكرة :

ـ ماذا لو نكتب رسالة الى هذا الابله ؟!..

قالا ، وفعلا . طلبا ورقة وقلما ، وحررا واحدة من اجمل رسائل الشتائم في تاريخ السيريالية . وقعا الرسالة ، وبعثا بها في الحال الى هذا « الاول » في « سان سير » ، كانت في الرسالة مقاطع لاتنسى .مثلا: « اننا نبصق في الالوان الثلاثة،سننشر في الشمس،مع رجالكم المتمردين، احشاء كل ضباط القوات الفرنسية . اذا كان علينا ان نذهب الى الحرب ، فعلى الاقل لنخدم تحت إمرة الخوذة الالمانية المدببة المجيدة .. الخ » .

* « Keller » ، وهو اسم ألماني طبعا .

هذا الـ « كيلر » استلم الرسالة ، واعطاها لمدير (سان سير) الذي اعطاها بدوره الى **الجنرال « غورو »** ، وخلال ذلك ، كانت « السريالية في خدمة الثورة » قد نشرتها .

اثارت الحكاية ضجة كبيرة . جاء « سادول » اليّ قائلا بأن عليه الفرار ومغادرة فرنسا . « جان كوبين » القي القبض عليه . ذهب والدا « سادول » و « كوبين » لتقديم الاعتذار الى الاركان العامة في باريس ، لكن دون جدوى . طالبت « سان سير » بالتعويض . «سادول» غادر فرنسا ، اما « كوبين » ، حسب ما قيل لي ، فقد طلب السماح ، جاثياعلىركبتيه ، امام طلاب المدرسة الحربية بأكملهم ، ولا ادري ان كان هذا صحيحا .

عندما أتذكر هذه الحادثة ، يتراءى لي من جديد تعبير الحزن العميق الذي كان باديا على وجه **« اندريه بريتون »** وهو يشكو لي عام ١٩٥٥ من أن تلك الفضيحة كانت خارج حدود المعقول .

أيام السريالية ، تعاملت ، وتعرفت احيانا بصورة جيدة جدا على كتاب ورسامين ، كانوا في وقت من الاوقات على صلة بالحركة ، ثم رفضوها ، وعادوا اليها ، ليرفضوها من جديد . كما تعرفت على آخرين كانوا منصرفين الى اساليب في البحث اكثر فردية . في مونبارناس ، تعرفت على « فرنان ليجيه » الذي كنت التقي به دوما . « أندريه ماسون » لم يكن يتردد على اجتماعاتنا الا فيما ندر ، الا انه كان يرتبط بعلاقات صداقة وطيدة مع المجموعة . كان الرسامون السرياليون الحقيقيون هم « دالي » و « تانغي » و « آرب » و « ميرو » و « ماغريت » و « ماكس ارنست » . وهذا الاخير ، الذي كان صديقا لي، كان ينتمي الى الحركة الدادائية ، الا ان ظهور السريالية حوله اليها في المانيا ، مثما حصل مع « مان راي » في الولايات المتحدة . وقد روى لي « ماكس ارنست » انه ، وقبل تشكيل مجموعة السرياليين ، خلال احتفال كان يجري في زيوريخ بمناسبة اقامة احد المعارض ، طلب ،

بالتعاون مع « آرب » و « تسارا » من طفلة ـ دائما هذا السعي لافساد الطفولة ـ ترتدي ثوب القربان وبيدها شمعة ، بأن تتلو فوق المنصة ، نصا جنسيا فاضحا ، لم تكن تفهم منه شيئا . وكانت فضيحة لاتنسى .

« ماكس ارنست » ، الجميل مثل نسر ، فر مع اخت كاتب السيناريو « جان أورانش » ، « ماري ـ بيرت » ، التي قامت باداء دور صغير في « العصر الذهبي » ، وتزوج منها . في أحد الاعوام ، ـ ولست اذكر ان كان ذلك قبل زواجه أم بعده ـ ، أمضى عطلته في نفس القرية التي كان « انخليس اورتيث » يمضي فيها عطلته ايضا . وهذا الاخير كان عبارة عن وباء اجتماعي حقيقي ، وكان من المستحيل ان تحصى مغامراته . في ذلك العام احب كل من « ماكس ارنست » و « أورتيث » نفس المراة ، وكان « أورتيث » هو الذي فاز بها .

بعد فترة جاء اليّ **« بريتون »** و **« ايلوار »** في منزلي بشارع پاسكال وقالا لي بأنهما جاءا بتكليف من صديقي **« ماكس ارنست »** الذي كان ينتظر عند زاوية قريبة ، ولا اعرف تماما لماذا كان « ماكس » يعتبرني « متآمرا » لصالح « أورتيث » . وطلبا مني ، باسمه ، ايضاحا لذلك ، واخبرتهما بانني ليست لي أية علاقة بهذه الحكاية، ولم أكن في أي يوم من الايام مستشارا جنسيا لانخليس اورتيث . وانصرفا .

« اندريه دوران » لم تكن له أية صلة بالسريالية ، كان اكبر مني بكثير ـ على الاقل بثلاثين أو خمسة وثلاثين عاما ـ ، وكان يحدثني عن كومونة باريس ، كما كان اول من روى لي حادثة الذين اعدموا خلال القمع الوحشي الذي نظمته جماعة « ڤرساي » .

كان « دوران » طويلا وبدينا ، وينضح لطفا . ذات ليلة اخذني الى احد المواخير التي كان يعرفها . وذهب معنا التاجر « پيير كول » . ـ « مساء الخير سيد اندريه ، كيف الحال ؟ منذ مدة لم نرك » . واضافت القوادة :

عندي بنت صغيرة ، ساحضرها الان ، وسترى كم هي بريئة ، لكن عليك الانتباه كثيرا ، ها ؟ .. كن لطيفا معها .

بعد قليل ، جاءت الينا احدى المخلوقات ، تلبس حذاء بكعب واطيء ، وجوربين ابيضين ، وضفائر ، وهي تلعب بالطارة . كانت عبارة عن قزم في الاربعين .

من بين الكتاب تعرفت على « روجيه ڤيتراك » بشكل جيد ، ولم يكن « بريتون » و « ايلوار » يكنان له التقدير ، ولم اعرف السبب على الاطلاق . « اندريه ثيريون » الذي كان من اعضاء المجموعة ، كان السياسي الحقيقي الوحيد . قال لي « ايلوار » محذرا لدى خروجنا من احد الاجتماعات : « هذا لا تهمه سوى السياسة » . بعد فترة طويلة ، وكان « ثيريون » قد اعلن انه شيوعي ثوري ، جاء لزيارتي في شارع باسكال مصطحبا خارطة كبيرة لاسبانيا ، وكانت عمليات قلب الانظمة موضة دارجة تلك الايام ، كما كان يجري التحضير لبعض التفاصيل الدقيقة لقلب النظام الملكي الاسباني . كان يريد مني أن اوضح له بعض المعلومات الجغرافية المحددة ، مرتفعات وطرق ، لكي يثبتها على الخارطة ولم أتمكن من مساعدته .

الف كتابا حول تلك المرحلة بعنوان « ثوار بلا ثورة » وقد أعجبني جدا ، وبالطبع ، فقد نسب الى نفسه الدور الاكبر (مع أن هذا هو ما نفعله جميعا ، وغالبا دون أن نلاحظ ذلك) ، وكشف عن بعض التفاصيل الخاصة التي بدت هجومية وبلا فائدة . الا انني اثني ، وبلا حدود ، على ما كتبه بخصوص « اندريه بريتون » . بعد الحرب ، قال لي « سادول » ان « ثيريون » « خان » أفكاره بصورة كاملة ، وكان مسؤولا عن زيادة تعرفة المترو .

« ماكسيم الكسندر » التصق بالكاثوليكية . « جاك بر يڤير » قدمني الى « جورج باتاي » الذي اراد التعرف الي بسبب **((العين المجروحة))** لـ **((كلب اندلسي))** ، وتناولنا الطعام سوية ، وكانت « سيلفيا » زوجة باتاي ،

التي التقيت بها فيما بعد وهي متزوجة من « جاك لاكان » ، واحدة من اجمل النسـاء اللواتي شاهدتهن في حياتي ، الى جانب « برونجا » زوجـة « **ريشيه كلير** » . اما باتاي ـ الذي لم يكن يحظى باحترام بريتون إذ كان يجده فظا وماديا ـ فقد كان ذا وجه متجهم ، جاد ، أما ابتسـامته فكانت من الامور صعبة المنال .

« انتونين ارتو » ، كان تعاملي معـه قليلا ، لم التق به الا مرتين او ثلاث . وبالتحديد ، في السادس من شباط (فبراير) عام ١٩٣٤ ، التقيت به في احدى محطات الميترو، واقفا ينتظر لشراء تذكرة،وتصادف وجودي وراءه مباشرة . كان يتحدث مع نفســه ، مكثرا من الايمـاءات والحركات . ولم أرد ازعاجه ط

كثيرا ما اسأل ماذا كانت السيريالية ، ولا ادري بم اجيب ، أحيانا اقول بان السيريالية قد نجحت فيما هو هامشي ، وفشلت فيما هو اساسي « أندريه بريتون » و « **ايلوار** » و « **اراغون** » يعتبرون من بين افضل الكتاب الفرنسيين في القرن العشرين ، ويحتلون مكانا جيدا في جميع المكتبات . «**ماكس ارنست**»و« **ماغريت** »و« **دالي** » يعتبرون من بين أكثر الرسامين قيمة وشهرة ، ويحتلون مكانا جيدا في جميع المتاحف ، لكن المجد الفني والنجاح الادبي كانا الشيئين الاقل اهمية بالنسبة لمعظمنا . دخلت الحركة السيريالية ، وعن غير قصد ، ومن الباب العريض ، في جميع الفهـارس السنوية للادب والرسم . أما ذلك الامر الذي كانت ترغب به أكثر من اي شيء آخر ، رغبة متسلطة ، غير قابلة للتحقيق ، وهو تغيير العالم ، وتبديل شروط الحياة ، في هذا الامر ـ الاساسي ـ يكفينا القاء نظرة حولنا ، لكي ندرك مدى اخفاقنا .

وبالطبع ، لم يكن لها أن تكون على صورة اخرى . واليوم ، ونحن نرى هذا المكان الاخير الذي تحتله السيريالية في العالم ، بين القوى التي لا يمكن تعدادها ، وامام التجدد المستمر للحقيقة التاريخية ، وقد ابتلعتنا احلام كبيرة كبر الارض ، فانني أدرك اننا لم نكن شيئا ، لم نكن أكثر من

مجموعة صغيرة من المثقفين السليطين ، نثرثر في مقهى ونصدر مجلة . حفنة من المثاليين ، تتفرق عندما يكون عليها أن تشارك في العمل بصورة مباشرة وفعالة .

على اية حال ، فقد احتفظت باستمرار ، بشيء من تلك المرحلة من حياتي ـ التي استمرت اكثر قليلا من ثلاث سنوات ـ في الصفوف المجيدة ، وغير المنظمة ، للسيريالية . ان ما تبقى لدي ، بشكل خاص ، هو ذلك التوغل الحر الى اعماق الوجود ، معترفا وراغبا بهذه الدعوة الى ما هو لا معقول ، الى ما هو مبهم ، الى كل تلك الدوافع التي تنبعث من أعماق الذات ، تلك الدعوة التي كانت تنطلق للمرة الأولى بتلك القوة ، بتلك الشدة ، بسلاطة متفردة ، مع ميل الى اللعب ، وبتصميم مثابر دؤوب على النضال ضد كل ما كان يبدو لنا شنيعا . ولم اتخل عن أي شيء من كل هذا .

وساضيف بان الجانب الأكبر من بدهيات السيرياليين قد تحقق . ولن اسوق أكثر من مثال واحد ، وهو المتعلق بالعمل ، القيمة المقدسة لدى المجتمع البورجوازي ، القيمة التي لا يمكن المساس بها ، والتي كان السيرياليون أول من هاجمها بشكل مستمر ، وسلط الضوء على خداعها، كما اعلنوا بان العمل المأجور عبارة عن وصمة . هناك صدى لهـذا الموقف في « **تريستانا** » عندما يقول « **دون لوبه** » للاخرس :

ـ أيها العمال المساكين ، الديوثون المسحوقون ! العمل هو لعنة ، فليسقط العمل الذي يبذل من أجل كسب المعيشة . ان هذا العمل ليس كريما كما يقولون ، انه لا ينفع لأكثر من ملء كروش الخنازير الذين يستغلوننا . وبالمقابل فان العمل الذي يتم بالارادة ، بالاختيار ، يشرف الانسان . يجب أن يتاح لكل الناس أن يعملوا بهذه الصورة ، انظر الي ، انني لا اعمل ، لكنك ترى بانني اعيش ، اعيش بشكل سيء ، لكنني اعيش دون أن أعمل .

بعض عناصر هذا الكلام كان موجودا في عمل « غالدوس » ، الا انـه

كان ذا اتجاه آخر ، فالكاتب كان يدين الشخصية بسبب بطالتها وكسلها ؛ وكان يعتبرها كقطعة من الخشب .

كان السرياليون ، هم الاوائل في الحدس بان هذه القيمة : «العمل» ، كانت قد بدأت بالاهتزاز فوق قاعدة هشة . واليوم ، بعد مضي خمسين عاما ، يجري الحديث في كل مكان عن هذا الانحطاط حول ما اذا كان الانسان قد ولد لكي يعمل . وبدأ التفكير بحضارات « العطلة » واوقات الفراغ .

وشيء آخر باقٍ لدي من السريالية ، هو اكتشافي داخل ذاتي صراعا مريرا جدا بين الأخلاق المكتسبة واخلاقي الشخصية ، المولودة بالفطرة والناتجة عن خبرتي العملية . حتى دخولي المجموعة . لم أكن قد تصورت على الاطلاق أنه يمكن لي أن أواجه صراعا كهذا ، وهو صراع يبدو لي لا غنى عنه من اجل حياة كل كائن بشري .

كذلك ، فان ما حافظت عليه منذ تلك السنوات ، هو أكثر من مسألة الاكتشاف الفني ، اذ ان كل ذلك الضبط لميولي وافكاري ، هو تطلب أخلاقي واضح لا يمكن الانتقاص منه ، وقد حرصت عليه بكل اخلاص في مواجهة جميع الشدائد . وليس من السهل المحافظة على الاخلاص ، وباستمرار ، لاخلاق مضبوطة ، ضد اية زلة من انانية او غرور او جشع او استعراضية او ابتذال . احيانا كنت انساق لواحدة من تلك الاغراءات، فأخرق قواعدي الخاصة في سبيل امور اعتبرها قليلة الأهمية ، الا ان انتمائي للسريالية كان في معظم هذه الحالات عاملا مساعدا على المقاومة ، ولعله في هذا الامر ، يكمن ما هو أساسي وجوهري .

في بدايات أيار من عام ١٩٦٨ ، كنت في باريس ، اباشر مع مساعدي التحضيرات اللازمة وتهيئة أماكن التصوير لـ **«درب التبان»** . وذات يوم، اعترضتنا ، وبصورة مفاجئة ، احد الحواجز التي كان يقيمها الطلاب في الحي اللاتيني ، وقد بقيت الحياة في باريس آنذاك ، مزعجة ، لفترة قصيرة من الزمن .

لقد تعرفت على أعمال « ماركوز » وأعجبت بها ، استحسنت كل ما قرأته له وما سمعته يتحدث به حول مجتمع الاستهلاك ، وعن ضرورة تغيير الحياة المجدبة والخطرة ، قبل فوات الأوان . كانت في أيار ١٩٦٨ لحظات رائعة ، خلال تجوالي في الشوارع الهائجة ، كنت أقرأ على الجدران بكثير من المفاجأة ، بعض شعاراتنا السيريالية القديمة ، مثل « الخيال الى موقع السلطة » و « ممنوع المنع » .

مع ذلك ، كان علينا أن نوقف العمل ، مثل جميع الناس تقريبا ، ولم اكن اعرف ماذا علي أن أفعل . كنت وحيدا في باريس ، وكل يوم يصبح اقل هدوءا من سابقه . ذات يوم ، وبعد ليلة من الاضطرابات ، كنت أعبر بوليفار سان ميشيل حين ابكتني الغازات المسيلة للدموع . لم أستطع أن أفهم كل ما يجري . فمثلا، لماذا كان بعض المتظاهرين يعوؤون «هاو ! ماو!» كما لو انهم يطالبون باقامة نظام ماوي في فرنسا . أشخاص كثيرون عاقلون في العادة ، فقدوا صوابهم . لوي مال ــ الصديق العزيز جدا ــ رئيس لا ادري اية مجموعة عمل ، استنفر كل قواه في سبيل المعركة ، وأوعز الى ابني خوان لويس بان يطلق النار على احدى المجموعات (ولو كان أطاعه ، لأصبح الوحيد الذي ضرب راسه بالمقصلة في أيار) ، الى جانب جدية البعض ووضوحه ، فقد كانت هناك ثغرات كثيرة ، بسبب الكلام الفارغ ، والمغالطات لدى آخرين . كل يبحث عن ثورته بمصباحه ، ولم انفك عن ان أردد بيني وبين نفسي: « لو أن هذا قد حدث في المكسيك، لانتهى خلال ساعتين ، ومع مائتين او ثلاثمائة قتيل ! » (بالمناسبة فان هذا ما حدث في تشرين الأول « اكتوبر » في ساحة الثقافات الثلاث ، وبما في ذلك القتلى) .

أخذني « سيرج سيلبرمان » منتج الفيلم ، لتمضية عدة ايام في بروكسيل ، حيث يمكنني من هناك ان أعود ، وببساطة ، بالطائرة الى بيتي ، لكنني فضلت العودة الى باريس . خلال أسبوع عاد من جديد ما كان يسمى بالنظام ، ليسيطر . وانتهى الاحتفال الكبير ، الذي لم يسفك فيه ، وبما يشبه المعجزة ، الا القليل من الدماء . وفضلا عن الشعارات ،

فقد كان لايار ١٩٦٨ ، العديد من نقاط الالتقاء مع الحركة السيريالية : نفس المواضيع الايديولوجية ، نفس صعوبة الاختيار ما بين الكلمة والفعل، وكما كان حالنا نحن ، فقد كان طلاب أيار « مايو » ١٩٦٨ يتحدثون كثيرا ويفعلون قليلا . وكما يقول بريتون : « أصبح الفعل مستحيلا ، شأنه شأن الفضيحة » .

ولن استبعد ذكر الارهاب، كما يفعل البعض وهو ما لم يكن مستبعدا من عباراتنا في مرحلة الشباب ، من مثل ما كان يقول بريتون مثلا : « ان السلوك السيريالي الاكثر بساطة انما يتمثل في الخروج الى الشارع والمسدس باليد ، للاطلاق على الناس عشوائيا » . أما بالنسبة الي ، فانني لا انسى بانني قد كتبت ذات يوم بأن « كلب اندلسي » ليس الا دعوة للقتـــل .

ان فكرة الارهاب ، الذي لا يمكن تفاديه في هذا القرن، قد اجتذبتني دائما . لكنه ذلك الارهاب الشامل الذي يسعى الى تدمير كل المجتمع ، اي ، كل الجنس البشري . بينما لا املك الا الازدراء تجاه أولئك الذين يجعلون من الارهاب سلاحا سياسيا ، في خدمة اية مسألة . وعلى سبيل المثال ، اولئك الذين يقتلون ويجرحون أهالي مدريد لكي يلفتوا انتباه العالم الى مشاكل ارمينيا . انني لا اتحدث عن هؤلاء الارهابيين ، فهم يسببون لي الرعب. انني اتحدث عن مجموعة «بونوت» التي كنت اعبدها، عن « اسكاسو » و « دوروتي » اللذين كانا يختاران ضحاياهما بكثير من العناية . اتحدث عن الفوضويين الفرنسيين في اواخر القرن التاسع عشر ، اولئك الذين كانوا يريدون تفجير عالم كان يبدو لهم غير جدير بالبقاء ، مفجرين انفسهم معه . هؤلاء استطيع ان افهمهم ، وكثيرا ما اقدرهم . لكن الواقع هو أن هناك ما بين تصوراتي وحقيقتي ، هوة سحيقة ، كما هي الحال لدى معظم الناس . انا لست ، ولم اكن على الاطلاق ، رجل فعل ، من أولئك الذين يضعون المتفجرات . ومع انني كنت اشعر أحيانا بحالة من التماثل مع هؤلاء الرجال ، الا انني لم اصل ابدا الى حد المقدرة على الاقتداء بهم .

حافظت على العلاقة بـ « شارل دي نواي » حتى النهاية . وعندمـــا كنت اذهب الى باريس ، كنا نتغدى أو نتعشى سوية .

في زيارتي الاخيرة ، دعاني الى منزله ، حيث كان قد استقبلني قبل خمســين عاما . كان الامر يبدو لي وكأنه في عالم آخر . كانت ماري لور قد ماتت ، أما الجدران والرفوف فليس عليها أي اثر من تلك الكنوز القديمة. كان شارل قد أصبح أصم مثلي ، وقد بذلنا جهدا كبيرا كي نتفاهم . كنا نتناول طعامنا وحيدين ، شبه صامتين .

امريكا

١٩٣٠ . لم يكن « العصر الذهبي » قد عرض بعد ، « وآل نواي » الذين كانوا قد احدثوا في مقر سكناهم اول صالة عرض ناطقة في باريس ، سمحوا لي ، بغيابهم ، أن أقدم الفيلم للسيرياليين . وجاء هؤلاء جميعهم ، قبل العرض بدؤوا يتذوقون زجاجات البار ، التي اكملوا افراغها فيما بعد في أحواض الغسيل . وكان الأكثر انزعاجاً ، على ما بدا لي ، هما « ثيريون » و « تسارا » . وعندما عاد « آل نواي » سألوني عن العرض ـ ممتاز ـ وتفادوا بكل كياسة ، اي تلميح الى الزجاجات الفارغة .

وبفضل « آل نواي » ، شاهد الفيلم الموفد العام لـ « مترو غولدوين ماير » في أوروبا ، الذي كان ، شأنه شأن الكثيرين من الامريكيين الشماليين ، يحب كثيرا ان يلتقي بالارستوقراطيين الاوروبيين . ودعاني الى مكتبه .

بعد أن بعثت في البداية بمن يقول له بأنني غير راغب باضاعة وقتي معه ، قبلت اللقاء اخيرا . قال لي ما معناه :

ـ شاهدت « عصر الذهب » ، الذي لم يعجبني على الإطلاق . لم افهمه . لكنه اثر بي . وهذا هو ما اعرضه عليك : تذهب الى هوليود لتتعلم التقنية الأمريكية الرائعة ، الاولى في العالم . ابعث بك الى هناك وأدفع لك تكاليف السفر ، وتبقى هناك ستة اشهر ، تتقاضى خلالها مائتين وخمسين دولاراً في الاسبوع (وكان هذا جيداً جداً في ذلك الوقت) ، ودون أي التزام ، ما عدا مشاهدة كيف تجري صناعة الفيلم ، ومن ثم ، سنرى ماذا يمكن أن نفعله معك .

فوجئت كثيراً ، وطلبت منه مهلة ثمان وأربعين ساعة للتفكير . في تلك الليلة كان هناك اجتماع في منزل « بريتون » ، وكان عليّ ان اذهب الى « جاركوف » مع « اراغون » و « جورج سادول » لحضور مؤتمر المثقفين الثوريين . أطلعت المجموعة على عرض الـ « م. ج. م. » ، ولم يكن هناك اي اعتراض .

وقعت عقداً . وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٠ ، ركبت في الهافر عابرة الأطلسي الامريكية « ليفياثان » ، الأكبر في العالم ذلك الوقت . وقد قمت بهذه الرحلة الرائعة برفقة الفنان الكوميدي « تونو » وزوجته « ليونور » ..

كان « تونو » ذاهباً الى هوليوود للعمل في النسخ الاسبانية للأفلام الأمريكية . كانت السينما عام ١٩٣٠ قد اخذت تتحول الى ناطقة ، وهو ما أخذ يفقدها ، بصورة آلية ، طابعها العالمي . كان يكفي ، في الفيلم الصامت ، تبديل اللوحات ، وفقاً للغة البلد . اما الآن فيجب تصوير نسخ مختلفة للفيلم نفسه ، بنفس الديكور ونفس الاضاءة ، لكن بممثلين فرنسيين أو اسبان .... وقد ادى هذا الى ان يتجه الى هوليوود الهائلة، سيل من الكتاب والممثلين ، لكتابة وأداء الحوارات بلغاتهم .

كنت اعبد أمريكا ، من قبل أن اعرفها . كان كل ما فيها يعجبني ، العادات ، الافلام ، ناطحات السحاب ، وحتى اللباس الذي يرتديه رجال البوليس . أمضيت خمسة أيام في نيويورك بفندق « آلغونكين » ، وانا منبهر بالكامل ، يرافقني مترجم ارجنتيني ، اذ لم اكن اعرف كلمة انكليزية واحدة .

ثم اخذت قطاراً الى لوس انجلس ، مع « تونو » وزوجته . وكان الأمر مبهجاً بصورة لا نظير لها . واعتقد أن الولايات المتحدة هي البلد الأكثر جمالاً في العالم . وصلنا الساعة الخامسة بعد الظهر ، بعد اربعة أيام من السفر . كان ينتظرنا في المحطة ثلاثة من الكتاب الاسبان الذين

يعملـون أيضـا في هوليوود : « ابدغار نيڤيتـه » و « لوبيث روبيو » و « أوغارته » .

أصعدونا في سيارات وادخلونا للعشاء في منزل « نيڤيتـه » . وقال لي « اوغارته » : ستتعشى مع المشرف عليك ، وبالفعل ، ففي الساعة السابعة وصل رجل ذو شعر رمادي قدموه إلي بصفته المشرف علي ، وكانت ترافقه امرأة رائعة . جلسنا الى المائدة ، واكلت « اڤوكاتو » للمرة الاولى في حياتي .

خلال قيام « نيڤيتـه » بالترجمة ، كنت انظر الى المشرف وأقول في نفسي : « انني أعرفه ، انني متأكد من انني قد شاهدته في مكان ما » . فجأة ، عرفته : شابلن . والمرأة التي كانت ترافقه هي « جورجيا هيل » بطلة « البحث عن الذهب » .

لم يكن شابلن يعرف كلمة اسبانية واحـدة ، لكنه قال بأنه يعبد اسبانيا ، اسبانيا الفولكلورية ، الوجه الخارجي لها ، وطقطقات كعوب أحذية راقصات الفلمنكو ، و الـ « اوليه »(*) . كان يعرف « نيڤيتـه » جيداً ، وكان هذا سبب تواجده .

في اليوم التالي ، اقمت مع « أوغارته » في شقة بـ « اوكهارسـت درايڤ » في بڤرلي هيلز .

كانت أمي قد اعطتني مبلغاً لا بأس به ، فاشتريت سيارة وبندقية . وبدأت أتقاضى مخصصاتي هناك ، وكان كل شيء يسير بصورة جيدة . وقد أعجبتني لوس انجليس كثيراً ، ولم يكن ذلك فقط بسبب هوليوود.

(*) لفظة اسبانية تطلق تعبيرا عن الاستحسان والابتهاج ، وبخاصة خلال مشاهدة رقص الفلمنكو أو مصارعة الثيران .

بعد يومين او ثلاثة من وصولي ، قدموني الى منتج ــ مخرج يدعى « ليوين » يرتبط بـ « تالبرغ » الرئيس الكبير لمترو غولدوين ماير . كما كلف احدهم ويدعى « فرانك ديفيز » ، والذي اصبحت واياه صديقين ، بالاهتمام بي .

بدا له عقدي « غريبا » ، إلا انه قال لي :

ــ من اين تحب ان تبدأ ؟ من المونتاج ، من السيناريو ، من التصوير، من الديكور ؟ . .

ــ من التصوير .

ــ حسن جداً ، في استوديوهات « مترو » اربعة وعشرون « بلاتوه » . اختر الذي تفضله . سوف تعطى بطاقة تخولك الدخول الى اي مكان .

اخترت « بلاتوه » كان يجري فيه تصوير فيلم مع « غريتا غاربو » . ودخلت بصورة حذرة ، مزودا ببطاقتي . وحيث انني كنت اعرف مسبقاً ما هي السينما ، فقد وقفت على مسافة مناسبة . كان فنيو الماكياج يتحركون منهمكين حول النجمة ، واعتقد انه كان يجري التحضير للقطة قريبة .

وبالرغم من حذري ، فقد اكتشفتني ، شاهدتها تشير الى رجل ذي شاربين صغيرين ورفيعين جداً ، وهي تقول له شيئا . وسرعان ما اقترب هذا مني وسألني :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

كان السؤال بالانكليزية ، ولم استطع ان افهمه ، والاهم انني لم استطع ان اجيبه .

والقوا بي خارجاً .

في ذلك اليــوم ، قررت البقاء ، بكل بســاطة ، في منزلي ، وعدم الاقتراب من الاستوديو إلا أيام السبت ، للقبض . ومن ناحية اخرى ، فقد تركوني بدورهم أيضا لمدة اربعة أشهر ، دون ان يهتم أحد باي من نشــاطاتي .

والحقيقة ، أقول ، انه كانت هناك استثناءات قليلة ، اذ قمت ذات مرة بدور صغير و « بارمان » ـ البارات دائما ـ ، في النســخة الاسـبانية لاحد الافلام ، وفي مرة أخرى زرت أحد الديكورات وكان يستحق الزيارة فعلاً . ففي الأرض المجاورة للاستوديوهات ، كان هناك مسبح مترامي الأطراف ، يطفو فيه نصف باخرة ، بني بصورة غاية في الاتقان ، وكان يجري تصوير مشهد عاصفة . كانت الباخرة تدفع بقوة آلية كبيرة ، فتتارجح كما لو أنها تتقاذفها امواج . وحول المكان كانت هناك مجموعة من المراوح العملاقة . وفي الاعلى عدة خزانات ماء ضخمة ، مجهزة لكي تصب محتوياتها فوق السفينة لحظة غرقها . كان أكثر ما اثار اعجابي هو ضخامة ونوعية وسائل الحيل السينمائية ، وكان يبدو ان كل شيء ممكن ، بما في ذلك اعادة خلق العالم .

كانت تســعدني أيضا رؤية شخصيات اسطورية معينة وبخاصة « الشريرين » كـ « والاس بيري » مثلاً . وكنت أميل الى التظاهر بتلميع حذائي عندما كنت التقي بالوجوه المعروفة في اروقة الاستوديو . ذات يوم جلس الى جانبي « آمبروسيو » ، وهو ذلك الكوميدي الضخم ذو النظرة الفاحمة والمرعبة ، الذي ظهر في العديد من أفلام شابلن . وفي مرة أخرى ، في احد المسارح ، وجدت نفسي الى جانب « بين توربين » ، وتبين لي أنه « أحول » في الطبيعة أيضا ، كما هو في الأفلام .

في أحد الايام ، وبدافع الفضولا ، ذهبت الى الـ « بلاتوه » الرئيسي لـ « م . ج . م . » ، حيث أعلن في كل مكان بأن « صاحب السلطة المطلقة » لويس ب . ماير ، يرغب بالحديث الى كافة العاملين في الشركة .

كانوا بضع مئات ، جالسين على مقاعد خشبية طويلة ، ووجوههم شاخصة الى منصة جلس فوقها الرئيس الكبير مع معاونيه الرئيسيين . كان هنالك « تالبرغ » بالطبع ، وسكرتيرون وتقنيون وممثلون وعمال . . . لم يتغيب أحد .

تحدث عدد من المدراء ، وصفقوا لهم ، . . اخيراً نهض الرئيس الكبير في جو من الاصغاء والاحترام وقال :

أصدقائي الاعزاء ، بعد تأمل طويل ، أعتقد باننا توصلنا الى أن نلخص في صيغة بسيطة جداً ، وأيضاً نهائية ، مع احترامنا للجميع ، السر الذي يضمن لنا التقدم المضطرد ، والازدهار المستمر لشركتنا . سأكتب لكم الصيغة . كان وراءه لوح أسود كبير ، استدار لويس ب. ماير اليه ، وكتب بالطباشير ، وبمنتهى البطء ، وبأحرف كبيرة : **تعاوَنْ** .

ثم عاد وجلس ، وسط عاصفة من التصفيق .

وكنت مذهولاً .

باستثناء هذه الغارات التثقيفية في عالم السينما ، كنت أقوم بنزهات طويلة بال « فورد » ، منفرداً أو مع صديقي « اوغارته » ، كنا نصل خلالها حتى الصحراء . كنت ألتقي يومياً بوجوه جديدة (تعرفت في تلك الفترة على دولوريس ديل ريو التي كانت متزوجة من مهندس ديكور ، وعلى جاك فيدر ، المخرج الفرنسي ، الذي أكن له كل تقدير ، وحتى على برتولت بريخت الذي أمضى بعض الوقت في كاليفورنيا) . ارسلو إليّ من بلاريس كل الصحف التي روت بالتفصيل فضيحة « العصر الذهبي » ، والتي شتمت فيها بصورة فظيعة . وكانت فضيحة تسر الخاطر .

كان « شابلن » يدعو مجموعتنا الاسبانية الصغيرة أيام السبت الى المطعم . وكنت اذهب كثيرا الى بيته في الروابي ، لنلعب كرة المضرب ، ونسبح ، ونأخذ حمامات البخار ، حتى أنني نمت هناك في احدى المرات .

وفي الفصل المتواضع الذي خصصته لحياتي الجنسية ، تحدثت عن حفلتنا الجنسية الجماعية الخائبة مع بعض الفتيات . التقيت في منزل شابلن بـ « ايزنشتين » مرات عديدة ، وكان يقوم باعداد رحلة الى المكسيك لتصوير « تحيا المكسيك » .

بعد أن كان فيلم « الدارعة بوتمكين » قد هزّني ، شعرت بالسخط عندما شاهدت في فرنسا فيلماً لايزنشتين يدعى « سوناتا الربيع » ، يظهر فيه بيانو أبيض في حقل قمح تأرجحه الرياح بلطف ، وبضع بجعات تسبح في بركة ماء داخل استوديو ، وتفاهات أخرى . ورحت آنذاك أبحث عن ايزنشتين في مقاهي مونبارناس غاضباً لاصفعه ، لكنني لم أعثر عليه ، فيما قال بعد بأن « سوناتا الربيع » كان عملاً لـ « الكسندروف » ، مساعده . ولم يكن هذا صحيحاً ، اذ انني شاهدت « ايزنشتين » وهو يصور مشهد البجعات في « بيلانكورت » .

الاّ انني في هوليوود ، نسيت غضبي ، وشربنا المرطبات سويةً عند مسبح شابلن ونحن نتحدث في كل شيء ، وفي لا شيء .

في استوديوهات اخرى ، هي « بارامونت » ، تعرفت الى « جوزيف فون ستيرنبرغ » ، الذي دعاني الى طاولته . لكن لم تمض سوى لحظات حتى جاء من يبحث عنه ليخبره بان كل شيء جاهز ، فطلب إليّ أن ارافقه الى التصوير .

كانت أحداث الفيلم الذي يجري تصويره ، تدور في الصين . جموع شرقية يديرها المساعدون ، تجتاز الأقنية ، وتعبر الجسور والأزقة الضيقة . واسترعى انتباهي أن آلات التصوير قد جرى تحديد أماكنها من قبل مهندس الديكور وليس من قبل « ستيرنبرغ » ، الذي كانت مهمته تقتصر على اعطاء أمر البدء بالتصوير والحركة وادارة الممثلين ، ومع ذلك فقد كان مخرجاً شهيراً . المخرجون الآخرون ، بوجه عام ،

كانوا مجرد عبيد بأجر لدى إداريي الشركات. كانوا يقدمون أفضل مالديهم لتنفيذ ما يؤمرون به . ولم تكن لديهم ادنى سلطة تتصل بالفيلم ، حتى انهم لم يكن من حقهم مراقبة المونتاج .

في لحظات فراغي ، والتي لم تكن نادرة ، تصورت ونفذت لائحة طريفة تمثل اطاراً اجمالياً للسينما الأمريكية . وللأسف فقدت ، (وقد اضعت خلال حياتي ، واهديت والقيت بأشياء كثيرة) .

وضعت فوق لوح كبير من الكرتون أو الخشب ، مجموعة الواح صغيرة متحركة ومعلقة بطريقة يمكن ادارتها باليد بسهولة ، على اللوح الاول تقرأ مثلاً : أجواء : جو باريسي ، وسترن ، غانغستر ، حرب ، مداري ، كوميديا ، عصور وسطى .. الخ . في العمود الثاني تقرأ : عصور ، في الثالث : شخصيات رئيسية .. الخ . كانت هناك اربعة او خمسة الواح من هذا القبيل .

كان المبدأ هو التالي : كانت السينما الامريكية في تلك المرحلة ، تدار بقانون آلي واضح . وطبقاً لطريقتي ، فقد كان بالامكان اختيار الجو والمرحلة والشخصيات المطلوبة بما يؤدي بصورة لا تقبل الخطأ الى تحديد فكرة الفيلم .

كان صديقي « اوغارته » الذي يقيم في الطابق العلوي من نفس المنزل، يحفظ هذا « الاطار الاجمالي » ، عن ظهر قلب . ويجب أن اضيف بأن هذا الاطار كان يقدم معلومات ثمية جداً ، لا تقبل النقاش ، حول قدر ومصير شخصيات البطولة النسائية .

ذات ليلة دعاني منتج « ستيرنبرغ » الى عرض خاص لفيلم «الموسوم»، مع مارلين ديتريش ، (يروي حكاية عن الجاسوسية ، مستوحاة بتصرف عن حياة « ماتا هاري ») . وهذا العرض يسبق عرض الافتتاح ، ويجري تنظيمه دون اعلان مسبق ، بغية استقصاء ردود افعال الجمهور .

انتهى العرض في ساعة متاخرة ، وخلال عودتنا وبعد أن ودعنا ستيرنبرغ ، قال لي المنتج :

ـ فيلم جميل ، أليس كذلك ؟

ـ جميل جداً .

ـ وأي مخرج ؟!

ـ لا شك .

ـ والموضوع ، كم هو جديد !

عند هذا الحد ، استأذنته بالإجابة أن ستيرنبرغ ، حسب رأيي ، لا يتميز بأية جدة فيما يتعلق بالمواضيع التي يتناولها . فهو ينصرف فقط الى الميلودرامات الرخيصة والقصص التافهة التي يعيد صياغتها .

ـ قصص تافهة ؟ ـ صرخ المنتج ـ كيف يمكنك أن تقول هذا ، لم يكن هناك أي شيء تافه ، كان كل شيء عكس ذلك تماماً . ألم تلاحظ في نهاية الفيلم كيف اطلقت النار على البطلة ؟ على مارلين ديتريش ؟! تطلق عليها النار ! . . لم يسبق أن جرى شيء كهذا على الاطلاق ! . .

ـ عفواً ، منذ الدقائق الخمس الأولى للفيلم ، كنت اعرف بأنهم سيطلقون عليها النار .

ـ ماذا تقول ؟ انه فيلم لم يعرض مثيل له طوال تاريخ السينما ! . . وأنت تزعم انه مفهوم منذ بدايته . كفى يا رجل . ثم انني أعتقد بأن الجمهور سوف لن تعجبه هذه النهاية على الاطلاق .

وعندما لاحظت أن الغضب أخذ يشتد به ، أردت تهدئته ودعوته لتناول كأس في بيتي .

دخلنا ، وصعدت مباشرة لايقاظ « ابوغلرته » .

ـ انزل ، أنا بحاجة إليك ـ قلت له .

نهض ، بالبيجاما ، يهمهم وعيناه يغلبهما النعاس . نزل ، وطلبت إليه ان يجلس في مواجهة المنتج . ثم قلت له ، بصورة متانية :

ـ اسمعني جيداً ، الامر يتعلق بفيلم .

ـ نعم

ـ الجو « ڤيينا »

ـ نعم

ـ العصر : الحرب العظمى

ـ نعم

ـ يبدا الفيلم ، ونشـاهد موسـا . يبدو بوضوح بانها مومس . تتصـدى لضابط في الشارع . هي ...

وقف « اوغارته » وهو يتثاءب ، وقاطعني باشارة من يده ، وامام عيني المنتج المندهشتين ـ وان كان في أعماقه أكثر هدوءاً ـ صعد لينام وهو يقولا :

ـ يكفي ، في النهاية يطلقون عليها النار .

....

في عيد الميلاد عام ١٩٣٠ ، نظم « تونو » وزوجته مأدبة دعيا إليهـا مجموعة من الاسـبان ، ممثلين وكتابا ، وشابلن وجورجيا هيل . وجاء كل من المدعوين بهدية ثمنها من عشرين الى ثلاثين دولاراً . قمنا بتعليقها على شجرة الميلاد . بدأنا بالشراب ـ وانصب الكحول بوفرة على الرغم من « قانون سيكا » ، والقى ممثل يدعى « ريڤييس » كان معروفاً جداً في تلك الفترة ، بالاسبانية ، بعض ابيات لـ « ماركينا » ، على درجة عالية من الفصاحة في تمجيد الجنود العدامى لـ « Flandes » .

هذه الأبيات اثارت اشمئزازي ، اذ بدت لي على قدر كبير من الدناءة ، مثل كل تبجحات التعصب الوطني . كنت خلال تناول طعام العشاء جالساً بين « اوغارته » وصديق آخر اســمه « پيينا » ، وهو ممثل شاب في الحادية والعشرين . قلت لهما بصوت منخفض :

ــ عندما اتمخط تكون هي اشارتي . انهض وتتبعاني ، ونقوم نحن الثلاثة بتحطيم الشجرة ، أمام استغراب ودهشة المدعوين .

ولسوء الحظ ، فمن الصعب جداً تقطيع شجرة الميلاد ، اذ تسلخت ايدينا دون طائل . حينئذ اخذنا نمسك بالهدايا ونلقي بها على الأرض وندوســـها .

وساد في الغرفة صمت مطبق . كان شابلن ينظر إلينا دون أن يفهم شيئاً . وقالت لي ليونور زوجة تونو :

ــ لويس ، هذه غلاظة حقيقية .

ــ ابداً ــ اجبتها ــ انها أي شيء ما عدا الغلاظة . انه فاصل من الهمجية وقلب النظام .

وانتهت الســهرة في وقت مبكر .

في اليوم التالي ، طالعتني مصادفة رائعة ، اذ قرات في احدى الصحف انه في احدى كنائس برلين ، نهض احد المؤمنين ، خلال ممارسة الشعائر ، وبادر الى تحطيم شجرة الميلاد .

كانت لفاصلنا الانقلابي عاقبة . فقد دعانا شابلن الى بيته ليلة راس السنة ، وكانت هناك شجرة اخرى مع هدايا اخرى . وقبل ان نمضي الى المائدة ، استوقفنا لبرهة ، وقال لي (وقام نيقيينه بالترجمة) :

ــ بما أنك تحب تحطيم الأشجار ، افعل ذلك الآن يا بونويل ، وبهذا لن يكون علينا الاستمرار بالتفكير في هذا الأمر .

وأجبته أنني ليس لدي شيء ضد الأشجار ، إنما انا ، وبكل بساطة، لا أطيق تفاخر المتعصبين وطنياً ، وهذا هو ما اثار غضبي ليلة الميلاد .

كان يقوم بتحقيق « اضوء المدينة » . ذات يوم شاهدت الفيلم خلال المونتاج ، وبدا لي المشهد الذي كان يمسك فيه بالصافرة ، طويلاً بشكل غير معقول ، لكنني لم أجرؤ على أن أقول هذا . وقال لي « نيقيبه » الذي كان يشاطرني الرأي ، ان شابلن قام من ثم بتقصيره .

كان شابلن انساناً غير واثق كثيراً من نفسه ، وكثيراً ما كان يشك ، ويطلب النصيحة . وكان يقوم بتأليف موسيقا أفلامه وهو نائم . كان يضع الى جانب سريره آلة تسجيل شديدة التعقيد ، ويستيقظ نصف استيقاظ وهو يدندن ببعض النغمات ثم يعود الى النوم . وهكذا فعل عندما قام ، وبكل سلامة نية ، بإعادة صياغة موسيقا « بائعة البنفسج » لأحد أفلامه ، وهذا ما ادى الى أن تقام عليه دعوى ، وأن يغرَّم بمبلغ كبير من الدولارات .

شاهد شابلن « كلب اندلسي » عشر مرات على الأقل ، في بيته . في المرة الأولى ، ما كاد العرض يبدأ ، حتى سمعنا صوت جلبة غير عادية ، واتضح أن رئيس خدمه ، الصيني ، الذي كان يقوم بتشغيل آلة العرض، قد انهار مغمى عليه .

بعد ذلك بسنوات ، حكى لي « كارلوس ساورا » أن « جيرالدين شابلن » عندما كانت صغيرة . كان والدها يروي لها مشاهد من « كلب اندلسي » لكي يخيفها .

كان لي أيضاً صديق شاب من تقنيي الصوت، اسمه جاك«غوردون»، وكانت تربطه صداقة وطيدة بـ « غريتا غاربو » ، وكانا يذهبان معا في

نزهات تحت المطر . كان أمريكيا شماليا ولا يخفي عدم محبته للأمريكيين الشماليين ، ولطيفا جدا ، وكثيرا ما كان يتردد الى منزلي لكي يتناول كأسا (كان لدي دائما كل ما يلزم) . في اليوم السابق لعودتي الى أوروبا، في آذار (مارس) ١٩٣١ ، جاء لوداعي ، وتحادثنا قليلا ، ثم ، وفجأة ، بادرني بسؤال غير متوقع ومستغرب ، وقد نسيته الآن ، إلا أنه لم تكن له اية صلة بموضوع حديثنا . وفوجئت كثيرا ، إلا انني أجبته . وبعد برهة قصيرة ، ودعني وانصرف .

في اليوم التالي - يوم سفري - رويت هذه الواقعة لصديق آخر ، فقال لي : « آه ، اجل ، هذا مألوف ، إنه مجرد اختبار ، يحكم فيه على شخصيتك من خلال اجابتك » .

بهذا الاسلوب ، يقوم رجل يعرفني منذ اربعة أشهر ، باخضاعي ، وفي اليوم الأخير ، لاختبار خفي. هذا الرجل الذي كان يقول بانه صديقي، وانه يعتبر نفسه معاديا للأمريكيين .

احد اصدقائي الحقيقيين كان « توماس كيلكباتريك » وهو كاتب سيناريو ومساعد لـ « فرانك ديفيز » ، ولا اعرف ما هي المعجزة التي بسببها كان يتكلم الاسبانية باتقان . كان قد حقق فيلما مشهورا حول رجل قصير جدا . التقاني ذات يوم وقال لي :

ـ « تالبرغ » يريد منك ومن اسبان آخرين ان تذهبوا غدا لمراقبة « ليلي داميتا » ، لكي تقولوا له رايكم فيما اذا كانت تتحدث الاسبانية بلكنة اجنبية .

ـ أولا ـ اجبته ـ أنا متعاقد كفرنسي وليس كاسباني . وثانيا ، بامكانك أن تقول للسيد تالبرغ انني لن اذهب للاصغاء الى المومسات .

في اليوم التالي كنت اقــوم بالوداع والتحضير لعودتي . واعطتني الـ « م. ج. م. » ودون اية ضغينه ، رسالة رائعة ، اعربت لي فيها عن انها ستتذكرني ، ولوقت طويل .

بعت سيارتي لزوجة « نيفييه » ، وكذلك بعت البندقية ، وحملت معي ذكرى رائعة . واليوم ، لدى تذكري لتلك الزيارة ، وروائح الربيع في « لوريل كانيون » والمطعم الايطالي الـذي كنا نشرب فيه النبيذ في فناجين القهوة ، والبوليس الذي اوقفني ذات يوم ليتفقد ما اذا كنت احمل كحولا في سيارتي ، الا انه رافقني حتى بيتي لاني كنت تائها ... عندما اتذكر اصدقائي ، « فرانك ديفيز » و « كيلكيا تريك » وتلك الحياة المختلفة ، الحافلة بالود والبراءة الامريكية ، اشعر بالتأثر ، حتى هذه الساعة .

في تلك الفترة ، كان لدي تطلع واحد : « البولينيز » . في لوس انجلس كنت قد اعددت لرحلتي الى جزر السعادة هذه ، الا انني عدلت عنهـا لسببين : الاول هو انني كنت مغرما بصديقة لـ « اباليس » بطريقة تبلغ حالة من الاعتياد ، والثاني هو ان « اندريه بريتون » كان قد امضى يومين او ثلاثة قبل مغادرتي باريس وهو يكشف لي طالعي (وقد ضاع ايضا)، وذكر لي فيه بانني سوف اموت اما بسبب خطأ في وصفة طبية ، او في بحر بعيد .

لذلك ، فقد الغيت الرحلة ، واخذت القطار الى نيويورك التي عادت الى إبهاري ، وبقيت فيهـا عشرة ايام . ثـم ابحرت الى فرنسـا في الـ « لافاييت » التي كان يسافر على متنها العديد من الممثلين الفرنسـيين العائدين الى اوروبا ، « ومستر انكل » وهو صناعي انكليزي يدير مصنعا للقيمات في المكسيك ، وقد ساعدني كمترجم .

خلال السفر ، اتيحت لقناعاتي السـيريالية الثابتة ، فرصة فضيحة صغيرة . ففي احتفال اقيم في القاعة الكبرى بمناسبة عيد ميلاد القبطان،

قدمت احدى الفرق الموسيقية النشيد الوطني الامريكي ، ونهض الجميع وقوفا الا أنا . بعد النشيد الامريكي عزف المارسليبز ، فقمت بوضع قدمي فوق الطاولة بطريقة ظاهرة جدا . اقترب مني شاب وقال لي بالانكليزية ان هذا السلوك غير لائق ، فاجبته بانه لا شيء يبدو لي فاقدا للياقة كالاناشيد الوطنية الرسمية . تبادلنا بعض الشتائم ، وانسحب الشـاب .

بعد حوالي نصف ساعة ، عاد ، وقدم الي اعتذاره مادا لي يده . لم أقبل الاعتذار ، بل وضربت اليد التي مدها الي ، رويت هذه الحكاية في باريس بكثير مـن التباهي (والذي يبدو لي اليـوم طفوليا) لاصدقائي السرياليين ، الذين اصغوا الي بكثير من السرور .

خلال رحلة العودة هـذه ، قمت بمغامرة عاطفية عجيبـة ، وطبعا أفلاطونية ، مع فتاة صغيرة امريكية ذات ثمانية عشر عاما كانت تقول بانها تجن بي . كانت تسافر وحيدة في نزهة عبر اوروبا ، وبالطبع ، فقد كانت تنتمي لعائلة من اصحاب الملايين ، حيث كانت بانتظارها لدى وصولها « رولز رويس » مع سائقها .

لم تكن تثير اعجابي بشكل كبير ، الا أنها كانت رفيقة سفر ، وكنـا نقوم معا بنزهات كثيرة على ظهر الباخرة . في اليـوم الاول دعتني الى حجرتها وأرتني صورة فتى وسيم ضمن اطار مذهب . « انه خطيبي » ـ قالت لي ـ وسنتزوج حالما أعود » . بعد ثلاثة أيام ، وقبل ان نطأ اليابسة ، لحقت بها مرة اخرى الى حجرتها فشاهدت صورة الخطيب وقد تحولت الى قطع صغيرة .

قالت لي :

ـ هذا بسببك .

فضلت عدم الاجابة على ذلك الاستعراض لعاطفة طائشة ، آنية ، لامريكية نحيفة بصورة مفرطة ، لم أرها فيما بعد على الاطلاق .

لدى وصولي الى باريس ، التقيت بـ « جان » ، خطيبتي . وحيث انني لم اكن املك سنتيما واحدا ، فقد اقرضتني اسرتها قليلا من المال كي استطيع الذهاب الى اسبانيا .

وصلت الى مدريد في نيسان (ابريل) عام ١٩٣١ ، قبل يومين من رحيل الملك ، والاعلان السار للجمهورية الاسبانية .

* * *

اسبانيا و فرنسا

١٩٣١ – ١٩٣٦

استقبل اعلان الجمهورية الاسبانية ، الذي لم تسفك فيه قطرة دم واحدة ، بحماس بالغ . رحل الملك ، .. وكان هذا كل شيء . الا ان الفرح ، الذي بدا شاملا في البداية ، سرعان ما بدأ يتلاشى ، مفسحا المجال للقلق أولا ، ثم للانزعاج . خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب الاهلية ، عشت أولا في باريس ، بشقة في شارل پاسكال ، وكنت اكسب عيشي من العمل في الدوبلاج « پارامونت » . بعد ذلك ، واعتبارا من عام ١٩٣٤ انتقلت الى مدريد .

لم يحصل ان سافرت مرة واحدة بقصد المتعة ، فأنا لا أعرف ذلك الميل الى السياحة الشائع لدى الكثيرين . لا أشعر بأي فضول ازاء البلاد التي لا أعرفها ، والتي لن أعرفها أبدا ، بل ، وعلى العكس ، احب العودة دائما الى الامكنة التي عشت فيها والتي لي فيها ذكريات .

كان « الفيسكونت دي نواي » صهرا لـ « أمير لينيه »(*) ـ عائلة بلجيكية كبيرة ـ . قال لي ، وهو يعرف ان المكان الوحيد الذي كان يجتذبني آنئذ هو جزر بحار الجنوب « البولنييز » وان لدي نزوعا الى المعرفة ، انه ، بمبادرة من قريبه ، الحاكم العام للكونغو البلجيكي ، يجري الاعداد لايفاد بعثة ضخمة ، تنتقل عابرة كامل افريقيا السوداء ، من داكار

* «Ligne» .

حتى جيبوتي ، تضم علماء في طبائع الانسـان ، وجغرافيين وعلماء حيوان، وتبلغ بمجموعها حوالي مائتين او ثلاثمائة شخص . وسالني فيما اذا كنت ارغب بتحقيق الفيلم الوثائقي للبعثة ، وفي حال الايجاب ، عليّ ان اراعي بعض الانظمة العسكرية الخاصة ، وامتنع عن التدخين خـلال تحركات البعثة . اما ما عدا ذلك فـأكون حرا في تصوير ما أريد .

رفضت . اذ لم تكن افريقيا تجتذبني ، وتحدثت في الامر مع «ميشيل ليريس » ، الذي قام بالمهمة بدلا عني .

شاركت في نشاطات المجموعة السيريالية حتى عام ١٩٣٢ ، وابتعد « اراغون » و « بيير اونيك » و « جورج سادول » و « ماكسيم الكساندر» عن الحركة لينضموا الى الحزب الشيوعي . وحذا حذوهم بعد فتـرة قصيرة كل من « ايلوار » و « تبسارا » .

على الرغم من انني كنت متعاطفا جدا مع الحزب ، وعضوا في جمعية الكتاب والفنانين الثوريين ــ قسم السينما ، فانني لم ارتبط به علـى الاطلاق . لم تكن تعجبني الاجتماعات الطويلة جدا للجمعية ، والتي كنت احضرها احيانا مع « هيرناندو ڤينييس » . كنت نافد الصبر بطبعي ، ولم اكن قادرا على تحمل النظام اليومي ، والاعتبارات التي لا نهاية لها ، وكذلك طبيعة العمل ضمن اسلوب الخلايا .

كنت اشبه في هذا ، « اندريه بريتون » ، الذي كان ، مثل جميـع السـرياليين ، مغازلا للحزب الشيوعي ، الذي كان يعتبر بنظرنا في تلـك الايام بمثابة امكانية لثورة . الا انهم طلبوا اليه ، في اول اجتماع شارك فيه ، اعداد تقرير دقيـق حول صناعـة الفحم في ايطاليا ، وكان يقول بحرارة : « لو انهم قد طلبوا مني تقارير حول شيء بامكاني معرفته ، نعم . لكن ليس حول الفحم ! » .

في عام ١٩٣٢ حضرت اجتماعا لليد العاملة الاجنبية : عقد في « مونتروي ــ سوربوا » بضواحي باريس ، بحضور « كاسانياس » ، احد الذين يقال بانهم قد اغتالوا « داتو » ، رئيس الحكومة ، كان لاجئا في روسيا ، حيث عيّن عقيدا في الجيش الاحمر ، وقد جاء الى فرنسا متخفيا .

طال الاجتماع كثيرا ، واحسست بكثير من الملل ، فنهضت لانصرف ، واذ بأحد الحضور يقول لي :

ــ اذا ذهبت ، واعتقلوا « كاسانياس » فستكون انت من اخبر عنه، فعدت وجلست .

وقد قتل « كاسانياس » في حادث دراجة نارية قرب برشلونة قبل أن تنشب الحرب الاسبانية .

ساعد في ابتعادي عن السرياليين ، بالاضافة الى الاختلافات السياسية ، ما بدأت الاحظه لديهم من ميل واضح الى ترف الــ « سنوبيزم » . فقد دهشت كثيرا عندما شاهدت ، للمرة الاولى ، صور « بريتون » و « ايلوار » في واجهة احدى مكتبات بوليفار « راسبيل » . وعندما حدثتهما في ذلك قالا لي بأن لهما كل الحق في الترويج لاعمالهما .

لم يثر حماسي صدور مجلة « مينوتور » ، هذا الشيء البورجوازي الفاخر . واخذت ، شيئا فشيئا اتخلى عن المشاركة في الاجتماعات . ثم خرجت من المجموعة ، بنفس البساطة التي كنت قد دخلت بها ، ومع ذلك ، فعلى الصعيد الشخصي ، حافظت حتى النهاية على علاقات اخوية مع كل اصدقائي القدامى . انما ابتعدت عن النزاعات والشقاقات والآراء المغرضة . ولم يبق منا اليوم سوى قلة على قيد الحياة : « اراغون » ، و « دالي » و « اندريه ماسون » و « تيريون » و « جوان ميرو » وانا . الا انني احتفظ بذكرى طيبة ككل اولئك الذين رحلوا .

في عام ١٩٢٢ انشغلت ، لايام عديدة ، في مشروع فيلم ، كان سيجري تحقيقه في الاتحاد السوفييتي ـ وكان انتاجا سوفييتيا ـ هو « كهوف الفاتيكان » لاندريه جيد . كان المكلفان بتنظيم الانتاج هما « اراغون » و « بول فيلان ـ كوتوريه » (الذي اكن له تقديرا من كل اعماقي ، فهو انسان رائع . كان يأتي لزيارتي في شارع باسكال ، وكان اثنان من رجال الشرطة المدنية يتابعانه باستمرار لمراقبته وخلال وجوده عندي كان يبقيان في الشارع بانتظاره) . استقبلني « اندريه جيد » وقال لي بأنه يشعر بكثير من السعادة لكون الحكومة السوفييتية قد اختارت عمله ، الا انه شخصيا ـ كما قال ـ لا يعرف شيئا عن السينما . وتحدثنا حول الاعداد خلال ثلاثة أيام ـ لكن ليس لاكثر من ساعة أو ساعتين يوميا ـ ، الى أن جاءني « فيلان ـ كورتييه » ليقول لي : « لقد انتهى الامر ، ولن يصنع الفيلم » .

وداعا « اندريه جيد » .

وستكون اسبانيا هي المكان الذي سأحقق فيه ثالث افلامي .

« لاس اورديس » أو « ارض بلا خبز »

في منطقة « ايكستر يماردورا » ما بين « كاثيريس » و « سالامنكا » ، كانت هناك بقعة جبلية موحشة ، ليس فيها سوى الحجارة والماعز وبعض الاعشاب البرية ، هي « لاس اورديس » ، وهي اراض مرتفعة يقطنها منذ زمن بعيد اللصوص واليهود الذين فروا من محاكم التفتيش .

قرات دراسة وافية وضعها عن تلك المنطقة « ليجندر » مدير المعهد الفرنسي في مدريد ، وقد اثارت اهتمامي بشكل غير عادي . وذات يوم ، كنت اتحدث في سرغوسة عن امكانية تحقيق فيلم وثائقي حول « لاس أورديس » مع صديقي « سانتشيث فينتورا » و « رامون آثين » أحد الفوضويين ، الذي قال لي على الفور :

ـ اسمع ، اذا ما ربحت الجائزة الكبرى في اليانصيب ، فسأدفع لك لتمويل انتاج هذا الفيلم .

بعد شهرين ، ربح في اليانصيب ، ليس الجائزة الكبرى ، الا انه كان مبلغا لابأس به ، ووفى بوعده .

كان « رامون آثين » يعطي دروسا مسائية في الرسم للعمال. وعندما نشبت الحرب عام ١٩٣٦ ، قامت مجموعة من اليمين المتطرف بالبحث عنه في بيته بـ « ويسكا » ، واستطاع الهرب بكثير من البراعة ، لكن الفاشيين أخذوا زوجته وقالوا لها أنهم سيقومون باعدامها ان لم يحضر « آثين » . وحضر في اليوم التالي ، فأعدموا الاثنين .

طلبت الى « بيير اونيك » ان يأتي من باريس لكي يعمل معي كمساعد، كما طلب « إيلي لوتار » للتصوير ، وأعارنا « إيف اليغريه » آلة تصوير وبما انني لم املك اكثر من عشرين الف بيزيتا ، وهو مبلغ متواضع جدا ، فقد حددت لنفسي مدة شهر واحد لتحقيق الفيلم . ومن اصل هذا المبلغ، دفعت أربعة آلاف بيزتيا ثمنا لسيارة « فيات » قديمة ، كان لابد لنا منها ، وكنت اقوم باصلاحها بنفسي عند اللزوم (كنت ميكانيكيا لابأس به) .

كنا ، خلال مرحلة التصوير ، ننطلق يوميا قبل الفجر ، وبعد ساعتين في السيارة ، كان علينا ان نتابع سيرا على الاقدام ، محملين بالمعدات .

وبعد انتهاء التصوير ، وقد نفد ما كان معي من مال ، قمت بعمل المونتاج بنفسي في مدريد ، على طاولة مطبخ . لم تكن هناك « موفيولا » ، فأخذت أراقب الصور بعدسة مكبرة ، وأقوم بلصقها بطريقة بدائية . وبالتأكيد ، خسرت صورا هامة ، لكوني لم أكن قادرا على مشاهدتها بصورة جيدة .

أجريت العرض الاول في « صالة الصحافة » . كان الفيلم صامتا ، وكنت أقوم بالتعليق عليه بواسطة ميكروفون . وقال لي « آثين » ــ الذي كان يريد استعادة امواله ــ : « لابد من استثمار الفيلم » . وقررنا عرضه على « الدكتور مارانيون » الـذي كان قـد سنمي رئيسا لمبرة « لاس أورديس » .

كانت تيارات قوية من اليمين واليمين المتطرف قد اخـذت تقلق الجمهورية الاسبانية الفتية ، واخذت هذه التيارات تزداد نشاطا وعنفا يوما بعد يوم ، وقام اعضاء في « الكتائب » التي اسسها « بريموري ريڤيرا» باطلاق النار على باعة « عالم العمال » . وكان من السهل ادراك ان مرحلة دامية قد اصبحت على الابواب .

كنا نظن ان « مارانيون » ، بوجاهته ومنصبه ، سيساعدنا في الحصول على الاذن باستثمار الفيلم ، والذي كان قد منعته الرقابة . الا ان موقفه كان سلبيا :

ــ « لماذا تقدمون دائمـا الجانب البشـع ؟ لقد شاهدت في « لاس اورديس » عربات محملة بالقمح ــ غير صحيح ، فالعربات لم تكن تمر الا في الجانب الاسـفل عبر طريـق غرانادييا ، وكانت نادرة ــ ، لمـاذا لا تستعرضون الرقصات الفولكلورية لـ « لا البركا » التي هي اجمـل رقصات العالم ؟ » .

كانت « لا البركا » قرية تنتمي الى العصور الوسطى كالكثير غيرها في اسبانيا ، ولم تكن جزءا من منطقة « لاس اورديس » .

أجبت « مارانيون » بان كل بلد لديه الرقصات الاجمل في العالم ، وانه انما اظهر شكلا من اشكال التعصب الوطني الرخيص والبغيض . ثم انصرفت دون ان أضيف كلمة واحدة ، وبقي الفيلم ممنوعا .

بعد سنتين ، اعطتني سفارة اسبانيا في باريس ، المال اللازم . لاجراء العمليات الصوتية للفيلم ، والتي جرى تنفيذها في استوديوهات « بيير براونبرغر » ، الذي اشترى الفيلم . ومن ثم ، شيئا فشيئا ، استطعت ان أجعله ، بالرضى او بالقوة ، يدفع لي قيمته . (بلغ بي الغضب ذات يوم ان هددته بتحطيم آلته الكاتبة بهراوة اشتريتها خصيصا لذلك من مكان قريب منه) .

واخيرا ، استطعت اعادة المال الذي دفع لصالح الفيلم الى ابنتي « رامون اثين » بعد موته .

خلال الحرب الاهلية ، عندما دخلت القوات الجمهورية قرية «كينتو» بمساعدة فرقة « دوروتي » الفوضوية ، عثر صديقي « مانتيكون » حاكم اراغون على اضبارة باسمي في مصنفات الحرس المدني ، جاء فيها بانني فاسد ، مدمن مخدرات ، حقير ، وقبل كل شيء مؤلف « لاس اورديس » الفيلم الفظيع والمجرم بحق الوطن . لو كانوا قد عثروا عليّ لسلموني في الحال الى مسؤولي الكتائب ، ولكنت قد نلت ما فيه النصيب .

ذات مرة ، قدمت « لاس اورديس » في « سان دينيس » بمبادرة من « جاك دوريو » الذي كان عمدة شيوعيا للمنطقة ، الى جمهورية من العمال كان بين الحضور اربعة أو خمسة من اللاجئين من منطقة « لاس اورديس » فيما بعد . وخلال احدى زياراتي لتلك الجبال القاحلة التقيت بواحد منهم الذي عرفني وجاء يسلم علي . كان هؤلاء الرجال يهاجرون ، لكن سرعان ما كانوا يعودون الى بلدهم . كانت قوة ما تجذبهم الى ذلك الجحيم الذي كانوا ينتمون اليـه .

كان يقوم هناك دير « لاس باتويكاس » ، احد الفراديس النادرة التي عرفتها على سطح الارض ، وهو عبارة عن بقايا كنيسة اثرية . كانت تنمو في بساتين افضل بقول العالم (ولا ابالغ) ، كما كانت فيه معصرة زيت ومطحنة قمح ، وحتى نبع للمياه المعدنية . ولم يكن يعيش فيه خلال ايام

التصوير سوى راهب عجوز وخادمته . وفي اقبيته كانت هنـــاك بعـض الرسـوم الكهفية وعنزة وخلية نحل .

في عام ١٩٣٦ كنت على وشك شرائه بالكامل بمائة وخمسين الف بيزتيا في صفقـة رابحـة . كنت قد توصلت الى اتفاق مع المالك ، المدعو « دون خوسيه » الذي كان يعيش في سالامانكا . وكان في صدد التفاوض مـع مجموعة من راهبات القلب المقدس ، الا انهـن كـن يوحين عليه الدفع تقسيطا ، بينما كنت سأدفع لـه نقدا ، ولهذا فقد اعطاني الافضلية .

ذهبنا لتوقيع الاتفاق ، وكان قد بقي امامنا ثلاثة أو أربعة ايام لانهاء كل ما يتعلق بهذه المسألة ، عندما نشبت الحرب الأهلية ، وقضي على كل شـــيء .

لو كنت قد اشتريت « لاس باتويكاس » ، وقامت الحرب بنهبي في سالامانكا ، التي كانت اولى المدن التي سقطت بأيدي الفاشيين ، لكانوا اعدموني في الحال .

عدت الى دير « لاس باتويكاس » خلال الستينات مع « فيرناندو راي » . كان فرانكو قد خص ذلك البلد المفقود بالعناية ، ففتحت الطرق وانشئت المدارس . وقرأنا فوق باب الدير الذي يحتله حاليا رهبـان الكرمليت : « ايها المسافر ، اذا كانت لديك ازمات ضمير ، اقـرع ، وسيفتح لك . يمنع دخول النساء » .

قرع « فيرناندو » الباب ، وجاءنا الجواب عن طريق « الانترفون » ثم فتح الباب . وتقدم منا احد « الاختصـاصيين » للمبادرة بالاهتمام بأزماتنا . وقد بدت لنا النصيحة التي قدمها الينا معقولة ، وهي التـي وصفتها على لسان أحد الرهبان في « شبح الحرية » : « اذا تعبد كـل الناس يوميا لـ « سان خوسيه » فلاشك أن الأمور ستكون افضل كثيرا .

منتـج في مدريـد

تزوجت اوائل عام ١٩٣٤ في بلديـة القاطـع العشرين من باريس ، ومنعت عائلة زوجتي من الحضور الى الزفاف ، ليس لأن لدي شـيئا معينا ضد تلك العائلة ، فقط كانت هذه العائلة تبدو لي كريهة ، بصورة عامة . كان « ابرناندو ولولو فينييس » شاهدي الزواج الى جانب شخص مجهول صادفناه في الشارع . بعد الغداء ، في الـ « كوشون دوليه » قريبا من الـ « اوديون » تركت زوجتي ، وذهبت لوداع « اراغون » و « سادول » ثم اخذت القطار الى مدريد .

في باريس ، وبينما كنت اعمل في دوبلاج أفلام « باراموتت » ، مـع صديقي « كلوديو دي لاتوريه » تحت ادارة زوج « مارلين دتيريش » ، كنت قد بدأت جديا بدراسة الانكليزية . تركت « بلراموتت » ووافقت على العمل كمشرف دوبلاج لأفلام « الاخوة وارنر » في مدريد . كان عملا مربحا ودخله جيدا ، واستمر ثمانية او عشرة اشهر . لكن ماذا عـن مشروع لفيلم آخر ؟ .. لم يكن لدي اي مخطط . كما لم تكن تغرينـي فكرة أن احقق بنفسي افلاما تجارية ، انما لم يكن لدي مانع في أن أكلف آخرين بتحقيقها .

عندما بدأت التفكير بالعمل كمنتج ، التقيت بـ « ريكاردو اورغويني» منتج الأفلام الجماهيرية ، وعرضت عليه المشاركة . في البداية استغرقت في الضحك ، الا انه ، وبعد ان قلت له بأن بامكاني تدبير مائة وخمسين ألف بيزيتا ، هي التي اقرضتني اياها امي ، (نصف ميزانية الفيلم) توقـف عن الضحك ، ووافق ، لم اضع سوى شرطا واحدا ، هو ان لا يظهر اسـمي بين العاملين في الفيلم .

اقترحت عليه ، لكي نباشر العمل ، مادة معدة عـن عمـل للمؤلف المدريدي « ارنتشيس » ، بعنوان « دوو كينتين المنكود » . وحقق الفيلم نجاحا تجاريا هائلا ، واشتريت بالارباح قطعة ارض مساحتها ألفا متر مربع في مدريد ، وقد بعتها في الستينات .

خلاصة العمل ــ والفيلم ، هي التالية : « رجل متعجرف ، يتنفس ويخاف من كل شيء . مستاء لكونه ابا لطفلة . يتركها الى جوار منــزل صغير لأحد عمال الطرق . بعد عشرين سنة ، يشرع في البحث عنها ، لكنه يفشل في العثور عليها .

أحد المشاهد التي تبدو لي جيدة ، هو مشهد المقهى ، حيث كان « دون كينتين » جالسا مع صديقين ، والى طاولة اخرى كانت تجلــس ابنته ــ التي لا يعرفها ــ وزوجها . « دون كينتين » يأكل حبة زيتون ، ويقذف بالنواة فتصيب عين الفتاة . ينهض الزوجان ويغادران دون ان يقولا كلمة واحدة . ويبادر صديقاه الى تهنئته على جرأته . وفجــاة . يعود الزوج ، بمفرده ، ويجبر « دون كينتين » على ابتلاع نواة الزيتونة.

فيما بعد ، يقوم « دون كينتين » بالبحث عن الشا ب لكي يقتله . يتعرف على عنوانه ، ويذهب الى بيته ، حيث يلتقي بابنته ، التي مايزال لايعرفها طبعا ، ويبدأ هنا مشهد من الميلودراما العنيفة بين اب وابنته . خلال تصوير هذا المشهد قلت لـ « آنا ماريا كوستوديو » التــي قامت بالدور الرئيسي (كنت أتدخل احيانا بوقاحة في الاخراج) : « عليك ان تفعلي هذا بشكل (آخر) أكثر ، بشكل عاطفي أكثــر اثــارة للضحك فأجابتني « لا يمكن العمل معك أبدا بصورة جادة » .

الفيلم الثاني الذي انتجته ، والذي حقق ايضا ارباحا مادية كبيرة ، كالاول ، كان ميلودراما كريهة بعنوان « ابنة خوان سيمون » ، كان البطل هو « انخيليو » مغني الفلامنكو الاكثر شعبية في اسبانيا ، وكانت الفكرة مستوحاة من احدى الاغنيات .

في هذا الفيلم ، وخلال مشهد طويل جدا في أحد الملاهي ، خطت راقصة الفلامنكو الكبيرة ، الغجرية ، « كارمن آمايا » ، التي كانت ماتزال في عز الصبا ، اولى خطواتها في مجال السينما . بعــد ذلك بسنوات ، أهديته نسخة من هذا المقطع الى سينماتيك المكسيك .

انتاجي الثالث « من يريدني ؟ » ، حكاية فتاة صغيرة بائسة جدا . كان فشلي التجاري الوحيد .

ذات ليلة أقام « خيمنيث كاباثيرو » مدير « غاثيتا ليتيراريا »مادبة لـ « بائة انكلان » حضرها حوالي ثلاثين شخصا ، من بينهم « ألبرتي » و « هينوخوسا » . في الختام ، طلب الينا ان نقول بعض الكلمات . نهضت انا اولا وقلت :

ـ « الليلة الماضية ، وانا نائم ، احسست ببعض الدغدغات ، أضأت النور ، فشاهدت « بائة انكلانات .. » صغيرة تغطي كل جسمي .

« البرتي » و « هينوخوسا » ، قالا ايضا أشياء لطيفة كهذه اصغى الحاضرون اليها بكل صمت ، ودون اية اعتراضات .

في اليوم التالي ، التقيت مصادفة بـ « فايه انكلان » في شارع الكالا (القلعة) ، فرفع قبعته السوداء الكبيرة لتحيتي وهو مستمر في سيره بكل هدوء ، وكأن شيئا لم يكن .

كان لي في مدريد مكتب في شارع غران بيا » وشقة ذات ست أو سبع غرف ؛ اعيش فيها مع جان ، زوجتي ـ التي جعلتها تحضر من باريس ، وابننا خوان لويس ، الذي كان مايزال صغيرا جدا .

كانت الجمهورية الاسبانية قد وضعت دستورا من اكثر الدساتير تحررا في العالم ، وتولى اليمين السلطة بصورة شرعية . بعد ذلك ، في عام ١٩٣٦ ، ادت انتخابات جديدة الى تقدم اليسار والجبهة الشعبية ورجال من أمثال « بريبتو » و « لارغو كاباييرو » و « آثانيا » .

كان على هذا الاخير ، الذي سمي رئيسا للوزارة ، ان يعمل في مواجهة اضطراب عمالي نقابي أخذ يتزايد عنفا . بعد القمع الشهير في «استورياس» الذي قاده اليمين عام ١٩٣٤ واستخدم فيه قسما من القوات المسلحة الاسبانية مع المدافع والطائرات لاخماد انتفاضة شعبية ، أعطى آثانيانفسه الامر،ذات يوم،على الرغم من انه رجل يساري،لاطلاق النار على الشعب .

في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٦ ؛ في مكان يدعى «البيوت القديمة» في مقاطعة قادس ، اقام بعض العمال المتاريس . وقد هوجمت هذه المتاريس بالقنابل من قبل « حرس الهجوم » وقتل العديد من المتمردين ـ تسعة عشر اني لم اكن مخطئا ـ خلال هذا الهجوم . وقد اطلق منظروا اليمين على « آثانيا » لقب « سفاح البيوت القديمة » .

في هذا الجو من الاضطرابات المستمرة ، والمترافقة دائما بالاشتباكات العنيفة ، والاعتداءات الغاضبة من قبل هذه المجموعة أو تلك ، وإحراق الكنائس (انقلب الشعب ، بصورة غريزية ضد عدوه المفرق في القدم) ، اقترحت على « جان غريميون » أن يأتي الى مدريد لتصوير « كوميديا عسكرية » بعنوان « الخفير اليقظ » . كنت قد تعرفت بـ « غريميون » في باريس ، وكان مغرما باسبانيا ، التي سبق ان صور فيها احد افلامه . ووافق على العرض . بالمناسبة فقد قمت انا باخراج بعض المشاهد بدلا منه ، كما كان يكلف « أو غال » بتصوير مشاهد أخرى في الايام التي لم يكن لديه مزاج للاستيقاظ .

كانت الأمور تتدهور بصورة سريعة ، خلال فترة التصوير .فيالاشهر التي سبقت الحرب كان الجو غير صالح حتى للتنفس . احدى الكنائس التي كنا ننوي ان نصور فيها بعض المشاهد أحرقت من قبل الجماهير ، وكان علينا ان نبحث عن اخرى . عندما كنا نقوم بالمونتاج ، كان اطلاق الرصاص يسمع من كل جانب ، وبدأ عرض الفيلم في خضم الحرب الأهلية ويكثر من النجاح . هذا النجاح الذي تأكد في دول امريكا اللاتينية .

« أورغوتي » ، الذيكان سعيدا بعملنا المشترك،اقترح عليمشاركة مثيرة : نقوم معا بعمل ثمانية عشر فيلما . وبدأت التفكير باعداد أعمال « غالدوس » ، لكنها كانت مشاريع ضائعة ، مثل الكثير غيرها ، اذ ان الأحداث التي عملت على اضطراب اوروبا خلال سنوات عديدة ، ابعدتني عن السينما .

* * *

الغرام، والغراميات

عام ١٩٢٠ وقع في مدريد حادث انتحار غريب، أثر بي لفترة طويلة، وكنت اعيش آنذاك في المدينة الجامعية.

في حي يدعى «آمانييل»، اقدم طالب وخطيبته على قتل نفسيهما في حديقة أحد المطاعم. كان معروفا عنهما انهما يعيشان قصة حب كبيرة، وكانت تربط ما بين عائلتيهما صلات صداقة متينة. عندما جرى تشريح جثة الفتاة تبين انها كانت عذراء.

لم تكن، في الظاهر، اية مشكلة أو عقبة أمام اتحاد هذين الشابين «عشاق آمانييل»، وكانا يعدّان لزواجهما. لماذا اذن كان هذا الانتحار المزدوج؟ لم يكن هناك اي ضوء يكشف حقيقة هذا السر. لكن، لعل الحب الجارف، الذي يبلغ ارفع مستوى ممكن من السمو، هو أمر يتناقض مع الحياة.. هو اكبر منها، واكبر مما يمكنها أن تتحمله. ووحده الموت هو الذي يستطيع الاحتفاء به.

على امتداد هذا الكتاب، اتحدث هنا وهناك، عن الحب والغراميات، هذا الامر الذي يعتبر جزءاً لا ينفصل عن الوجود نفسه. في طفولتي عرفت مشاعر الحب الاكثر حدة، والبعيدة عن الرغبات الجنسية، تجاه طفلات من عمري، وايضا تجاه اطفال. «روحي الطفلة والطفل»، كما كان يقول لوركا. كان الامر عبارة عن حب افلاطوني في حالة صافية. كنت أشعر انني احب مثلما يمكن لراهب متعبد ان يحب العذراء مريم. كان مجرد التفكير في احتمال أن ألمس المنطقة الجنسية لفتاة، أو ثدييها، او ان يلامس لسانها لساني، أمراً يسبب لي احساساً بالنفور.

استمرت هذه الغراميات الرومانسية حتى أولى تجاربي الجنسية ـ التي جرت بصورة طبيعية جداً في ماخور بسرغوسة ـ لتفسح المجال أمام الرغبات الجنسية المعتادة ، لكن دون أن تختفي تماماً . فكثيراً ما مررت بعلاقات افلاطونية مع نساء كنت اشعر انني احبهن . اذ ان هذه المشاعر النابعة من القلب قد تختلط احياناً مع الافكار الجنسية، لكن ليس دائماً .

من ناحية اخرى ، استطيع القول انني منذ الرابعة عشرة وحتى هذه الايام الاخيرة ، لم تتخل عني الرغبة الجنسية اطلاقاً . هذه الرغبة اليومية الجامحة ، المتطلبة ، حتى اكثر من الجوع ، والعصية على الاشباع .. قلما كانت لدي لحظة راحة ، قلما احسست بلحظة كهذه . وعلى سبيل المثال ، ففي مقصورة قطار ، عندما كان يحيط بي عدد لا يحصى من الصور الجنسية ، كان يستحيل علي ان أبعد هذه الرغبة او ان اسيطر عليها او انساها . لم اكن استطيع الا الاذعان لها . من ثم .. كانت تعود من جديد .. وحتى بقوة اكبر ..

في شبابنا ، لم نكن نحب الشاذين جنسياً . وكنت قد تحدثت عن ردة فعلي عندما بلغتني الاخبار عن الشكوك التي حامت حول فيديريكو . وساضيف بانني وصلت الى درجة ان العب دور عميل محرض في احدى مباول مدريد . كان أصدقائي ينتظرونني خارجاً ، وادخل انا لمباشرة دوري كـ « طعم » . ذات مساء ، اقترب مني رجل ، ومال نحوي . ولما خرج هذا البائس من المبولة انهلنا عليه جميعاً بالضرب . وهي مسألة تبدو لي الآن غير مقبولة على الاطلاق .

في تلك الفترة ، كان الشذوذ الجنسي في اسبانيا ، شيئاً غامضاً وسرياً . لم يكن في مدريد آنذاك اكثر من ثلاثة او اربعة شاذين بصورة علنية وصريحة . واحد منهم كان ارستوقراطياً ، مركيزاً ، وكان يكبرني ، على ما يبدو ، بنحو خمسة عشر عاماً . ذات يوم التقيت به في مؤخرة احدى حافلات الترام ، وقلت لصديقي الذي كان الى جانبي انني سأربح خمساً

وعشرين بيزيتا . اقتربت من الماركيز ، ونظرت اليه بحنان ، ثم شرعنا بالمحادثة ، فعمل على ترتيب موعد معي لليوم التالي ، في أحد المقاهي . اسعفتني القريحة بأن أقول له انني شاب ، والمعبرات المدرسية مكلفة ، فاعطاني خمسا وعشرين بيزيتا . وبالطبع لم اذهب الى الموعد . بعد اسبوع ، وفي نفس الترام،التقيت بهذا المركيز الذي بادرني باشارة تفصح عن معرفته الي ، الا انني اجبته بحركة فظة من ذراعي ، وكانت تلك آخر مرة اراه فيها .

لاسباب عديدة ، اولها خجلي دون شك ، كانت معظم النساء اللواتي اعجب بهن ، يبقين بعيدات المنال بالنسبة الي ، وكنت أنا ايضاً ، دون شك ، لا اثير اعجابهن . بالمقابل ، كان يحصل أن أجد نفسي ملاحقاً من قبل بعض النساء اللواتي لم اكن اشعر بالانجذاب تجاههن . وهذه الحالة الثانية تبدو لي اكثر تعاسة حتى من الاولى . انني افضل أن أُحِبّ على أن اكون محبوباً .

ساروي فقط مغامرة واحدة ، عشتها في مدريد عام ١٩٣٥ ، وكنت أمارس العمل كمنتج سينمائي . لطالما عايشت ذلك الاحساس بالنفور في الجو السينمائي ازاء المنتجين او المخرجين الذين يستغلون مواقعهم أو سلطتهم كي يقيموا علاقات مع الفتيات ــ وهن كثيرات ــ اللواتي يتطلعن الى أن يصبحن ممثلات ، وقد حصل هذا معي لمرة واحدة ، الا انه لم يستمر طويلا .

تعرفت في مدريد على فتاة جميلة تعمل في أحد الاستوديوهات لا تتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وتعلقت بها . كنا ندعوها « بيبيتا » ، وكانت تبدو بريئة جداً ، وتعيش مع أمها في شقة صغيرة .

بدأنا الخروج معاً ، والذهاب في نزهات الى الجبال ، كما ترافقنا مرات للرقص في « لابومبّيا » بالقرب من الـ « مانثا ناريس »(*) وكانت علاقة

(*) اسم النهر الذي يمر عبر مدينة مدريد (م) .

عفيفة بصورة كاملة . كان لي من العمر آنذاك ضعف ما لـ « بيبتيا » ، ومع انني كنت مغرماً بها كثيراً (أو بالاحرى بسبب هذا الحب) فقد كنت احترمها . كنت امسك يدها ، أدنيها مني ، واقبلها من خدها . وعلى الرغم من وجود رغبة حقيقية فقد استمرت علاقاتنا عذرية خالصة لفترة تقارب الشهرين . كان هذا ذات صيف .

في اليوم السابق ، ليوم كنا قد تواعدنا فيه نحن الاثنين للذهاب في نزهة خارج مدريد ، جاء الى منزلي ، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ، أحد معارفي ممن يعملون في السينما . كان أقصر مني ، ودون أية مزايا استثنائية في مظهره الخارجي ، وكان معروفاً عنه ميله الى عمليات الإغواء .

تحادثنا لبرهة في أمور غير ذات اهمية ، ثم قال لي :

ــ ستذهب غداً الى الجبال مع « بيبتيا » ؟

ــ كيف عرفت ذلك ؟ سألته مستغرباً .

ــ كنا مستلقين سوية هذا الصباح ، وقالت لي ذلك .

ــ هذا الصباح ؟

ــ اجل ، في بيتها . تركتها في التاسعة . وقالت لي : « غداً لن استطيع أن أراك ، لانني ذاهبة في نزهة مع لويس » .

لم استطع اخفاء دهشتي .. كان واضحاً أن الرجل جاء الي فقط ليقول لي هذا . ولم يكن بامكاني تصديقه . قلت له :

ــ لكن هذا غير ممكن ! انها تعيش مع امها !

ــ صحيح ، لكن أمها تنام في الغرفة المجاورة .

مرات عديدة كنت قد شاهدت فيها هذا الرجل يتحدث في الاستوديو مع « بيبتيا » ، لكنني لم اكن أولي المسالة اية اهمية على الاطلاق .. أحسست وكأنني قد تحولت الى قطعة من الثلج .

ــ وانا الذي كنت اظنها بتلك البراءة ! ــ صرخت .

ـ نعم ، اعرف ذلك . ـ اجاب .

قال ذلك ، وانصرف .

في ذلك اليوم ، في الساعة الرابعة ، جاءت « بيبيتيا » لزيارتي ، ودون أن أحدثها عن زيارة عشيقها ، مداريا احاسيسي ، قلت لها :

ـ « بيبتيا » ، أريد ان اقترح عليك أمراً . انك تعجبينني جداً ، واريد أن تكوني عشيقتي . ساعطيك ألفي بيزيتا في الشهر ، وتستمرين في المعيشة مع أمك ، لكنك تمارسين الحب معي ، موافقة ؟

بدا عليها الاستغراب . واجابتني بكلمات قليلة ووافقت . وتابعت بأن طلبت اليها أن تتعرى ، وساعدتها في أن تفعل ذلك ، واخذتها عارية بين ذراعي . الا أن التوتر والانفعال شلا حركتي .

بعد نصف ساعة ، اقترحت عليها ان نخرج للرقص . ذهبنا في سيارتي ، لكن ، بدلا من أن أتوجه الى « لابومبيا » ، خرجت من مدريد ، وعلى مسافة كيلو مترين من « بويرتا دي ييرو »(*) أوقفت السيارة وطلبت من بيبتيا أن تنزل ، وقلت لها :

ـ بيبتيا » اعرف انك تنامين مع رجال آخرين . لا تقولي انك لا تفعلين ذلك . لهذا سنفترق ، وستبقين هنا .

استدرت وعدت وحيداً الى مدريد ، تاركاً « بيبتيا » تعود سيراً على الاقدام . وانتهت علاقتنا في ذلك اليوم . شاهدتها من ثم مرات عديدة في الاستوديو الا انني لم أكن اتحدث معها بأكثر من مجرد التعليمات المهنية .

ولكي أكون صادقاً ، اقول بانني ندمت على هذا التصرف ، وما زلت آسف لاهتمامي بها في ذلك الحين .

(*) اسم حي في احد اطراف مدريد (م) .

كان الحب ، في فترة شبابنا ، يبدو لنا احساساً لا حدود لطاقاته ، قادرا على تبديل حياة بكاملها . والرغبة الجنسية التي لم تكن تنفصل عنه كانت بمثابة الروح والحافز والمشاركة ، للارتفاع بنا فوق مجرد الماديات ، لنصبح قادرين على تحقيق الامور العظيمة .

احد الاستفتاءات السيريالية ، الاكثر شهرة ، كان يبدأ بهذا السؤال : « اي امل ترجوه من الحب ؟ » وقد اجبت انا : « ان احببت فكل الامل، وان لم احب ، فلا شيء » . كان الحب يبدو لنا امراً لا غنى عنه من اجل الحياة ، من اجل اي فعل ، من اجل اي تفكير ، من اجل اية رغبة في البحث .

اليوم ، اذا كنت سأتبنى مايقال لي : يحدث مع الحب مايحدث مع الايمان بالله . انه يتجه نحو التلاشي والاندثار ، على الاقل في اوساط معينة . أصبح مجرد ظاهرة تاريخية ، يجري التعامل معها كتطلع ثقافي : فهو يدرس ، ويحلل ، وان امكن ، فهو يعالج .

انا اعترض . فنحن لم نكن ضحايا وهم . ومع انه سيكون من الصعب على البعض أن يصدق ، فلقد أحببنا بصورة حقيقية .

* * *

الحرب الاسبانية

١٩٣٦ ـ ١٩٣٩

في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٣٦ كان « فرانكو » يقوم على الحدود بانزال فرقة من القوات المراكشية بقصد الانتهاء من امر الجمهورية ، واعادة « النظام » في اسبانيا .

كانت زوجتي وابني قد عادوا الى باريس قبل شهر ، وكنت وحدي في مدريد . ذات صباح باكر ايقظني انفجـار ، وتبعته انفجارات عديدة أخرى . كانت طائرة جمهورية تقصف ثكنة الجبل ، كما سمعت ايضا عدة طلقات مدافع .

في ثكنة مدريد هذه ، مثل كل ثكنات اسبانيا ، كانت القوات في حالة التاهب ، ومع ذلك فقد كانت مجموعة من « الكتائب » قد اعتصمت فيها منذ عدة ايام ، واخذت باطلاق النار على المارة . وقامت فرق عماليـة مسلحة مدعومة من « حرس الهجوم الجمهوري » ـ وهي قوة تدخل عصرية انشاها آثانيا ـ بمهاجمة الثكنة صباح الثامن عشر من تموز (يوليو) . وفي الساعة العاشرة كان كل شيء قد انتهى ، بعد أن تم تجريد الضباط المتمردين واعضاء مجموعة الكتائب ، من السلاح .

وبدأت الحرب . .

أخذت أتابع ما يجري ، من شرفتي ، وانا اصغي من بعيد الى اصوات طلقات المدافع . وشاهدت مدفعاً من نوع « شنايدر » يعبر الشارع قريباً

جداً مني ، يجره اثنان او ثلاثة من العمال ، بالاضافة الى رجلين وامرأة من الغجر ــ وهذا مابدا لي مرعباً ــ . تلك الثورة العنيفة التي كنا نعمل على تصعيدها منذ عدة سنوات ، والتي لطالما رغبت فيها أنا شخصياً ، كانت تمر من تحت نوافذي ، امـام عيني . ووجـدت نفسي تائهـاً ، غير مصدق .

بعد خمسة عشر يوماً ، قدم المؤرخ الفني « ايلي فور » ، الذي كان يدافع بحرارة عن المسألة الجمهورية ، لتمضية عدة ايام في مدريد . ذهبت ذات صباح لزيارته في فندقه ، وما زلت أتصوره بسرواله الداخلي الطويل المربوط عند كاحليه ، وهو يتأمل المظاهرات التي تطوف الشوارع وقد تحولت الى ظاهرة يومية . كان يبكي بانفعال وهو يرى الشعب وقد أخذ يحمل السلاح . في مرة أخرى شاهدنا حوالي مائة فلاح وقد انتظموا في صفوف بعد أن تسلحوا «على بركة الله»، بعضهم ببندقية صيد ومسدسات وآخرون بمنجل ومذراة ، وهم يبذلون جهداً واضحاً في تحقيق الانضباط، محاولين ان يسيروا بخطوات موحدة . واعتقد أننا قد بكينا نحن الاثنين .

لا شيء كان يبدو قادراً على قهر هذه القوة الشعبية الحقيقية ، الا أن هذا الفرح الغامر ، هذه الحماسة الثورية للأيام الاولى ، سرعان ما حل محلهما احساس مؤسف بالانقسام وبالفوضى وعدم الامان ، هـذا الاحساس الذي استمر حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ ، عندما بدأ الجمهوريون في تطبيق انضباط حقيقي وعدالة فعالة . لا ازعم بأنني اكتب تاريخ هذا الانشقاق الذي مزق اسبانيا . لست مؤرخاً ، ولست متأكداً من أنني ساكون محايداً . احاول فقط أن أروي ما رأيته ، ما اتذكره .

فمثلا ، احتفظ بذكريات محددة عن الاشهر الاولى في مدريد . نظرياً ، فيما يتعلق بسلطة الجمهوريين ، كانت المدينة ما تزال تؤوي الحكومة ، لكن القوات الفرانكوية كانت تتقدم بسرعة في « اكستر يمادورا » ، وتصل الى طليطلة (توليدو) ، في الوقت الذي كانت تتساقط فيه مدن اخرى في كافة

ارجاء اسبانيا ، في أيدي انصارها ، مثل « سالامنكا » و « بورغوس » على سبيل المثال .

في مدريد ، كان المتعاطفون مع الفاشيين يطلقون النار على كل اثنين من ثلاثة . وبالمقابل ، كان رجال الدين واصحاب الاملاك الاغنياء ، وكل أولئك الذين كانوا معروفين بميولهم المحافظة ، يعيشون حالة خوف دائم من أن يجري أعدامهم . لدى نشوب الاشتباكات ، كان الفوضويون قد أطلقوا السجناء العاديين ، الذين انضموا في الحال الى صفوف « الاتحاد الوطني للعمل » الخاضع لتفوذ « اتحاد الفوضويين » .

بعض أعضاء هذا الاتحاد ، كان يتباهى ، وبصورة متطرفة ، أن مجرد صورة تتصل بالدين في غرفة ما ، تكفي لكي تقود صاحبها الى « كاسا دي كامبو » ، فهناك ، في تلك الحديقة العامة الكائنة على اطراف مدريد ، كان يجري اعدام أولئك الذين يعتقلون . كانت العبارة السائدة لهذا الغرض هي « سيأخذونه للقيام بنزهة » .. وكان هذا يحدث دائما خلال الليل .

كانوا يخاطبون الجميع بصيغة المفرد ، ويرفقون كل عباراتهم بكلمة « زميل » ، بنبرة قوية ، عندما يتحدثون مع الفوضويين ، وبكلمة « رفيق » اذا كان المتحدث اليه من الشيوعيين .

كان معظم السيارات يغطى بعدد من الوسائد للحماية من الرمايات « الفرانكوية » ، كما كان من الاخطار المؤكدة ، مد اليد من نافذة السيارة لاعطاء اشارة او تنبيه للسيارات الاخرى عند التمهل أو الانعطاف ، اذ كان من الممكن ان تفسر هذه الاشارة على انها تحية فاشية ، فتجتذب ، بكل بساطة ، صلية من الطلقات .. كان أبناء الاسر الغنية يرتدون ثيابا متواضعة لاخفاء انتمائهم . كانوا يضعون قبعات قديمة ويلطخون ثيابهم ليصبح لهم مظهر العمال . وبالمقابل ، كان مسؤولو الحزب الشيوعي يوعزون الى العمال بأن يرتدوا ربطة عنق وقميصا أبيض .

ذات يوم ، أعلمتي الرسام المعروف « أونتانيون » باعتقال « ساينث دي ايريديا » ، المخرج الذي حقق لي « ابنة خوان سيمون » و « من بريدني » . كان « ساينث » ينام على مقعد في العراء ، حيث كان يخشى التواجد في بيته . كان ابن عم « بريمو دي ريڤيرا » مؤسس الكتائب . وعلى الرغم من كل حذره ، فقد اعتقلته مجموعة من الاشتراكيين اليساريين ، واصبح أمام خطر ماثل بأن يعدم بسبب هذه القرابة القاتلة .

توجهت في الحال الى استوديو « روتينس » حيث كانوا يعرفونه جيدا . كان عمال ومستخدمو الاستوديو قد شكلوا ، كما كانت الحال في الكثير من المؤسسات ، مجلسا للاستوديو . وكانوا يعقدون اجتماعا . سألت ممثلي مختلف فئات العمال عما كان عليه سلوك « ساينث دي ايريديا » ، المعروف جيدا من قبل الجميع . « جيد جدا ـ اجاتوبي ، ـ ليس هناك مايعاب عليه » .

حينئذ طلبت ان يرافقني وفد منهم الى شارع « ماركيز دي ريسكال » حيث كان المخرج السينمائي محتجزا ، ليعيدوا هناك اقوالهم امام الاشتراكيين ، تبعني ستة او سبعة رجال ببنادقهم ، ولدى وصولنا، التقينا برجل كان يقوم بالحراسة ، وقد استند بسلاحه ، بكل تراخ الى قائمة الباب . سألته بصوت تعمدت أن يكون أجشَّ قدر المستطاع . « أين هو المسؤول » ؟ . . وجاء هذا . وللمصادفة ، كنت قد تناولت معه طعام العشاء في الليلة السابقة ، كان ضابطا برتبة ملازم أول ، اعور ، وظريف .

ـ يارجل ، بونويل !.. ماذا تريد ؟

اخبرته ، واضفت بانه ليس من الممكن قتل كل الناس ، واننا نعرف بالطبع صلة القرابة التي تربط « ساينث » ب « بريمودي ريڤيرا»، الا ان هذا لا يمنع من القول بأن المخرج كان يتصرف دائما بصورة ممتازة، وقدم موفدو الاستوديو شهادة مماثلة لصالح « ساينث » ، واطلق سراحه .

بعد ذلك ، بفترة قليلة ، كان يغادرنا الى فرنسا ، لينضم الى جماعة فرانكو ، ومع نهاية الحرب عاد الى مهنته كسينمائي وحقق فيلما في تكريم الزعيم « فرانكو ، هذا الرجل » ... ذات مرة ، في الخمسينات، في مهرجان كان ، تناولنا طعام الغداء معا وتحدثنا طويلا عن الماضي .

في نفس الفترة ، تعرفت ب « سانتياغو كاريو » الذي كان آنذاك على مااعتقد ، سكرتيرا للشبيبة الاشتراكية الموحدة . كنت قبل نشوب الحرب بفترة قصيرة جدا ، قد اعطيت مسدسين او ثلاثة ، املكها ، لعدد من عمال الطباعة كانوا يعملون تحت بيتي . والان ، وانا اعزل ،فيمدينة يطلق فيها النار من كل جانب ، ذهبت للقاء « كاريو » وطلبت منه سلاحا . فتح لي احد الادراج ، الذي كان فارغا ، وقال لي : « ليس عندي ولاقطعة » !..

على اية حال ، واخيرا ،.. اعطوني بندقية . ذات يوم ، في ساحة الاستقلال ، حيث كنت مع بعض الاصدقاء ، انهمر الرصاص فجاة من كل جانب ، من الاسطحة ، من النوافذ ، من الشوارع ، بطريقة لايمكن ان يكون هناك اكثرالتباسا وغموضا ، وقفت هناك وراء احدى الاشجار، مع بندقيتي غير المجدية ، غير عارف ضد من علي ان اطلق الرصاص . لماذا اذن احتفظ بهذه البندقية ؟.. واعدتها .

كانت الاشهر الثلاثة الاولى هي الاسوا . وتسلط علي ، مثل الكثيرين من اصدقائي ، احساس مرعب بفقدان السيطرة على أي شيء . انا الذي كنت قد رغبت ، بكل حماس ، بقلب الحكم ، وتغيير النظام القائم ،وجدت نفسي فجاة في مركز البركان ، يسيطر علي الخوف . كان يبدو لي في بعض التصرفات الحمقاء شيء من البهاء ، مثل قيام بعض العمال ذات يوم بالصعود الى سيارة شاحنة ، والذهاب الى نصب قلب يسوع المقدس ، القائم على مسافةعشرين كيلو مترا جنوبي مدريد ،حيث شكلوا هناك فصيل اعدام واطلقوا النار على ذلك التمثال الكبير للمسيح. لكنني ، وبالمقابل نفرت كثيرا من الاعدامات الجماعية ، وعمليات السلب واللصوصية وقطع الطرق . كان الشعب قد ثار وتولى زمام السلطة ،

الا انه وفي الحال كان، قد انقسم وتمزق . وجعلتهم تصفيات الحسابات التي لامبرر لها ، ينسون الحرب الاساسية ، ذلك الامر الوحيد الذي كان عليهم الاهتمام به .

كنت اذهب كل مساء ، الى اجتماع رابطة الكتاب الثوريين ، حيث كنت التقي بمعظم اصدقائي : « البرتي » و « برغامين » والصحفي الكبير « كوربوس بارغا » والشاعر « اكتولا غيرّه » الذي كان مؤمنا بالله. هذا الاخير قام بعد عدة سنوات بانتاج احد افلامي في المكسيك « صعود الى السماء » . وقد توفي بحادث سيارة في اسبانيا .

كانت هناك نقاشات لاتنتهي ، وكثيرا ماكانت مشحونة بكثير من الانفعال : التلقائية أم التنظيم ؟ . كان يتصارع في داخلي ، كما هي الحال دائما ، الانجذاب النظري والعاطفي نحو عدم النظام . والضرورة الجوهرية للنظام وللسلام. كنا نعيش صراعا مضنيا ونحن نضع النظريات.

لم يتوقف « فرانكو » عن اجتياح الاراضي ، واذا كان بعض المدن والقرى قد بقي على اخلاصه للجمهورية ، فان بعضا آخر كان يصل الى أيدي فرانكو دون أي قتال . كان الضغط الفاشي واضحا في كل مكان ، وكان يجري اعدام أي مشتبه به من الليبراليين في الحال . أما نحن ، فبدلا من أن نقوم بتنظيم انفسنا مهما كلف الامر ، وباسرع ما يمكن ، من اجل صراع ،اخذ يصبح بكل وضوح ، صراع حياة أو موت ، كنا نمعن في اضاعة الوقت ، والفوضويون كانوا منصرفين لمطاردة رجال الدين . ذات يوم قالت لي مساعدتي : « انزل الى الشارع وانظر ، هناك راهب مقتول » . ومعانني كنت دائما ضد رجال الدين ، منذ طفولتي ، فانني لم اوافق ، ولا بشكل ، على مذبحة كهذه .

ومع ذلك ، لا يجوز الاعتقاد بأن رجال الدين لم يشاركوا في المعارك فقد حملوا السلاح مثل الجميع . كان بعضهم يطلق النار من أعلى ابراج الكنائس ، حتى ان بعض الرهبان الدومينيكيين شوهد وهو يستخدم المدافع الرشاشة ، واذا كان بعض رجال الاكليروس قد وقف الى جانب

الجمهوريين ، فالاكثرية كانت فاشية بشكل واضح . كانت الحرب شاملة ، وكان من المستحيل البقاء على الحياد وسط ذلك الصراع ، والانتماء الى تلك « الاسبانيا الثالثة » التي يحلم بها البعض بصورةمبهمة.

كنت انا نفسي اشعر ، بالخوف بعض الاحيان . كنت اسكن فيمنزل « بورجوازي » ، وقد سألت نفسي اكثر من مرة ، ماذا سيحصل لوفاجاتني خلال الليل مجموعة خارجة عن الرقابة وحطمت باب بيتي لتأخذني معها « في نزهة » ؟ كيف ساقاوم ؟ ماذا اقول لهم ؟ .

بطبيعة الحال ، فان الجانب الاخر ، الجانب الفاشي ، لم تكن تنقصه الفظاعات ، واذا كان الجمهوريون قد اكتفوا بعمليات الاعدام ، فان المتمردين كانوا يظهرون احيانا ، الكثير من التفنن في التعذيب . ففي « باراخوث » على سبيل المثال ، جرى أطلاق النار على الحمر في ميدان لمصارعة الثيران . وتم قتلهم وفق طقوس هذه المصارعة .

من بين آلاف الحكايات التي تروى ، اتذكر هذه : توجهت راهبات احد الاديرة في مدريد في موكب ديني الى المصلى العائد للدير ، وامام تمثال العذراء التي تحمل بين يديها يسوع الطفل ، قامت رئيسة الدير بفصل الطفل عن ذراعي أمه ، مستعينة بمطرقة وازميل ، واخذته وهي تقول للعذراء :

— سنعيده اليك عندما نربح الحرب .

ولا شك انهن قد أعدنه .

....

كانت قد بدأت تظهر انقسامات خطيرة بين الجمهوريين . كان الشيوعيون والاشتراكيون يريدون ، قبل اي شيء ، أن يربحوا الحرب ، مستخدمين كل قواهم في سبيل تحقيق النصر . بينما كان يعتبر الفوضويون انفسهم كما لو انهم في أرض قد غزوها ، واخذوا يقومون بتنظيم مجتمعهم المثالي .

واعدني « جيل بيل » مدير الصحيفة النقابية « النقابي » ، ذات يوم في مقهى « كاستيا » وقال لي :

ـــ لقد أسسنا مستعمرة فوضوية في « توريلودونيس »(*) . قمنا باحتلال عشرين منزلا . يجب ان تأخذ واحدا .

ذهلت . فأولا : تلك المنازل يملكها اشخاص طردوا منها ، أو فروا ، واحيانا قتلوا . وثانيا : « توريلودونيس » تقع عند سفوح سلسلة « غوادارامًا » ، على مسافة كيلو مترات قليلة من الخطوط الفاشية . كان الفوضويون يقومون هناك ، على مرمى المدافع وبكل بساطة ، بتنظيم دولتهم الخيالية .

في يوم آخر ، كنت اتناول طعام الغداء في احد المطاعم بصحبة الموسيقي « ريماتشا » ، احد مدراء « فيلمو سونو » حيث كنت قد عملت ذات مرة .وكانابن صاحب المطعم قد جرح جرحا بليغا في معركة ضد الفرانكويين في جبال « غوادارًاما » . دخل بعض الفوضويين المسلحين الذين حيوا بـ « مرحبا ، زملاء » ، وطلبوا مباشرة من مدير المطعم بعض زجاجات النبيذ ،ولم استطع ان اخفي غيظي . قلت لهم انه كان عليهم ان يكونوا في الجبال ،يقاتلون ، بدلا من افراغ اقبية رجل طيب ، يصارع ابنـــه الموت .

اصغوا الي دون اية ردة فعل ، ثم ذهبوا ، وهم يحملون الزجاجات، على الرغم من كل شيء . صحيح انهم قد اعطوا بالمقابل ، قسائم ، قطعا من الورق ،الاانهالم تكن تعني شيئا ذا اهمية .

كانت مجموعات كبيرة من الفوضويين ، تنزل كل ليلة من جبال « غوادراما » حيث تستمر المعركة ، كي تنهب اقبية الفنادق . وكان هذا السلوك يدفعنا للعودة باتجاه الشيوعيين .

---

* بلدة صغيرة الى الشمال الغربي من مدريد .

كانوا في البداية قليلي العدد ، لكنهم كانوا يزدادون قوة اسبوعا بعد اسبوع . كان الشيوعيون منظمين وانضباطيين . كنت ارى ــ وما ازال ــ ان ليس ثمة مآخذ عليهم . كانوا يستخدمون كل طاقاتهم في ادارة الحرب . انه لمن المحزن القول ، وان كان ضروريا ، ان النقابيين الفوضويين كانوا يكرهونهم ، وربما اكثر مما كانوا يكرهون الفاشيين . كانت هذه الكراهية قد بدأت قبل سنوات من الحرب . في عام ١٩٣٥ نظم « الاتحاد الفوضوي الايبيري » اضرابا عاما بين عمال البناء . وقام وفد شيوعي بالتوجه الى الاتحاد ، وقال للمسؤولين عن الاضراب :

ــ يوجد بينكم ثلاثة عملاء للبوليس .

وذكروا اسماء . لكن الفوضويين اجابوا المندوبين الشيوعيين بفظاظة :

ــ وماذا ؟ نعرف ذلك ! لكننا نفضل العملاء على الشيوعيين .

على الرغم من تعاطفي النظري مع الفوضوية ، الا انني لم اكن استطيع تحمل سلوكها غير المتبصر ، المتعسف والمتعصب كان يكفي في بعض الحالات حمل اجازة جامعية او لقب مهندس لكي ياخذوا احدهم الى « كاسادي كاميو » . عندما قررت الحكومة الجمهوريةمغادرة مدريد، لتستقر في ڤالنسيا ، امام اقتراب الفاشيين ، اقام الفوضويون حاجزا على الطريق الوحيد التي بقيت سالكة ، بالقرب من كوينكا . في برشلونة نفسها ــ كمثال من بين امثلة اخرى ــ قاموا بانهاء عمل مدير ومهندسي مصانع التعدين لكي يظهروا بان المصنع بامكانه العمل بصورة صحيحة بأيدي العمال وحدهم . صنعوا سيارة مصفحة وعرضوها على مندوب سوفييتي بكثير من التباهي . وطلب المندوب مسدسا . ثم اطلق ، فاخترق ذلك التصفيح دون ادنى صعوبة .

أكرر ، بانني لا اقدم هنا اكثر من مجرد انطباعات شخصية ، الا انها تتوافق مع انطباعات الكثيرين ممن كانوا يقفون على اليسار ، في تلك الايام .

كان يسيطر ، أكثر من اي شيء آخر ، فقدان الامن ، والبلبلة المثقلة بصراعاتنا الداخلية ، على الرغم من التهديد الفاشي الذي كان يواجهنا . كنت ارى حلما قديما ماثلا أمام عيني ، الا انني لم أكن المس فيه الا الحزن .

ذات يوم ، علمنا من احد الجمهوريين ، الذي كان قد عبر الخطوط ، بموت غارثيا لوركا .

غارثيا لوركـا

قبل فترة قصيرة من « كلب اندلسي » ، كان خلاف بسيط قد فرّق ما بيننا لبعض الوقت . وفيما بعد ، اعتقد لوركا ، كأندلسي شديد الحساسية ، او انه تظاهر بالاعتقاد ، ان الفيلم كان ضده . وقال لي :

ــ بونويل : لقد عملت فيلما هكذا (وقام بحركة باصبعه) ، انه يدعى « كلب أندلسي » ، و « الكلب » هو أنا .

في عام ١٩٣٤ كنا قد تصالحنا تماما . وعلى الرغم من انني كنت ارى احيانا بأنه قد اغرق نفسه بعدد كبير جدا من المعجبين . الا اننا كنا نمضي معا أوقاتاً طويلة . وكثيرا ماكنا ، بصحبة « أوغارته » نصعد الى سيارتي الفورد لنسترخي ساعات عديدة في تلك العزلة القوطية « الپاولار » ، ذلك المكان الذي يقع وسط مجموعة من الخرائب ، انه دير مهجور يضم ست أو سبع غرف ذات اثاث متواضع ، وكان بالامكان حتى ان نقضي الليل هناك شرط اصطحاب « كيس نوم » . ومن بين المترددين الى هناك كان الرسام « پينادو » ، الذي عدت لالتقي به من جديد بعد أربعين عامـا ، بمجرد المصادفة ، في نفس المكان .

كان من الصعب أن نتحدث عن الرسم والشعر ونحن نرى اقتراب العاصفة . قبل اربعة اشهر من نزول فرانكو على البر الاسباني ، قرر غارثيا لوركا ــ الذي لم يكن قادرا على اغراق نفسه في السياسة ــ وبصورة

مفاجئة ، أن يذهب الى غرناطة ، مدينتـه . حاولت اقنـاعه بالعدول ، وقلت له :

ـ هناك مخاوف حقيقية ، فيديركو . ابق هنا . ستكون ، مدريد اكثر امانا .

وقام أصدقاء آخرون بممارســة ضغوط أخرى عليـه ، لكن دون جدوى . وغادر متوترا جدا ، وخائفا جدا .

وكان نبأ موته أمرا رهيبا بالنسبة الينا جميعا .

كان فيديركو يحتل موقع الصدارة من بين جميع الذين عرفتهم . لست اتحدث عن مسرحه ولا عن شعره ، انما اتحدث عنه هو . العمل العظيم كان هو نفسـه ، حتى ليبدو لي أنه من الصعب العثور على نظير له . عندما كان يجلس الى البيانو فيعزف بعض مؤلفات شوبان ، أو عندما كان يرتجل اللوحات الايمائية والمشاهد المسرحية القصيرة ، كان انسـانا لا يقاوم كان باستطاعته أن يقرأ اي شيء بنفس الجمال ، النابع دوما من بين شفتيه كان يتمتع بالعاطفة والفرح والشباب . كان شعلة حقيقية .

عندما تعرفت اليه ، في المدينة الجامعية ، كنت رياضيا ريفيا فظا بما فيه الكفاية . وبفضل متانة صداقتنا . استطاع أن يغيرّ فيّ ، وأن يجعلني اتعرف على عوالم أخـرى . واعترف له بالكثـير .. بأكثـر مما بالامكان التعبير عنه .

لم يعثر على جثته اطلاقا . وترددت حكايات كثيرة حول موته . حتى ما لم يكن معقولا على الاطلاق . والحقيقة هي أن فيديريكو مات لأنه كان شاعرا ، كانت الصيحات تعلو في الجانب الآخر : « فليمت الفكر » .

في غرناطة ، التجأالى بيت عضوفي الكتائب هو الشاعر « روساليس » وكانت تربط مابين عائلتيهما صداقة وطيدة ، فاعتقد انه سيكون آمنـا

هناك . وذات ليلة ، جاء بعض الرجال (من اي اتجاه ؟ ليس مهما) يقودهم واحد يدعى « الونسو » ، فقبضوا عليه وأصعدوه الى سيارة شاحنة مع عدد من العمال .

كان فيدريركو يشعر بخوف شديد تجاه الالم والموت ، واستطيع أن اتصور ما أحسّ به تلك الليلة ، في الشاحنة التي اقلته الى حقول الزيتون حيث قتلوه .

وما اكثر ما يعاودني التفكير في تلك اللحظات .

في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) كنت على موعد في جنيف مع وزير خارجية الجمهورية « الفاريث ديل فايو » الذي أراد ان يلقاني لسبب سيقال لي هناك . وانطلقت في قطار شديد الزحام . كان قطار حرب بحق .

في برشلونة بدّلت القطار ، والتقيت بـ « خوسيه بيرغامين » و « مونيوث سواي » ، اللذين كانا متوجهين أيضا الى جنيف ، مع عدد من الطلاب ، للمشاركة في اجتماع سياسي . سألاني عن نوع من الوثائق التي احملها ، وأجبتهم ، فصرخ « موتيوث سواي » .

ـ لا يمكنك عبور الحدود ! من أجل العبور تلزم تأشيرة من الفوضويين .

وصلنا الى « بورت بو » وكنت أول النازلين من القطار . وفي المحطة المطوقة بالرجال المسلحين ، كانت هناك طاولة يجلس اليها ، بطريقة فيها الكثير من الاعتداد ، ثلاثة رجال ، وكأنهم أعضاء في هيئة محكمة . كانوا فوضويين ، وكان رئيسهم ايطاليا ملتحيا . أريتهم وثائقي بناء على طلبهم ، فقالوا لي :

ـ لا يمكنك المرور بهذا .

اللغة الاسبانية ، بالتأكيد ، هي اللغة الاكثر غنى بالشتائم من بين

لغات هذا العالم . وبينما تتصف اللغات الاخرى كقاعدة عامة ، بالعبارات القصيرة في الشتائم وسبة الدين ، فان الشتائم الاسبانية تأخذ ، وببساطة شكل خطاب طويل مليء بأقذع البذاءات التي تتصل ، بشكل اساسي ، بالرب والمسيح والروح القدس والعذراء والرسل القديسين ، دون نسيان البابا ، والتي تطلق في عبارات فضائحية مثيرة . الشتائم فن اسباني . في المكسيك مثلا ، وعلى الرغم من ان الثقافة الاسبانية قائمة وموجودة منذ حوالي اربعة قرون ، فانني لم اسمع هنالك شتيمة واحدة ذات مستوى لائق . اما في اسبانيا ، فالشتيمة الجيدة قد تستغرق سطرين او ثلاثة ، وعندما تتطلب الظروف ، قد تعاد هذه الشتيمة الطويلة بطريقة مقلوبة ، من نهايتها الى بدايتها . شتائم من هذا النوع ، وبأقصى أشكال العنف هو ما اسمعتهم اياه ، دون أن يرف لهؤلاء الفوضيويين الثلاثة في « بورث يو » أي جفن . فقط قالوا لي ، بعد كل ذلك ، ان باستطاعتي المرور .

وبمناسبة الحديث عن الشتائم ، فانني ساضيف أن في المدن القديمة باسبانيا ، في طليطلة مثلا ، كانت تشاهد كتابات على العديد من البوابات والمداخل مثل « ممنوع التسول والشتم » وذلك تحت طائلة دفع الغرامة والتعرض للاعتقال ، كدليل على مدى انتشار وسيطرة عبارات الشتائم .

وعندما عدت الى اسبانيا ، عام ١٩٦٠ ، بدا لي أن الشتائم لم تعد تسمع في الشارع كالسابق ، وقد اكون مخطئا ، وان ما اوحى الى بذلك انما هو تراجع حاسة السمع لدي .

في جنيف ، بقيت فقط عشرين دقيقة مع الوزير الذي طلب الي الذهاب الى باريس لاضع نفسي تحت تصرف السفير الجديد الذي كانت ستعينه الجمهورية . هذا السفير هو « آراكيستان » الذي كان اشتراكيا من اليسار اعرفه ، وصحفيا قديما وكاتبا ، وبحاجة الى رجال موثوقين .

وغادرت في الحال الى باريس .

بقيت هناك حتى نهاية الحرب . من الناحية الرسمية ، كنت اعمل في مكتبي بشارع « بيبينير » في جمع كافة الافلام الدعائية الجمهورية المصورة في اسبانيا . اما عمليا ، فقد كانت مهماتي اكثر تعقيدا . اذ كنت ، من ناحية ، اتولى شيئا من قبيل رئيس مراسم ، مكلف بتنظيم دعوات عشاء معينة في السفارة ، فلا اضع ، مثلا ، « اندريه جيد » بجانب «اراغون». ومن ناحية اخرى كنت اتولى مسالتي الاعلام والدعاية.

كنت خلال هذه المرحلة ، اسافر كثيرا الى سويسرا ، وانفرس ، واستوكهولم ولندن ، وحتى الى اسبانيا ، بمهمات رسمية ، من اجل طلب المساعدات المتنوعة لصالح المسالة الجمهورية .

كنت ، في الغالب ، اصطحب معي حقائب ملأى بملايين المنشورات المطبوعة في باريس . كان الشيوعيون البلجيكيون في « انفرس » يعرضون علينا كل مساعداتهم ، وكانت منشوراتنا ، بفضل « تعامل » بعض البحارة تنتقل باتجاه اسبانيا ، حتى على ظهر البواخر الالمانية .

خلال تنقلاتي، اقام أحد نواب العمال في لندن، مع «ايفور مونتاغ» رئيس جمعية الفيلم ، مأدبة صغيرة ، كان عليّ أن القي فيها خطابا قصيرا باللغة الانكليزية ، وقد حضرها حوالي عشرين شخصا من المتعاطفين معنا ، من بينهم « رولاند بيزروس » الذي كان قد مثل في « العصر الذهبي » ، والممثل « كونراد فيدت » ، وقد جلس الاثنان الى جانبي .

اما مهمتي في استوكهولم فكانت ذات طبيعة مختلفة تماما ، كانت منطقتا « بيارتيس » و « بايونا » تعجان بالفاشيين من كل الانواع ، وكنا نبحث عن عملاء سريين ليقدموا الينا المعلومات . وذهبت الى استوكهولم كي اقدم هذا العرض التجسسي لسويدية رائعة الجمال اسمها «كارين»، وهي عضو في الحزب الشيوعي السويدي ، كانت تعرفها زوجة السفير وتزكيها . وافقت كارين وعدنا معا في الباخرة ثم في القطار ، وكان علي

في هذه الرحلة ، ان أواجه صراعا حقيقيا بين رغبتي الجنسية المتطلبة باستمرار ، وواجبي ، وانتصر واجبي ، حيث لم نتبادل حتى قبلة واحدة ، وعانيت بكل بصمت . كانت « كارين » تذهب الى البيرنيه السفلى ، لتجلب من هناك ، بصورة منتظمة ، كافة المعلومات التي تصل الى اسماعها ، ومن ثم انتهت مهمتها ، ولم أعد لرؤيتها على الاطلاق .

وبمناسبة « كارين » فان المسؤول الشيوعي في « اجيتپروب » ، والذي كانت لنا معه صلات مستمرة ، وبخاصة من اجل شراء السلاح ، (في كل زمان ، هناك تلك المجموعات الصغيرة من قطاع الطرق التي تمارس انشطتها في مساهمة عمليات نقل الاسلحة ، كان علينا دائما ان نأخذ حذرنا منها) ، هذا المسؤول وجه اليّ اللوم لكوني قد ادخلت في العمل بفرنسا احدى التروتسكيات من الحزب الشيوعي السويدي . وكان في الواقع قد قام بتغيير اتجاهه ، خلال وقت قصير جدا ، هو فترة سفري . وخلافا لموقف الحكومة الفرنسية ، التي رفضت دائما الالتزام والتدخل لصالح الجمهورية ، هذا التدخل الذي كان من الممكن أن يبدل الأمور بسرعة ـ بسبب الخوف من الفاشيين الفرنسيين ، ومن التعقيدات الدولية ـ ، فان الشعب الفرنسي ، وبخاصة العمال من اعضاء الاتحاد العام للعمال قدّم الينا مساعدات قيمة ، ودون مقابل . ولم يكن من التصرفات النادرة ان يأتي اليّ ، على سبيل المثال ، عامل في السكة الحديدية او سائق تكسي ، ليقول لي : « امس وصل اثنان من الفاشيين في قطار الساعة العشرين والربع ، وهما فلان وفلان ، ونزلا في فندق كذا » . كنت ادوّن هذه المعلومات وانقلها الى « آراكيستان »، الذي كان بالتأكيد ، افضل سفير لنا في باريس .

كان عدم تدخل فرنسا والقوى الديمقراطية الاخرى تشكل حركتنا. وعلى الرغم من أن روزفلت كان قد اطلق تصريحات لصالح الجمهورية الاسبانية ، فقد اذعن لضغوط الكاثوليكيين الأمريكيين ، ولم يتدخل، تماما كما فعل « ليون بلوم » في فرنسا . لم نكن نتوقع على الاطلاق تدخلا

مباشرا ، الا اننا كنا نعتقد انه كان بامكان فرنسا أن تسمح بنقل الأسلحة، وحتى بارسال المتطوعين ، مثلما كانت تفعل المانيا وايطاليا لصالح الجانب الآخر ، لقد كان بالامكان ان بتحويل مسار الحرب بصورة مختلفة جدا .

علي أن اتحدث ايضا ، ولو بشيء من الايجاز ، عن المصير الذي كان ينتظراللاجئين في فرنسا . اذ كان الكثيرون منهم يؤخذون لدى وصولهم الى معسكرات الاعتقال وقد وقع عدد كبير منهم ، فيما بعد ، في ايدي النازيين ، وهلكوا في المانيا ، وبخاصة في « ماتهاوزن » .

كانت الفرق الاجنبية ، المنظمة والمدربة من قبل الشيوعيين ، هي الوحيدة التي قدمت الينا مساعدة قيمة . كما ارى من المناسب تقديم التحية لـ «مالرو » ولو أن بعض الطيارين الذي اختارهم لم يكونوا اكثر من مجرد مرتزقة . كذلك اقدمها الى جميع اولئك الذين جاؤوا للكفاح ، بمبادرتهم الشخصية ، لقد كانوا كثيرين ، ومن جميع البلدان .

في باريس ، سلمت تأشيرات مرور لكل من « هيمنغواي » و « دوس باسوس » و « يوريس ايفينس » الذي حقق فيلما وثائقيا عن الجيش الجمهوري . وافكر بـ « كورنيليون ــ مولينييه » ، الذي قاتل بحماس. وقد عدت فيما بعد للقائه في نيويورك قبل يوم واحد من ذهابه للالتحاق بديغول ، وكان يعلن بكثير من الثقة أن النازيين سينهزمون لامحالة ، وقد دعاني لزيارته في باريس بعد انتهاء الحرب كي نقوم معا بتحقيق فيلم . عندما التقينا للمرة الاخيرة ، في مهرجان كان ، كان وزيرا ، وكان يتناول كأسا مع احد كبار الضباط . وقد كنت اشعر بشيء من الحياء في ان اشاهد برفقة أصحاب المناصب العليا .

من بين كافة المغامرات والحوادث التي كنت فيها شاهدا ، واحيانا بطلا لها ، احاول ان اروي تلك التي تبدو لي اكثر متعة ، كان الكثير منها يدور في جو من السرية ، وحتى هذا اليوم ، مازلت اجد من الصعبعلي ان آتي على ذكر اسماء معينة .

خلال الحرب ، كنا نصور افلاما في اسبانيا بالتعاون مع الكثيرين ، وكان من بينهم مصوران سوفيتيان ، وكانت تلك الافلام توزع في كافة ارجاء العالم ، بما في ذلك اسبانيا بالطبع ، ذات يوم ، وكانت قد مضت عدة اشهر دون ان اعرف شيئا عن المواد التي قاما بتصويرها ، طلبت مقابلة رئيس البعثة التجارية الروسية ، الذي تركني انتظر اكثر من ساعة ، واخيرا ، استقبلني الرجل ببرود منقطع النظير ... سألني عن اسمي ، ثم قال لي :

ـ ماذا تفعل في باريس ؟ كان عليك أن تكون في الجبهة ، في اسبانيا!

واجبته بانه ليس هو صاحب الحق في محاسبتي عما افعله ، ثم انني أقوم بتنفيذ الاوامر ، وأريد أن أعرف ماذا تم بخصوص الافلام التي جرى تصويرها لحساب الجمهورية الاسبانية .

اجابني بطريقة مراوغة .. وانصرفت .

وكان كل ما فعلته ، هو أنني عدت الى مكتبي وكتبت أربع رسائل : واحدة الى الـ « اومانيتيه » وثانية الى الـ « برافدا » وثالثة الى السفير السوفييتي والاخيرة الى الوزير الاسباني ، اخبرتهم فيها عما يبدو لي تخريبا داخل البعثة التجارية السوفييتية نفسها ، هذا التخريب الذي كنت قد تثبتّ منه من قبل بعض الاصدقاء الشيوعيين الفرنسيين ، الذين قالوا لي : « أجل ، هناك شيء من هذا القبيل في كل مكان » . كان الاتحاد السوفييتي يضم بين ممثليه الرسميين ، أعداء ، أو خصوما . وبعد فترة قصيرة ، كان رئيس البعثة التجارية الذي استقبلني بتلك الطريقة السيّئة واحدا من بين الذين شملتهم حملة التطهير الكبرى التي قام بها ستالين .

القنابل الثلاث

احدى الحكايات الاكثر تعقيدا ، والتي تسلط بعض الاضواء على سلوك الشرطة الفرنسية (والشرطة في جميع أنحاء العالم) ، هي حكاية القنابل الثلاث .

ذات يوم ، دخل الى مكتبي شاب كولومبي وسيم وبالغ الأناقة .. وطلب مقابلة الملحق العسكري ، وحيث انه لم يكن لدينا ملحق عسكري (كان قد أبعد للاشتباه بأمره) فقد ارتأى أن يتحدث إليّ . كان يحمل حقيبة صغيرة ، وضعها فوق طاولة جانبية وبادر الى فتحها مباشرة ، وكان فيها ثلاث قنابل صغيرة .

قال لي الكولومبي : « انها قنابل ذات فعالية غير عادية ، وقد قمنا بمثيلاتها باعتداء ضد القنصلية الاسبانية وكذلك ضد قطار بوردو — مارسيليا . سألته في دهشة ، عما يريد ، ولماذا جلب هذه القنابل ، فقال لي انه لن يحاول اخفاء انتمائه الفاشي ، وانه عضو في « ليجيون كوندور » — وهذا ما كنت قد تصورته — ، وانه يقوم بهذا ، وببساطة ، لمجرد انه يكره رئيسه ، كراهية حتى الموت .

وأضاف :

— « أريد منكم ، وأكثر من أي شيء آخر ، ان تقوموا باعتقاله . لا تسألني لماذا . واذا أردت ان تعرفه ، تعال غداً في الساعة الخامسة الى الـ « كوبول » وسيكون جالساً الى يميني . سأترك لك القنابل » .

وفور مغادرته ، أعلمت السفير « آراكيستان » ، الذي اتصل برئيس الشرطة ، وقام هذا في الحال بالايعاز الى دوائر المتفجرات الفرنسية لتفكيك القنابل . لقد قال الارهابي الحقيقة ، اذ كانت القنابل فعلاً ذات فعالية غير معتادة حتى ذلك التاريخ .

في اليوم التالي ، دعوت السفير نفسه ، وصديقة ممثلة ، لتناول كأس في الـ « كوبول » ، دون أن أخبرهما بشيء . ولدى وصولنا شاهدت الكولومبي جالساً الى طاولة على رصيف المقهى مع مجموعة من الاشخاص . فوجئت بأن الرجل الجالس الى يمينه — والمفروض انه رئيسه — هو شخص أعرفه ، والذي كان ممثلاً من أمريكا اللاتينية ، وكانت صديقتي الممثلة تعرفه أيضاً ، وقد صافحناه لدى مرورنا به .

ولم يظهر « عميلي » أي اكتراث . .

لدى عودتي الى السفارة ، وقد عرفت اسم رئيس هذه المجموعة الارهابيـة ، واسم الفندق الـذي يقيم فيه بباريس ، اخبرت رئيس الشرطة ، الاشتراكي ، فأجابني بأنه سيعمل على اعتقاله في الحال . لكن شيئاً من هذا لم يحصل . فبعـد فترة قصيرة ، التقيت برئيس المجموعة الارهابية جالساً ، بكل اطمئنان ، مع بعض اصدقائه ، في الـ « سيليكت » بالشانزليزيه . ويشهد صديقي « سانتشيث فينتورا » بأنني قد بكيت ذلك اليوم من شدة الغيظ . كنت اقول لنفسي : « في أي عالم نعيش نحن ؟ ها هنا مجرم معروف ، والشرطة لا تريد اعتقاله . لماذا ؟ »

عاد الواشي الى زيارتي في مكتبي ، واخبرني :

ــ سيأتي رئيسي غداً الى سفارتكم ليطلب تأشيرة دخول الى اسبانيا .

وكانت معلومات دقيقة جداً . فالممثل الامريكي اللاتيني الذي كان يحمل جواز سفر دبلوماسياً ، حضر الى السفارة وحصل على التأشيرة دون أدنى صعوبة ، وذهب الى مدريد في مهمة لم أتمكن على الاطلاق من معرفة طبيعتها . وعلى الحدود تم اعتقاله من قبل الشرطة الاسبانية التي كنا قد أعلمناها بالأمر ، لكن سرعان ما أُطلق سراحه بفضل تدخل حكومته . وبعد ان أنجز مهمته في مدريد، عاد الى باريس، وبكل بساطة، لقد كان من أولئك الذين لا يمكن التعرض إليهم ؟ من هي تلك الجهة التي كانت تدعمه ؟ .. لقد شعرت باليأس فعلاً .

كان عليّ في ذلك الوقت ، أن أذهب الى استوكهولم . في السويد قرأت في احدى الصحف أن انفجاراً بقوة غير عادية ادى الى انهيار مبنى صغير بالقرب من الـ « ايتوال » كان مقراً تقابياً عمالياً . وذكر الخبر أن المتفجرات المستعملة كانت من القوة بحيث تسببت في تهديم المبنى

وقتل اثنين . وعرفت ، دون ادنى شك ، من كانت اليد الفاعلة . وأيضاً لم يحصل أي شيء ، فالرجل تابع نشاطاته في حماية البوليس الفرنسي الذي كان شأنه شأن أجهزة البوليس في دول اوروبية عديدة من حيث تكريسه كل تعاطفه الى جانب الانظمة القوية .

ومع نهاية الحرب ، جرى تقليد هذا الممثل الامريكي اللاتيني ، عضو الطابور الخامس ، وساماً من قبل فرانكو .

كنت ، في الفترة ذاتها ، هدفاً لهجمات عنيفة من قبل جانب من اليمين الفرنسي . لم يكن « العصر الذهبي » قد نسي بعد ، وكان الحديث مازال يجري حول ميلي الى انتهاك المقدسات ، وعمدت صحيفة « غرينغوار » ـ أو « كانديه » ـ ، في أحد اعدادها الى تخصيص النصف الأسفل لاحدى صفحاتها ، بكامله ، للحديث عن انني كنت قد جئت الى باريس قبل عدة سنوات بهدف « افساد الشبيبة الفرنسية » .

كنت بين الحين والآخر ، أتناول طعام الغداء مع « دالي » في « بوتيسري پيريغوردين » ، بساحة « سان ميشيل » ، وذات يوم دفعني الى المشاركة في قضية بغاية الاثارة .

ـ أريد أن أقدمك الى رجل انكليزي غني جداً ، وصديق جداً للجمهورية الاسبانية ، ويرغب في أن يعرض عليك قاذفة قنابل !

وافقت على اللقاء مع هذا الانكليزي « ادوارد جيمس » الذي كانت تربطه صداقة وطيدة بـ « ليونورا كارينغتون » . كان قد اشترى كل انتاج « دالي » لعام ١٩٣٨ ، وقال لي أن لديه ، تحت تصرفنا ، في مطار تشيكوسلوفاكي ، طائرة قاذفة قنابل حديثة للغاية ، ولأنه كان يعرف مدى حاجة الجمهورية الى الطائرات ، كان يريد ان يقدمها إلينا ، مقابل عدد من اللوحات الهامة في متحف « البرادو » ، وأن لديه رغبة في أن يقيم منها معرضاً في باريس وفي مدن أخرى ، على ان توضع هذه اللوحات

بضمانة المحكمة الدولية في « لاهاي » ، وفي نهاية الحرب ، سيكون هناك احتمالان : اذا انتصر الجمهوريون تعاد اللوحات الى « البرادو » ، وإلا فستبقى بملكية الجمهورية في المنفى .

نقلت هذا العرض الجديد من نوعه الى « الفاريس ديل فايو » وزير خارجيتنا الذي اكد بأن امتلاك قاذفة قنابل يشكل بالنسبة إليه فرحة كبرى ، لكنه لا يتنازل عن لوحات البرادو مقابل اي شيء في العالم . « ماذا سيقال عنا ؟ ، ماذا ستكتب الصحافة ؟ اننا فرّطنا بتراثنا في سبيل التسلح ؟ لا مجال على الاطلاق للحديث في هذا الموضوع » .

ولم يتم تحقيق هذه المبادلة .

« ادوارد جيمس » ما زال على قيد الحياة ، ويملك قصوراً في كل مكان تقريباً ، بما في ذلك المكسيك .

سكرتيرتي في شارع « بيبينير » كانت ابنة أمين خزانة الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان قد انتمى في شبابه الى مجموعة «بونوت»، وكانت تذكر بانها قد تنزهت وهي طفلة،بصحبة « ريمون ـ لا سيانس » . (شاءت المصادفة انني كنت قد عرفت شخصيا اثنين من البارزين في مجموعة « بونوت » : « ريريت ميترجان » ، وذلك الذي كان يطلق على نفسه اسم « المحكوم البريء » في الفقرات التي كان يقدمها في أحد الملاهي) .

ذات يوم ، تلقينا اتصالاً من « خوان نيغرين » ، رئيس مجلس الجمهورية ، يبدي فيه اهتمامه الكبير بشحنة من البوتاس ، ستخرج من ايطاليا باتجاه مرفأ للفاشيين في اسبانيا ، وطلب منا معلومات حول هذا الموضوع .

تحدثت بذلك مع سكرتيرتي ، التي تحدثت بدورها الى أبيها . بعد يومين جاءتني الى مكتبي وقالت لي : تعال نقم بجولة في الضواحي ،

اريد ان اعرّفك بأحدهم » . خرجنا بسيارة ، وتوقفنا عند مقهى يقع على مسافة خمس واربعين دقيقة من باريس (نسيت الموقع بالضبط) ، وقدمتني الى أمريكي يبلغ من العمر ما بين الخامسة والثلاثين والاربعين. كان رجلاً جاداً وأنيقاً ، ويتحدث الفرنسية بلكنة أجنبية واضحة . قال لي الامريكي :

ــ لقد عرفت انك مهتم بأمر شحنة من البوتاس .

ــ بالفعل .

ــ حسن، اعتقد انني أستطيع اعطاءك معلومات بشأن تلك الباخرة.

وروى لي كل ما كان يعرفه حول الشحنة ، والطريق التي ستسلكها. وكانت معلومات دقيقة ، نقلتها بدوري الى « نيغرين » .

بعد سنوات ، التقيت به في نيويورك ، خلال حفلة كوكتيل اقيمت في متحف الفن الحديث ، تذكرته وتذكرني ، لكننا لم ندع اي مجال لأحد لاستشفاف أي شيء .

فيما بعد ، وكانت الحرب قد انتهت ، عدت لألقاه في « لاكوبول » مع زوجته . وتحادثنا لبعض الوقت . كان يدير قبل الحرب أحد المصانع في ضواحي باريس ، وكان يساعد الجمهورية الاسبانية ، ولهذا كان يعرفه والد سكرتيرتي .

كنت أسكن في « مودون » . عندما كنت أعود الى المنزل ، في الليل ، كان عليّ ان اوقف السيارة ، والمسدس في يدي ، وانظر الى ورائي لاتأكد من أن أحداً لا يتبعني . كنا نعيش محاطين بالأسرار والدسائس والتأثيرات التي يصعب فهمها ، متابعين دقيقة بدقيقة مجريات الحرب ، مدركين كيف كانت القوى الكبرى ، باستثناء ايطاليا والمانيا ، تفضل عدم التدخل، حتى النهاية ، ونحن نرى باعيننا تساقط كل الآمال .

لم يكن من المستغرب ، أن الجمهوريين الاسبان ، قد اظهروا ، مثلي، ترحيبا حقيقيا بالحلف الالماني ــ السوفييتي . كنا نشعر بخيبة الأمل ازاء مواقف الديمقراطيات الغربية التي كانت تتعامل مع الاتحاد السوفييتي بشيء من الاستهانة ، رافضة اي اتصال فعال معه . وقدرأينا في مبادرة ستالين وسيلة لكسب الوقت وتجميع القوى التي سيقذف بها ، في كل الاحوال ، باتجاه المعركة الكبرى . والحزب الشيوعيالفرنسي وافق بأكثريته الساحقة على هذا الحلف ، وأيده « اراغون » بكل وضوح ، ودون مواربة . أما أحد الأصوات المعارضة النادرة ــ داخل الحزب ــ فقد كان صوت « پول نيزان » ، المثقف الماركسي البارز ، الذي دعاني الى حفل زفافه (وكان الشاهد هو جان پول سارتر) . على أية حال ، ومهما كانت آراؤنا ، فقد كان لدينا جميعا انطباع بأن هذا الحلف لن يستمر ، وسينهار كغيره .

استمر تعاطفي مع الحزب الشيوعي حتى أواخر الخمسينات . بعد ذلك ، اخذت بالابتعاد عنه شيئا فشيئا . اكره التعصب اينما وجد . جميع الديانات اكتشفت الحقيقة ، والماركسية أيضا . في الثلاثينات ، مثلاً ، كان الماركسيون لا يحتملون الحديث عن اللاشعور ، وعن الاتجاهات النفسية العميقة للفرد ، كان على الجميع أن يطيعوا آلية الاقتصاد الاشتراكي وهو ما كان يبدو لي غير معقول ، فقد كانوا ينسون نصف الانسان .

سأنتهي من هذا الاستطراد . الاستطراد هو اسلوبي الطبيعي في الحديث الى حد ما ، كما في روايات « الصعاليك » الاسبانية . ومع ذلك ، فمع التقدم في السن ، واستمرار تراجع الذاكرة ، عليّ أن اكون حذراً . ابدأ في حكاية ، ثم اقطعها في الحال لكي افتح اقواسا تبدو لي ممتعة ، ثم انسى ما كنت قد بدأت به ، واضيع . واسأل أصدقائي دائما : « لماذا كنت اروي لكم هذا ؟ » .

كانت بتصرفي مبالغ سرية معينة ، وكنت استخدمها دون إيصالات كانت مهماتي متعددة ، وكانت كل منها مستقلة عن سابقتها . حتى أنني كنت ذات مرة أقوم ، بمجرد مبادرتي الشخصية بحماية « نيغرين » برفقة الرسام الاشتراكي « كينانيا » . كنا مسلحين ، نقوم بحراسة « نيغرين » في محطة « اورساي » دون أن يشعر هو بذلك ، ولا للحظة واحـــدة .

في مرات كثيرة ، عبرت الى اسبانيا ، لنقل وثائق ، وركبت الطائرة آنذاك للمرة الاولى في حياتي ، برفقة « خوانيتو نيغرين » ابن رئيس المجلس ولم نكن نعبر جبال البيرينيه حتى تبين لنا أن طائرة حربية فاشية تقترب منا ، قادمة من اتجاه مايوركا ، الا انها سرعان ما قامت بنصف دورة ، مبتعدة ، تحت تأثير الدفاعات المضادة للطيران في برشلونة .

كان مهربو البيرينيه ، طيلة الحرب ، يخضعون لامتحانات قاسية ، كانوا يقومون بتمرير الرجال ، ومواد الدعاية ، في منطقة « سان خوان دي لوث » كان قائد فرقة الشرطة الفرنسية ، الذي لم اعد اتذكر اسمه للأسف ، يترك للمهربين امكانية المرور بكل حرية ، عندما كانوا يأخذون معهم منشورات جمهورية الى الطرف الآخر للحدود . ولكي أعبر له عن امتناني ــ ولو أنني كنت أتمنى لو أن ذلك قد اخذ الطابع الرسمي ــ أهديته سيفاً رائعاً اشتريته بنفسي ومن مالي الخاص ، من احــد المحلات القريبة من ساحة الجمهورية ، وارسلته اليه « من اجل الخدمات المقدمة الى الجمهورية الاسبانية » .

وحكاية اخيرة ، هي حكاية « غارثيا » ، التي تظهر تشابك العلاقات التي كانت أحياناً تفرض التعاون مع الفاشيين .

« غارثيا » لم يكن أكثر من قاطع طريق ، وغد ، وكان يعتبر نفسه ، وبكل بساطة اشتراكياً . كان في الأشهر الاولى للحرب ، قد احــدث مع مجموعة صغيرة من القتلة ، « فرقة الفجر اليسارية » . كانوا يدخلون

في الصباح الباكر الى احد البيوت البورجوازية ، فيأخذون الرجال « في نزهة » ، ويغتصبون النساء ، وينهبون كل ما كان يصل الى ايديهم .

كنت في باريس عندما جاء الينا نقابي فرنسي ، كان يعمل على ما أعتقد ، في أحد الفنادق ، ليقول لنا أن اسبانيا يهيىء نفسه للابحار الى امريكا الجنوبية ، آخذاً معه حقيبة ملأى بالجواهر المسروقة . كان الموضوع يتعلق بغارثيا الذي كان قد حالفه الحظ بمغادرة اسبانيا ، وهو يسافر تحت اسم مزور .

كان « غارثيا » الذي يبحث عنه الفاشيون بكل وسيلة ، عبارة عن احدى الوصمات في جبين الجمهورية . نقلت المعلومات الى السفير ، وكان على الباخرة أن تتوقف في « سانتا كروث دي تينيريفه » الواقعة تحت سلطة الفرنكويين . ولم يتردد السفير في اعلامهم بالأمر ، عن طريق سفارة محايدة ، ولدى وصول « غارثيا » الى « تينيريفه » جرى التعرف عليه . فأعتقل وأعدم .

حلف كالاندا

عندما بدأت الاضطرابات ، تلقى الحرس المدني أمراً بمغادرة « كالاندا » للتمركز في « سرغوسه » . وقبل انسحابه قام الضباط بتسليم السلطة ، ومهمة المحافظة على النظام في القرية الى ما يشبه المجلس المؤلف بشكل رئيسي من « الأعيان » .

كان أول اهتمامات المجلس ، هو اعتقال عدد من الناشطين البارزين من بينهم فوضوي معروف ، وعدد من الفلاحين الاشتراكيين ، والشيوعي الوحيد المعروف في كالاندا .

في بداية الحرب ، عندما وصلت القوات الفوضوية من برشلونة وهددت كالاندا ، توجه الاعيان الى السجن وقالوا للسجناء :

ـ نحن في حالة حرب ، ولا نعرف من الذي سيربح ، لهذا فاننا نقترح عليكم حلفاً : نطلق سراحكم ، ونتعاهد ، كل سكان كالاندا ، بعدم ممارسة اي نوع من أنواع العنف ، بغض النظر عما سيكون عليه مصير الصراع .

وافق السجناء في الحال ، واطلق سراحهم . بعد أيام قلائل ، عندما دخل الفوضويون القرية ، كان أول ما فعلوه هو القيام باعدام اثنين وثمانين شخصاً ، وكان من بين الضحايا تسعة رهبان دومينيكيين ، وأكثر الأعيان (وقد اطلعت فيما بعد على القائمة) ، واطباء ومالكو اراض ، وحتى بعض السكان الفقراء الذين لم يكن لهم ذنب سوى انهم كانوا يظهرون تعبدهم .

كان الحلف يتطلع الى اخراج كالاندا من موجة العنف السائد ، وعزلها ضمن شكل من أشكال السلام المحلي ، بعيداً عن أية صراعات ، الا أنه لم يكن بالامكان تحقيق شيء من هذا القبيل . انه من الوهم الاعتقاد أن بالامكان الهروب من التاريخ ، من الزمن الذي نعيش فيه .

حدثت في كالاندا واقعة غير معتادة . (ولا أعرف ان كان قد حدث مثلها في قرى أخرى أيضاً) ، هذه الواقعة هي الاعلان العام عن الحب الحر . فذات يوم ، وبأمر من الفوضويين ، جاء مناد الى وسط الساحة الكبيرة ، وبعد أن نفخ في بوقه ، أعلن :

ـ أيها الزملاء ، اعتباراً من هذا اليوم ، تقرر الحب الحر في كالاندا .

ولا أعتقد ان هذا الاعلان ، الذي استقبل بما يمكن تصوره من الدهشة ، قد ترك ما يستحق الذكر من النتائج . بعض النساء اعتدي عليهن في الشارع ، اذ أمرن بالاذعان لممارسة الحب (الذي لا يمكن لاحد أن يعرف تماما ماذا كان في حقيقته) ، وأمام مقاومتهن الصلبة ، كن يتركن وشأنهن ، لكن النفوس كانت تتكدر ، حيث لم يكن من السهل تجاوز الصرامة الكاثوليكية ازاء هذا الحب الحر الذي اعلنه الفوضويون

وفي سبيل تهدئة الخواطر ، وافق صديقي « مانتيكون » حاكم اراغون ، ذات يوم ، على القاء خطاب من شرفة منزلنا ، اعلن فيه بكل وقار ، ان الحب الحر هو أمر غير معقول ، وان لدينا شيئاً آخر نفعله ، ولو لم يكن هذا الشيء سوى الحرب .

عندما وصلت القوات الفرانكوية ، بدورها ، الى كالاندا ، كان جميع أنصار الجمهورية في القرية قد فروا . أما الذين بقوا ، واستقبلوا الفاشيين ، فلم يكن لديهم أي مبرر للاحساس بالقلق ، الا ان ما حصل بالرغم من ذلك ، واستناداً الى أقوال « الاب باول » الذي جاء الي ذات يوم ، فيما بعد ، في نيويورك . ان حوالي مائة شخص (من مجموع خمسة آلاف هم سكان القرية الذين كان قد فر منهم الكثيرون) fueron pasades por las armos لقد كانت الرغبة ضارية في اجتثاث الجذور الجمهورية بصورة نهائية .

اختي « كونتشيتا » اعتقلت في سرغوسه ، وكانت طائرات جمهورية قد قصفت المدينة ، احدى القنابل اخترقت سقف الكنيسة الكبيرة ، مما سمح بالحديث عن معجزة) ، واتهم زوج اختي ، الضابط ، بانه شارك في هذه المسالة ، الا أنه كان في ذلك الوقت ، اسيراً بيد الجمهوريين ، واطلق سراح اختي التي كادت أن تعدم .

الأب باول ، الذي احضر الي معه « بورتريه » كان قد رسمها لي « دالي » أيام المدينة الجامعية ، سبق أن اضعت واحدة لبيكاسو ، واخرى لتانغي ، وثالثة لميروجيت انني تعاملت مع هذه المسالة دون عناية كافية) ، روى لي حكاية كالاندا خلال الحرب ، ثم قال لي ، بكل سذاجة :

ــ اهم شيء هو ان لا تذهب الى هناك !

وطبعا لم تكن لدي أدنى رغبة للذهاب ، وكان لا بد من أن تمر سنوات طويلة قبل ان اصبح قادرا على العودة الى اسبانيا .

عام ١٩٣٦ ، اصبحت للشعب الاسباني الكلمة ، للمرة الاولى في تاريخه ، فهاجم أولا ، وبصورة غريزية ، الكنيسة وكبار الملاك ، الذين يمثلون خصومه المغرقين في القدم ، واحرق الاديرة والكنائس ، وقتل الكهنة . كان الشعب يشير ، بكل وضوح ، الى عدوه المتوارث .

على الجانب الآخر ، الجانب الفاشي ، كانت الجرائم ترتكب من قبل اسبان اكثر غنى وثقافة . كانت ترتكب ـ ومثال كالاندا يمكن ان ينسحب على كل اسبانيا . وعلى الأقل ، في معظمها ، دون أية ضرورة ، بل وببرودة قاتلة .

ان هذا يسمح لي اليوم ، أن اقول ، وبكثير من صفاء الذهن ان الشعب يبقى أكثر نبلا ، اذ لا تخفى على احد ، الاسباب التي كانت لديه من اجل التمرد . واذا كنت خلال الاشهر الاولى من الحرب ، قد وقفت مرتاعاً أمام بعض الممارسات المبالغ فيها من قبل الجانب الجمهوري (وهو ما لم أحاول اخفاءه على الاطلاق) ، فان هذا الجانب سرعان ما أقام ، واعتبارا من شهرتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ نظاماً مشروعاً، أوقف كافة الاجراءات المسيئة .

طوال حياتي ، أثارت اهتمامي ، بشكل غير عادي ، الصورة الفوتوغرافية الشهيرة ، أمام كاتدرائية « سانتياغو دي كوميو ستيلا »، التي يشاهد فيها عدد من أصحاب المراتب الكنسية العالية ، مرتدين ثيابهم الكهنوتية المزخرفة ، وهم يؤدون التحية الفاشية الى جانب عدد من الضباط ، الرب والوطن يقفان هناك متشابكي الذراعين ، ولم يجلبا إلينا الا القمع والدماء .

لم أكن على الاطلاق خصماً متعصبا ضد فرانكو ، حتى انني على استعداد للاعتقاد بأنه قد تفادى أن يقتحم النازيون اسبانيا المنهكة .

وما اقوله لنفسي الآن ، بتاثير احلامي السلمية غير المؤذية ، ان الانطلاقة الاقتصادية الكبرى ، والثقافة الاكثر تطوراً ، اللتين كانتا

قائمتين في الجانب الآخر ، في الجانب الفرانكوي ، كان عليهما ان يوقفا الرعب . الا ان هذا لم يحصل . ولهذا السبب فانني في وحدتي ، مع كاسي من الـ « دراي مارتيني » ، اشك في مزايا المال وفي مزايا الثقافة .

امريكا ، مرة اخرى

عام ١٩٣٩ ، كنت في البرنيه السفلى ، في بايونا . كانت مهمتي كمسؤول عن الدعاية ، تتضمن العمل على اطلاق مناطيد صغيرة من فوق البرنيه حاملة المنشورات . كان بعض الأصدقاء الشيوعيين ، الذين اعدموا فيما بعد على أيدي النازيين ، مكلفين باطلاق المناطيد في الأيام التي كانت تبدو فيها الرياح مناسبة .

كان هذا النشاط يبدو لي مثيراً للضحك بعض الشيء ، فالمناطيد كانت تتجه حسب المصادفة ، والمنشورات تقع في اي مكان ، في الحقول في الغابات ، واي تأثير هذا الذي يمكن أن يكون لرزمة من الأوراق التي تصل الى حيث لا يعرف احد ؟ كان مبتكر هذه الوسيلة ، صحفي امريكي صديق لاسبانيا ، قدم الكثير من المساعدة للجمهورية .

قابلت آنذاك ، سفير اسبانيا في باريس « مارثيليتو باسكوا » المدير السابق للصحة العامة في اسبانيا ، ونقلت اليه عدم ارتياحي للأمر، اليس هناك من شيء افضل يمكن القيام به ؟

كانت تصور في الولايات المتحدة تلك الايام ، افلام تتناول الحرب الاسبانية،وقد مثل«هنري فوندا»في احدهما،وفي هوليود كان يجري التحضير لفيلم حول اخلاء « بيلباو » وكانت هذه الافلام تحوي اخطاء فادحة في بعض الأحيان ، واقترح علي « باسكوا » أن أعود الى هوليود لاتعاقد كمستشار تقني او تاريخي . كان قد بقي لدي بعض المال من رواتبي التي تقاضيتها خلال ثلاث سنوات ، وساعد بعض الاصدقاء ، من بينهم « سانتشيث فينتورا » ، وامريكية كانت قد قامت بالكثير من اجل الجمهورية الاسبانية ، في الحال ما كان ينقصني من اجل سفري وسفر زوجتي وابني .

كان « مشرفي القديم » «فرانك ديفيز» هو منتج الفيلم المتعلق باخلاء بيلباو توافقت في الحال على العمل كمستشار تاريخي ، واعطاني السيناريو ، شبه الجاهز ، لاقراه ، وطلب مني ان أبدأ عملي عندما يأتي الأمر من واشنطن . كانت الجمعية العامة للمنتجين الامريكيين ، وتنفيذا لتعليمات الحكومة ، تمنع ، بصورة تامة ، اي فيلم عن الحرب الاسبانية ، سواء أكان لصالح الجمهوريين أم الفاشيين .

بقيت لمدة اشهر في هوليوود ، وبدات نقودي تنضب شيئا فشيئا ؛ ولم أكن اعرف كيف سأدفع تكاليف العودة الى اوروبا ، كما انني أخذت ابحث عن وسائل لاكسب نفقات معيشتي ، حتى انني اتفقت على موعد مع « شابلن » لبيعه بعض الافكار ، الا ان شابلن ، الذي كان قد رفض التوقيع على نداء لصالح الجمهورية ، ـ وبالمناسبة كان جون واين يراس لجنة لصالح فرانكو ـ ، تخلف عن الموعد .

وللمصادفة ، فان احد هذه الافكار ، وكانت قد جاءتني في أحد الاحلام ، وهي عبارة عن مسدس يطلق الرصاصة بكثير من التراخي ، بحيث ان القذيفة كانت تسقط على الارض بمجرد خروجها من فوهة المسدس ، هذه الفكرة نفسها شاهدتها في « الديكتاتور العظيم » مع قذيفة المدفع الهائل . وهي مصادفة غريبة ، اذ أن شابلن لم يكن قد اطلع على فكرتي .

كان من المستحيل علي العثور على عمل . وذهبت لارى « رنييه كلير » الذي كان آنذاك احد المخرجين الاكثر شهرة في العالم ، وكان يرفض كل المشاريع التي تعرض عليه ، اذ لم يعجبه شيء منها . وعاهدت نفسي أن اقوم خلال الاشهر الثلاثة التالية بتصوير فيلم ، خوفا من ان اعتبر « نصابا اوروبيا » وكان الفيلم الذي جرى اختياره ، هو « تزوجت من ساحرة » ، الذي كان يبدو لي لاباس به . وبقيت اعمل في هوليوود ، طوال فترة الحرب .

كنت وحيدا ، دون مورد ، ومع ذلك فقد كتب الي « آل نواي » تسـاءلي فيما اذا كنت استطيع ايجاد عمل مناسب لـ«آلدوس هكسلي». كيف لي وأنا في مثل هذه الظروف ، ان استطيع مساعدة كاتب لامع ؟..

في تلك الايام ، وردتني اخبار انه قد تمت تعبئة دفعتي العسكرية ، وان علي الذهاب الى الجبهة . كتبت الى سفيرنا في واشنطن واضعا نفسي بتصرفه ، طالبا منه ان اعود وزوجتي الى الوطن ، فاجابني ان الوقت غير ملائم ، لان الموقف لم يكن واضحا ، وانهم عندما يحتاجونني سيستدعونني .

بعد اسابيع قليلة ، انتهت الحرب .

تركت هوليوود ، حين لم اعد استطيع ان افعل شيئا ، وقررت الذهاب الى نيويورك للبحث عن عمل . كانت فترة قاسية ، وكنت على استعداد لان اعمل في أي شيء .

حافظت نيويورك ، خلال وقت طويل، على شهرتها ، كمدينةمضيافة وكريمة ، يتوفر فيها العمل بسهولة ، تعرفت بميكانيكي كتلاني اسمه « غالي » كان قد جاء اليها منذ عام ١٩٢٠ ، مع صديق عازف كمان ، وكانا قد باشرا العمل بمجرد وصولهما : عازف الكمان في الفرقة الفيلهارمونية ، وغالي ، الميكانيكي ، كراقص في احد الفنادق الكبرى .

عرفني « غالي » بكتلاني آخر ، منخرط بشكل ما ، وسط مجموعة من الاوغاد ، كانت معروفة بانها تشكل نوعا من الـ « غانغستر » ، وتدير نقابة الطباخين ، اعطوني رسالة وقالوا لي بأن اتقدم الى احد الفنادق ، وكنت على ثقة من انني ساجد عملا في احد المطابخ ، مزودا بحماية جيدة.

الذي حصل ، هو انني لم اذهب الى هناك . كنت قد تعرفت بامرأة، أدين لها بالكثير ، هي الانكليزية « ايريس باري » المتزوجة من نائب رئيس متحف الفن الحديث « ديك آبوت » وكانت ايريس قد بعثت الي ببرقية تعدني فيها باعطائي مكانا للسكن ، واسرعت للقائها .

حدثتني عن مشروع كبير . كان « نيلسون روكفلر » يريد احداث لجنة للدعاية الموجهة الى دول امريكا اللاتينية تدعى « تنسيق الشؤون الامريكية الدولية » وكان المشروع ينتظر فقط اصدار الترخيص الحكومي، حيث لم يكن هناك اكتراث حقيقي بالدعاية ، وبخاصة في مجال السينما، لكن الحرب العالمية الثانية بدأت في اوروبا ، وعرضت علي « أيريس » العمل لصالح هذه اللجنة ، التي سيتقرر انشاؤها خلال وقت قصير . ووافقت .

قالت لي : « لكي يجري التعرف عليك قليلا ، ساطلب منك قبل أي شيء هذه المهمة: — واكدت ايريس في البداية ضرورة المحافظة على السرية — ، هناك سكرتير اول في السفارة الالمانية ، مكننا من ان يصل الينا ، بصورة سرية ، فيلمان المانيان دعائيان ، الاول هو « انتصار الارادة » لـ « ليني ريفنشتال » والثاني يستعرض غزو بولونيا من قبل القوات النازية ، أنت تعلم — اضافت ايريس — ، ان الاوساط الحكومية الامريكية ، على عكس الالمان ، لاتؤمن بفعالية الدعاية السينمائية ، تعال نرهم بانهم مخطئون ، خذ الفيلمين وقم باعادة عملية المونتاج لهما ، حيث انهما طويلان اكثر من اللازم . اختصرهما الى النصف ، الى عشرة أو اثني عشر فصلا ، وسنعرضهما على « من لديه صلاحية القرار » ليروا حجم امكانياتك .

عين لي مساعد الماني ، فمع انني كنت قد بدأت اتحدث الانكليزية بشكل لابأس بمساعدة الدروس المسائية ، الا انني كنت اجهل الالمانية بصورة شبه تامة (هذه اللغة التي كانت مع ذلك تجتذبني) . وحافظت على الترابط في خطب هتلر وغوبلز على الرغم من انني اختصر الى النصف .

استغرق العمل في غرفة المونتاج اسبوعين أو ثلاثة ، وكان الفيلمان مرعبين من الناحية الفكرية ، لكنهما كانا مصنوعين بشكل ممتاز ومؤثر . فمثلا ، كانت قد نصبت ، بمناسبة مؤتمر نورمبرغ اربعة اعمدة هائلة لمجرد تركيب معدات الاضاءة . سارت مهمتي بشكل ممتاز ، وجرى استعراض اجزاء قصيرة من الفيلمين اللذين قمت باعادة مونتاجهما ، امام

بعض اعضاء مجلس الشيوخ وفي بعض القنصليات . « رينيه كلير » و « تشارلي شابلن » شاهدا الفيلمين سوية ذات يوم ، وكان لكل منهما رد فعل مختلف عن الآخر . قال لي « رينيه كلير » الذي ذعر لقوة الفيلمين: « لاتعرضوهما ، والا قضي علينا » . اما شابلن ، فعلى العكس من ذلك، اخذ يضحك كالمجنون ، لدرجة وقع معها على الارض لشدة ما ضحك . لماذا ؟ هل كان ذلك بسبب « الديكتاتور » ؟ مازلت حتى اليوم لا استطيع ان افهم السبب .

كان « نيلسون روكفلر » خلال ذلك الوقت ، قد حصل على كل التراخيص اللازمة لتأسيس لجنة الشؤون الامريكية الدولية .

في الفترة نفسها ، جرى تنظيم حفل كوكتيل كبير في متحف الفن الحديث . قالت لي « ايريس باري » بأن احضر ، حيث سيكون هناك مليونير كبير تابع لروكفلر ، وهو الذي سيقرر امري بصورة نهائية .

في يوم الكوكتيل ، كان هذا الرجل ، يتصدر ، كملك ، واحدة من صالات المتحف ، والناس يقفون في صف ، منتظرين تقديم انفسهم اليه . وقالت لي ايريس وهي منهمكة تتنقل بين مجموعة وأخرى : « عندما أشير اليك تنتظم في الصف » .

تابعت المشاركة في هذا الاحتفال الغامض ، وانا انتظر ، برفقة « تشارلز لوتون » وزوجته « ايلسا لانشستر » ، اللذين عدت للقائهما مرارا فيما بعد . وعندما اشارت الي « ايريس » التحقت بالصف .. وانتظرت ، الى ان ، اخيرا ، اصبحت في حضرة المليونير الكبير .

— كم مضى عليك هنا ، سيد بونويل ؟

— حوالي ستة اشهر .

— شيء رائع !

في اليوم نفسه ، مع نهاية الكوكتيل ، وفي بار « بلازا » كانت لي معه جلسة حديث بحضور « ايريس » . سألني فيما اذا كنت شيوعيا ، واجبته بأنني كنت جمهوريا اسبانيا . ومع نهاية الحديث ، بدأ عملي في متحف الفن الحديث . في اليوم التالي ، كان لدي مكتب ، وحوالي عشرين موظفا ولقب « رئيس تحرير » .

مهمتي : اختيار افلام دعائية ضد النازية بمساعدة « ايريس باري » (التقيت بهذه المناسبة بجوزيف لوزي الذي أحضر لنا فيلما قصيرا) ، وتوزيعها بثلاث لغات ، الانكليزية والاسبانية والبرتغالية ، اذ كانت موجهة الى أمريكا الشمالية والجنوبية . كما قمنا بانتاج فيلمين لحسابنا الخاص .

كنت اسكن عند تقاطع شارع « ٦٨ » مع الجادة الثانية ، في قلب الحي النازي . مع بداية الحرب ، راحت تنطلق في شوارع نيويورك مظاهرات متتالية لصالح النظام النازي ، وكثيرا ما كانت تصطدم ، وبصورة عنيفة ، مع مظاهرات مضادة . وقد توقفت عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد المانيا .

كانت نيويورك خاضعة لنظام التعتيم الليلي الذي كان يأمر به الدفاع المدني ، وكانت هناك خشية من القصف . كما كانت تطبق تمارين الانذار في كل مكان ، وايضا في متحف الفن الحديث .

التقيت بعدد من اعضاء المجموعة السريالية : « أندريه بريتون » و « ماكس ارنست » و « مارسيل دوشان » و « سيليغمان » . الاكثر غرابة وبوهيمية في المجموعة ، الرسام « تانغي » ، كان ايضا في نيويورك متزوجا من اميرة ايطالية حقيقية ، كانت تعمل باستمرار على منعه من الكحول .

تابعنا جميعا نشاطاتنا خلال الحرب ، حتى انني شرعت مع «دوشان» و « فرنان ليجيه » في نيويورك بتصوير فيلم « بورنوغرافيا » ، على شرفة احد المباني . لكن المخاطرة بدت لنا اكبر من اللازم : السجن عشر سنوات .

التقيت في نيويورك ايضا بـ « سانت ــ اكسوبيري » الذي كنت اعرفه ، وكان يدهشنا بافكاره وتصوراته . كنت التقي ايضا بـ « كلود ليفي ــ شتراوس » الذي كان يشارك احيانا في استفتاءاتنا السريالية ، و « ليونورا كارنيغتون » التي كانت قد غادرت حديثا احد البيوت الصحية في « سانتا ندير » باسبانيا ، حيث كانت قد ادخلتها عائلتها الانكليزية .

دالي

كان « دالي » ، الذي قد اصبح مشهورا ، يقيم ايضا في نيويورك ، وكانت قد مضت عدة سنوات بعد ان سار كل منا في طريقه . كنت قد ذهبت اليه في باريس في شباط (فبراير) ١٩٣٤ ، في اليوم التالي للاضطرابات التي وقعت هناك ، متاثرا بما كان يحصل ، ووجدت «دالي»، الذي كان قد تزوج من « غالا » ، وقد أوقف ، كموديل ، امراة عارية ، على الاربع ، بطريقة زادت من حجم اردافها . واجاب على انفعالي باقصى ما يمكن من عدم الاهتمام .

فيما بعد ، وخلال الحرب الاسبانية ، اظهر في اكثر من مناسبة تعاطفه مع الفاشيين ، لدرجة انه اقترح على الكتائب نصبا تذكاريا غريبا، عبارة عن جمع وخلط عظام جميع من ماتوا في الحرب ، بحيث يتم بناء حوالي خمسين قاعدة مابين مدريد والاسكوريال ، يجري فوق كل منها تركيب هيكل من العظام الحقيقية . وستكون هذه الهياكل باحجام متدرجة في الكبر ، فالاول ، لدى الخروج من مدريد لن يتجاوز طوله عشرة سنتيمترات ، اما الاخير ، لدى الوصول الى الاسكوريال ، فسيبلغ ثلاثة او اربعة امتار .

وكما هو متوقع ، فقد رفض المشروع .

تحدث عني كملحد ، في كتابه « الحياة السرية لسالفادور دالي » الذي ظهر في ذلك الوقت ، وكان هذا اكثر خطورة من الاتهام بالشيوعية .

في الفترة نفسها ، بدأ شخص يدعى « برنيدير غاست » ، وكان ممثلا للمصالح الكاثوليكية في واشنطن ، باستخدام نفوذه في الأوساط الحكومية لابعادي عن المتحف . لم أكن شخصيا قد اطلعت على شيء من هذا الامر ، لكن عددا من اصدقائي قام باخماد كل ما كان يثار ، خلال عام كامل ، ودون ان يطلعني احد منهم حول ما كان يجري .

ذات يوم ، حين وصلت الى مكتبي ، وجدت سكرتيرتي تبكيان ، واطلعتاني في المجلة السينمائية « موشن بيكتشر هيرالد » ، على مقال جاء فيه بان شخصية غريبة تدعى « لويس بونويل » مؤلف فيلم فضائحي بعنوان « العصر الذهبي » يتولى منصبا رفيعا في متحف الفن الحديث .

ولم أكترث،اذ كنت في مرات سابقة قد شتمت اوعوملت بعدم الاهتمام لكن السكرتيرات قلن : « لا ، لا ، هذا خطير جدا . وذهبت الى صالة العرض ، واذ بالعارض ، الذي كان قد قرأ المقال ايضا ، يستقبلني وهو يشير باصبعه قائلا : « صبي فاسد » .

ذهبت لأرى « ايريس باري » فوجدتها تبكي أيضا ، كما لو كنت سأوضع على الكرسي الكهربائي . منذ حوالي عام ، حين نشر كتاب دالي يمارس ديوان الولاية بتأثير من « بريند يرغاست » ، ضغوطا على المتحف لاخراجي من العمل ، والان ، اصبحت الفضيحة عامة ، بسبب هذا المقال

حصل ذلك ، في نفس اليوم الذي كان فيه الاسطول الامريي يقوم بانزال قواته على الشواطيء الافريقية . اتصلت « ايريس » بمدير المتحف ، السيد « بار » ، الذي نصحني بان اصمد .

فضلت ان استقيل ، واصبحت في الشارع ، بين عشية وضحاها . وعدت لأعيش مرحلة قاسية اخرى ، زاد سوءا أن « العرق الأنسر » كان قد عاد يؤلمني ، بحيث كنت اضطر بعض الاحيان للاستعانة بعكاز . وبفضل « فلاديمير بوزنر » تعاقدت لتسجيل نصوص افلام وثائقية حول القوات الامريكية ، وجهاز الهندسة والمدفعية ... الخ .. هذه

الافلام التي كان يجري توزيعها مباشرة في كافة ارجاء امريكا اللاتينية . كنت آنذاك في الثالثة والاربعين .

بعد استقالتي ، تواعدت مع « دالـي » ذات يـوم في بار « شيري نيذيرلاند » ، ووصـل في الموعد تماما ، وطلب شمبانيا . قلت له وانا في ثورة من الغضب ، اكاد معها اضربه ، بانه خنزير ، وانني اصبحت الان في الشارع بسببه . واجابني بهذه العبارة التي لن انساها ابدا :

ـ اسمع ، لقد وضعت هذا الكتاب ، لكي اجعل منه دعامة لي انا ، وليس لـك .

وامسكت عن صفعه ، وعلى الرغم من اننا افترقنا يومها كصديقين الى حد ما ، بمساعدة الشمبانيا والذكريات المشتركة والمشاعر ، الا ان الشرخ كان عميقا ، ولم التق به ، فيما بعد سوى مرة واحدة .

كان « بيكاسو » رساما . ولم يكن اكثر من رسام . الا ان « دالي » كان أكثر من ذلك بكثير . وعلى الرغم من بعض المظاهر الشخصيةالكريهة، مثل هوس الدعاية الشخصية ، والميول الاستعراضية ، والبحث المحموم على الاشارات والعبارات غير المألوفة . انه عبقري حقيقي وكاتب ومحدث ومفكر لا مثيل له . كنا صديقين لوقت طويل . وترك لدي عملنا المشترك في « كلب اندلسي » ذكرى رائعة لانسـجام مطلق في الاذواق .

كان ينفي كونه الاكثر بعدا ، في العالم ، عن ان يكون انسانا عمليـا حيث كان يعتبر نفسه رجل اعمال مدهش ، ورجل مال متمرس . في الحقيقة لم يكن لديه أي ميل الى المال حتى لقائه ب « غالا » . فمثلا ، كان على « جان » زوجتي - ان تهتم بحجز بطاقة سفره في القطـار ، ذات يوم ، كنا في مدريد ، مع « لوركا » ، فطلب اليه « فيديريكو » ان يعبر شارع « الكالا » لحجز تذاكر دخول الى « ابولو » حيث كان يقدم احد عروض الـ « ثارثويلا »(*) وذهب دالي ، وبعد أن غاب نصف ساعة

(*) شكل من اعمال الاوبريت الاسبانية .

كاملة ، عاد دون تذاكر وهو يقول : « لا أفهم شيئا ، لا اعرف كيف يمكن القيام بذلك » .

وفي باريس ، كان على عمته أن تأخذه من ذراعه من اجل عبور الشارع .. وعندما كان يدفع ، كان ينسى ان يطلب الباقي .... وكل شيء كان على هذا المنوال . وتحت تأثير « غالا » ، التي نومته مغناطيسيا انتقل من هذا التطرف الى نقيضه ، وجعل من المال (والأفضل أن يقال ، الذهب) إلها سيطر على السنوات التالية من حياته . لكنني متأكد من أنه مازال حتى اليوم ، يفتقر الى أي اتجاه عملي حقيقي .

ذات يوم ، ذهبت لزيارته في فندقه بمونمارتر ، ووجدته عاريا من وسطه وما فوق ، وقد وضع ضمادا على ظهره ـ كان قد اعتقد ان هناك « بقة » أو حشرة أخرى ـ كان هناك في الحقيقة دمل أو ثؤلول ـ ، فجرح ظهره بموس حلاقة ، وسالا دمه بغزارة ، وارسل صاحب الفندق لاستدعاء طبيب . كان هذا كله بسبب « بقة » وهمية .

كان يروي الكثير من الأكاذيب ، ومع ذلك فلم يكن قادرا على الكذب . فمثلا ، ولكي يثير استغراب ودهشة الجمهور الامريكي ، كتب ذات يوم انه كان مرة يزور متحفا للتاريخ الطبيعي . وشعر باثارة شديدة بسبب الهياكل العظمية للديناصورات ، لدرجة وجد نفسه معها مضطرا الى ممارسة الجنس مع « غالا » في أحد الممرات . كان يكذب بشكل واضح ومع ذلك كان يشعر بانبهار تجاه ذاته وتجاه ما يقوله ، من انه سيحقق تأثيرا يوازي تأثير الحقيقة المطلقة .

لم تكن له عمليا حياة جنسية ، كان لديه نزوع الى التخيل ، مع ميول سادية طفيفة . وعندما كان شابا ، كان يسخر من اصدقائه الذين يحبون ويبحثون عن النساء . لم يكن لديه أي ميل لممارسة الجنس ، الى ان جاء ذلك اليوم الذي ازالت فيه « غالا » بكارته ، حينها كتب الي رسالة من ست صفحات ، يشرح لي فيها ، على طريقته ، روائع الحب الجسدي .

الأب

لويس بونويل ١٩٠٧

طبول كالانديا

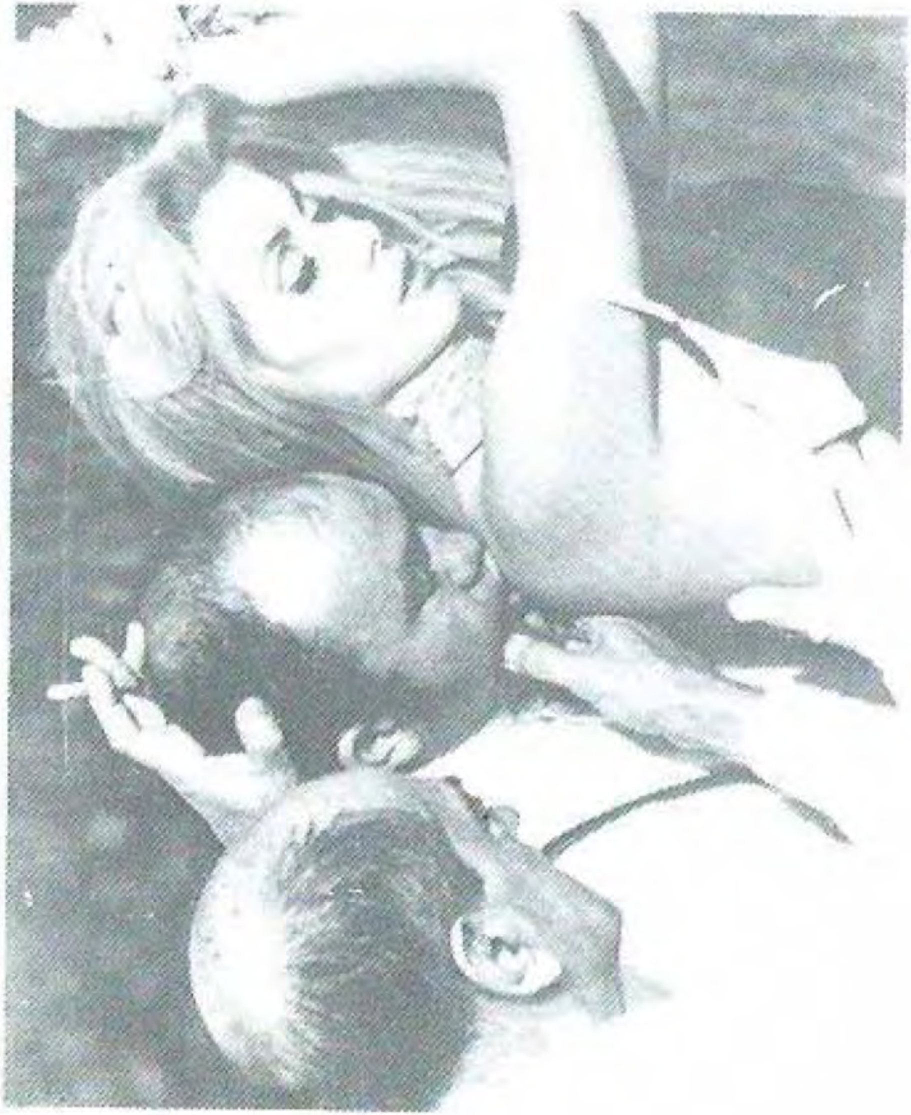

حسناء النهار

لويستانا

مع لوركا ١٩٢٤

الأم

بونويل ودالي في فيغيراس ١٩٢٨ .

سمعان العمودي

كانت « غالا » هي المرأة الوحيدة التي مارس معها الحب بشــكل حقيقي . وقد وصل الى اغواء نساء اخريات ، وبشكل خاص «مليرنيرات امريكيات ، لكنه كان يكتفي ، مثلا ، بتعريتهن في شقته ، ومن ثم يصرفهن دون أن يفعل شيئا .

عندما ذهب للمرة الاولى الى نيويورك ، في أوائل الثلاثينات ، في زيارة قام بتنظيمها احد تجار اللوحات . قدم الى كبار اصحاب الملايين ، الذين كان يشعر تجاههم بضعف حقيقي.وذات يوم دعي الى حفلةتنكرية كانت أمريكا انذاك بكاملها ، واقعة تحت تأثير صدمة اختطاف الطفــل « ليندبرغ » ابن الطيار الشــهير ، وجاءت « غالا » الى الحفلة مرتدية ثياب أطفال ، وقد لطخت وجهها ورقبتها وكتفيها بالدم ، وقال دالي وهو يقدمهــا :

ــ لقد لبســت مثل ابن « ليندبرغ » المقتول .

واستقبل هذا بصورة سيئة جدا ، اذ كان يتعلق بشخصية شــبه مقدسة ، وبحكاية لا يمكن المساس بها ، تحت أي عذر . وعنف دالي بشدة من قبل تاجره ، فتراجع بــرعة ، وقال للصحفيين بطريقة تحليلية محكمة بأن قناع « غالا » كان عبارة عن قناع فرويدي .

ولدى عودته الى باريس ، كان عليه أن يواجه المجموعة . فغلطتــه كانت خطيرة . وروى لي « بريتون » بنفسه . أن « سلفادور دالي » جثا على ركبتيه في ذلك الاجتماع الذي لم احضره . بعينين دامعتين ويدين مضمومتين الى صدره . وهو يقسم ان الصحفيين قد كذبوا ، وانه كان يقول ويؤكد باستمرار ان الامر كان مستوحى من ابن « ليندبرغ »المقتول.

بعد هذه الحادثة بكثير، عندما كان يعيش في نيويورك، في الستينات، استقبل ذات يوم ، ثلاثة مكسيكيين ، كانوا يقومون بالتحضير لانتــاج فيلم . كان « كارلوس فونتيس » قد كتب السيناريو ، وكلف « خوان ابانييث » بالاخراج ، وكان من بين هؤلاء ، مدير الانتاج « اميريغو » .

لم يطلبوا من « دالي » سوى شيئا واحدا : السماح بتصويره وهو يدخل الى بار « سان ريجيس » متجها الى طاولته المعتادة ، مصطحبا ، كعادته كل يوم ، نمرا صغيرا ، مربوطا بسلسال من الذهب .

استقبلهم دالي في البار ، وأحالهم ، مباشرة ، الى « غالا » التي تتولى عادة مثل هذه الامور .

استقبلت « غالا » الرجال الثلاثة ، دعتهم الى الجلوس وسألتهم :

ــ ماذا ترغبون ؟

قدموا طلبهم ، وأصغت اليهم « غالا » الى أن سألتهم فجأة :

ــ هل تحبون البيفتيك ؟ البيفتيك الجيد ، السميك والطازج ؟

حاروا قليلا ، ظنا منهم انها تدعوهم الى الغداء ، ثم اجاب الثلاثة بالايجاب . حينئذ قالت لهم « غالا » :

ــ « دالي » أيضا يحب « البيفتيك » ، وهل تعرفون كم يكلف البيفتيك الجيد ؟

ولم يعرفوا بم يجيبون .

حينئذ طلبت منهم غالا ثمنا باهظا ــ عشرة آلاف دولار ــ ، فغادر الرجال الثلاثة دون أية نتيجة .

كان لدى « دالي » ، مثل « لوركا » ، خوف هائل من الألم الجسدي ومن الموت . كان قد كتب ذات مرة ، انه لا يعرف شيئا اكثر اثارة من عربة ملأى بعمال اموات ، نتيجة دهسهم في حادث .

اكتشف الموت ، في يوم جاء فيه الى كاتالونيا امير كان يعرفه هو الأمير

« مدينافي » ، بدعوة من الرسام « سيرت » ، فقتل في حادث سيارة ، كان سيرت في ذلك اليوم ومعظم مدعويه على متن يخت في عرض البحر ، وباستثناء دالي الذي لم يذهب معهم وبقي « بالاموس » للعمل . وكان هو أول من عرف بموت الأمير « مدينافي » وحضر الى مكان الحادث وهو شديد الاضطراب .

كان موت أمير ، بالنسبة اليه . موتا حقيقيا . لا مجال لمقارنته على الاطلاق ، بعربة ملأى بجثث العمال .

لم نعد نلتقي منذ نحو خمسة وثلاثين عاما ، ذات يوم من عام ١٩٦٦ حينما كنت اعمل في مدريد مع « كاريير » في سيناريو « حسناء النهار » ، وصلتني من « كاداكيس » برقية غير عادية . بالفرنسية (منتهى السنوبيزم) ، وبأسلوب مفخم ، يطلب منهم فيها : ان اذهب اليه حالا . لكي نكتب معا تتمة « كلب أندلسي » . وجاء فيها بالحرف الواحد « لدي أفكار ستجعلك تبكي من الفرح » . واضاف بأنه على استعداد للحضور الى مدريد . اذا كنت لا استطيع الذهاب الى « كاداكيس » .

وأجبته بالمثل المعروف ، الذي يقول «المياه الضحلة لا تدير الطاحون» بعد ذلك بفترة قصيرة ، بعث الي ببرقية اخرى يهنئني فيها بـ « الاسد الذهبي » ، الذي فاز به « حسناء النهار » ، في البندقية ؛ كما يطلب مني المشاركة في العمل بمجلة على أهبة الصدور . تحت اسم « الخرتيت » . ولم أجبه .

في عام ١٩٧٩ ، وبمناسبة المعرض الكبير لدالي في باريس بمتحف « بوبورغ » وافقت على اعارته اللوحة التي كان قد رسمها لي عندما كنا طلابا في مدريد ، وهي لوحة نفذها بكثير من الدقة ، عن طريق تقسيمها الى مربعات صغيرة ، حدد فيها بالضبط ابعاد انفي وشفتي ، واضاف اليها ، بناء على طلبي ، انساقا من الغيوم الطويلة ، كانت قد أعجبتني في لوحة لـ « مانتيغنا » .

كنا سنلتقي في باريس ، بمناسبة هذا المعرض . غير انني رفضت

الحضور ، عندما تبين لي أنه ستكون هناك مادبة رسمية مع مصورين ودعايــة .

عندما افكر فيه ، على الرغم من كل ذكريات شبابنا ، وعلى الرغم من التقدير الذي مازلت اكنه له حتى اليوم ، الى جانب أعماله ،يستحيل علي أن أغفر له ميوله الاستعراضية المفرطة في الانانية ، وتاييده الوقح للفرنكوية ، وقبل هذا وذاك كراهيته المعلنة للصداقة .

قبل عدة سنوات ، قلت في لقاء صحفي ، انني ، رغم كل شيء ، يسعدني أن اتناول معه كاسا من الشمبانيا قبل أن أموت . وقد قرأ هو اللقاء ، وقال « وأنا ايضا ، لكنني لم أعد أشرب » .

★ ★ ★

هوليوود ، تتمة ونهاية

كنت اذن ، في نيويورك دون عمل ، عام ١٩٤٤ ، اعاني من هجمة شديدة لـ « العرق الانسر » ، وكاد أحد الاخصائيين في نيويورك أن يحولني بصورة نهائية الى كسيح ، بسبب فظاظة اسلوبه في العلاج . ودخلت ذات يوم ، بمساعدة العكازين ، احد مكاتب « الاخوة وارنر » ، حيث عرض علي ان اعود من جديد الى لوس انجلس للعمل في نسخ الافلام الناطقة بالاسبانية . ووافقت .

قمت بالرحلة ، بالقطار ، مع زوجتي وولدي الاثنين (الثاني رافائيل ولد في نيويورك عام ١٩٤٠) . كان العرق الانسر يلزمني بالنوم فوق لوح خشبي ، ولحسن الحظ ، فقد التقيت في لوس انجلس باخصائية ، امرأة هذه المرة ، استطاعت ، خلال شهرين او ثلاثة من العناية اللطيفة جدا ، أن تريحني من هذه المشكلة ، بصورة نهائية .

في هذه المرة ، بقيت في لوس انجلس لمدة سنتين . في السنة الاولى عشت من عملي بصورة طبيعية ، أما في السنة الثانية ، وكنت قد فقدت عملي ، فقد عشت بما كنت قد ادخرته من عملي في السنة السابقة . كانت المرحلة التي تصور فيها الافلام بنسخ مختلفة اللغات ، قد انقضت ، واصبح واضحا ، مع نهاية الحرب ، ان العالم بكامله بدا يظهر حرصه على المنتجات الامريكية ، وعلى الممثلين الامريكيين ، ففي اسبانيا مثلا ، كان كل شيء يشير الى ان الجمهور اخذ يفضل أن يرى « همفري بوغارت » وهو يتكلم الاسبانية — ولو ان الدوبلاج كان سيئا بشكل لا يصدق — ، على ان يقوم ممثل اسباني باداء الدور نفسه . واستطاع الدوبلاج ان يكسب السباق بصورة نهائية ، واخذ هذا الاسلوب ينتشر بسرعة كبيرة ، الا ان ذلك لم يكن يتم في هوليوود ، بل في البلد الذي يعرض فيه الفيلم .

مشاريع غير مجدية

خلال فترة الاقامة الثالثة هذه ، عدت لالتقي « برينيه كلير » بين الحين والآخر ، وكذلك بـ « أيريك فون شتروهايم » الذي أكن له الكثير من الود . ومع انني كنت قد قررت التخلي نهائيا عن العمل في السينما ، الا انني كنت اقوم ، مع ذلك ، بعض الاحيان ، بتدوين فكرة ما ، في بضع صفحات ، مثل حكاية الفتاة المفقودة ، التي يبحث عنها والداها ، بينما تكون هي معهما ، (وهذا موقف استخدمته بعد ذلك بكثير في « شبح الحرية ») ، أو حتى فكرة فيلم من فصلين ، يقدم بعض الشخصيات الانسانية التي تسلك سلوك الحشرات ، كالنحلة أو العنكبوت ، كما تحدثت أيضا عن مشروع فيلم مع « مان راي » .

ذات يوم ، وخلال نزهة في السيارة ، اكتشفت مزبلة لوس انجلس ، المترامية الاطراف .. وهي عبارة عن حفرة يقرب طولها من الالفي متر ، وبعمق يبلغ ما بين مائتي وثلاثمائة متر . كان هناك كل شيء ، قمامة ، بيانوهات ، بيوت كاملة .. وراء الحفرة ، فوق مساحة خالية ، وسط اكوام النفايات ، كان هناك تبيان او ثلاثة بيوت صغيرة ماهولة .

شاهدت هناك ، فتاة ذات اربعة عشر أو خمسة عشر عاما ، تخرج من أحد هذه البيوت ، وتصورت أنها كانت تعيش حب في هذا « الديكور » من نهاية العالم . واعرب « مان راي » عن موافقته على العمل معي ، لكن كان من المستحيل أن تجد المال .

عملت في الوقت نفسه مع الكاتب الاسباني « روبين بارثيا » الذي كان أيضا بين العاملين في الدوبلاج ، في سيناريو فيلم من افلام الغموض ، هو « خطيبة منتصف الليل » ، كان يتناول ، على ماأذكر ، عودة ظهور فتاة ميتة .. الا انها حكاية عقلانية في اساسها ، حيث يتم تفسير كل شيء في النهاية ، لكن لم تتوفر لهذا المشروع امكانية الانتاج .

حاولت كذلك أن أعمل لصالح « روبرت فلوري » الذي كان يحضر

لـ « الوحش ذو الاصابع الخمسة » ، وقد طلب مني بكثير من الود ان اكتب مقطعا من الفيلم ، وكان سيقوم ببطولته « بيترلوريه » ، وتصورت مشهدا ـ ترى فيه يد حية ، هي الوحش يدور في مكتبة . واعجب كل من « فلوري » و « بيتر لوريه » ، بعملي ، وذهبا الى مكتب المنتج ليحدثاه عنه وطلبا مني أن انتظر عند الباب . ولدى خروجهما ، بعد قليل ، اشار إلي « فلوري » بحركة سلبية من ابهامه . لقد رفض العمل .

فيما بعد ، شاهدت الفيلم في المكسيك ، وكان يتضمن مشهدي بالكامل . وهيأت نفسي للتقدم باعتراض قضائي . حين قال لي أحدهم : « الاخوة وارنر لديهم اربعة وستون محاميا في نيويورك وحدها . اذهب لمجابهتم ان اردت »

ولم افعل شيئا .

التقيت في لوس انجلس من جديد بـ « دينيس كوال » ، وكنت قد تعرفت بدينيس في باريس ، عندما كانت متزوجة من « بيير باتشيف » ، الذي قام بالدور الرئيسي في « كلب اندلسي » . وفيما بعد ، تزوجت من « رولاند توال » .

سعدت كثيرا لرؤيتها ثانية ، وسألتني فيما اذا كنت ارغب في ان احقق في باريس فيلما عن « بيت برناردا آلبا » للوركا . لم يكن هـذا العمل يثير اعجابي كثيرا ، وان كان حقق نجاحا هائلا في باريس . الا انني وافقت على عرض « دينيس » .

وحيث انها كانت ستمضي ثلاثة او اربعة ايام في المكسيك ، ـ وتتابع هنا بعض مسارات المصادفة ـ ، فقد رافقتها . ومن فندق « مونتيخو » في المكسيك العاصمة ، التي كنت أطأ ارضها للمرة الاولى ، اتصلت الى نيويورك مع « باكيتو » اخي « فيديريكو » ، الذي اخبرني ان بعض المنتجين من لندن عرضوا عليه ضعف ماعرضته « دينيس » لقاء حقوق العمل ، وفهمت ان كل شيء قد انتهى ، ونقلت هذا لدينيس .

ومرة أخرى ، وجدت نفسي دون أي مشروع عمل في مدينة مجهولة ، حين هيأت لي « دينيس » لقاء مع المنتج « أوسكار دانسيغرس » الذي كنت قد تعرفت به في « دوماغو » بباريس ، قبل الحرب عن طريق « جاك بريفير »

سألني أوسكار :

— لدي شيء من اجلك . هل تحب ان تبقى في المكسيك ؟

عندما يسألوني ، فيما اذا لم أكن قد ندمت لكوني لم اتحول الى مخرج هوليودي مثل كثيرين من المخرجين القادمين من أوروبا ، اجيب باني لا أعرف . الحظ لا يأتي الا مرة واحدة ، ولا يكاد يدرك . ومع ذلك ، فيبدو لي ، انه كان لافلامي أن تكون مختلفة كليا في هوليود ، مع اتباع الاسلوب الامريكي ، بما في ذلك تلك المخصصات المالية التي لا يمكن أن تقارن على الاطلاق مع الميزانيات المتواضعة التي كانت توضع تحت في المكسيك . لكن اية افلام ؟ لا أعرف . اذ انني لم أقم بتحقيقها . وبالنتيجة فانني لست نادما على شيء .

بعد ذلك بسنوات عديدة ، وفي مدريد ، دعاني « نيكولاس راي » للغداء . وتحدثنا في أشياء متنوعة ، ثم قال لي :

— ما الذي تفعله ، بونويل ، لكي تحقق أفلاما بهذه الاهمية ، بميزانيات متواضعة جدا ؟

واجبته ، بأن الامر بالنسبة لي ، هو اما ان أفعل ذلك أولا افعل شيئا ، وان هذه المسألة ليست محل نقاش ، اذ انني ارتب حكايتي وفق كمية المال المتوفر . في المكسيك لم يرتفع عدد أيام التصوير لدي اطلاقا عن أربعة وعشرين ، « باستثناء روبنسون كروزو ، وسأقول فيما بعد لماذا » ، لكنني كنت اعرف ان تواضع ميزانياتي كان ايضا شرط حريتي . وقلت له :

ـسانك كمخرج مشهور ـ وكان يعيش أيامها فترة أمجاده ـ ، لديك خبرة ؛ يمكنك أن تبيع لنفسك اي شيء . حاول الحصول على هذه الحرية . فمثلا ، تخلَّ عن تصوير فيلم بخمسة ملايين دولار ، وصور الآن فيلما بأربعمائة ألف ، وسترى الفارق بنفسك .

فصرخ :

ـ لا يمكن مجرد التفكير بهذا ، فلو حصل شيء من هذا القبيل ، يظن الجميع في هوليود أنني بدأت انحدر ، وأن أموري تسير بصورة سيئة للغاية . سأنتهي ، ولن أعود قادرا على تصوير أي شيء .

كان يتحدث بكل جدية ، وقد أحزنني الحديث فعلا . فمن ناحيتي ، اعتقد انه كان من المستحيل أن ارتاح لاسلوب عمل كهذا .

طوال حياتي ، لم أصور الا فيلمين ناطقين بالانكليزية ، مولتهما شركات امريكية ، واذكرهما بكل رضى ، « روبنسون كروزو » عام ١٩٥٢ و « الشابة » عام ١٩٦٠ .

روبنسون كروزو

اقترح عليَّ كل من المنتج « جورج بيير » وكاتب السيناريو الشهير « هوغو تبلر » الذي كان يتكلم الاسبانية بطلاقة، فكرة «روبنسون كروزو» لم أكن متحمسا في البداية ، الا انني اخذت اهتم بالموضوع خلال التصوير وادخلت بعض عناصر الحياة الجنسية (حلم وحقيقة) ، ومشهد الهذيان الذي يعود فيه روبنسون لمشاهدة ابيه .

خلال التصوير ، الذي جرى عند شاطىء المكسيك على المحيط الهادىء ، قريبا من « مانثانيو » وجدت نفسي ، عمليا ، تحت امرة مدير التصوير « الكس فيليبس » ، وهو امريكي كان يعيش في المكسيك ، وكان التصوير يجري للمرة الاولى بايستمان كولور في امريكا . كان « فيليبس »

ينتظر وقتا طويلا قبل أن يقول لي انه بالامكان التصوير ! وكان هذا سبب استغراق العمل ثلاثة اشهر ، وهي حالة فريدة بالنسبة اليّ ! ، وكانت المواد المصورة ترسل يوميا الى لوس انجلس .

حقق « روبنسون كروزو » نجاحا كبيرا في كل مكان تقريبا ، وعرض هذا الفيلم ، الذي لم تصل تكاليفه الى ثلاثمائة الف دولار ، مرات عديدة في التلفزيون الامريكي . والى جانب بعض الذكريات غير السارة لايام التصوير ، مثل ضرورة قتل خنزير بري صغير ، فانني اتذكر مأثرة السباح المكسيكي الذي واجه الامواج العالية في بداية الفيلم ، كبديل لروبنسون . خلال ثلاثة أيام في العاشر من شهر تموز (يوليو) ، تنطلق أمواج هائلة في هذا المكان من الساحل . واحد من سكان مرفأ صغير هناك ، متدرب على هذه المواجهة ، قام بتلك المهمة بصورة رائعة .

تقاضيت عن هذا الفيلم الناطق بالانكليزية ، الذي انتجه « اوسكار دانسيغرس » وحقق نجاحا كبيرا ، عشرة الاف دولار ، وهو مبلغ زهيد جدا . لكنني لم أكن أميل على الاطلاق لمناقشة المسائل المالية ، كما لم يكن لديّ وكيل او محام يدافع عن مصالحي . وقد عرض علي « بيير » و « بتلر » عشرين بالمائة من حصتيهما عندما عرفا بحقيقة المبلغ الذي تقاضيته ، لكني رفضت .

لم اناقش في حياتي ، المبلغ الذي كان يعرض عليّ في اي عقد عمل . لست قادرا على ذلك اطلاقا ، كنت اقبل أو ارفض ، حسب الحالة ، لكني لم اكن اناقش على الاطلاق . ولا اعتقد بانني قمت باي عمل لا ارغب به لمجرد الحصول على المال . وعندما ارفض ، فليس هناك اي اغراء يمكن أن يغير من موقفي . وأستطيع ان أقول بأن ما لا افعله من اجل دولار واحد لا افعله من اجل مليون دولار .

الشابة

يعتقد الكثيرون ان « الشابة » صور في كارولينا الجنوبية بالولايات

المتحدة ، لكن هذا غير صحيح . فالفيلم صور بكامله في المكسيك في منطقة « كابولكو » وفي استوديوهات « تشوروبوسكو » في مدينة مكسيكو . « بيير » كان المنتج ، و « وبتلر » كتب السيناريو .

كان جميع التقنيين من المكسيك ، وكان الممثلون امريكيين شماليين باستثناء « كلاوديو بروك » ، الذي قام بدور الراعي وكان يتكلم انكليزية سليمة . وقد عدت من ثم لالتقي بـ « كلاوديو » في « سيمون الصحراء » و « الملاك المدمر » و ((**الطريق اللبنية**)) .

كانت الفتاة التي قامت بدور « الشابة » ذات الثلاثة عشر أو الاربعة عشر عاما ، لا تمتلك اية تجربة سابقة ولا اية موهبة خاصة ، فضلا عن ان ابويها المخيفين لم يكونا ينفصلان عنها لحظة واحدة ، وهما يحثانها بالاستسلام الكامل للمخرج واطاعته بصورة كاملة . كانت تبكي احيانا – ربما بسبب كل هذه الضغوط ، وبسبب عدم خبرتها ، وخوفها – ، لكنها حققت حضورا متميزا في الفيلم . كان هذا يحصل كثيرا مع الاطفال . كان الاطفال والاقزام هم افضل الممثلين في افلامي .

كثير من الاصوات ترتفع ضد مسالة ((**النمذجة**)) . اي « كويتب » مبتدىء يتبهنا في أول « كتيب له » الى انه لا يرى أسوا من « النمذجة » دون أن يعرف ، في الحقيقة ، عم يكتب . هذه الموضة اصبحت سائدة لدرجة تثير لدي رغبة عارمة في أن اعلن انني مع « النمذجة » واتحمل كافة عواقب ذلك .

على اية حال ، فان داخل النظام الاخلاقي الامريكي ، ترسخ قانون يجري استخدامه في السينما . فهناك دائما « جيدون » و « سيئون » . أما « الشابة » ، فقد حاول الوقوف ضد هذا الوضع السائد ، فهناك الزنجي الجيد والزنجي السيء ، تماما كما هي الحال مع الابيض ، الذي كان يقول للزنجي في اللحظة التي كان فيها هذا الاخير سيشنق بتهمة الاغتصاب : « لا أستطيع ان اتصورك كائنا انسانيا » .

ربما كان هذا الرفض للنمذجة ، السبب الرئيسي لفشل الفيلم . عندما عرض في نيويورك أيام الميلاد من عام ١٩٦٠ ، هوجم من قبل جميع الاطراف . وللحقيقة اقول بانه لم يعجب احدا ، حتى أن صحفيا في هارلم كتب يقول انه يجب تعليق راسي تحت احد أعمدة الجادة الخامسة ، وقد لاحقتني ردود افعال عنيفة طوال حياتي .

ومع ذلك ، فقد عملت هذا الفيلم بمحبة ، لكن لم يحالفه الحظ ، فالنظام الاخلاقي لم يكن قادرا على القبول به . كذلك لم يلق نجاحا في اوروبا . واليوم يكاد لا يعرض على الاطلاق .

مشاريع اخرى

من بين المشاريع الامريكية التي لم تتحقق ، اذكر « المحبوبون » وهو اعداد الراوية «Evelyn Waugh» ، التي تتناول حكاية حب في أوساط المآتم الامريكية ، وقد أثارت اعجابي بصورة هائلة . كتبت الاعداد بالتعاون مع « هوغو بتلر » وذهب « بيير » يسعى لبيع السيناريو الى شركة امريكية هامة . لكن الموت كان موضوعا مقدسا لا يمكن المساس به .

مدير احدى الشركات اعطى موعدا لبيير في الساعة العاشرة صباحا . وصل بيير في الموعد تماما ، وادخلوه الى صالة صغيرة حيث كان ينتظر آخرون . مرت عدة دقائق ، وفجأة ، أضيئت شاشة تلفزيونية ، وظهر من خلالها وجه المدير ، الذي قال :

ــ صباح الخير سيد بيير ، شكرا لمجيئك ، اخذنا علما بمشروعك ، غير اننا لا مصلحة لنا به في الوقت الحاضر ، آمل أن تكون لنا فرصة اخرى ذات يوم للعمل معا ، الى اللقاء سيد بيير . واطفئت الشاشة .

حتى « جورج بيير » الامريكي ، بدا له هذا التصرف مفاجئا ، اما بالنسبة إلي فقد بدا لي الأمر فظيعا .

اخيرا ، اعدنا بيع حقوق الكتاب ، وقام بتحقيق الفيلم « طوني ريتشاردسون » لكن لم تسنح لي اية فرصة لمشاهدته .

استهواني كثيرا مشروع آخر ، هو اعداد « سيد الذباب » لكن استحال علينا الحصول على الحقوق ، وحقق الفيلم « بيتر بروك » ، ولم اشاهده .

من بين الكتب التي قراتها ، هناك واحد ترك لدي تأثيرا خاصا ، هو « جوني يحصل على بندقيته » ، و « والتون ترومبو » . ويروي حكاية جندي فقد في الحرب معظم اعضائه وحواسه ، يرقد في مستشفى، فقط وعيه ، محاولا الاتصال مع من حوله ، والذين لايراهم ولا يسمعهم .

كان علي أن احقق الفيلم بتحويل من « آلاتر بسته » عام ١٩٦٢ أو ١٩٦٣ . جاء « دالتون ترومبو » الذي كان يكتب السيناريو مراتعديدة الى المكسيك لمتابعة العمل معي (كان احد كتاب السيناريو الاكثر شهرة في هوليوود) . كنت اتحدث واتحدث ، وكان يكتفي بتدوين الملاحظات ، وعلى الرغم من انه لم يحتفظ في النهاية الا بالقليل من افكاري ، فقد كان لبقا بحيث وضع اسمينا على السيناريو ، الا انني رفضت ذلك .

المشروع توقف . وبعد عشر سنوات قام « ترومبو » بتحقيق الفيلم بنفسه . التقيت بـ « ترومبو » في كان ، ورافقته الى المؤتمر الصحفي . كان هناك شيء ما ممتع في هذا الفيلم الطويل اكثر مما يجب ، والمحشو بصورة بائسة باحلام مدرسية .

ولكي انتهي ، اخيرا ، من مشاريعي الامريكية ، ساضيف بأن « وودي آلن » عرض علي اداء دوري الحقيقي في « آني هول » ، مع ثلاثين الف دولار لقاء يومي عمل ، مع ضرورة بقائي في نيويورك لمدة اسبوع ، الا انني ، وبعد تردد ، رفضت ، شاهدت الفيلم فيما بعد ، ولم يثر اعجابي كثيرا .

- في اكثر من مناسبة ، عرض علي منتجون امريكيون واوربيون تحقيق فيلم عن « تحت البركان » رواية « مالكولم لوري » ، التي تدور احداثها بالكامل في « كويرنا ڤاكا » . قرات الكتاب واعدت قراءته دون أن استطيع الوصول الى تصور حل سينمائي له . كان كل شيء يتطورداخل الشخصية الرئيسية ، كيف نترجم الى صور صراعات هذا العالم الداخلي ؟ فمع الحركة الخارجية وحدها ، كان يبدو الموضوع مفرقا في الضحالة .

قرأت ثماني معالجات مختلفة ، ولم اقتنع باية منها . وأعرف ، من ناحية اخرى ، أن مخرجين عديدين قد شعروا ، مثلي ، باغرام ، امام جمال هذا الكتاب ، وانهم ، حتى هذه اللحظة ، قد انصرفوا جميعا عنه .

العودة

في عام ١٩٤٠، اثر تعييني في متحف الفن الحديث ، كنت قد خضعت لامتحان دقيق ، اشتمل على كافة انواع الاسئلة ، وبخاصة ، ما يتصل بعلاقاتي بالشوعية ، لكي يمكنني أن اتحول الى مهاجر بصورة رسمية . بعد ذلك ، ذهبت مع اسرتي الى كندا ، وعدت بعد قضاء عدة ساعات عند شلالات نياغارا .

عام ١٩٥٥ ، واجهتني المشكلة من جديد ، وبصورة اكثر حدة . كنت عائدا من باريس اثر تصوير « هذا يدعى الفجر » ، حين جرى اعتقالي في المطار ، وعرفت هناك انني كنت في عداد لجنة مساعدة مجلة « اسبانيا الحرة » المناهضة للفرانكوية ،والتي كانت قد هاجمت الولايات المتحدة الامريكية . وحيث انني كنت في الوقت نفسه من بين الموقعين على احتجاج ضد القنبلة النووية ، فقد خضعت الى استجواب جديد ، اعادوا فيه نفس الأسئلة حول آرائي السياسية ، وادرجت على القائمة السوداء الشهيرة ، واصبحت اخضع ، لدى كل زيارة الى الولايات المتحدة ، الى نفس الاجراءات التي تعاملني كـ « غانغستر » . واستمر اسمي مدرجا على القائمة السوداء حتى عام ١٩٧٥ .

لم أعد الى لوس انجلس حتى عام ١٩٧٢ ، بمناسبة تقديم فيلم « سحر البورجوازي الغامض » في المهرجان . التقيت من جديد ، وعتبه، أحياء « بيڤرلي هيليز » الهادئة ، والاحساس بالنظام ، واللطف الامريكي.

ذات يوم ، تلقيت دعوة للطعام من « جورج كيوكور » ، وكانت دعوة غير عادية ، اذ لم اكن اعرفه . دعا ايضا « سرج سيلبرمان » و « جان كلود كاريير » اللذين كانا معي ، وابني رافائيل الذي يعيش في لوس انجلس ، وقيل لنا أن هناك « عدة اصدقاء » سيحضرون ايضا .

كانت وليمة استثنائية بالفعل ، وكنا أول من وصل الى منزل « كيوكور » الرائع ، حيث استقبلناصاحب الدعوة بكثير من الحفاوة ، وشاهدنا « طيفاً » مترنحا تغطي رقعة احدى عينيه ، يدخل مستندا الى خادم زنجي ذي عضلات مفتولة ، عرفت فيه « جون فورد » ، الذي لم يسبق لي أن التقيت به على الاطلاق . وفوجئت كثيرا ، وانا اعتقد بانه لم يسمع حتى باسمي ، حين جاء ليجلس الى جانبي على كنبة عريضة ، وهو يقول لي بأنه سعيد لعودتي الى هوليوود ، واخبرني انه يقوم بالتحضير لفيلم من افلام « الويسترن » الكبيرة . الا انه ، كان سيموت بعد ذلك باشهر قليلة .

خلال حديثه معي ، وصل الى سمعي صوت خطوات متثاقلة فوق الارضية الخشبية ، التفت ، واذ ب « هيتشكوك » يدخل الصالة ، مربوع القامة ومتورد الوجنتين ، وتوجه الي مباشرة بذراعين ممدودتين . وايضا لم أكن اعرفه شخصيا ، غير انني كنت اعرف انه كان قد افاض في مديحي بصورة علنية ، في أكثر من مناسبة ، وجلس الى جانبي ، ثم حرص على الجلوس الى يساري خلال تناول الطعام . ولم ينقطع عن الحديث حول قبو خموره ، وذراعه تلتف حول كتفي ، وكذلك عن نظامه في الطعام (كان مقلا جدا) ، وقبل هذا وذاك ، عن الساق المقطوعة في « تريستانا » . . ! « آه . . . تلك الساق . . ! » . وصل بعدئذ « ويليام وايلر » و « بيلي وايلدر » و « جورج ستيفنس » و « روبن ماموليان » روبرت وايز » ، ومخرج اصغر سنامن هؤلاء بكثير هو «روبرت موليغان».

بعد تناول المقبلات ، جلسنا الى المائدة ، على ضوء خافت ، في قاعة طعام واسعة ، مضاءة بالشمعدانات . كان الاحتفاء بي يجري في اجتماع غريب لمجموعة من الاشباح ، لم يسبق لهم ان حضروا مثيلا له ، واخذ الجميع يتحدث عن الايام السعيدة الماضية ، والاوقات الطيبة و « قصة الحي الغربي » و « البعض يفضلونها حارة » و « السيء السمعة » ... كم من الافلام كان يجتمع حول تلك المائدة .

بعد الطعام ، خطرت لاحدهم فكرة دعوة مصور صحفي لاخذ « صورة عائلية » . واصبحت تلك الصورة واحدة من مواد هواة جمع الصور لذلك العام . وللاسف فان جون فورد لم يكن حاضرا فيها ، اذ كان خادمه الزنجي قد جاء يطلبه خلال تناول الطعام . يومها قال لنا وداعا ، بصوت واهن ، ومشى ، متعثرا بقطع الاثاث ، لتكون تلك ، المرة الاخيرة التي يرانا فيها .

خلال الطعام ، رفعوا بعض الانخاب ، وبخاصة «جورج ستيفنس» الذي رفع كأسه قائلا : « في صحة من جمعنا حول هذه الطاولة ، بالرغم من تنوع اصولنا ومعتقداتنا » . نهضت لرد النخب والتحية ، الا انني ، وبسبب ارتيابي في مسألة التضامن الثقافي ، الذي نتحدث عنه باستمرار اكثر مما يجب ، قلت : «انني اشرب هذا النخب،لكن تبقى لدي شكوكي» .

في اليوم التالي ، دعاني « فريتز لانغ » لزيارته في بيته . كان متعبا جدا ، لدرجة لم يكن قد استطاع المشاركة معها في المأدبة الاحتفالية بمنزل « جورج كيوكور » . كنت آنذاك في الثانية والسبعين ، وكان « لانغ » قد جاوز الثمانين .

كان لقاءنا الأول ، وتحادثنا لمدة ساعة كاملة ، وسمح لي الوقت بأن احدثه عن الدور الحاسم الذي لعبته افلامه في تحديد مسار حياتي . بعد ذلك ، وقبل ان نفترق ، طلبت منه ــ وهذا مالم يكن من بين عاداتي ــ ان يقدم الي صورة شخصية له . فاجاه طلبي ، وقام باحثا عن واحدة ، وعاد ليوقعها لي ، الا انها كانت صورة من فترة شيخوخته . وسألته

فيما اذا كانت لديه ، بالاضافة الى هذه ، صورة من سنوات العشرينات، أيام « الميت التعب » و « ميتروبوليس » .

عثر على واحدة ، وكتب لي إهداء رائعاً . ثم ودعته وصلت الى الفندق .

المكسيك

١٩٤٦ – ١٩٦١

لم تكن امريكا اللاتينية تجتذبني كثيرا ، وكنت اقول لاصدقائي دائما : **« اذا اختفيت ، ابحثوا عني في اي مكان ، ما عدا هناك » . ومع ذلك فانني اعيش في المكسيك منذ حوالي ستة وثلاثين عاما ، حتى انني اصبحت مواطنا مكسيكيا منذ عام ١٩٤٩ .**

مع نهاية الحرب الاهلية ، اختار الكثيرون من الاسبان المكسيك كمنفى ، ومن بينهم العديد من أفضل اصدقائي . كان هؤلاء الاسبان ينتمون الى جميع الفئات الاجتماعية ، فالى جانب العمال ، كان هناك ايضا كتاب وعلماء ، وقد تأقلموا دون كبير عناء في وطنهم الجديد .

كنت على وشك الحصول على الجنسية الامريكية عندما اقترح علي « اوسكار دانثيغرس » تحقيق فيلم في المكسيك . في نفس الوقت تعرفت بـ « فيرناندو بينيتيث » العالم المكسيكي الكبير باصول الاجناس البشرية ، وقد سألني فيما اذا كنت ارغب بالبقاء في المكسيك ، وعندما اجبته بالايجاب ، بعث بي الى منزل السيد « هيكتورب مارتينيث » ، الوزير ، الذي كانت كافة الدلائل تشير الى انه سيكون الرئيس القادم للمكسيك لولا الموت الذي اتخذ ازاءه قرارا آخر . استقبلني « مارتينيث » وأكد لي أن بامكاني الحصول ، وببساطة ، على تأشيرة دخول لجميع افراد اسرتي . عدت الى **« اوسكار »** وأعربت له عن موافقتي على اقتراحه ، واسرعت الى لوس انجلس فجلبت منها زوجتي وولدي .

ما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٦٤ ، بـدءا من « **الكازينـو الكبير** » وحتى « **سيمون الصحراء** » حققت في المكسيك عشرين فيلما (من بين مجموع افلامي البـالغ اثنين وثلاثـين) . واذا استثنيت « **روبنســون كروزو** » و « **الشابة** » فقد كانت جميع افلامي هناك ناطقة باللغة الاسبانية ، كما جرى تحقيقها بممثلين وتقنيين مكسيكيين . كانت فترة التصوير تتراوح دائما ما بين ثمانية عشر وأربعة وعشرين يوما، وهي فترة قصيرة ، باستثناء « **روبنسون كروزو** » . كانت الامكانيات محدودة والاجور متواضعة . وقد قمت ، ولمرتين ، بتحقيق ثلاثة أفلام في العام الواحد .

ربما كانت الحاجة التي دفعتني لكي اعيش من عملي هذا ، والذي كنت احافظ من خلاله على معيشة أسرتي ، توضح سبب تقديم هـذه الافلام حاليا بشكل متفاوت ، وهذا امر افهمه بشكل جيد . لقد كان علي احيانا أن أوافق على مواضيع لم اقم انا باختيارها ، وأن اعمل مع ممثلين غير مناسبين لادوارهم . ومع ذلك فان ما أردده دائما هو انني لم أصور عـلى الاطلاق أي مشـهد خلافا لقناعاتي ولاخلاقي الشخصية . ولا يبدو لي انه كان بين هذه الافلام المتفاوتة ما هو شنيع . كما احب ان اذكر بأن علاقاتي في العمل مع التقنيين المكسيكيين كانت ممتازة في معظم الاوقات .

لست راغبا باستعراض أفلامي وابداء رايي حيالها ، فليس من مهامي القيام بذلك . اود فقط ، وببساطة ، وحول كامل مرحلة هذه السنوات المكسيكية ، ان اشير بشيء عن بعض هـذه الافلام ، ما احفظـه وما يثير اهتمامي ، وقد يقتصر الامر على مجرد تفصيل ما ، وعلى بعض الذكريات التي ربما تساعد في التعرف على المكسيك بشكل مختلف الى حدما ، عبر الجانب المتصل بالعمل السينمائي .

كان « أوسكار دانثيفرس » قد تعاقد ، لصالح فيلمي المكسيكي الاول ، « **الكازينو الكبير** » ، مع اثنين من كبار النجوم البارزين في امريكا اللاتينية ، هما المغني « **خورخيه نيغريتة** » ذي الشعبية الكبيرة ، التافه المكسيكي الحقيقي ، والمغنية الارجنتينية « ليبرتاد لاماركيه » . واذن فقد كان الفيلم

عبارة عن فيلم موسيقي . واقترحت قصة « ميشيل ڤيبر » التي تـدور احداثها في الاوساط البترولية .

ووافق على الفكرة ، وتوجهت ، للمرة الاولى ، الى منتجع « سـان خوسيه بوروا » في « ميتشواكان » ، وهو عبارة عن فندق كبير ، يقوم في منطقة مياه معدنية حارة على كتف شعب جبلي رائع ، كتبت فيه فيما بعد أكثر من عشرين فيلما ، انه مـلاذ اخضر مزهر ، يستحق بجدارة لقب « الفردوس » الذي كان يطلق عليه ، وقد كانت تقصده بانتظام حافلات السواح الامريكيين لتمضية اربع وعشرين ساعة ساحرة ، يأخذون فيها ، ودائما في الوقت نفسه ، حماما شعاعيا ، ويشربون نفس الكأس من الميـاه المعدنية ، ويتناولون وجبة الطعام نفسها ، ثم يرحلون في الصبـاح الباكر .

لم أكن قد وقفت وراء آلة التصوير منذ ايام مدريد ، قبل حوالي خمسة عشر عاما ، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن مضمون الفيلم لم يكن ذا اهمية تذكر ، فانني اعتقد انه كان على درجة لا بأس بها من حيث التنفيذ التقني .

في حكاية هذا الفيلم ، المفرقـة في الميلودراما تصـل « ليبرتاد » عن الارجنتين للبحث عن قاتل اخيها . في البداية كانت تشك بـ « نيغريته » ، قبل أن يتصاحبا ، ثم يصلان الى مشهد الحب الذي لا مفر منه . ومثل كل مشاهد الحب كان مصطلحا على أسلوبها ، فقد أحسست بأنـه مشهد مضجر ، وعزمت على تخريبه .

طلبت الى نيغريته ان يأخذ عصا خلال المشهد ، ويغرزها بطريقة آلية عند رجليه في الوحل البترولي . بعد ذلك اخذت لقطة قريبة ليد اخرى مع العصا وهي تحركها في الوحل . وعلى الشاشة كان لا بد وأن ينصرف التفكير الى امر آخر مختلف عن البترول .

على الرغم من وجود هذين الاسمين الكبيرين ، فان الفيلم لم يحصل

الا على نصيب متواضع من النجاح ، لذلك فقد « عوقبت » ، اذ بقيت دون عمل لمدة عامين ونصف ، عشنا خلالها فقط على النقود التي كانت ترسلها امي . ولم ينقطع « مورينو ڤيلا » عن زيارتي ، اذ كان يتردد علي بصورة يوميـة .

بدأت بكتابة سيناريو مع واحد من اكبر الشعراء الاسبان هو « خوان لاريا » بعنوان « **الابن غير المقروء للناي** » .. وهو عمل ذو طابع سيريالي يحمل افكارا جيدة ، لكنها تتمحور حول مقولة قابلة للنقـاش : اوروبا العجوز قد انتهت ، وهناك روح جديدة آخذة بالنمو في امريكا اللاتينيـة . وقد حاول « أوسكار دانثيغرس » عبثا أن يتقبل الفيلم .

بعد ذلك بكثير ، عام ۱۹۸۰ ، قامت مجلة « ڤويلتا » المكسيكية بنشر السيناريو ، لكن بعد أن أضاف اليه « لاريا » بعض العناصر الرمزية،ودون ان يفاتحني بالامر . ولم ترق لي هذه الاضافات .

عام ١٩٤٩ قدم لي « دانثيغرس » مشروعا جديداً ، كان « فيرناندو سولير » ، الممثل المكسيكي الكبير ، يريد تحقيق فيلم بنفسه ، يأخذ فيه الدور الرئيسي . غير ان « اوسكار » رأى أن المهمة تتجاوز حدود طاقة رجل واحد ، فبحث عن مخرج مستقيم ودمث .. وعرض المهمة علي ، فوافقت في الحال .

الفيلم بعنوان : « الماجن الكبير »

لا اعتقد أن هذا الفيلم قد اثار لدي اية متعة ، الا انه حقق نجاحا حادا بأوسكار ليقول لي : « **تعال الآن نعمل معا فيلما حقيقيا ، ولنبحث عن الموضوع** » .

المنسيون

كان اوسكار مهتما بتحقيق عمل يتناول فيه حياة الاطفال الفقراء

الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة . (بالمناسبة ، كنت معجبا جدا بـ « ماسح الاحذية » **لفيتوريو دي سيكا**) .

تفرغت ، خلال أربعة او خمسة اشهر للطواف في « المدن الضائعة »، أي تلك الضواحي القائمة بصورة مرتجلة ، والفقيرة جدا ، التي تحيط بمدينة المكسيك العاصمة . كنت احيانا امضي الى هناك بصحبة مصمم المناظر الكندي « فيتز جيرالد » الذي كان يعمل معي ، واحيانا اخرى مع « لويس الكوريشا » ، الا انني ، وفي معظم الاحيان ، كنت اقوم بذلك منفردا . كنت اموه نفسي بعض الشيء ، مرتديا ثيابا قديمة ، ثم انطلق لأراقب واصغي واطرح الاسئلة واعقد الصداقات مع الناس . اشياء كثيرة شاهدتها وانتقلت مباشرة الى الفيلم ، ومع ذلك ، فمن بين الشتائم الكثيرة التي تلقيتها بعد العرض ، كان ما كتبه « ايغناثيو بالاثيوس » مثلا ، بانه من غير المقبول كوني قد وضعت ثلاثة اسرة من البرونز في أحدالاكواخ الخشبية . بينما كان هذا الامر واقعيا ، اذ ان الكثيرين كانوا يحرمون انفسهم من كل شيء في سبيل شرائها عند زواجهم .

لدى كتابة السيناريو ، اردت ادخال بعض الصور السريعة جدا ، غير القابلة للتفسير ، بحيث اجعل المشاهد يقول : « هل رأيت جيدا ؟ »، فمثلا عندما كان الفتيان يتابعون الرجل الاعمى وهم يمرون امام مبنى كبير قيد الانجاز ، اردت أن ادخل فرقة موسيقية من مائة عازف وهم يأخذون اماكنهم فوق السقالات الخشبية ، ومن دون أن نسمعهم . لكن « اوسكار دانشيغرس » الذي كان يخشى أن يؤثر هذا على نجاح الفيلم ، منعني من أن افعل ذلك . كما أنه منعني من ان اركز على القبعةالمكسيكية عندما كانت والدة بيدرو (الشخصية الرئيسية) ترفض عودة ابنها الى المنزل . وبالمناسبة ، فبسبب هذا المشهد قدمت مصففة الشعر التي كانت تعمل معنا طلب اعفائها من العمل ، مؤكدة انه ليست هناك اية أم مكسيكية تتصرف على هذا النحو . وكنت قبل ذلك بأيام ، قد قرات في احدى الصحف ان اما مكسيكية القت بابنها الصغير من باب القطار .

على اية حال ، فمجموعة الفيلم بكاملها ، وعلى الرغم من انها كانت

تعمل بجدية تامة ، اظهرت عداءها تجاه الفيلم . كان احد التقنيين يسألني مثلا : « **لكن لماذا لا تصنع فيلما مكسيكيا حقيقيا بدلا من فيلم بائس كهذا ؟** » .

« بيدرو دي اورديمالاس » الكاتب الذي ساعدني في ادخال بعض التعابير المكسيكية رفض وضع اسمه على قائمة العاملين في الفيلم .

جرى تصوير الفيلم خلال واحد وعشرين يوما . وكما هي الحال في جميع افلامي ، فقد انتهيت من ذلك ضمن الفترة المحددة . واعتقد بأنني لم اتجاوز ، ولو لمرة واحدة ، او لساعة واحدة ، خطة العمل المرسومة . وساضيف ايضا بأنني لم اعمل في المونتاج اكثر من ثلاثة او اربعة ايام ، وذلك بفضل طريقتي في التصوير ، كما انني لم اكن استهلك اكثر من عشرين الف متر من الافلام ، وهذا يعتبر قليلا .

تقاضيت لقاء سيناريو واخراج « **المنسيون** » ، فقط الفي دولار ، ودون ان أحصل الى جانب ذلك اطلاقا ، على اية نسبة مئوية من الارباح .

عرض الفيلم في المكسيك بصورة يرثى لها ، اذ لم يستمر في العرض سوى أربعة أيام ، وأثار ردود أفعال عنيفة . فاحدى اكبر مشاكل المكسيك ، اليوم ايضا كما كانت الحال بالأمس ، وهي المغالاة في الشعور الوطني الى درجة التطرف ، وبشكل ينم عن مركب نقص عميق . طالبت نقابات وجمعيات مختلفة بطردي فوراً ، وراحت الصحافة تهاجم الفيلم ، بينما كان المشاهدون القليلون يغادرون الصالة وكما لو انهم يمشون في جنازة . في نهاية العرض الخاص ، وبينما كانت « لوبه » زوجة الرسام « **دييغو ريفيرا** » تظهر لي انفتها وازدراءها دون ان تقول لي مجرد كلمة واحدة ، انطلقت امرأة اخرى هي « **بيرتا** » زوجة الشاعر الاسباني « لويس فيليبه » باتجاهي ساخطة بشكل جنوني ، وهي تمد اظافرها في وجهي ، وتصرخ متهمة إياي بأنني قد ارتكبت فظاعة وعاراً بحق المكسيك . بذلت جهداً كبيراً لكي أحافظ على هدوئي التام بينما كانت اظافرها الخطيرة ترتعش على مسافة ثلاثة سنتميترات من عيني . ولحسن الحظ

فقد كان الرسام « **سيكيروس** » حاضرا ذلك العرض ، وتدخل لتهنئتي بحرارة . وبالاضافة اليه ، فقد اثنى على الفيلم عدد كبير من المثقفين المكسيكيين .

في اواخر عام ١٩٥٠ عدت الى باريس التقديمه . ورحت أتجول في الشوارع التي ابتعدت عنها عشر سنوات ، وكانت الدموع تملأ عيني . شاهد الفيلم جميع أصدقائي السيرياليين في « **استوديو ٢٨** » ، واعتقد بأنهم جميعا خرجوا بانطباعات جيدة . ومع ذلك ، فقد بعث إلي **جورج سادول** في اليوم التالي برسالة يقول فيها أنه يريد ان يتحدث إلي بأمر خطير . التقينا في مقهى قريب من ساحة الـ « ايتوال » ، وأخبرني وهو مضطرب ، شاحب ، بأن الحزب الشيوعي طلب اليه الا يتحدث عن الفيلم . وسألته مندهشا : لماذا ؟

ـ لانه فيلم بورجوازي ـ اجابني .

ـ فيلم بورجوازي ؟ كيف ؟

ـ أولا ـ قال لي ـ يشاهد في الفيلم ، من خلال زجاج احد المخازن ، شاب يقترب من احد الشاذين جنسيا ويعرض عليه خدماته . حينئذ يصل احد عملاء الشرطة ، فيفر الشاذ . هذا يعني أن الشرطة يمكن ان تلعب دورا مفيدا . وليس من الجائز الحديث عن شيء كهذا . ثم ، في الاصلاحية ، تقدم مديرا لطيفا جدا ، انسانيا جدا ، لدرجة انه يدع طفلا يخرج من أجل شراء سجائر .

كانت هذه الحجج تبدو لي صبيانية ومثيرة للضحك . وقلت لسادول أنه ليس بامكاني أن افعل شيئا . ولحسن الحظ فقد شاهدالمخرج السوفييتي بودوفكين الفيلم بعد اشهر قليلة ، وكتب حوله مقالا طيبا في صحيفة البرافدا ، فتبدل موقف الحزب الشيوعي الفرنسي بين عشية وضحاها ، وكان سادول سعيدا جدا بذلك .

هذا واحد من تصرفات بعض الاحزاب مع الذين كانوا باستمرار على

خلاف معها . وهناك تصرف آخر ، كثيرا ما يرتبط بالاول ، وقد صدمني دائما ، وهو التأكيد بعد (خيانة) أحد الرفاق ، على أنه « كان يخفي لعبته جيدا ، لكنه كان يخون منذ البداية » !..

في باريس ، وبمناسبة الحديث عن العروض الخاصة ، كان هناك خصم آخر للفيلم ، هو سفير المكسيك « توريس بوديت » ، وهو رجل مثقف كان قد أمضى سنوات طويلةفي اسبانية ، حتى أنه عمل في مجلة « لاغازيتا ليتيراتورا » ، وقد اعتبر هذا أيضا أن « المنسيون » يسيء الى بلده .

لكن كل شيء تبدل بعد مهرجان كان،الذي قام فيه الشاعر«أوكتافيو باث » ـ الذي كان بريتون قد حدثني عنه للمرة الاولى والذي أقدره منذ وقت طويل ـ بتوزيع مقال على باب الصالة ، وكان قد كتبه هو حول الفيلم ، وهو مقال رائع ومن أفضل ما قرأت . ولاقى الفيلم نجاحا كبيرا ، وكتب عنه بصورة ممتازة ، كما حصل على جائزة الاخراج .

لم يزعجني آنذاك الا أمر واحد ، هو الترجمة على الفيلم ، حيث رأى موزعوه أن يضيفوا الى العنوان : المنسيون أو رحمة بهم !.. وهو شيء مضحك .

ازاء النجاح الاوروبي ، برئت ساحتي من جانب المكسيك . توقفت الشتائم ، وأعيد عرض الفيلم هناك في صالة جيدة . واستمر العرض مدة شهرين .

في العام نفسه ، حققت **« سوسانا »** وهو فيلم ليس لدي ما أقوله عنه سوى أسفي لانني لم أضع خطا تحت الـ **« كاريكاتور »** في النهاية ، حيث ينتهي كل شيء بمعجزة ، فالمشاهد الذي لا يجري تنبيهه يمكن أن يأخذ هذه الخاتمة مأخذ الجد .

في عام ١٩٥١ حققت ثلاثة أفلام . الاول هو **« ابنة الخديعة »** ، عنوان رديء من « دانتغرس » لعمل لم يكن سوى نسخة جديدة من « دون

كينتين » لـ « آرنيتشيس » ، وكنت خلال الثلاثينات ، في مدريد ، قد حققت فيلما عن هذا العمل نفسه . الثاني هو « امراة بلا حب » والذي هو بلا شك اسوأ أفلامي . كان مطلوبا مني تكرار فيلم جيد كان أندريه كايات قد حققه في فرنسا عن « بيير وجان » لـ « موپاسان » ، عن طريق وضع آلةالموفيولا في « البلاتوه » لنسخ فيلم كايات لقطة بلقطة . وطبعا فقد رفضت وقررت أن أصور بطريقتي ، الا ان النتيجة كانت متواضعة .

بالمقابل ، فانني احتفظ بذكرى جيدة عن **« صعود الى السماء »** ، وهو عبارة عن حكاية لرحلة في حافلة ركاب وقد صور في عام ١٩٥١ نفسه . السيناريو كان مستوحى من بعض مغامرات لمنتج الفيلم ، وهو الشاعر الاسباني « آلتو لاغيره » ، الصديق القديم من مدريد ، والذي كان متزوجا من كوبية غنية جدا . كان كل شيء يدور في ولاية « غيريرو » ، التي هي دون شك ، وحتى هذا اليوم ، احدى أكثر الولايات عنفا في المكسيك .

جرى التصوير خلال فترةقصيرة ، مع نموذج بائس للحافلة التي تشاهد وهي تتقدم متارجحة على سفح جبل . ومع طوارىء اسلوب اداره العمل السينمائي المكسيكي : تخطة العمل التي كانت قد خصصت ثلاث ليال لتصوير مشهد طويل يجري فيه دفن طفلة لدغتها افعى ، وقد نصبت في المقبرة آلة عرض سينمائي متنقلة : تبدلت في اللحظة الاخيرة ، اذ أعلموني انه ، ولاسباب نقابية ، جرى تخفيض مدة الليالي الثلاث الى مجرد ساعتين . وكان علي ان أعيد تنظيم كل شيء في لقطة واحدة ، مع الغاء العرض السينمائي الذي جرى أعداده ، ثم العمل بأقصى سرعة . في المكسيك كنت أجد نفسي ملزما باللجوء الى السرعة القصوى في التنفيذ ، وهذا ما كان يشعرني أحيانا بالندم فيما بعد . وقد حصل ايضا خلال تصوير **« صعود الى السماء »** ان اعتقل مساعد مدير الانتاج واخذ كرهينة في فندق « لاس پالمراس » في آكابولكو بسبب عدم تسديد بعض الفواتير .

هو

جرى تصوير **« هو »** عام ١٩٥٢ ، بعد روبنسون كروزو ، واعتبره

واحدا من افلامي المفضلة . وللحقيقة اقول انه ليس فيه شيء مكسيكي ، فالحدث كان يمكن له ان يقع في اي مكان حيث انه عبارة عن « **بورتريه** » لرجل مصاب بحالة « **بارانويا** » .

المصابون بالبارانويا هم كالشعراء ، يولدون هكذا ، فضلا عن انهم يتقلون الواقع دائما من خلال الفكرة المتسلطة عليهم ، والتي يتحول كل شيء وفقا لها . ولنفترض مثلا أن زوجة شخص مصاب بال « بارانويا » تقوم بأداء لحن على البيانو ، فان زوجها يعتقد في اللحظة نفسها أن هذا عبارة عن اشارة تتبادلها مع عشيقها المتواري في الشارع ، .. وهكذا كل شيء .

« **هو** » حوى عددا من التفاصيل الحقيقية ، المأخوذة من المشاهدات اليومية ، الى جانب الكثير من الابتكارات . في البداية مثلا ، في مشهد مغسل القدمين في الكنيسة . يكتشف المصاب بال « بارانويا » ضحيته في الحال ، كالصقر عندما يشاهد قُبّرة ، وأتساءل عما اذا كان هـذا الحدس يستند الى شيء من الواقع .

في مهرجان كان ، قدم الفيلم ــ ولا ادري لماذا ــ ضمن اطار عروض جرى تنظيمها على شرف المحاربين القدماء ومشوهي الحرب ، والذين احتجوا على ذلك بشدة . الفيلم استقبل عموما بصورة سيئة ، وناصبته الصحافة العداء مع بعض الاستثناءات . جان كوكتو الذي كان قد كرس من أجلي سابقا العديد من صفحات التقريظ ، صرح بأنني مع « **هو** » قد انتحرت . الا انه غير رأيه فيما بعد .

وجدت عزائي في باريس لدى « جاك لاكان » الذي شاهد الفيلم خلال عرض جرى تنظيمه في السينماتيك لاثنين وخمسين طبيبا نفسيا . وقد حدثني عن الفيلم مطولا ، ولمس فيه فهما للواقع ، وقدمه لطلابه مرات عديدة .

في المكسيك ، غادر « اوسكار دانثيغرس » الصالة في اليوم الأول للعرض وهو يشعر باحساس غير معقول بالفجيعة . قال لي : « **إنه لا**

شيء » ... دخلت الى الصالة وكان الجمهور غارقا في الضحك وهو يرى المشهد الذي كان فيه الرجل (الذكرى البعيدة لمقاصير حمامات الساحة في سان سيباستيان) يدخل مسلة في ثقب القفل لكي يخرز عين المراقب المجهول الذي تخيله وراء الباب .

لقد كانت واضحة مكانة « ارتورو دى كوردوبا » الـذي قـام بالدور الرئيسي ، وهو ما ادى الى استمرار عرض الفيلم اسبوعين او ثلاثـة .

وبمناسبة المصابين بال « بارانويا » استطيع ان احكي عن احد اكبر المخاوف التي مرت بي خلال حياتي ، وهو ما حصل عام ١٩٥٢ ، قريبا من فترة « هو » . في حينا بمدينة المكسيك ، كنت اعرف بوجود ضابط يشبه كثيرا شخصية الفيلم . فمثلا كان يعلن بانه ذاهب للمشاركة في احدى المناورات العسكرية ، ثم ، وفي الليل ، كان يعود ، ويغير من طبيعة صوته ، قائلا لزوجته من وراء الباب : « زوجك ذهب ، افتحي لي .. » .

رويت هذا التفصيل ، وتفصيلات اخرى عديدة ، لاحد الاصدقاء فكتب منها مقالا في احدى الصحف . ولانني اعرف عادات بعض المكسيكيين فقد احسست بخوف حقيقي . كيف سيكون رد فعله ؟ ماذا افعل لو قرع بابي والسلاح في يده للاقتصاص ؟.. لم يحصل أي شيء .. وربما كان قد قرأ صحيفة اخرى .

وبمناسبة الحديث عن « **كوكتو** » ، في مهرجان كان لعام ١٩٥٤ ، وكان يترأس لجنة التحكيم التي كنت عضوا فيها ، قال لي ذات يوم بأنهم يريدون ان يتحدثوا معي ، وواعدني على اللقاء بعد الظهر في بار « كارلتون » . حضرت بدقتي المعتادة في المواعيد ، نظرت في كل الاتجاهات دون ان ارى كوكتو ، ولم تكن هناك إلا طاولات قليلة مشغولة . انتظرت نصف ساعة ، وغادرت .

في المساء ، سألني عن سبب عدم حضوري انا الى الموعد ، ورويت

له ما حصل . قال لي عندئذ بأنه قد فعل الشيء نفسه ، وفي نفس الساعة؛ ودون ان يراني . انا متأكد من انه لم يكن يكذب ، واجرينا كل امكانية للتحقق ، لكن دون ان نستطيع الوصول الى ادنى تفسير لموعدنا الغامض الخائب .

في عام ۱۹۳۰ ، كنت قد كتبت مع « بيير اونيك » سيناريو عن كتاب « **قمم عاصفة** » . ومثل جميع السرياليين ، كانت تجتذبني هذه الرواية كثيرا ، وكنت ارغب في ان احقق فيلما عنها . وقد لاحت الفرصة عام ١٩٥٣ في المكسيك ، فعدت الى تناول السيناريو الذي كان بالتأكيد واحدا من افضل السيناريوهات التي امسكت بها بين يدي . وللاسف ،وجدتني مضطرا للموافقة على الممثلين الذين كان « اوسكار » قد تعاقد معهم من اجل فيلم موسيقي ، وهم « خورخيه ميسترال » و « ارنستو الونسو » ومغنية وراقصة رومبا ، و « ليليا برادو » « لاداء دور فتاة رومانسية ، وممثلة بولونية هي « ايراسيما ديليان » ، التي كان عليها ، بالرغم من مظهرها السلافي ، في ان تكون اخت احد المولدين المكسيكيين . وافضل عدم الخوض في المشاكل التي كان علي ان احلها خلال التصوير ، لنصل الى نتيجة لم تكن مرضية تماما .

في نفس العام ، بعد « **الامل يركب الترام** » ، صورت « **النهر والموت** »، الذي قدم في مهرجان البندقية ، وبوحي من تلك السهولة التي يستطيع فيها الواحد ان يقتل الاخرين ، فقد احتوى الفيلم على عدد كبير من عمليات القتل ذات السهولة الواضحة ، وحتى المجانية . ولدى كل عملية قتل ، كان جمهور البندقية يضحك وهو يصرخ : « **واحدة اخرى ، .. واحدة اخرى ..** » .

مع ذلك ، فمعظم الاحداث التي يرويها هذا الفيلم هي حقيقية ، وتسمح بالقاء نظرة مثيرة على هذا المظهر من بعض العادات المكسيكية . والاستعمال المعتاد للمسدس ليس وقفا على المكسيك ، بل يمتد ليشمل

جزءاً كبيراً من أمريكا اللاتينية،وبشكل خاص كولومبيا. في بعض دول هذه القارة ، للحياة الانسانية ـ بالنسبة للشخص نفسه وللآخرين ـ أهمية أقل مما لها في انحاء اخرى . يمكن ان يحدث القتل من اجل « نعم » او من أجل « لا » أو من اجل نظرة غير طيبة ، أو ، ببساطة ، « لأنه كان ذا مزاج لذلك » . الصحف المكسيكية تقدم كل صباح قصص بعض الاحداث التي تذهل الاوروبيين دائما . فمثلا ، من بين الحوادث الاكثر إثارة للعجب : رجل ينتظر بكل بساطة عند موقف باص ، يصل رجل آخر ويسأله : « هل يمر من هنا الباص الذاهب الى تشاپولتيبك ؟ » ـ « نعم » ـ يجيب الاول ، « ومن أجل الذهاب الى المكان الفلاني » ؟ « نعم » ، « ومن اجل الذهاب الى سان آنخل » ؟ ـ « آه ، لا » ، « حسن » ـ يجيب الآخر ، إذن خذ من أجل الثلاثة ، ويفرغ في جسمه ثلاث طلقات ويرديه قتيلا . وكما كان سيقول بريتون : **« فعل سيريالي بحت »** .

وهذه واحدة من اوائل الحوادث التي قرأتها في الصحافة اثروصولي رجل يدخل بوابة البناء رقم « ٣٩ » في أحد الشوارع ويسأل البواب عن السيد سانتشيث ، فيجيب بأنه لا يعرف السيد المذكور وانه ربما كان يقيم في الرقم « ٤١ » . يذهب الرجل الى الرقم « ٤١ » ويسأل عن السيد سانتشيث . بواب الـ « ٤١ » يجيبه بأن السيد المذكور لا بد وانه يسكن في الرقم « ٣٩ » دون ادنى شك ، وأن بواب البناية المذكورة قد اخطأ . يعود الرجل الى البناية « ٣٩ » ويشرح للبواب ما حصل ، فيطلب هذا منه أن ينتظر لحظة . يدخل البواب لبرهة قصيرة ، يخرج بعدها شاهرا مسدسه في وجه الرجل الزائر وبكل بساطة يطلق النار عليه ويصرعه .

كان أكثر ما أدهشني في هذه الحكاية هي الطريقة التي رواها بها الصحفي حيث كان كما لو انه يعطي الحق للبواب حين وضع العنوان كالتالي : **« قتل بسبب الحاحه »** .

احد مشاهد الفيلم يذكر باحدى عادات ولاية « غيريرو » حيث تشن بين الحين والاخر حملة للتجريد من الاسلحة ، وبعد انتهائها يعود الجميع

من جديد الى حمل الاسلحة . في هذا المشهد ، رجل يقتل آخر ويهرب . اسرة القتيل تاخذ الجثة وتطوف بها بيتا بيتا لوداع الاصدقاء والجيران . أمام كل بيت يجري تناول الشراب وتبادل العناق ، واحيانا الغناء يتوقف الموكب أخيرا ، للحظة أمام بيت القاتل ، الذي يبقى بابه مقفلا بالرغم من قرعـه .

مختار احدى القرى قال لي ذات يوم ، وكأنه يتحدث عن أمر طبيعي جدا « **كل يوم احد له ميتته** » .

وبمناسبة « النهر والموت » ، اود ان استعيد بعض الطرف الشخصية ومعظمها عبارة عن ذكريات من أيام التصوير . سأعترف بأنني اعجبت دائما بالاسلحة ، منذ طفولتي وحتى هذه السنوات الاخيرة . في المكسيك كنت احمل سلاحا باستمرار ، لكنني أريد ان اؤكد بانني لم استعمله ضد الاخرين على الاطلاق .

وحيث انه يحكى الكثير عن « **الفطرسة الرجولية** » المكسيكية ، فربما سيكون من المناسب ان اقول بان هذا السلوك « الرجولي » ونتيجته الطبيعية المتمثلة بوضع المراة في المكسيك ، لهما اصل اسباني ، حيث ليس هناك من اختلاف في شيء . « **الفطرسة الرجولية** » تنشأ من مشاعر قوية جدا من الاعتداد بالكرامة لدى الرجل . انه نزق وسريع الغضب بصورة متطرفة ، ولا شيء اكثر خطورة من مكسيكي ينظر اليك بكل هدوء وهو يقول لك بصوت عذب ، لانك ، مثلا ، رفضت أن تشرب معه كأسا عاشرة من الـ « تيكيلا » هذه العبارة المرعبة دائما :

ـ انك تهينني . .

في حالة كهذه ، من الافضل لك ان تشرب الكأس العاشرة . الى جانب هذه المظاهر من « الفطرسة الرجولية » المكسيكية هناك احيانا حالات غير عادية من تحقيق « العدالة الفورية » . « دانييل » الذي كان مساعدا لي في « صعود الى السماء » روى لي الحكاية التالية : « في يوم احد خرج

للصيد مع سبعة أو ثمانية من الاصدقاء . عند الظهيرة ، جلسوا ياكلون ، وفجاة شاهدوا انفسهم مطوقين بمجموعة من رجال مسلحين على الخيول وقد أخذوا احذيتهم وبنادقهم . بعض هؤلاء الصيادين كانوا اصدقاء لاحدى الشخصيات الهامة في المنطقة . رووا له هذه الحادثة ، فطلب بعض التفاصيل عن المعتدين ثم اضاف

— لي الشرف ان ادعوكم لتناول كاس يوم الاحد .

ذهبوا اليه يوم الاحد التالي ، فاستقبلهم بكل لطف وقدم اليهم القهوة والمشروبات ، ثم دعاهم للانتقال الى غرفة مجاورة وهناك وجدوا احذيتهم وبنادقهم . ساله الصيادون حينئذ عن هوية هؤلاء المعتدين وما اذا كان بالامكان ما يستحق عناء التفكير،اذ لن يكون بالامكان مشاهدتهم بعداليوم!

في امريكا اللاتينية ، « يختفي » كل عام آلاف الاشخاص على هذه الطريقة ، وتتدخل جمعية حقوق الانسان ومنظمة العفو الدولية ، لكن دون جدوى ، وتستمر عمليات الاختفاء .

القاتل المكسيكي يقوَّم بعدد الارواح التي ازهقها . يقال مثلا بان فلانا عليه كذا روحا . وقد عرف بعض القتلة الذين كان عليهم حتى المائة روح . في حالات كهذه ، عندما يقع احدهم في يد رئيس الشرطة فلا يبقى أي لزوم للشكليات !.

خلال تصوير « **الموت في هذه الحديقة** » على ضفاف بحيرة « كاتيماكو » لاحظ رئيس الشرطة المحلية ، الذي كان قد نظف المنطقة بحزم ، ان الممثل الفرنسي جورج مارشال يحب الاسلحة والرماية ، فدعاه بصورة غاية في البساطة الى صيد البشر . كان عليه أن يلاحق قاتلا معروفا جدا ، لكن مارشال رفض مذعوراً . بعد عدة ساعات ، قدم الينا عدد من افراد الشرطة الذين بعث بهم رئيسهم الينا لكي ينبئنا بمنتهى البرود ، ان الامر قد انتهى بشكل جيد .

ذات يوم شاهدت في احد الاستديوهات السينمائية مخرجا جيدا يدعى « تشانو أوروتيا » يعمل وهو يضع مسدسا في حزامه بشكل ظاهر . وعندما سألته عن الغرض الذي يمكن أن يستخدم السلاح من اجله ، أجابني :

ــ من المستحيل معرفة ما قد يحصل .

في مرة اخرى ، وكانت النقابة قد الزمتني بتسجيل موسيقا لفيلم « الحياة الجنائية لارشيبالدو دي لاكروث » ، حضر ثلاثون موسيقيا الى صالة التسجيل ، وحيث أن الجو كان حارا جدا ، فقد خلعوا استراتهم، وأؤكد لكم ان ثلاثة أرباع هذا العدد كانوا يحملون مسدسات في أغلفة تحت آباطهم .

مصورو ، « اغوستين خيمينيث » كان يشكون من فقدان الامان على الطرق المكسيكية ، وبخاصة خلال الليل . في تلك الفترة ، في الخمسينات ، كان ينصح بعدم الوقوف ، لو حصل على سبيل المثال ان التقى احد بسيارة وقع لها حادث وقد وقف بجانبها بعض الاشخاص الذين يشيرون طلبا للمعونة ، فقد عرفت حوادث عديدة لاعتداءات ارتكبت بهذه الطريقة ، لكنها ، وللحقيقة لم تكن كثيرة وتأكيدا لما يقول، اضاف خيمينيث ، وهو يتحدث عن صهره :

« ذات ليلة ، كان عائدا من تولوكا الى المكسيك ، والطريق عريضة ومطروقة جدا . وفجأة شاهد سيارة تقف جانبا وأشخاصا يطلبون منه التوقف ، وطبعا فقد ابتعد مسرعا ، واذ بهم يبادرونه بأربع طلقات. والواقع ، انه من المستحيل السفر ليلا » .

مثال آخر ، وهو ما يمكن أن يسمى ب « **الروليت المكسيكية** » . فارغاس فيلا الروائي الكولومبي الشهير ، جاء الى المكسيك عام ١٩٢٠، واستقبل من قبل حوالي عشرين من المثقفين المكسيكيين الذين اقاموا مادبة على شرفه . في نهاية الطعام ، وبعد ان كانوا قد تناولوا كميات

كبيرة من المشروبات لاحظ ڤيلا ان المكسيكيين اخذوا يتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض ، وسرعان ما طلب احدهم الى ڤيلا الخروج من القاعة .

وبكثير من الفضول ، سألهم عما يعدونه ، عندئذ سحب احدالموجودين مسدسه ورفع الزناد وهو يقول له :

ـ « انظر ، هذا المسدس محشو . سنقذف به في الهواء ليسقط على الطاولة . قد لا يحدث اي شيء ، لكن قد يحدث نتيجة ارتطامه ، أن تنطلق منه رصاصة » .

لكن « فارغاس ڤيلا » اعترض بشدة ، مما اضطرهم اخيرا الى صرف النظر عن هذه اللعبة الى فرصة اخرى .

شخصيات معروفة عديدة كانت تشترك في هذه العبادة للاسلحة النارية ، التي مورست في المكسيك لوقت طويل . الرسام « دييغو ريڤيرا » مثلا ، اطلق ذات يوم ضد سيارة شاحنة . والمخرج السينمائي ايميليو « اينديو » فرنانديث الذي حقق « ماريا كانديلاريا واللؤلؤة » اوصلته هوايته لمسدس « كولت ٤٥ » الى السجن فلدى عودته من مهرجان كان حيث حصل احد افلامه على جائزة افضل تصوير « مدير تصويره كان غابرييل فيغويروا الذي عملت معه كثيراً » استقبل في بيته القلعة الذي بناه في مدينة المكسيك ، وتحدث الصحفيون عن جائزة التصوير ، وقال لهم بانها ، في الحقيقة ، عبارة عن جائزة للاخراج ، او جائزة كبرى ، الا أن الصحفيين رفضوا تصديق هذا الزعم ، واصر هو ، واخيرا قال لهم :

ـ « لحظة واحدة ، سأذهب لاحضار الوثائق » .

وبمجرد خروجه من الغرفة ، قال صحفي فطن من بينهم لزملائه ، أن فرنانديث قد ذهب ، دون ادنى شك ، لا ليحضر جائزته ، بل

مسدسه . ونهضوا فارين مباشرة لكن ليس بالسرعة الكافية ، اذ بادر المخرج الى اطلاق النار من احدى نوافذ الطابق الاول وجرح احدهم في صدره .

وعن حكاية « الروليت المكسيكية » روى لي أحد اكبر الكتاب المكسيكيين وهو « الفونسو ريس » الذي كنت التقيه باستمرار في باريس وفي اسبانيا ، انه ذهب ذات يوم في بداية العشرينات ، الى مكتب « فاتكونثيلوس » الذي كان آنذاك سكرتير دولة للتعليم العام ، وتحادث معه عدة دقائق ، قبل أن يصل الى القول :

ـ « اعتقد بأن الجميع هنا ، ما عدا انت وانا ، يحملون المسدسات » .

ـ « تحدث عن نفسك » قال « فاتكونثيلوس » وهو يريني مسدسه الذي كان يخفيه تحت سترته .

اما الحكاية الاجمل من بين هذه الحكايات ، والتي وجدت فيها بعدا خاصا ونادرا ، رواها لي الرسام سيكيروس .

حصلت هذه الحكايا في نهاية الثورة ، مع اثنين من الضباط كانا صديقين قديمين ، درسا معا في الكلية الحربية لكنهما تحاربا ضمن مجموعتين متعارضتين « اوبريغون وفيا مثلا » كان احدهما سجينا لدى الآخر ، وسيعدم من قبله . (اذ كان يجري اعدام الضباط ، بينما يصار الى العفو عن الجنود البسطاء اذا هم وافقوا على الهتاف بكلمة « يعيش » متبوعة باسم الجنرال المنتصر .

في المساء ، قام الجنرال المنتصر باخراج السجين من زنزانته ودعاه الى الشراب على طاولته . تعانق الضابطان ، وجلسا الواحد قبالة الآخر ، مكتئبين ، تحادثا بصوت مرتعش عن ذكرياتهما ايام الشباب . وعن صداقتهما ، وعن القدر الذي لا يرحم الذي الزم احدهما بأن يتحول الى جلاداً للآخر .

ـ من كان يقول بانني ذات يوم ، سيكون علي أن اطلق عليك النار ؟

ـ انجز مهمتك ـ اجاب الآخر ـ ليس لديك من سبيل آخر .

استمرا في الشرب ، حتى ثملا .. واخيرا ، قال السجين لصديقه ، وهول الموقف يسيطر عليه :

« اسمع يا صديقي ، امنحني معروفا اخيرا . افضل ان تقتلني انت بنفسك » .

عندئذ ، استل الضابط المنتصر مسدسه ، والدموع في عينيه ، ودون أن ينهض عن الطاولة ، ونفذ رغبة رفيقه القديم .

في نهاية هذا الاستطراد الطويل (واعيد بأنني قد اغرمت دائما بالاسلحة ، واشير بانني في هذا المجال مكسيكي جدا) لا أريد أن تقتصر صورتي عن المكسيك على هذه السلسلة من عمليات اطلاق النار . فالى جانب كون هذه العادة قد بدات تأخذ في الزوال وبخاصة بعد اغلاق محلات بيع الاسلحة ـ فان كل الاسلحة من حيث المبدأ ، مرخصة ومسجلة ، لكن التقديرات تشير الى ان هناك في مدينة المكسيك وحدها اكثر من خمسمائة الف شخص يتمكنون من التهرب من اية رقابة ـ ، يجب القول بأن الجرائم التي تتصف بالدناءة الحقيقية والقذارة ، كالذبح بالجملة ، وعمليات الجزارين الذين يبيعون اللحم البشري ، وغيرها من نتاج الدول المصنعة هي نادرة الوقوع في المكسيك ، ولم اسمع الا عن حالة واحدة من هذا القبيل ، شمالي البلاد .

فقد تبين ، قبل عدة سنوات أن الفتيات اللواتي يعملن في احد المواخير كن يختفين . والذي كان يحصل في الواقع هو أن « مسؤولتهن » كانت تلجأ عندما يصبحن قليلات الجاذبية أو مسنات قليلا ، مما يقلل من فرص عملهن وكسبهن للمال ، الى قتلهن ، بكل بساطة ومن ثم القيام بدفنهن في الحديقة . وقد كانت لهذا الموضوع اصداء سياسية كما اثار ضجة كبيرة في كافة الاوساط .

لكن ، وبصورة عامة ، فان الجرائم هناك ، كانت دائما عبارة عن جرائم قتل بسيطة ، لها وضوح طلقة المسدس ، دون ان تتجاوز ذلك الى تلك « التفاصيل المرعبة » التي نسمع عنها في دول كفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الامريكية .

ولابد من القول ايضا . بان المكسيك هي بلاد يتحرك فيها الناس بدافع ورغبة في التعلم والتطور ، وهذا نادرا ما يتواجد في انحاء اخرى من العالم . يضاف الى هذا ذلك الاغراق في اللطف والميل الى الصداقة والضيافة ، مما جعل من المكسيك ، منذ الحرب الاسبانية وحتى الانقلاب العسكري لبينوتشيت في تشيلي ارض الملجا الامين . كما يمكن القول ايضا انه قد تلاشى ذلك التباعد الذي كان قائما بين المكسيكيين الاصليين والاسبان المهاجرين .

من بين كافة دول امريكا اللاتينية ، ربما كانت المكسيك هي الدولة الاكثر استقرارا ، حيث تعيش بسلام منذ نحو ستين عاما . اما التطلع العسكري للتزعم فليس هو هناك أكثر من مجرد ذكرى دامية . لقد طوروا بشكل ملحوظ الاقتصاد والتعليم العام ، محافظين على علاقات ممتازة مع دول ذات اتجاهات سياسية متنوعة .. وأخيرا لديهم بترول كثير .

المكسيك بلد في هذا العالم يتزايد فيه السكان بصورة بالغة الشدة والوضوح . والسكان عموما فقراء جدا ، فالموارد الطبيعية للبلاد جعلتهم موزعين بشكل سيء ، فهم يفرون من الريف ويأتون بصورة فوضوية لتضخيم « المدن الضائعة » ، التي تحيط بالمدن الكبرى ، وبشكل خاص بالمكسيك العاصمة التي لا يستطيع أحد اليوم أن يعرف العدد الهائل لسكانها ، الا انه من الثابت كونها الاكثر سكانا من بين مدن العالم ، حيث يتنامى عددهم بشكل يثير الدوار (حوالي الف من الفلاحين المتعطشين للعمل ينزحون من الريف كل يوم ، ليستقروا في اي مكان) وسيبلغ ثلاثين مليونا في عام ٢٠٠٠ ، واذا اضفنا الى ذلك ــ وكنتيجة مباشرة ــ مقدار التلوث الهائل ، الذي لا تتخذ تجاهه اية وسيلة فعالة ، ونقص الماء ،

والفروقات الاقتصادية المتنامية ، وارتفاع أسعار المنتجات الاكثر شعبية (الذرة ـ الفاصولياء) ، والنفوذ الهائل للولايات المتحدة الامريكية ، فسيكون من العسير القول بأن المكسيك هي في طريقها الى حل مشاكلها . ولا ننسى عدم الامان ، الذي يتسع اكثر فاكثر ، ويكفي التأكد من ذلك ان تقرأ فقط القسم الخاص بالحوادث في الصحف .

كقاعدة عامة ـ وهي قاعدة لها أحيانا استثناءات لطيفة ـ ، الممثل المكسيكي **لا يفعل** على الشاشة إطلاقا **ما لا** يفعله في الحياة .

عندما كنت اقوم بتصوير **« المتوحش »** عام ١٩٥٤ ، كان « بيدروارما نداريث » الذي يطلق مسدسه أحيانا داخل الاستوديو ، يرفض بقوة ارتداء قمصان ذات أكمام قصيرة ، والتي صنعت ، كما كان يقول ، للشاذين جنسيا . وكنت اجده مصابا بالذعر أمام أية امكانية للظن بانه شاذ . في هذا الفيلم ، كان عليه أن يكون متبوعا من قبل بعض الجزارين ، ويلتقي بفتاة ، فيضع يده على فمها ليمنعها من الصراخ . وعندما يبتعد مطاردوه والسكين مغروزة في ظهره ، كان عليه ان يقول لها :

ـ « انزعي لي هذا الذي في الخلف » .

وخلال التدريبات سمعته فجأة يصرخ غاضبا : « انا لا اقول من الخلف » ! كان يخشى من كون الاستخدام الوحيد لعبارة « من الخلف » يمكن ان يكون قاتلا بالنسبة لسمعته ، وهي عبارة قمت بحذفها دون أية مشكلة .

« الحياة الجنائية لارشيبالدو دي لاكروث » ، الذي حققته عام ١٩٥٥ كان مستوحى من رواية للكاتب المكسيكي « رودولفو أو سيفيلي » ، وهي روايته الوحيدة على ما أعتقد . وقد لاقى الفيلم نجاحا لا بأس به ، الا انه يبقى بالنسبة الي مرتبطا بذكرى مأساة غريبة . ففي أحد المشاهد يقوم « ارنستو الونسو » ، الممثل الرئيسي ، باحراق نموذج مصنوع

بشكل دقيق ومتقن للممثلة « ميروسلافا » في فرن للخزف . وبعد فترة قصيرة جدا من انتهاء التصوير انتحرت ميروسلافا لاسباب عاطفية ، وقد جرى احراق جثتها بناء على وصيتها .

في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، كنت قد عدت للاتصال بأوروبا . صورت فيلمين باللغة الفرنسية ، احدهما في كورسيكا « هذا يدعى الفجر » والاخر في المكسيك « الموت في هذه الحديقة » .

لم اعد لمشاهدة « **هذا يدعى الفجر** » المستوحى من رواية « ايمانويل روبلس » بالرغم من أن هذا الفيلم يعجبني كثيرا . وكان المسؤول عن الانتاج خلال عملي فيه هو « كلود جاجيه » الذي أصبح صديقا لي وقدمته في عدة ادوار صغيرة في أفلام اخرى . و « مارسيل كاموس » كان مساعدي الاول ، وكان يحتمي دائما بفتى بدين ذي ساقين طويلتين ، يمشي دائما ببطء شديد ، اسمه « جاك ديراي » . وقد التقيت بمناسبة هذا الفيلم بـ « جورج مارشال » و « جوليان بيرتو » ، اللذين عادا فيما بعد للعمل معي . « لوثيا بوسيه » كانت آنئذ خطيبة لمصارع الثيران « لويس ميغيل دومينغين » الذي كان يتصل بي هاتفيا دون انقطاع قبل التصوير ليسألني « اسمع من هو البطل ؟ جورج مارشال ؟ أي نوع من الناس هو ؟ » .

كنت أعمل على السيناريو مع « جان فيري » أحد الاصدقاء السرياليين وقد ثارت مشكلة فيما بيننا ، فقد كان هو قد كتب ما دعاه بـ « مشهد حب عظيم » ، (كان في الحقيقة عبارة عن ثلاث صفحات من الحوار الرديء) ، وقد حذفته بالكامل تقريبا ، وبدلا منه جعلت جورج مارشال يدخل ، ويجلس متعبا جدا ، يخلع حذاءه ، يطلب من لوثيا بوسيه أن تقدم اليه الحساء ، فيقدم هو اليها سلحفاة صغيرة كهدية . وقد ساعدني « كلود جاجيه » ــ وهو سويسري ــ في صياغة العبارات القليلة التي كانت تلزمني . واستاء جان فيري كثيرا ، وكتب الى المنتج يشكو من مسألة **الحذاء والحساء والسلحفاة** ، وأضاف متحدثا عن حوارنا ، « بانه قد يكون بلجيكيا أو سويسريا ، لكنه بالتأكيد ليس فرنسيا » وطلب أيضا

شطب اسمه من قائمة اسماء العاملين في الفيلم ، لكن المنتج رفض ذلك . وانا مازلت أصر على أن المشهد اصبح أفضل مع الحساء والسلحفاة .

حصلت لي أيضا بعض الاشكالات مع اسرة « **بول كلوديل** » ، ففي الفيلم تشاهد اعماله موضوعة الى جوار عدة أصفاد فوق طاولة مفوض الشرطــة .

كتبت الي ابنة بول كلوديل رسالة لـم يكن فيها ما يفاجئني : الشتائم المعتــادة .

بينما اتذكر في « **الموت في هذه الحديقة** » ، وقبل أي شيء ، المشاكل الدرامية للسيناريو ، والتي كانت اسوأ من اي امر آخر ، ولم أكن استطيع التوصل الى حلول لها . كثيرا ما كنت استيقظ في الثانية صباحا لكي اكتب خلال الليل مشاهد كنت في الصباح اعطيها لـ « غابرييل آرو » ليصحح لي فرنسيتي ، وكان علي ان اصورها خلال النهار . « ريمون كينو » جاء لمساعدتي في حل الاشكالات ، وامضى في المكسيك خمسة عشر يوما ، لكن دون جدوى . واتذكر دعابته وكياسته ، اذ لم يكن يقول على الاطلاق : « هذا لا يعجبني ، ليس جيدا » ، بل كان يبدأ عباراته دائما بـ : « اتساءل فيما اذا . . » .

انه صانع لقطة حاذقة . « **سيمون سينيوريه** » التي قامت بـدور مومس في قرية صغيرة باحدى مناطق المناجم ، حيث حصلت بعض الاضطرابات ، كانت تقوم بشراء حاجياتها من احد المحلات . طلبت بعض علب السردين والابر وأغراضا مختلفة أخرى ، ثم طلبت قطعة من الصابون في هذه اللحظة ، سمعت أصوات ابواق الجنود الذين وصلوا من أجل اعادة النظام في القرية ، تغير رايها في الحال ، وطلبت خمس قطع من الصابون .

للاسف ، ولاسباب لم أعد اذكرها ، لم يظهر هذا المشهد لـ « كينو » في الفيلـم .

اعتقد أن « سيمون سينيوريه » لم تكن لديها اية رغبة للعمل في «الموت في هذه الحديقة » ، مفضلة البقاء في روما مع ايف مونتان ، اذ كان عليها من اجل الذهاب الى المكسيك أن تمر بنيويورك وخشيت من أن تمنعها السلطات الامريكية من ذلك لان جواز سفرها كان يحمل الكثير من التأشيرات السوفييتية ، والاشتراكية لكن الذي حصل بالفعل هو انها قد مرت دون ان يحدث معها اي اشكال .

كانت تبدو مضطربة دائما خلال فترة التصوير ، وفي احدى المرات طلبت من احد التقنيين أن يتناول شريط القياس ليحسب مسافة مائة متر يضع عندها مقاعد انتظار الممثلين الفرنسيين ، بعيدا عن آلة التصوير .

بالمقابل ، وبفضل « الموت في هذه الحديقة » ، فقد تعرفت الى « **ميشيل بيكولي** » الذي اصبح احد افضل أصدقائي ، وعملنا معا في خمسة أو ستة أفلام . تعجبني فيه روح الدعابة ، وكرمه الخفي ، وذلك النزر البسيط من الجنون ، والاحترام الذي لم يكن يصرح لي به .

نـــاثـــاريـــن

مع « ناثارين » ، الذي جرى تصويره عام ١٩٥٨ في المكسيك العاصمة وفي عدة أماكن جميلة جدا من منطقة « كواوتلا » ، قمت ، وللمرة الاولى باعداد رواية لـ « غالدوس » . وخلال تصوير هذا الفيلم أيضا اثرت حفيظة « غابرييل فيغويروا » الذي كان قد اعد لي تكوينا لا عيب فيه من الناحية الجمالية ، دون أن ينسى تلك الغيوم البيضاء المتناثرة التي لابد منها . الا انني ، وببساطة ، قمت بالدوران بالكاميرا مائة وثمانين درجة كاملة لالتقط منظرا تافها ، الا انه كان يبدو لي حقيقيا وصحيحا بدرجة أكبر بكثير . لم تكن تعجبني على الاطلاق الجماليات السينمائية الجاهزة ، التي كثيرا ما تصرف الذهن عما يريد الفيلم أن يقوله .

احتفظت بما هو أساسي من شخصية « **ناثارين** » ، تماما كما كانت

في رواية « غالدوس » ، الا انني قمت وبما يتناسب مع الفترة التاريخية باعادة النظر خلال عملية الاعداد ، ببعض الافكار التي صيغت قبل مائة عام ، او نحو ذلك . في نهاية الرواية ، يحلم ناثارين بأنه يقيم قداسا ، وقداستبدلت الحلم بمشهد توزيع الصدقات . بالاضافة الى هذا ، فقد نثرت ، وعلى امتداد العمل ، عناصر جديدة ، كالاضراب مثلا ، وخلال وباء الطاعون ، اضفت مشهد المحتضر المستوحى من « حوار بين كاهن ومحتضر » ـ دي ساد ـ ، الذي تنادي فيه المراة على عشيقها وترفض الرب .

من بين الافلام التي حققتها في المكسيك ، يبقى « ناثارين » واحدا من تلك التي افضلها . ومن ناحية اخرى ، فقد استقبل الفيلم بشكل جيد ، لكن مع بعض الاخطاء في فهم المحتوى الحقيقي للفيلم . فخلال مهرجان كان ، حيث حصل على جائزة دولية كبرى احدثت خصيصا للمناسبة ، كاد أن يحصل ايضا على جائزة المركز الكاثوليكي ، فقد دافع عنه ثلاثة من اعضاء لجنة التحكيم الا انهم كانوا اقلية .

وبهذه المناسبة ، فقد استاء **((جاك بريفير))** ، المناهض العنيد للكنيسة ، من كوني قد جعلت من كاهن شخصية رئيسية في فيلم ، قائلالي بان كل الكهنة مدانون ، وليس من المجدي على الاطلاق الاهتمام بقضاياهم .

وقد استمر ذلك الخطأ الذي كان يدعوه البعض « محاولة التعويض »، فذات يوم ، وبعد انتخاب « يوحنا الثالث والعشرين » ، جاء من يزورني في المكسيك طالبا الي الذهاب الى نيويورك ، حيث كان احد الكاردينالات وهو خليفة الكريه « شبيلمان » ، يرغب في أن يقدم الي ديبلوم شرف من أجل هذا الفيلم ، وطبعا ، رفضت . الا أن « باربا تشانو » منتج الفيلم، وافق ، وسافر لهذه الغاية .

★ ★ ★

مع « وضد » ..

في مرحلة السيريالية ، كانت هناك ، فيما بيننا ، عادة ان نتخذ قرارات تامة حول ما هو « جيد » وما هو « سيء » ، ما هو « عادل » وما هو « غير عادل » ، ما هو « جميل » وما هو « قبيح » .. كما كانت هناك كتب يجب ان تقرأ ، واخرى لا ، وامور يجب أن تفعل واخرى يجب تحاشيها .

لقد استوحيت هذه الالعاب القديمة ، في هذا الفصل ، فجمعت بعضا مما اكرهه وما استلطفه ، تاركا زمام القياد للمصادفة وحدها ، وانصح الجميع أن يقوموا بهذه التجربة ذات يوم .

لقد عبدت « ذكريات في علم الحشرات » لـ « فابر » ، بسبب شغفي بالملاحظة ، وحبي الذي لا حدود له للكائن الحي . ويبدو لي انه لا مثيل لهذا الكتاب ، حتىانه يفوق الكتاب المقدس بمراحل . كثيرا ما كنت اقول لنفسي انه بامكاني أن اذهب الى جزيرة قاحلة دون أن يكون معي سوى هذا الكتاب . أما اليوم ، فقد تغير رايي ، ولن احمل معي اي كتاب .

اعجبني « ساد » ، وكنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين عندما قراته للمرة الاولى ، في باريس ، وترك لدي تاثيرا كبيرا ، يفوق حتى ما تركته لديّ قراءة « داروين » .

نشر « الايام المائة والعشرين لسادوم » ، للمرة الاولى ، في برلين ، وكانت نسخ هذه الطبعة قليلة جدا . وذات يوم صادفت واحدة من هذه النسخ في منزل « رولاند توال » ، وكنت بصحبة « روبرت ديسنوس »،

وكان قد قرأ هذه النسخة النادرة « مارسيل بروست » وآخرون . وقمت باستعارتها .

لم أكن أعرف ، حتى ذلك الحين ، شيئا عن « ساد » ، وعندما قراته ، احسست بالذعر من أعماقي ـ عندما كنت في الجامعة ، بمدريد ، لم أكن محروما من الاطلاع على أي من الاعمال العظيمة في الادب العالمي ، من «Camoeus» الى دانتي ومن هوميروس حتى « ثيرڤانتيس » . كيف كنت اجهل ، من قبل ، وجود هذا الكتاب غير العادي ، الذي كان يتفحص المجتمع من جميع وجهات النظر ، بطريقة رائدة ومنهجة ، كتاب يعادل رفا كاملا وزاخرا من الكتب ، وقد كان له بالنسبة الي تأثير لا حدود له . لقد كذبت الجامعة عليّ ، اذ اخذت تبدو لي « الاعمال العظيمة » الاخرى ، في الوقت نفسه ، خالية من أية قيمة ، ومن أية أهمية . وشرعت باعادة قراءة « الكوميديا الالهية » ، فتبين لي أن هذا الكتاب هو الاقل شاعرية في العالم ، حتى من الكتاب المقدس .

كنت اقول لنفسي : كان عليهم ان يجعلوني أقرأ « ساد » قبل كل الاشياء الاخرى ! وكم هناك من القراءات غير المفيدة .

واخذت أبحث عن كتب « ساد » الاخرى ، الا انها كانت ممنوعة بالكامل ، ولا يمكن العثور عليها الا في بعض الاصدارات النادرة جدا من القرن الثامن عشر . ذات مرة توسط لي كل من « بريتون » و « ايلوار » لدى صاحب مكتبةفيشارعبونابرت ، وسجلني على لائحة الانتظار لـ « جوستين » ، التي لم أستطع الحصول عليها على الاطلاق . لكن ، وبالمقابل فقد وقعت بين يديّ المخطوطةالاصلية لـ « الايام المائة والعشرون لسادوم » وحتى انني كنت على وشك شرائها ، لكن ذلك تحقق اخيرا للفيسكونت دي نواي ، وكانت عبارة عن ملف على درجة كبيرة من الضخامة .

اعارني عدد من الاصدقاء « الفلسفة « al boudoin » الـذي كان يسحرني و « الحوار بين كاهن ومحتضر » و « جوستين وجولييت » ،

الذي اعجبني فيه ، بصورة خاصة ، المشهد بين جوليت والبابا ، والذي يعترف فيه هذا بالحاده .

كان « بريتون » يمتلك نسخة من « جوستين » ، كما كان « رينيه كريفيل » يمتلك اخرى . وعندما انتج هذا ، كان « دالي » هو اول القادمين الى بيته ، ومن ثم حضر « بريتون » متقدما عددا من اعضاء المجموعة . ثم وصلت من لندن ،بالطائرة ، صديقة لـ « كريفيل » ، بعد ذلك بساعات ، وكانت هي التي لاحظت ، وسط البلبلة التي أعقبت الحادث ، اختفاء « جوستين » . هناك من سرقه . دالي ؟ ، مستحيل . بريتون ؟ ، غير معقول ، ثم انه يمتلك نسخة . لكن الاكيد هو أن واحدا من الملازمين لكريفيل ، والذي يعرف مكتبته بصورة جيدة ، قد أخذ النسخة ، وأن هناك مذنبا لم يعاقب بعد .

اثرت بي كثيرا وصية « ساد » التي طلب فيها أن ينثر رماده في كل مكان ، وان تنسى الانسانية كليا اعماله ، بل وحتى اسمه . واتمنى لو استطيع ان أقول الشيء نفسه بالنسبة الي . ان جميع الطقوس التذكارية ، وجميع النصب والتماثيل المقامة للرجال العظام هي امور مخادعة وخطرة . ماذا تفيد ؟.. فليحيا النسيان . انني أرى العظمة فقط في اللاشيء .

اذا كانت المتعة التي اشعر بها ازاء « ساد » ، قد شاخت اليوم ــ والحماس لكل الاشياء سريع الزوال ــ ، فانني لا استطيع ان انسى تلك الثورة الثقافية . لقد كان التاثير الذي مارسه علي ، وبلا ادنى شك ، عظيم الشأن ، عندما حققت « العصر الذهبي » ، حيث الاحالة الى ساد لا تخفى على النظر ، كتب « موريس هاينه » مقالا ضدي ، أعلن فيه أن المركيز العظيم كان سيشعر بكثير من الاستياء . لقد كان هو قد هاجم جميع الاديان ،دون أن يقصر هجومه ، مثلي ، على المسيحية . واجبت بأن ما قصدته لم يكن التعبير عن الاحترام لفكر مؤلف ميت ، بل ان أصنع فيلما .

عبدت « ڤاغنر » ، واستخدمت موسيقاه في عدة افلام ، منذ

الفيلم الاول « كلب اندلسي » ، وحتى الاخير « هذا الغرض الغامض للرغبة » ، لقد كنت اعرفها بصورة جيدة جدا .

ان احد اهم دواعي الاسف في سنواتي الاخيرة ، عدم قدرتي على سماع الموسيقا ، فمنذ مايزيد عن عشرين عاما ، لم يعد سمعي قادرا على تمييز النغمات ، مثلما لو ان الحروف قد تبادلت اماكنها في نص مكتوب، فادى هذا الى استحالة القراءة . ولو ان معجزة تعيد الي هذه الحاسة لكانت شيخوختي اكثر راحة ، اذ تبدو لي الموسيقا مورفينا غاية في العذوبة ، يمسك بيدي ، وانا اتجه الى الموت ، دون الاحساس بأي ذعر . لكن ، وكملجأ اخير ، لست ارى الا القيام برحلة الى ال « لورد » .

عندما كنت شابا عزفت على الكمان ، وفيما بعد ، في باريس ، داعبت اوتار البانجو . اعجبني « بتهوفن » و « سيزار فرانك » و « شومان » و « ديبوسي » وآخرون كثيرون .

لقد تبدلت العلاقة بالموسيقا كليا ، منذ ايام شبابي وحتى اليوم . كنا نترقب وصول فرقة مدريد السيمفونية الكبيرة ، ذات السمعة المتميزة ، الى سرغوسة ، قبل موعد الحفلة باشهر عديدة ، وكان هذا يخلق لدينا حالة من النشوة الخاصة ، والاستمتاع الحقيقي بالانتظار ، وكنا نبدأ بالاستعداد ، ونعد الايام ، ونبحث عن النوتات ، نترنم بها . الى ان تحين الامسية الموسيقية ، حيث تصبح فرحتنا بلا حدود . أما اليوم فيكفي ان نضغط على احد الازرار ، فنستمع مباشرة ، في بيوتنا ، الى كل موسيقات العالم . انني ارى بوضوح ماالذي خسرناه . فما الذي كسبناه ؟.. للوصول الى الاحساس بمتعة الجمال الحقيقي ، هناك ثلاثة شروط تبدو لي ضرورية : الامل ، والكفاح ، ثم الفوز بالشيء .

احب أن أتناول طعام العشاء مبكراً ، وان انام واستيقظ مبكرا . ولست اسبانيا في هذا على الاطلاق . احب الشمال ، والبرد والمطر ، وانا في هذا اسباني . لقد ولدت في منطقة جرداء ، الا انني لا اتصور ماهو اجمل من الغابات الواسعة الندية ، التي يجتاحها الضباب . عندما

كنت اذهب في طفولتي ايام العطل الى « سان سيباستيان » في اقصى الشمال الاسباني ، وهو ماسبق ان اشرت اليه ، كنت استمتع كثيرا بمنظر الطحالب التي تحيط بجذوع الاشجار . تعجبني الدول الاسكاندينافية ، التي لم ازرها الا نادرا وروسيا . عندماكنتفي السابعة من عمري ، كتبت حكاية من عدة صفحات ، تدور احداثها في القطار العابر لسيبيريا ، وسط السهول المكسوة بالثلوج . احب صوتتساقط المطر ، واتذكره كواحد من اجمل الاصوات في العالم ، واليوم لم اعد اسمعه الا عن طريق جهاز خاص ، وليس هو الصوت نفسه .

.. ان المطر يصنع الشعوب العظيمة ..

احب البرد حبا حقيقيا ، وكنت طوال سنوات شبابي ، وحتى في اقسى ايام الشتاء بردا ، اتمشى دون معطف ، فقط بقميص بسيط وسترة . كنت اشعر بالبرد ، الا انني كنت اقاوم ، وكان يلذ لي هذا الشعور . كان اصدقائي يدعونني بـ « الذي بلا معطف » . وذات يوم صوروني عاريا بالكامل ، وسط الثلج .

ذات شتاء ، في باريس ، وكان الـ « سين » قد بدأ يتجمد ، كنت انتظر « خوان ڤيثينس » في محطة « اورساي » التي كانت تصلها القطارات القادمة من مدريد ، وكان البرد قارسا لدرجة جعلتني لااكف عن الجري من رصيف الى آخر ، لم اسلم من الاصابة بالتهاب رئوي ، استعصى على الشفاء ، الى أن قمت بشراء عدد من المعاطف ، كانت الاولى في حياتي .

في الثلاثينات ، كثيرا ماكنت اذهب في الشتاء مع « پيپين بيو » وصديق آخر هو « لويس ساليناس » الذي كان نعيبا في المدفعية ، الى جبال غوادارام . وللحقيقة اقول انه لم تكن لذلك اية صلة بممارسة رياضة التزلج . كنا نغلق على انفسنا بمجرد وصولنا الى ملجئنا ،لنجلس الى جوار نار متقدة من الحطب ، وبضع زجاجات . وكنا ، بين الحين والآخر ، نخرج « للتنفس » لبضع دقائق ، متلفحين حتى الانف ، مثل

فيرناندو راي » في « تريستانا » . وبالطبع فان متسلقي الالب ليس بامكانهم الا الشعور بالازدراء ازاء تصرفنا هذا .

لا احب البلدان الحارة ، وهذه نتيجة منطقية لما سبق ، واذا كنت قد عشت في المكسيك ، فقد كان ذلك بالمصادفة . لاتعجبني الصحراء ، والرمال ، ولا تعجبني الحضارة الهندية ، واكثر منها اليابانية ، وانا في هذا لست رجلا من عصري . ولا اشعر بالتعاطف الا مع الحضارة اليونانية والرومانية ، التي ترعرت في كنفها .

اعبد حكايات الرحلات الى اسبانيا التي كتبها الرحالة الانكليز والفرنسيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وحيث اننا في اسبانيا ، تعجبني الروايات المتعلقة بالصعاليك وبخاصة « النصاب » لـ « كيڤيدو » ، و « جيل بلاس » وهي للفرنسي «Le sage» لكنها ترجمت بصورة رائعة من قبل الأب « ايسلا » في القرن الثامن عشر ، فحولها الى عمل اسباني ، وتمثل راي اسبانيا خير تمثيل ، وقد قرأتها مرات عديدة ، ربما بلغت العشر .

لا احب العميان كثيرا ، وكذلك معظم الطرشان . ذات يوم ، شاهدت في المكسيك ، اثنين من العميان يجلسان جنبا الى جنب ، وهما يتبادلان عملية الاستمناء ، وكان المشهد مفاجئا لي .

كثيرا ما اتساءل ، فيما اذا كان العميان هم فعلا اكثر سعادة من الطرشان ، كما يقال . لا اعتقد ذلك . ومع هذا ، فقد عرفت اعمى غير عادي كان يدعى « لاس ايراس » ، وكان قد فقد بصره وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وحاول الانتحار من ثم ، عدة مرات ، فقام والداه باغلاق نوافذ غرفته بالاقفال . وفيما بعد ، تعود على حالته الجديدة ، وكان كثيرا ما يأتي ، خلال سنوات العشرينات الى مقهى « يومبو » في شارع « كارتياس » بمدريد ، فيلتقي بـ « غوميث دي لاسيرنا » ، وكان يوقم ببعض الكتابة . وفي الليل ، عندما كنا نبدأ التجوال في الشوارع ، كان يأتي معنا .

ذات صباح ، في باريس ، وكنت اسكن في منطقة السوربون ، قرع الباب ، فتحت ، وكان « لاس ايراس » . فوجئت كثيرا لقدومه ، ودعوته للدخول . قال لي انه وصل للتو ، وانه في باريس ، لوحده ، لامور تتعلق بالتجارة . كانت فرنسيته تدعو للرثاء ، وسألني فيما اذا كنت استطيع ايصاله حتى احدى محطات الباصات ، ورافقته . ثم رايته وهو يبتعد ، وحيدا تماما ، في مدينة لا يعرفها ولا يراها . لقد بدا لي ذلك غير قابل للتصديق . لقد كان اعمى مدهشا .

من بين كل عميان العالم هناك واحد لا استلطفه ، هو « خورخيه لويس بورخيس » . انه كاتب جيد ، دون شك ، الا ان العالم مليء بالكتاب الجيدين ، وليس باستطاعتي ان احترم احدا لمجرد انه كاتب جيد ، ولا بد من صفات اخرى ايضا . كنت قد التقيت بـ « خورخيه لويس بورخيس » مرتين أو ثلاثا منذ حوالي ستين عاما ، وبدا لي متغطرسا ، وعابدا لذاته ، في كل تصريحاته ، المس شيئا من «الاستذة» والاستعراضية ، كما لا تعجبني فيه تلك الصبغة الرجعية لاحاديثه ، كذلك تقليله من شان اسبانيا . وهو محدث جيد مثل الكثيرين من العميان . تظهر جائزة « نوبل » باستمرار كفكرة متسلطة عليه في كل اجوبته على الصحفيين . كم كان يحلم بها ! . .

وفي مقابل هذا السلوك ، اضع تصرف « جان بول سارتر » ، الذي رفض اللقب والمال ، يوم منحته الاكاديمية السويدية الجائزة ، عندما اطلعت في احدى الصحف على تصرفه هذا ، بعثت اليه في الحال ببرقية تهنئة ، حيث ترك هذا وقعا طيبا لدي . وطبعا ، فقد كان من الممكن أن يتغير رأيي بـ « بورخيس » لو التقيت به من جديد .

لا استطيع ان افكر بالعميان دون ان اتذكر عبارة لـ « بنيامين بيريت » ـ واستحضرها من الذاكرة ، كباقي الامور الاخرى ـ : « هل صحيح ان المارتاديلا يصنعها العميان » ، وهذا التاكيد المقدم بصيغة سؤال ، هو بالنسبة الي ، حقيقي ، كحقيقة الانجيل . وقد يجد البعض في العلاقة مابين العميان والمارتاديلا امرا غير معقول ، اما بالنسبة الي ،

فهو مثال ساحر لعبارة لا عقلانية على الاطلاق ، تغتسل بصورة فظة وغامضة ببريق الحقيقة .

أعاف الحذلقة والرطانة . كنت احيانا ابكي من الضحك لدى قراءتي بعض مقالات « دفاتر السينما » . في المكسيك ، وبصفتي رئيسا فخريا لمركز الطاقات السينمائية (المدرسة العليا للسينما) ، دعيت ذات يوم لزيارة المنشآت القائمة هناك . وقدموا الي اربعة او خمسة اساتذة ، كان من بينهم ، شاب يرتدي بطريقة مضبوطة جدا ، وقد تورد خداه من الخجل . سألته عما يدرسه ، فأجابني بطريقة مغرقة في الحذلقة والتكلف ، وددت لو أقتله .

الحذلقة والتكلف ، هذه الظاهرة الباريسية المعروفة ، تتسبب باضرار مؤسفة في الدول النامية ، وهي مؤشر واضح جدا للاستعمار الثقافي .

أكره « شتاينبك » حتى الموت ، وبخاصة ، بسبب مقال كتبه في باريس روى فيه ــ بصورة جادة ــ انه شاهد طفلا فرنسيا يمر امام قصر الاليزيه مع رغيف من الخبز ، وعند وصوله الى جانب رجال الحرس ، ادى لهم بهذا الرغيف ، حركة تقديم السلاح ، وقد وجد شتاينبك هذا التصرف مؤثرا . لقد أغاظتني قراءة هذا المقال لدرجة لا توصف ، فهل يمكن أن تكون هناك قلة حياء كهذا ؟ . .

ما كان لشتاينبك أن يكون شيئا لولا المدافع الامريكية ، واضع في الخانة نفسها « دوس باسوس » و « هيمنغواي » ، فمن كان سيقرأ اعمالهم لو أنهم كانوا قد ولدوا في باراغواي أو تركيا ؟ انها سلطة البلد هي التي تقرر مسألة الكتاب العظام . « غالدوس » مثلا ، روائي كثيرا ما قورن بـ « دوستويفسكي » ، لكن هل هناك من يعرفه خارج اسبانيا ؟ .

أحب الفن الروماني والقوطي ، وبشكل خاص كاتدرائيات « سيغوبيا » و « طليطلة » ، هذه الكنائس التي هي عبارة عن عالم يضج بالحياة .

الكاتدرائيات الفرنسية لا تمتلك الا الجمال البارد للشكل المعماري . اما ما اراه في اسبانيا متفردا ، فهو الرسوم التي تمثل قصصا ، انها مهرجان استعراضي لمنحنيات لا متناهية ، يتوه الخيال عبر تعرجاتها الباروكية الدقيقة .

أحب الاديرة ، مع حنين خاص لدير الـ « باولار » ، الذي اشعر به الاكثر قربا الى نفسي من بين جميع الاماكن العزيزة التي عرفتها .

عندما كنت أعمل في الـ « باولار » مع « كاريير » ، كنا نقوم كل يوم تقريبا عند الخامسة ، بوقفة للتأمل الخالص : انه دير قوطي كبير ، دون اعمدة ، له نوافذ عالية ، مدببة من الاعلى ، وأبواب خشبية صغيرة قديمة . السقوف مغطاة بقرميد روماني . الواح الابواب الخشبية مكسورة ، وقد نبتت الحشائش على الجدران . كان هناك صمت عميق لعصور غابرة .

في مركز الدير ، هناك ساعة قمرية ، كان الرهبان يتحدثون عنها على انها تحفة نادرة ، تشير الى صفاء الليالي .

كانت هناك ثلاثة قبور متجاورة ، تجتذبنا في جميع زياراتنا . الاول ، وهو الاكبر حجما ، يضم الرفات الكريم لاحد أصحاب المقامات العليا في الدير في القرن السادس عشر ، ولا بد أنه ترك وراءه بعض الذكريات السعيدة . في الثاني « دفنت امرأتان أم وابنتها ، ماتتا في حادث سيارة وقع على مسافة بضع مئات من الامتار عن الدير ، وعندما لم يطالب أحد بجثتيهما ، وضعتا في هذا الدير . أما القبر الثالث ، فقد وضع فوقه حجر متواضع جدا كساه العشب الجاف وكتب عليه اسم احد الامريكيين الشماليين . والرجل الذي يرقد تحت هذا الحجر ، على ما روى لنا أحد الرهبان ، فقد كان أحد مستشاري « ترومان » وقت التفجير النووي في هيروشيما ، ومثل الكثيرين ممن شاركوا في ذلك الدمار ، كقائد الطائرة مثلا ، فقد وقع هذا الامريكي فريسة حالة من التوتر العصبي . ترك عائلته وعمله ، ومضى ، ليقضي بعض الوقت متشردا في مراكش ، ومن

هناك انتقل الى اسبانيا ، وذات ليلة ، قرع باب الدير . كان في حالة بائسة من الاعياء والانهاك فبادر الرهبان الى ايوائه ، ومات بعد اسبوع .

ذات يوم ، دعانا الرهبان ، ـ كاربير وأنا ، وكنا نسكن في الفندق المجاور ـ ، الى الغداء في غرفة طعامهم القوطية الكبيرة . كانت مأدبة جيدة ، من لحم الخروف والبطاطا ، الا أن التحدث خلالها كان ممنوعا ، واخذ احد الرهبان يقرأ لروح احد آباء الكنيسة . وعلى سبيل التعويض فقد انتقلنا بعد الطعام الى قاعة أخرى ، فيها تلفزيون ، وقهوة وشوكولاته وتحدثنا هناك كثيرا . كان هؤلاء الرهبان البسطاء جدا يصنعون الجبن والجين (وقد منعوا فيما بعد من صنع هذه المادة الاخيرة لانهم لم يكونوا يدفعون رسوما) . اما أيام الاحد فكانوا يبيعون بطاقات بريدية وعصيا ذات نقوش للسياح . كانت السمعة الشيطانية لافلامي قد وصلت الى رئيسهم ، لكنه اكتفى بالابتسام . لم يكن يذهب الى السينما على الاطلاق ، وقد قال لي ذلك بما يشبه الاعتذار .

أشعر بالرعب أمام مصوري الصحافة . اثنان منهما هاجماني ذات يوم ، بكل معنى الكلمة ، بينما كنت امشي في الطريق ، قريبا من الـ « باولار » . أحاطا بي من كل جانب ، وهما يطلقان علي وابلا من كاميراتهم دون أي توقف ، وبالرغم من رغبتي في البقاء وحيدا . كنت قد أصبحت هرما لدرجة لم أستطع معها ان القنهما درسا ، وندمت لانني لم أكن مسلحا .

احب الدقة في المواعيد . وللحقيقة أقول ، بأنني مريض في هذا المجال لا اتذكر بأنني وصلت متأخرا عن أي موعد ولو مرة واحدة ، طيلة حياتي . وعندما يصادف انني اصل قبل الموعد ، فانني انتظر متمشيا امام الباب الذي علي أن اقرعه ، الى ان يحل الموعد تماما .

تعجبني ، ولا تعجبني العناكب . وهذا الموضوع عبارة عن هوس ، اشترك فيه مع اخوتي وأخواتي . انه انجذاب ونفور في نفس الوقت ، كنا

خلال اجتماعاتنا العائلية ، نستطيع البقاء ساعات طويلة نتحدث عن العناكب ، بكل التفاصيل الدقيقة والمرعبة .

اعبد الحانات والكحول والتبغ ، لكن هذا الامر عبارة عن مسألة اساسية ، سبق ان افردت لها فصلا كاملا .

أشعر بالخوف من التجمعات . وما ادعوه تجمعا ، هو كل اجتماع يضم أكثر من ستة اشخاص والحشود الانسانية الضخمة ــ واتذكر صورة فوتوغرافية شهيرة لـ « ويغي » يبدو فيها شاطىء جزيرة كوني في يوم احد ــ هي بالنسبة الي شيء مبهم ويوحي بالرعب .

أحب الادوات الصغيرة : الملاقط والمقصات والعدسات المكبرة والمفكات ترافقني الى كل مكان ، بكل اخلاص ، كفرشاة أسناني . واقوم بترتيبها في احد الادراج بكل عناية .

احب العمال ، واقدر واغبط مهاراتهم .

يعجبني « دروب المجد » لـ « كوبريك » و « روما » لـ « فيلليني » و « المدرعة بوتمكين » لـ « ازنشتين » و « المهرج الكبير » لـ « ماركو فيربري » و « غوبي » و « الايدي الحمراء » لـ « جاك بيكر » و « العاب ممنوعة » لـ « رنيين كليمان » . تعجبني جدا (وهو ما سبق أن ذكرته) الافلام الاولى لـ « فريتز لانغ » و « بستر كيتون » و « الاخوة ماركس » ، والمخطوطة التي وجدت في سرغوسة . رواية « بوتوكي » وفيلم « هاس » الذي شاهدته ثلاث مرات . وكان عملا استثنائيا ، طلبت من « الاتريسته » أن يشتريه المكسيك في مقابل « سيمون الصحراء » .

تعجبني كثيرا افلام « ريشوار » حتى الحرب ، و « برسونا » لـ « برغمان » ، من « فيلليني » يعجبني أيضا ، « الطريق » و « ليالي كابيريا » و «الحياة الحلوة » . لم اشاهد « اي فينيللوني » للاسف وبالمقابل ، فقد خرجت من « كازانوفا » قبل نهاية العرض بكثير .

من « ڤيتوريو دي سيكا » يعجبني كثيراً « ماسح الاحذية » و « اومبرتود » و « سارق الدراجات » الذي تتحول فيه وسيلة عمل الى بطل . انه رجل تعرفت عليه ، واحس بانه قريب جداً الى نفسي .

اعجبتني كثيراً أفلام « ايريك فون شتروهايم » وافلام «شتيرنبرغ» ويبدو لي أن « ليالي شيكاغو » كان مفخرة في فترته .

لم يعجبني « من هنا والى الابد » ، الميلودراما العسكرية والوطنية، والذي لاقى نجاحاً كبيراً . يعجبني كثيراً « ڤايدا » وافلامه . لم أعرفه شخصياً، الا انه صرح منذ فترة، في مهرجان كان ان أفلامي الاولى جعلته يرغب بالعمل في السينما . هذا يذكرني بتقديري للافلام الاولى لـ « فريتز لانغ » التي قررت اتجاه حياتي . هناك امر ما يؤثر بي في هذا الواصل الخفي ما بين فيلم وآخر . ذات يوم أرسل إليّ « ڤايدا » بطاقة بريدية موقعة بطريقة طريفة : « تلميذك » . ان اكثر ما اثر بي في هذا الخصوص ، هو أن الافلام التي شاهدتها له كانت مدهشة .

اعجبني « ماتون » لـ « كلوزو » و « آتالانت » لـ « جان ڤيغو » . لقد زرت « ڤيغو » خلال التصوير ، وأتذكره رجلا ضعيف البنية جداً ، وشاباً جداً ، ولطيفاً جداً .

من بين الافلام المفضلة لديّ ، هناك الفيلم الانكليزي « ميت الليل » وهو تجميع جميل لعدد من حكايات الرعب . و « ظلال بيضاء في بحار الجنوب » الذي بدا لي انه يمتاز كثيراً على «تابو» لـ «فورناو» . اعجبني « سورة جيني » مع « جينيفر جونز » وهو عمل غير معروف ، غامض وشاعري . وقد اعربت ذات مرة في مكان ما عن محبتي لهذا الفيلم ، وكتب اليّ سيلزنيك شاكراً .

لم يعجبني « روما مدينة مفتوحة » لـ « روسيليني » . لقد بدا لي التناقض الساذج ما بين تعذيب رجل الدين ، والضابط الألماني الذي يشرب الشمبانيا في الغرفة المجاورة وقد جلست امرأة على ركبتيه ، امرا منفرا .

من « كارلوس سارورا » الأراغوني مثلي . والذي اعرفه منذ زمن (للدرجة استطاع معها أن يجعلني امثل دور جلاد في فيلمه « بكاء من اجل لص ») . يعجبني جدا « الصيد وابنة العم انجيليكا » . انه سينمائي أشعر تجاهه بكثير من الاعجاب مع بعض الاستثناءات ، مثل « فرخ الغربان » . لم أشاهد آخر فيلمين او ثلاثة له ـ بل اني لم اعد أشاهد شيئا .

يعجبني « كنز سييرا مادريه » لـ « جون هيوستون » الذي جرى تصويره بالقرب من « سان خوسيه بوربوا » . « هيوستون » مخرج كبير، وشخصية في غاية الغنى . واذا كان « ناتارين » قد عرض في كان ، فالفضل في ذلك انما يعود اليه بالدرجة الاولى . كان قد شاهد الفيلم في المكسيك ، وامضى صباحا كاملا وهو يتصل هاتفيا باوروبا . لا انسى له ذلك .

اعبد السراديب السرية ، والمكتبات التي تفتح بصمت ، والسلالم المخفية في الداخل ، والصناديق المقفولة المخفية (عندي واحد في البيت ، ولن اقول لكم اين) .

احب الاسلحة والرماية . كنت امتلك حتى حدود خمسة وستين مسدسا وبندقية ، الا أنني بعت القسم الاكبر من مجموعتي هذه عام ١٩٦٤ ، لقناعتي آنذاك بانني سأموت في ذلك العام . مارست الرماية قليلا في كل مكان ، حتى في مكتبي ، حيث كنت أضع صندوقا معدنيا خصصته لهذه الغاية فوق احد رفوف المكتبة واطلق عليه . لا يجوز الرمي على الاطلاق في غرفة مغلقة ، فهكذا فقدت السمع في سرغوسة .

كان اختصاصي دائما ، الرمي الغريزي بالمسدس . يمضي الواحد ماشيا ، يلتفت فجأة ويطلق على طيف ما ، كما هي الحال في « الويسترن » .

تعجبني « العصا ـ السيف » . وامتلك عددا منها . عندما أذهب في نزهة تعطيني احساسا بالأمان .

لا احب الاحصائيات . انها واحدة من آفات عصرنا . من المستحيل مطالعة صفحة في جريدة دون مصادفة واحدة منها . وفضلا عن هذا فانها مزورة ، وأستطيع أن أوكد ذلك. كذلك لا أحب الاختصارات(*) هذا الهوس المعاصر الآخر ، والأمريكي بصورة خاصة . ليس هناك اي « اختصار » في نصوص القرن التاسع عشر .

تعجبني الأفاعي ، واكثر منها ، الجرذان . عشت مع الجرذان طوال حياتي ، ما عدا الأعوام الأخيرة . كنت أدجنها بصورة كاملة ، وفي معظم الاحيان كنت اقطع لها جزءا من ذيلها (ذيل الجرذ قبيح جدا) . الجرذ حيوان مثير جدا ولطيف جدا . في المكسيك ، عندما بلغ ما لدي منها حوالي الاربعين اطلقتها في الجبل .

اشعر بالخوف من تشريح الحيوان الحي . عندما كنت طالبا ، قمت ذات يوم بتثبيت ضفدعة وشرحتها حية بموسى حلاقة كي أراقب عمل قلبها . هذه التجربة ــ وهي بالمناسبة غير مفيدة على الاطلاق ــ بقيت في ذاكرتي باستمرار ، ولم أستطع حتى اليوم أن اغفر لنفسي ذلك .

اكن ودا عميقا لابن أخ لي ، وهو طبيب امريكي كبير للامراض العصبية ، وفي طريقه للحصول على جائزة نوبل ، أوقف ابحاثه بسبب مسألة تشريح الحيوان الحي .

أعجبني كثيرا الأدب الروسي . لدى وصولي الى باريس ، كنت

(*) الاستعاضة عن الكلمات بالاحرف الاولى .

أعرفه اكثر بكثير من « بريتون » أو « جيد » . من المؤكد أن بين اسبانيا وروسيا تخاطبا سريا يمر من تحت ، ــ أو من فوق ــ أوروبا .

كانت تعجبني الاوبرا . كان أبي يأخذني لحضورها منذ سن الثالثة عشرة ــ ابتدات بالايطاليين لانتهي مع « ڤاغنر » ، واقتبست في اثنين من أفلامي (فقط في الجو العام) من « ريغوليتو » و « توسكا » .

ترعبني بعض واجهات السينما ، وبخاصة في اسبانيا ، اذ تصبح احيانا استعراضية بصورة مريعة . يشعرني هذا بالخجل ويدفعني دائما الى أن ابتعد مسرعا .

اعبد التنكر ، منذ أيام طفولتي . كنت في مدريد ، وأكثر من مرة ، اتنكر بزي كاهن واتجول في الشوارع ، مع أن هذا جرم يعاقب عليه القانون بالسجن لمدة خمس سنوات . وكنت اتنكر ايضا بزي عامل واصعد الى الترام ، فلا ينظر اليّ احد ، وكانني لست موجودا .

كنت اقوم احيانا مع احد الاصدقاء في مدريد بالتصرف مثل القرويين ندخل الى احدى الحانات ، واقول لصاحبتها ، غامزا بعيني ، : « قدّمي موزة لصديقي وستري » . وكان يأخذها منها ويلتهمهامباشرة ، بقشرتها .

ذات يوم ، وكنت متنكرا بزي ضابط ، وبخت اثنين منعناصر المدفعية لانهما لم يقدمها اليّ التحية ، وارسلتهما لكي يسلما نفسيهما لضابط حرس وفي مرة أخرى ، كنت مع « لوركا » المتنكر ايضا ، والتقينا بشاعر شاب ، كان مشهورا في ذلكالوقت ، ومات شابا ، فاخذ « فيديريكو » يشتمه دون أن يستطيع التعرف علينا .

بعد ذلك بكثير ، في المكسيك ، وخلال قيام « لوي مال » بتصوير « تحيا ماريا » في استوديوهات « تشوروبوسكو » ، حيث كان الجميع يعرفني ، وضعت شعرا مستعارا ودخلت الى « البلاتوه » . مررت ،

« لوي مال » فلم يعرفني ، كما لم يعرفني أحد ، لا التقنيون ولا « جان مورو » التي سبق لها أن عملت معي ، ولا حتى ابني خوان لويس الذي كان مساعدا في الفيلم .

التنكر تجربة منيرة ، أنصح بها بحرارة ، حيث تسمح برؤية حياة أخرى . حين يمضي أحد ما متنكرا بزي عامل ، على سبيل المثال ، فستقدم اليه ، بصورة آلية ، علب الثقاب الارخص ثمنا . وسيقدمه الجميع عند الدخول والخروج . اما الفتيات فلن ينظرن اليه على الاطلاق فهذا العالم لم يخلق من أجله .

أبغض حتى الموت ، الولائم الرسمية وتوزيع الجوائز . وكثيرا ما تتسبب هذه الجوائز ببعض الحوادث اللطيفة ، عام ١٩٧٨ ، في المكسيك قدم الي وزير الثقافة الجائزة الوطنية للفنون وهي ميدالية هائلة من الذهب ، وسجل اسمي عليها خطأ « بونيولوس »(*) ، واستدركوا الخطأ بصورة سريعة .

أحب الاشياء التي تعودتها والاماكن التي عرفتها . عندما اذهب الى طليطلة او سيغوبيا اسلك باستمرار نفس الطريق ، اتوقف في نفس الاماكن اتفرج على نفس الاشياء . وعندما تعرض علي سفرة الى بلد بعيد ، الى نيودلهي مثلا ، ارفض باستمرار ، : « فماذا سأفعل في نيودلهي في الثالثة بعد الظهر ؟ » .

احب سمك الرنجة بالزيت ، كما يحضر في فرنسا ، والسردين المخلل كما يحضر في آراغون بزيت الزيتون والثوم والزعتر . أحب أيضا السلمون المدخن والكافيار . لكن رغباتي في الطعام بصورة عامة ، بسيطة ، ومنتقاة بعض الشيء . لست نهما . فبيضتان مقليتان مع النقانق يمكن أن استمتع بهما اكثر مما استمتع بكل « البحريات على طريقة ملكة هنغاريا » .

(*) « Buñuelos » اسم لنوع من المعجنات الاسبانية المقلية (م) .

أكره وسائل الاعلام . وقراءة صحيفة هي الشيء الاكثر إزعاجاً في العالم لو كنت ديكتاتوراً ، لقصرت الصحافة على جريدة يومية واحدة ومجلة واحدة ووضعتهما تحت رقابة صارمة . هذه الرقابة تطبق فقط على المعلومات التي تقدم بمعزل عن وجهات النظر . الاعلام الاستعراضي عبارة عن « قلة حياء » . العناوين الضخمة في المكسيك تتجاوز كل الارقام القياسية . عمليات التهويل هذه تسبب لي الرغبة في التقيؤ . بماذا يفيد كل هذا الصياح حول البؤس ، في سبيل بيع كمية أكبر قليلا من الورق . فضلا عن أن كل خبر يزيح الآخر .

فمثلا ، قرأت ذات يوم في كان بـ « نيس ـ ماتان » خبرا ممتعا للغاية ـ بالنسبة الي على الاقل ـ : محاولة لنسف أحدى قباب « ساكريه كور » في مونمارتر . في اليوم التالي رغبت في معرفة منفذي هذه العملية الوقحة والجديدة من نوعها ، ومعرفة دوافعهم . اشتريت نفس الصحيفة وبحثت : ولا كلمة واحدة . كانت عملية اختطاف طائرة قد غطت على موضوع الـ « ساكريه كور » ، ولم يعودوا للحديث عن هذه المسألة على الاطلاق .

أحب مراقبة الحيوانات ، وبخاصة الحشرات . لكن لا يهمني نشاطها الفيزيولوجي أو بنيتها التشريحية ، انما تروق لي فقط مراقبة عاداتها .

آسف لانني قد مارست الصيد قليلا خلال أيام شبابي .

لا يعجبني أولئك الذين « يطلقون » الحقائق ، كائنا من كانوا . انهم يسببون لي الضجر ويشعرونني بالخوف . انني ضد التعصب ، بتعصب .

لا أحب علم النفس ، والتحليل ، والتحليل النفسي ، لدي طبعا أصدقاء ممتازون من بين المحللين النفسيين وبعضهم كتب في شرح افلامي من وجهة نظره . كما أن قراءة فرويد واكتشاف اللاشعور ، قد قدما الي الكثير في شبابي .

ومع ذلك ، فمثلما يبدو لي علم النفس نظاما كثيرا ما يكون تعسفيـ بدحضه السلوك الانساني باستمرار ، وغير مجـد تقريبـا ، فان التحليل النفسي يبدو لي ايضا علاجا خاصا بطبقة اجتماعية ، بفئة مـن الاشخاص لا انتمي إليها . وسأقتصر على اعطاء مثال بدلا من الاستطرادات الطويلة:

كنت خلال الحرب العالمية الثانية اعمـل في متحف الفن الحـديث بنيويورك ، وخطرت لي فكرة تحقيق فيلم حـول « الفصام » ، أصله ، نشأته ، علاجه ، تحدثت بهذا الى البروفيسـور شليـسنغر صـديق المتحف ، الذي قال لي : « في شيكاغو مركز رائع للتحليل النفسي ، يدار من قبل الدكتور الشهير الكسندر ،تلميذ فرويد . واقترح عليك اصطحابك اليـه » .

وصلنا الى شيكاغو . كان المركز يحتل ثلاثة أو اربعة طوابق فاخرة في احد المباني . استقبلنا الكساندر وقال لنا : « لقد انتهت اعانتنا المالية لهذا العام ، وبـعدنا أن نفعل شيئا يجددها . مشروعكم يهمنا . مكتبنا ودكاترتنا تحت تصرفكم » .

كان « بانغ » قدشاهد « كلب اندلسي » ، وكان قدوجد فيه استعراضا جيدا لـ « Dementia Precox » واقترحت على « الكساندر » أن تجلب اليه نسخة من الفيلم واعلن سروره بذلك .

اثناء توجهي الى المكتبة ، أخطأت الباب ، بصورة سمحت لـي برؤية سيدة انيقة جدا ، مستلقية على ديوان ، وقد استسلمت كليا للمعالجة . وبادر الطبيب باتجاه الباب بسرعة ، غاضبا الا انني كنت قد عدت الى اغـلاقه .

اعلمني احدهم ان هذا المركز يقتصر التردد اليه على اصحـاب الملايين وزوجاتهم . وعلى سبيل المثال ، لو ضبطت احدى هذه النسـاء في احد المصارف وهي تمد يدها الى قطعة نقدية ، فان أمين الصندوق لا يفعل أي شيء ، سوى انه يعلم الزوج ، بصورة سرية ، فترسـل السيدة الى المحلل النفسي .

عدت الى نيويورك ، وبعد ايام قليلة ، وصلت رسالة من الدكتور الكساندر . شاهد « كلب اندلسي » وصرح ــ حسب كلماته حرفيا ــ ، انه مخيف لدرجة الموت ، والافضل ان يقال بانه مرعب . ولم يكن يرغب في اقامة المزيد من العلاقات مع المدعو لويس بونويل .

اكتفيت انا بصياغة السؤال التالي : « هل هذه لغة طبيب ؟ لغة طبيب نفسي ؟ هل هناك من يرغب في ان يروي تفاصيل حياته الى اشخاص يمكن لفيلم ان يخيفهم ؟ هل هذا عمل جاد ؟ » .

وطبعا فان فيلمي حول « الفصام » لم يتحقق .

احب « الهوس » . مارست بعضه ، مما تحدثت به هناك وهناك . هذا الهوس يمكن ان يساعد على الحياة . وارثي للناس الذين ليس لديهم بعضا منه .

احب « الهوس » . مارست بعضه ، مما تحدثت به هنا وهناك . ليتحدث الي . اشعر بخوف حقيقي من القبعات المكسيكية . اريد ان اقول ايضا انني اكره الفولكلور الرسمي والمنظم . يعجبني فلاح مكسيكي عندما التقيه في الريف . ولا استطيع ان اتحمله بقبعة موشاة بكاملها بالزخارف المذهبة ، على مسرح احدى قاعات الاحتفالات . وينطبق هذا ايضا على الرقصة الاراغونية .

يعجبني الاقزام تدهشني ثقتهم بانفسهم ، اجدهم محببين ، اذكياء واحب ان اعمل معهم . معظمهم سعيد بما هو عليه . الذين عرفتهم منهم لم يكونوا يرغبون بان يتحولوا الى اناس من الحجم المعتاد ، ولو قدم اليهم اي مقابل في العالم . لديهم ايضا قوة جنسية هائلة . احدهم ، الذي عمل معي في « ناثارين » ، كان لديه في المكسيك عشيقتان بطول عادي ، وكان يوزع اهتمامه عليهما ، بالدور . بعض النساء يفضلن الاقزام . وربما كان ذلك ، لانهن يعشن الاحساس الناتج عن اتخاذعشيق وابن في الوقت نفسه .

لا احب العروض التي تتصل بمسالة الموت . الا انها تجتذبني مع ذلك . لقد اثارت اهتمامي بصورة غير عادية ، مومياءات « غوانا خوانتو » في المكسيك ، التي بقيت سليمة بصورة مدهشة ، بفضل الطبيعة الخاصة لارض مقبرتها ، وبخاصة ربطات العنق والازرار والسواد تحت الاظافر.. لقد كان الامر يبدو وكما لو آن بالامكان تحية صديق ميت منذ خمسين عاما .

احد اصدقائي ، « ارنستو غارثيا » ، وهو ابن المشرف على مقبرة سرغوسة ، حيث كان العديد من الجثث قد وضع في تجاويف جدارية . كان ذات صباح من عام ١٩٢٠ يراقب العمال وهم يحفرون بعض التجاويف لافساح المجال امام امكانية استيعاب اضافية ، واذ به يشاهد هيكلا عظميا لراهبة ماتزال ترتدي مزقا من ثوبها ، وهيكلا لغجري مع عصاه ، يتدحرجان معا على الارض ثم ليستقرا وهما متعانقان .

اكره الاعلانات التجارية ، واعمل كل ما بامكاني لتفاديها . هذا المجتمع الذي نعيش فيه هو مجتمع اعلاني بالكامل . « اذن ، لِمَ هذا الكتاب ؟ » اسأل نفسي ، واجيب . في المقام الاول ، انني لو كنت وحدي لما كتبته على الاطلاق ، واضيف بانني قد امضيت كل حياتي براحة كبرى وسط تناقضات كثيرة ، دون اية محاولة لتلافيها ، اذ انها تشكل جزءا في ، من غموضي الطبيعي والمكتسب .

من بين الخطايا السبع الرئيسية ، هناك واحدة اكرهها بشكل حقيقي ، انها « الحسد » . أما الاخريات فهي خطيئات شخصية لا تؤذي احدا ، ما عدا الغضب ، في بعض الحالات . الحسد هو الخطيئة الوحيدة التي تدفعنا ، بشكل لا يمكن تفاديه ، الى ان نتمنى الموت لشخص آخر يمكن لان تجعلنا سعادته تعساء .

مثال متصوَّر: مليونير كبير من لوس انجلس يستلم يوميا صحيفته التي يحملها اليه ساعي بريد متواضع . ذات يوم ، لا يحضر الساعي ،

ويسأل المليونير رئيس خدمه عن سبب هذا الغياب . ويجيب رئيس الخدم بأن الساعي ربح عشرة آلاف دولار في اليانصيب ، ولن يحضر بعد اليوم .

يشعر المليونير حينئذبأنه يكره ساعي البريد بكل جوارحه. يحسده على مبلغ العشرة آلاف دولار ، وحتى انه قد يتمنى موته .

الحسد هي الخطيئة الاسبانية ، بكل امتياز .

لا احب السياسة . وفي هذا المجال ، أجد نفسي متحررا من أية تطلعات منذ نحو أربعين عاما . لا أؤمن بها . منذ عامين أو ثلاثة ، استرعى انتباهي هذا الشعار ، وأنا أمر ببعض المتظاهرين من اليسار في شوارع مدريد : « ضد فرانكو كنا أفضل » .

* * *

اسبانيا ـ المكسيك ـ فرنسا

١٩٦٠ ـ ١٩٧٧

عام ١٩٦٠ ، عدت إلى اسبانيا ، للمرة الأولى منذ نحو أربع وعشرين سنة . إلا انني كنت قد استطعت أكثر من مرة ، بعد مغادرتي ، تمضية عدة أيام مع أسرتي في « بو » أو « سان خوان دي لوث » . كانت أمي واخواتي يعبرن الحدود الفرنسية للقائي . كانت حياة منفى .

في ذلك العام ، ١٩٦٠ ، وبصفتي مكسيكيا منذ أكثر من عشر سنوات ، طلبت تأشيرة دخول من القنصلية الإسبانية في باريس ، ولم تكن هناك أية صعوبة . وجاءت أختي « كونتشيتا » لاستقبالي في « بورت ـ بو » كي تنذرني في حالة أي طارىء أو احتمال اعتقال . إلا ان شيئاً من هذا لم يحصل .

بعد فترة زارني اثنان من الشرطة البلدية ، واستوضحا بشكل مهذب عن مورد معيشتي ، وكانا هما كل علاقتي الرسمية مع اسبانيا الفرنكوية .

مررت أولا ببرشلونة ثم بسرغوسه ، قبل أن أعود إلى مدريد . ولا داعي للحديث عن الانفعال الذي عشته لدى لقائي من جديد بأماكن طفولتي وشبابي . تماما كما كانت الحال لدى عودتي إلى باريس قبل

عشر سنوات ، حيث كنت أبكي أحيانا ، عند مروري في هذا الشارع أو ذاك .

خلال اقامتي هذه . والتي اقتصرت على أسابيع قليلة ، عرّفني « فرانشيسكو رابال » (ناثارين) ، على شخص غير عادي ، تحول فيما بعد إلى منتجي وصديقي . انه المكسيكي « غوستافو آلاتريسته » .

كنت قبل ذلك بسنوات قد التقيت به لوقت قصير جداً في بلاتوه « آرشيبالدو دي لاكروث » . كان آنذاك يزور احدى الممثلات التي تزوج منها فيما بعد ، ثم تطلقا ، ليتزوج من « سيلفيا بينال » ، المغنية والممثلة المكسيكية . هو ابن واحد من منظمي صراعات الديوك ، كما أنه هو نفسه أيضاً ، هاوٍ كبير لديوك الصراع ، ورجل أعمال متنوعة : صاحب مجلتين ، وأراض ، ومعمل للأثاث ، ثم قرر الدخول إلى مجال العمل السينمائي (يملك حاليا ستا وثلاثين صالة في المكسيك . وأصبح موزعا ، ومخرجاً . حتى وممثلا . وقريبا ستكون له استوديوهاته الخاصة) . انه مزيج مدهش من الخبث والبراءة . ففي مدريد ، كان مثلا يشارك بعض الأحيان في الصلاة كي يساعده الرب على مشكلة مالية . ذات يوم طرح عليّ ، بكل جدية ، السؤال التالي : « هل هنالك سمات خارجية تسمح بالتعرف على « دوق » أو « ماركيز » أو « بارون » » ؟
وأجبته بأن سمات كهذه غير موجودة . وبدت أجابتي كافية بالنسبة إليه .

جميل ، جذاب ، قادر على تقديم الهدايا الفاخرة ، وعلى أن يحجز من أجلنا نحن الاثنين قاعة كاملة في مطعم فاخر ــ حيث يعرف أن صممي لا يسمح لي بأن ارتاد براحة الأماكن المزدحمة ــ كما أنه

قادر أيضاً على الاختباء في دورة مياه مكتبه كي يتهرب من دفع مائتي بيسو لاحدى الصحفيات . صديق لسياسيين ، متباهٍ ، وممتلىء فتنة . « آلاتريسته » هذا ، الذي اقترح علي أن أحقق له فيلماً . لم يكن يعرف بعد شيئاً عن السينما .

وأضيف هذه الطرفة ، التي تتعلق بطبيعته : ذات يوم أعلمني بأنه سيغادر المكسيك في اليوم التالي ، وحدد معي موعداً في مدريد . بعد ثلاثة أيام ، علمت ، مصادفة ، أنه لم يغادر المكسيك . والسبب : لقد مُنع ، وليس له الحق في المغادرة ، إذ عليه ذمة مالية لاحد الأشخاص . في المطار حاول رشوة المفتش ، عرض عليه عشرة آلاف بيسو (أربعمائة أو خمسمائة دولار) . المفتش ، الأب لثمانية أولاد ، تردد ، وأخيراً رفض تقاضي الرشوة . وعندما تحدثت عن هذا إلى « آلاتريسته » . أعترف بفعلته بكل سذاجة ، مضيفاً أن المبلغ المترتب عليه ، والذي مُنع بسببه ، لا يتجاوز ثمانية آلاف بيسو ، ... أقل مما عرضه على المفتش .

بعد عدة سنوات ، عرض عليّ « آلاتريسته » راتبا شهريا مرتفعاً . لقاء تمكينه من القدوم الي بين الحين والآخر ليطلب نصائح سينمائية وعامة . رفضت عرضه ، إلا أنني أعطيته الحق بنصائح مجانا عندما يشاء .

فيريديانـا

في الباخرة التي كانت تقلني مجدداً إلى المكسيك ، أثر مكوثي في مدريد ، تلقيت برقية من مدير التصوير ، الصديق « فيغويروا » يعرض عليّ فيها قصة عن الأدغال ، ورفضت . وحيث أن « آلاتريسته » كان

قد أعطاني الحرية المطلقة – حرية حقيقية ولم تكن زائفة على الاطلاق – فقد قررت أن أكتب ملخصاً لعمل جديد . هو حكاية امرأة تدعي « فيريديانا » ، متذكراً احدى القديسات غير المعروفات كثيراً ، كنت قد سمعت حكايتها أيام المدرسة في سرغوسة .

ساعدني صديقي « خوليو اليخاندرو » في تطوير فانتازيا جنسية قديمة كنت قد رويتها له ، يصار فيها ، باستعمال مخدر ، إلى خداع ملكة اسبانيا . ثم جاءت قصة ثانية « تطعم » الأولى .

عندما أصبح السيناريو جاهزاً ، قال لي « آلاتريسته » :

– تعال نصوره في اسبانيا .

تسبب لي هذا الموضوع بمشكلة . فعلى الرغم من انني لم أوافق إلا بشرط العمل مع مؤسسة انتاج « بارديم » المعروفة بموقفها المعارض لنظام فرانكو ، فقد ثارت اعتراضات حادة في أوساط المهاجرين الجمهوريين في المكسيك ، بمجرد أن عرفوا بما اعتزمته ، ومرة أخرى أتعرض للهجوم والشتائم ، إلا ان ذلك كان صادراً هذه المرة من أولئك الذين كنت أقف إلى جانبهم .

قام عدد من الأصدقاء بالدفاع عني ، وثار جدال حول المسألة : هل يجوز لبونويل أن يصور في اسبانيا ؟ أليست هذه خيانة ؟ وأتذكر رسما كاريكاتوريا ظهر خلال تلك الأيام ، مؤلفا من ثلاث لوحات . الأولى يبدو فيها فرانكو ينتظرني على الأرض الإسبانية وأنا أصل من أمريكا حاملا علب فيلم فيريديانا ، وجوقة من الأصوات تصيح : « خائن ! مُباع » ... وفي اللوحة الثانية تستمر هذه الصيحات بينما

يستقبلني فرانكو بكل لطف وأنا أسلمه العلب ، التي تنفجر في وجهه في اللوحة الثالثة .

جرى تصوير الفيلم في مدريد ، بين استوديو ومنزل جميل في الضواحي . — لم يعودا قائمين اليوم — . وضعت له ميزانية متواضعة ، مع ممثلين ممتازين ، وتمّ التصوير خلال سبعة أو ثمانية أسابيع . عدت لألتقي من جديد بـ « فرانشيسكو رابال » كما عملت للمرة الأولى مع « فيرناندو راي » و « سيلفيا بينال » ، إلى جانب عدد من الممثلين المسنين الذين قاموا بأدوار صغيرة ، وكنت أعرفهم منذ أيام « دون كينتين » والأفلام الأخرى التي حققتها في الثلاثينات . وما زلت أتذكر بشكل خاص صاحب تلك الشخصية الغريبة الذي أدى دور « المجذوم » . والذي كان نصف متشرد ونصف مجنون . وكان يسمح له بالمبيت في بهو الاستوديو . كان لا يلتزم بأية توجيهات . لكنه كان رائعاً في الفيلم . وحدث بعد فترة قصيرة ان كان يجلس على أحد المقاعد العامة في « بورغوس » . حين مر به سائحان فرنسيان كانا قد شاهدا الفيلم ، فعرفاه وتحدثا اليه مهنئين . ودفعه ذلك إلى أن يبادر مباشرة إلى لملمة أمتعته البسيطة فيحزمها ويلقي بها فوق كتفه ويمشي وهو يقول : « أنا ذاهب إلى باريس ، فهناك يعرفونني » !

ومات على الطريق . .

في المقال الذي كانت أختي « كونتشيتا » قد تحدثت فيه عن طفولتنا ، تطرقت إلى العمل في « فيريديانا » ، واترك لها الحديث مرة أخرى :

« ذهبت خلال التصوير إلى مدريد كسكرتيرة لأخي ، كانت حياة لويس هناك ، بصورة شبه دائمة ، حياة ناسك . كنا نقيم في

الطابق السابع عشر من ناطحة السحاب الوحيدة في العاصمة فكان لويس مثل كاهن متقشف فوق عموده .

كان صممه قد أخذ يتزايد . لذلك لم يكن يستقبل سوى الأشخاص الذين لم يكن هناك بد من استقبالهم . كانت الشقة تضم أربعة أسرّة ، ومع ذلك كان ينام على الأرض مستخدماً شرشفاً ولحافاً ، تاركاً كافة النوافذ مفتوحة . وعندما كان يعمل ، كان يترك طاولة العمل بين الحين والآخر ويذهب إلى احدى النوافذ ليتأمل ... من بعيد كان الجبل ، وأقرب منه ، كانت غابات الـ « كاسادي كامبو » والقصر الملكي ... كان يتذكر سنوات دراسته ، وكان يبدو سعيداً . كان يقول أن لمدريد ضوءاً وحيداً . إلا أنني كنت أراه متغيراً مرات عديدة ما بين السحر والغسق . كان لويس يتأمل الفجر كل صباح .

كنا نتعشى في السابعة مساء ، وهو أمر غير معتاد في اسبانيا : فواكه وجبنة ونبيذ جيد من « ريوخا » . وعند الظهر كنا نتغدى دائماً في أحد المطاعم الجيدة . أما صحننا المفضل فهو : خنزير صغير مشوي .

تعافى لويس بعض الشيء من صممه . وبدأنا باستقبال الناس : أصدقاء قدامى وشباب من معهد السينما ، وأشخاص تقتضي أغراض التصوير اللقاء بهم . قرأت سيناريو فيريديانا ولم يعجبني ، وحضرت تصوير عدة مشاهد . كان للويس صبر ملاك : لا يغضب أبداً ، يعيد تصوير المشاهد بقدر ما هو ضروري من المرات .

كان أحد المساكين الاثني عشر الذين ظهروا في الفيلم ، متسولا حقيقياً ، وكان يدعى « المجذوم » ، وقد علم أخي أن هذا « المجذوم » كان يتقاضى ثلث ما يتقاضاه الآخرون . فعبر عن استيائه للقائمين على أمور الانتاج ، الذين حاولوا طمأنته قائلين بأنهم سيعملون في نهاية

التصوير على جمع التبرعات للمجذوم . فازداد استياؤه . اذ لا يمكن القبول بالصدقات لقاء القيام بالعمل . وطلب أن يعامل هذا المتشرد كالآخرين .

كانت الثياب المستخدمة في الفيلم حقيقية . وكان لا بد من البحث في الضواحي وعند أقواس الجوز للعثور عليها . حيث كانت تعطى للفقراء والمتشردين ثياب جديدة لقاء أسمالهم ، التي جرى تعقيمها دون أن تغسل ، كي تساعد الممثلين على الشعور حقاً بالبؤس.

لم أكن أشاهده أيام عمله في الاستوديو . اذ كان ينهض في الخامسة صباحاً ويخرج قبل الثامنة ، ولا يعود إلا بعد احدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة . مع وقت العشاء . ليستلقي مباشرة على الأرض وينام .

كانت لنا ، مع ذلك . لحظات تسليتنا ولهونا . كانت احدى هذه التسليات اطلاق طائرات ورقية أيام الأحد صباحاً من شقتنا في الطابق السابع عشر ، لم نكن متذكرين كيف يجب أن تعمل . فكان طيرانها ثقيلا وغريبا ومتعثراً . كنا نطلق طائرتينا معا وكان الخاسر هو من تسقط طائرته أولا . أما عقوبة الخاسر فقد كانت أكل كمية من الورق تعادل طائرة . بعد أن « نطيّبها » بالخردل أو العسل . وكنت الخاسرة دائماً . وكان هناك أمر آخر ينشغل به لويس ، هو اخفاء المال في مكان (لا يمكن توقعه) . وبهذه الطريقة تمكنت من تحسين راتبي كسكرتيرة » .

كان على « كونتشيتا » أن تغادر مدريد خلال التصوير ، حيث توفي أخونا « الفونسو » في سرغوسه . وأخذت فيما بعد تتردد علي بين حين وآخر ، فتشاركني حياتي في برج مدريد . ناطحة السحاب . ذات الشقق الواسعة المضاءة جيداً ، والتي تحولت اليوم للاسف ، إلى

مكاتب . كنت أذهب برفقتها . وأصدقاء آخرين . لنتذوق المطبخ البسيط واللذيذ لـ « السيدة خوليا » صاحبة احدى أفضل حانات مدريد . كان « آلاتريسته » قد أفسدها . اذ ترك لها ذات يوم بقشيشا قدره ثمانمائة بزيتا لحساب لا يتجاوز مائتي بيزيتا . لذلك قدمت لي « السيدة خوليا » في احدى المرات فاتورة مخيفة . « حساب المعلم » . . ودفعت دون أي نقاش وأنا في غاية الدهشة . ثم رويت ذلك لـ « باكو رابال » الذي يعرفها جيداً . ولما سألها عن السبب في هذا الحساب الهائل ، أجابته ، بكل بساطة :

— أنه صديق السيد آلاتريسته ، لذلك ظننت أنه مليونير .

في تلك الفترة . كنت أشارك بصورة شبه يومية في ما كان ، لربما ، آخر منتدى في مدريد . كان يلتئم في مقهى قديم، هو مقهى « فيانا » . كنت التقي فيه بـ « خوسيه بيرغامين » والجراح « خوسيه لويس بارّوس » والمؤلف الموسيقي « بيتالوغا » ومصارع الثيران « لويس ميغيل دومينغين » وأصدقاء آخرين . كنت لدى دخولي أحيي من التقيهم هناك باشارات التعارف الخاصة بالماسونية ، التي لم أنتم اليها على الاطلاق . وكان هذا السلوك مني . أيام حكم فرانكو . محفوفا بكثير من المخاطرة .

كانت الرقابة الاسبانية آنئذ مشهورة بتمسكها المتشدد بالتقاليد الاجتماعية المحافظة ، وكنت قد تصورت نهاية للفيلم ، ببساطة ، تقرع فيها « فيريديانا » على باب ابن عمها . يفتح الباب . تدخل . ويغلق الباب .

ورفضت الرقابة هذه الخاتمة . مما حملني على البحث عن خاتمة

أخرى . أكثر « شبهة » من الأولى . حيث أنها توحي بعلاقة ثلاثية : تنضم « فيريديانا » لابن عمها والامرأة الأخرى « عشيقته» لمشاركتهما لعبهما بأوراق اللعب . ويقول لها ابن العم : « كنت أعرف أنك ستنتهين إلى اللعب معنا » .

تسبب « فيريديانا» في اسبانيا بفضيحة كبيرة ، شبيهة بفضيحة « العصر الذهبي » التي كنت قدتنصلت منها أمام الجمهوريين المقيمين في المكسيك . اذبعد أن كان قد حاز في مهرجان كان على « السعفة الذهبية » كفيلم اسباني . ظهر في « لوسير فاتورة رومانو » مقال مغرق في التهجم ، أدى إلى منعه مباشرة في اسبانيا من قبل وزير الاعلام والسياحة ، وفي الوقت نفسه . اقيل المدير العام للسينما لأنه صعد إلى المنصة في « كان » وقام باستلام الجائزة .

واتسعت الضجة حول الفيلم لدرجة حملت « فرانكو» على طلب مشاهدة الفيلم . واعتقد بأنه قد شاهده مرتين . وحسب ما رواهلي شركاء الانتاج الاسبان فانه لم يشاهد فيه ما هو موجب للمنع (وللحقيقة أقول بأنه بعد كل هذا الذي جرى حول الفيلم : فقد كان متوقعاً أن يراه فيلماً بريئاً . إلا أنه رفض الغاء قرار وزيره وبقي « فيريديانا» ممنوعاً في اسبانيا .

في إيطاليا ، عرض أولاً في روما : حيث سارت الأمور بصورة جيدة . ثم في ميلانو ، حيث أقدم النائب العام هناك على منعه ، وأقام دعوى قضائية ضدي ، وحكم علي بالسجن لمدة سنة : فيما لو وطئت قدماي الأرض الايطالية . لكن القرار سرعان ما ألغي من قبل المحكمة العليا .

عندما شاهد « غوستافو آلاتريسته » الفيلم للمرة الأولى ، بقي في حيرة من أمره ، دون أن يصدر منه أي تعليق . وعاد إلى مشاهدته في با[illegible] رتين في « كان » ، وأخيراً في المكسيك . ولدى انتهاء هذا هذا العرض الأخير ، الخامس أو السادس ، اقترب مني ، يملؤه الفرح وقال لي :

– تمام ، لويس . إنه رائع ، لقد فهمته بالكامل . هذه المرة ، كنت أنا الذي بقيت حائراً ، إذ كان الفيلم يروي حكاية في غاية البساطة وفق ما أرى ، ولم أعرف ما الذي كان فيه صعباً على الفهم .

شاهد « فيتوريو دي سيكا » الفيلم في المكسيك ، وخرج من الصالة مذعوراً متضايقاً . صعد إلى سيارة أجرة مع جان ، زوجتي ، وذهب لتناول كأس . أثناء الطريق ، سألها فيما إذا كنت حقاً فظيعاً إلى هذه الدرجة ، وما اذا كنت أصل فعلاً لدرجة قيامي بضربها خلال لحظاتنا الحميمة . أجابته :

– عندما تكون هناك ضرورة لقتل عنكبوت . فانه يناديني .

في باريس ، وبالقرب من فندقي ، شاهدت ذات يوم ملصقاً لأحد أفلامي ، مع العبارة التالية : « المخرج السينمائي الأكثر قسوة في العالم ».. انها بلاهة ، أحزنتني كثيراً .

الملاك المبيد

كثيراً ما أشعر بالأسف ، لأنني صورت « الملاك المبيد » في المكسيك ، وأتصور أنه كان من الأفضل لو أنني قمت بذلك في باريس أو لندن ، بممثلين أوربيين ، وبسوية أعلى في الالبسة واللوازم . وعلى الرغم من

جمال البيت الذي صورت فيه . وعلى الرغم من كل جهودي في اختيار الممثلين الذين لم يكن من الضروري أن يبدو عليهم أنهم مكسيكيون ، فقد عانيت فعلاً من تواضع الاحتياجات .

كان السيناريو ، عملاً أصلياً ، كتب خصيصاً للسينما ، كما كنت الحال مع « فيريديانا» ، يقدم مجموعة من الأشخاص الذين يذهبون لتناول العشاء في منزل أحدهم ، بعد انتهائهم من حضور عرض مسرحي. بعد العشاء ، تنتقل المجموعة إلى صالة المنزل ، ولسبب غامض ، يتعذر عليهم الخروج من المنزل .

كان عنوان الفيلم في البداية « غرقى شارع العناية الالهية » . لكن « خوسيه بيرغامين » ، كان قد حدثني في مدريد ، خلال العام السابق ، عن عمل مسرحي كان يريد تسميته « الملاك المبيد » ، بدا لي العنوان رائعاً ، وقلت :

— لو شاهدت هذا في ملصق ما ، فانني أدخل إلى الصالة فوراً.

كتبت إليه من المكسيك مستفسراً عن عمله هذا ، وعن عنوان العمل ، وأجابني بأنه لم يكتب العمل بعد وان العنوان ليس ملكاً له، فهو من « سفر الرؤيا » ، واني باستطاعتي استخدامه ، دون أية مشكلة، وشكرته .

تجتذبني دائماً ، في الحياة وفي الافلام ، التفاصيل المتكررة . لا أعرف لماذا ولا أحاول معرفة أو تفسير ذلك . في « الملاك المبيد » هناك على الأقل عشرة تفاصيل من هذا النوع . يشاهد على سبيل المثال رجلان يقدم أحدهما إلى الآخر ، ويتصافحان ، قائلين : تشرفنا . بعد لحظات ،

يلتقيان مرة أخرى ، فيقدم أحدهما إلى الآخر من جديد ، وكأنهما لم يتعارفا بعد . في المرة الثالثة ، أخيراً ، يتبادلان التحية بكثير من الحرارة، كصديقين قديمين . كذلك ، كررت لقطة ، من زاويتين مختلفتين ، يشاهد فيهما المدعوون يدخلون إلى البهو ، بينما صاحب البيت ينادي رئيس الخدم . وعندما جرى مونتاج الفيلم انتحى بي « فيغويروا » مدير التصوير جانباً ، وقال لي :

— لويس ، هناك شيء خطير جداً .

— ما هو ؟

— اللقطة التي يدخلون فيها إلى البيت ، جرى تركيبها مرتين .

ولم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يظن ، ولو اللحظة واحدة ، وهو الذي صور اللقطتين ، بأن خطأ فادحاً كهذا يمكن أن يخفى على المونتير وعلي أنا .

في المكسيك ، وجدوا الفيلم رديء التمثيل . ولا أعتقد ذلك . الممثلون ليسوا في سوية عالية ، لكنهم جيدون بوجه الاجمال . ومن ناحية أخرى فانني لا أعتقد أن بالإمكان وصف فيلم بأنه ممتع ، في الوقت الذي نقول فيه أن التمثيل كان سيئاً .

« الملاك المبيد » هو من أفلامي القليلة التي عدت إلى مشاهدتها . وكنت ، في كل مرة ، أشعر بالمرارة من تلك النواقص التي تحدثت عنها ، وبسبب فترة التصوير التي كانت أقصر مما يجب . ان ما أجده في هذا الفيلم هو مجموعة من الأشخاص لا يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون فعله : الخروج من غرفة . وهي استحالة تحقيق رغبة بسيطة ، بشكل غير قابل

للتفسير . وهذا يحدث كثيراً في افلامي . في « العصر الذهبي » رجل وامرأة يطمحان إلى اللقاء دون أن يتمكنا من تحقيق ذلك . في « هذا الغرض الغامض للرغبة » كان الامر يتعلق بالرغبة الجنسية لرجل في مرحلة الشيخوخة . رغبة لا ترتوي أبدا . شخصيات « سحر البورجوازية الجميل » تريد أن تتناول طعام العشاء سوية ، مهما كلف الأمر ، ولا تستطيع التوصل إلى تحقيق ذلك . وربما كانت هناك أمثلة أخرى أيضاً

سمعان الصحراوي

لدى انتهاء العرض الأول لـ « الملاك المبيد » ، انتحى بي « غوستافوالا اتريسته » جانباً ، وقال لي :

– سيد لويس . لا أفهم شيئاً . إنه « مدفع » بالفعل .

وكان يعني بـ « مدفع » ، المفاجأة ، والنجاح الكبير .

بعد عامين . في ١٩٦٤ . عرض علي « الاتريسته» امكانية تحقيق فيلم في المكسيك حول الشخصية المدهشة « القديس سمعان العمودي » ، ناسك القرن الرابع ، الذي أمضى أكثر من أربعين عاماً فوق عمود في صحراء سورية .

كنت أفكر فيه منذ وقت بعيد ، منذ أن جعلني « لوركا» . أيام المدينة الجامعية . اقرأ « الاسطورة الذهبية » ، لقد ضحكت كثيراً عندما قرأت ان براز هذا الناسك كان يتراكم على امتداد العمود كالشمع السائل المتراكم على امتداد شمعة مشتعلة . لقد كان يتغذى فقط ببعض ورقات الخس التي كانت ترفع إليه بواسطة سلة ، ولا بد ان برازه كان شبيهاً بالبعر الصغير للماعز .

ذات يوم ماطر ، في نيويورك ، ذهبت للبحث عن معلومات في المكتبة القائمة عند زاوية الشارع رقم ٤٢ ، – وليس هناك الكثير من الكتب حول هذا الموضوع – دخلت المكتبة حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر ، بحثت عن بطاقة الكتاب الذي كنت أرغب بمراجعته، وهو الكتاب الأفضل من نوعه ، كتاب الأب « فيستوجيير » ، ولم تكن البطاقة موجودة . في تلك اللحظة وقعت عيني على رجل يقف بجانبي يحمل بيده هذه البطاقة . ومن جديد ها هي مصادفة غريبة أخرى .

كتبت سيناريو كاملاً لفيلم طويل . وللأسف ، فقد وقع « آلاتريسته» في بعض المتاعب المالية خلال فترة التصوير ، مما أدى إلى اختصار نصف الفيلم . كنت قد أعددت لمشهد تحت الثلج ، ولأسفار طويلة ، وحتى لزيارة (تاريخية) لامبراطور بيزنطة . كان علي أن ألغي كل تلك المشاهد ، وهو ما يفسر بعض الشيء الطابع المفاجىء للخاتمة .

فاز الفيلم ، على حالته هذه ، بخمس جوائز في مهرجان البندقية، وهو ما لم يحدث مع أي فيلم آخر من أفلامي . وبالمناسبة ، لم يكن هناك أحد لاستلام هذه الجوائز .

في عام ١٩٦٣ ، أراد المنتج « سيرج سيلبرمان » أن يلتقي بي ، فاستأجر شقة في « برج مدريد » ، واستعلم عن عنواني ، وتبين له أنني أشغل الشقة المقابلة له تماماً . قرع الباب ، وشربنا معاً زجاجة ويسكي كاملة . ومنذ ذلك اليوم قامت فيما بيننا صلة مودة لم تنقطع أبداً . عرض عليّ فيلماً ، ووصلنا إلى اتفاق حول اعداد « مذكرات فتاة » لـ « أوكتاف ميربو » ، وهو كتاب كنت أعرفه منذ زمن بعيد . ولأسباب مختلفة،

قررت أن أغير زمن أحداثه : فأجعلها أقرب إلينا ، ووضعتها في نهايات العشرينات ، وهي فترة كنت قد عرفتها جيداً .

عليّ أن أقدم الشكر ا « لوي مال » لأنه كشف لنا طريقة !«جان مورو » في المشي في « مصعد إلى خشبة الاعدام » . كانت لديّ دائماً حساسية خاصة ازاء مشية النساء ، وكذلك ازاء نظراتهن . في مشهد الحذاء ذي الكعب العالي في « مذكرات خادمة » ، كنت أجد متعة حقيقية في تصويرها وهي تمشي . عندما تمشي تتأرجح قدماها بخفة فوق كعبي الحذاء . عدم ثبات قلق . ممثلة رائعة . كنت أكتفي بمتابعتها ، وقلما أصحح لها . وقد لفتت نظري إلى أمور تتصل بالشخصية لم تكن قد دارت في ذهني على الاطلاق .

مع هذا الفيلم . الذي صور في باريس ، بالقرب من « ميلي لافوريه» خلال خريف ١٩٦٣ ، اكتشفت للمرة الأولى بعض شركاء العمل الفرنسيين ، الذين لم اتخل عنهم اطلاقاً فيما بعد : « بيير لاري » ، مساعدي الأول ، و « سوزان دوريمبرغر » ملاحظة السيناريو الممتازة (فتاة السكريبت) ، وكاتب السيناريو « جان كلود كاريير » الذي قام بدور راهب . لقد احتفظت معهم بذكريات تصوير هادىء حسن التنظيم ، تسوده روح الصداقة . وبمناسبة العمل في هذا الفيلم تعرفت بالممثلة «موني » ، الشخصية المتفردة ، التي تحيا بطريقة خاصة جداً ، والتي أصبحت بالنسبة إليّ ، وبمعنى ما ، رمزاً لحسن الطالع .

قامت بدور الخادمة الأكثر تواضعاً ، وتسأل « القندلفت » الفاشي (في واحد من الحوارات المفضلة لديّ) :

ــ لكن لماذا تتحدث دائماً عن قتل اليهود ؟

— ألست وطنية ؟ يسألها القندلفت .
— أجل
— فاذن ؟ !

بعد هذا الفيلم حققت « سمعان الصحراء » آخر أفلامي المكسيكية. وعرض عليّ « سيلبرمان » وشريكه « سافرا» فيلماً آخر . اخترت هذه هذه المرة « الراهب » لـ « مونك لويس » ، إحدى أكثر الروايات الانكليزية السوداء شهرة ، والتي كانت تحظى باعجاب السيرياليين ، وقام «انتونين آرتو » بترجمتها ، وكانت قد خطرت لي فكرة إعدادها أكثر من مرة ، حتى أنني كنت قبل ذلك بعدة سنوات قد حدثت « جيرار فيليب » عنها ، وكذلك عن رواية جان جيونو الجميلة « حارس السطح» (إنها تلك الجاذبية القديمة ازاء الاوبئة ، وازاء جميع المفاسد) . لكن « جيرار فيليب » الذي كان يصغي إلى عروضي دونما حماس ، كان يفضل فيلماً أكثر اهتماماً بالسياسة .

حسناء النهار :

استبعد « الراهب » ، (وقد صوره « آدو كيرو » بعد ذلك بسنوات قليلة) . وفي عام ١٩٦٦ وافقت على عرض الاخوة حكيم لاعداد «حسناء النهار » « جوزيف كيسيل » . كانت الرواية تبدو لي ميلودرامية ، لكنها مبنية بشكل جيد . وعرضت اضافة بعض مشاهد التفاصيل اليومية «سيفيرين » الشخصية الرئيسية التي أدتها « كاترين دونوف » ، واظهار الملامح الحقيقية لشابة بورجوازية مازوشية .

سمح لي الفيلم أيضاً أن أصف . بكل أمانة . حالات متعددة للانحرافات الجنسية . اهتمامي بالفيتيشية كان ملموساً في المشهد الأول

من « هو » ، وفي مشهد « الحذاء ذي الكعب العالي » في « مذكرات خادمة » لكن عليّ أن أقول بأنني لم أجرب الانحرافات الجنسية، بل كان ذلك انجذاباً نظرياً وخارجياً ، يسليني ويمتعني . ولم يكن لديّ شخصياً أي شيء من الانحراف في سلوكي الجنسي . ولو كان الواقع عكس ذلك ، لكان الأمر مستغرباً ، اذ أعتقد ان المنحرف لا يحب اظهار انحرافه علنا : فهو سر من أسراره .

تبقى لديّ حسرة مع هذا الفيلم ، فقد كنت أريد تصوير المشهد الأول من مطعم محطة « ليون » في باريس. لكن صاحبه رفض بصورة قاطعة . وكثير من الباريسيين ، حتى اليوم ، يجهلون وجود هذا المكان ، الذي اعتبره واحداً من أجمل الأمكنة في العالم . عام ١٩٠٠ أقام رسامون ونحاتون ومهندسو ديكور في الطابق الأول من هذه المحطة : صالة عرض مكرسة لمجد القطار وللبلاد التي ينقلنا اليها . وعندما أكون في باريس ، أتردد إلى هناك كثيراً ، وأحياناً بمفردي وأجلس في نفس المكان لتناول الغداء ، قريباً من حركة القطارات .

عدت في « حسناء النهار » لألتقي « باكورابال » ، بعد « نازارين» و « فيريديانا » . يعجبني في هذا الممثل ، الفنان والانسان . يناديني بـ «العم » وأناديه بـ « ابن الأخ » . ليست لديّ تقنية خاصة في العمل مع الممثلين ، وكل شيء يتوقف على نوعيتهم ، وعلى ما يقدمونه إليّ ، وعلى الجهود التي عليّ أن أبذلها في ادارتهم عندما يكون قد جرى اختيارهم بشكل سيء . على أية حال ، فان ادارة الممثلين تخضع دائماً إلى رؤية شخصية للمخرج ، يشعر بها ، لكن ليس بامكانه دائماً التعبير عنها .

أسفت في هذا الفيلم لبعض عمليات الحذف الأحمق التي وضعتها الرقابة ، وبشكل خاص : مشهد بين « جورج مارشال » و « كاترين دونوف » ، تكون فيه مسجاة في تابوت ، بينما هو يناديها : ابنتي ، بعد صلاة أقيمت تحت نسخة من لوحة رائعة لمسيح « غرونيفالد » الذي طالما أثر بي جسده المعذب . لقد بدّل حذف هذه الصلاة جو المشهد بصورة محسوسة .

من بين جميع الاسئلة عديمة الأهمية ، التي توجه الي حول أفلامي ، هناك سؤال يتردد بكثير من الالحاح يتعلق بعلبة صغيرة يحملها معه زبون آسيوي في أحد المواخير . يفتحها ، يري الفتيات ما تحويه (ولا نراه نحن) . فتتراجع الفتيات ، وهن يصرخن برعب ، باستثناء «سيفراين » التي يبدو عليها الكثير من الاهتمام بما رأت . لا أدري كم من المرات سئلت ، وبخاصة من النساء : « ماذا يوجد في العلبه ؟ » ، وبما أنني لاأعرف . فان الجواب الوحيد الممكن هو : « ماتريدينه » .

جرى تصوير الفيلم في استوديوهات « سان موريس » — وقد اندثرت الان — : وهذه العبارة الاخيرة تعود لتظهر في هذا الكتاب مرة بعد أخرى ، مثل لازمة . وكان « لوي مال » في الاستوديو المجاور يقوم بتحقيق « اللص » الذي عمل فيه أبني « خوان لويس » كمساعد . وربما كان « حسناء النهار » هو النجاح التجاري الاكثر في حياتي . وهو نجاح نسب الى مومسات الفيلم أكثر مما نسب الى عملي أنا .

أبتداء من « يوميات خادمة » ارتبكت حياتي ، عمليا ، مع الافلام التي حققتها . ولهذا بالضبط ، سأقوم بتسريع أيقاع هذه الحكاية

التي أصبحت رتيبة . لامشاكل كبيرة في العمل : أما حياتي فقد أخذت هذا المنحى : مقيم في المكسيك ، آتي كل سنة لتمضية عدة أشهر في أسبانيا وفرنسا لكتابة السيناريو أو التصوير . مخلص لعاداتي ، انزل في نفس الفنادق ، وأتردد على نفس المقاهي التي كانت ما تزال باقية من الزمن الماضي .

في جميع أفلامي الاوربية . عرفت شروط تصوير أكثر راحة بكثير من تلك الشروط التي كانت معتادة في المكسيك . ولقد كتب الكثير حول كل من هذه الأفلام . ولن أتحدث عنها بأكثر من بعض الكلمات السريعة ، على سبيل الاشارة فحسب .

مع أنني اعتقد أنه لاشيء أكثر أهمية في صنع فيلم سينمائي من سيناريو جيد ، فأنا لم أكن على الاطلاق رجل قلم . في أفلامي جميعاً (ما عدا أربعة) . أحتجت الى كاتب . كاتب سيناريو لمساعدتي في كتابة المضمون والحوار . وهذا لايعني أن الكاتب الذي يعمل معي هو مجرد سكرتير مكلف بتدوين ما أريده . على العكس ، فان له الحق وعليه واجب مناقشة أفكاري وطرح أفكاره ، ولو أنني كنت أنا من عليه أخيرا اتخاذ القرار .

عملت . طوال حياتي ، مع ثمانية وعشرين كاتباً مختلفاً . أذكر من بينهم . بشكل خاص « خوليو اليخاندرو » رجل المسرح وصاحب الحوار الجيد . و«لويس الكوركيا» الترق والحيوي ، الذي يقوم ، منذ وقت طويل . بكتابة وأخراج أفلامه بنفسه . أما ذلك الذي وجدت نفسي متماثلا معه فهو بلا شك « جان كلود كارييز » . وقد كتبنا معا ، منذ عام ١٩٦٣ . سته أفلام .

يبدو لي أن الأمر الجوهري في السيناريو . هو المحافظة على الاهتمام بالتطور الجيد . الذي لايترك لحظة راحة واحدة تصرف انتباه المشاهدين . يمكن لمحتوى فيلم ما أن يكون محل نقاش ، وكذلك جمالياته (ان وجدت) . وأسلوبه . واتجاهه الاخلاقي . لكن لا يجوز للفيلم أبداً أن يكون مملا .

درب التبـان

بعد قدومي الى المكسيك بفترة قصيرة . خطرت لي فكرة تحقيق فيلم حول مسألة البدع في الدين المسيحي . لدى قراءتي العمل الموسوعي «الهراطقة الاسبان » الذي وضعه « مينينديث إي بيلايو » . هذه القراءة علمتني أموراً كثيرة كنت أجهلها ، وبخاصة حول عذابات الهراطقة . المؤمنين بحقيقتهم . تماماً كالمسيحيين . أن لم يكن أكثر منهم . و«حقيقتهم » هذه التي يؤمنون بها . وغرابتهم في بعض الاختلاقات . هو ما أثار أهتمامي دائماً في سلوك الهراطقة . فيما بعد . عثرت على عبارة لـ «بريتون» يعترف فيها . بأنه كانت للسيريالية « نقاط التقاء معينة » مع الهراطقة .

كل ما يرى ويسمع في هذا الفيلم ، يستند الى وثائق حقيقية : فجثة المطران التي استخرجت من القبر وأحرقت بصورة علنية ، كانت في الحقيقة جثة مطران طليطلة «توليدو» ، ويدعى «كارانثا» . (وقد وجدت بعد موته نصوص بخط يده ذات لمسات من الهراطقة) . بدأنا عملا طويلا من البحث . تقدمه قاموس الهراطقة للآباني «بلوكيه» ثم كتبنا الصيغة الاولى خلال خريف ١٩٦٧ في استراحة كاثورلا ، ،

في مقاطعة خايين باسبانيا . كنا ، «كاريير» وأنا ، وحيدين في جبال الاندلس . كانت الطريق تنتهي تماماً عند الفندق . كنا لانتحدث طوال النهار الا حول الثالوث المقدس ، وعن الطبيعة الثنائية للمسيح . وعن أسرار العذراء المقدسة .

وافق «سيلبرمان» على المشروع . وهذا ما فاجأنا . وأنجزنا السيناريو في « سان خوسيه بوروا » بين شباط واذار من عام ١٩٦٨ . وبدأ التصوير في باريس والمنطقة الباريسية مترافقاً ببعض الصعوبات التي سببتها «متاريس» أيار . واستمر على أمتداد أشهر الصيف .

في هذا الفيلم ، الذي عدت لالتقي فيه مع «بيير كلمنتي » و «جوليا بيرتو » و « كلاديو بروك » والمخلص « ميشيل بيكولي » ، عملت للمرة الاولى مع « ديلفين سيريغ » الممثلة غير العادية . والتي كنت أجلسها فوق ركبتي في نيويورك خلال الحرب . كما قدمت : للمرة الثانية . والاخيرة — شخصية المسيح . في أفلامي ، واداها « بيرنار فيرلي » . وقد اظهرته كانسان عادي ، يضحك ويجري ، ويخطىء الطريق . حتى ويتهيأ للحلاقة ، بعيداً جداً عن التصوير المتعارف عليه .

وعلى الرغم من جدة وصعوبة موضوع الفيلم ، فقد حقق نجاحاً جماهيرياً واسعاً . بفضل الصحافة ، وجهود « سيلبرمان » الذي هو ، بلا أي نقاش ، أفضل مشجع للسينما من بين من عرفتهم ، كما أثار الفيلم ، مثل «ناثارين » ردود أفعال متناقضة جداً . فقد رأى فيه «كارلوس فوينتيس » فيلماً معادياً للدين . في حين وصل « خوليو كورتاثار » الى القول بأنه بدا له وكأن الفيلم قد جرى تمويله من قبل

«الفاتيكان» . وقد دفعتني هذه المشادات مرة أخرى الى اللامبالاة .
و«درب التبان» ، بنظري ، لم يكن مع . ولا ضد ، أي شيء . هذا الى جانب أن جميع المواقف والنزاعات النظرية التي كان يثيرها الفيلم ، كانت تبدو لي ، وقبل أي شيء آخر ، جولة في ساحة التعصب الذي يتمسك فيها كل واحد بحقيقته ، بقوة وعناد ، مستعداً لان يقتل أو يموت في سبيلها . كما بدا لي أيضاً أن تلك الطريق ، التي أجتازها الزائران على «درب التبان» وهما ذاهبان الى «سانتياغو دي كومبو ستيلا» ، يمكن أن تنطبق على أية أيديولوجية سياسية ، أو حتى فنية .

عندما عرض الفيلم في كوبنهاغن (وفق ما رواه لي هيننغ كارلسن الذي قام بحجز الصالة) ، بنسخته الناطقة بالفرنسية ، والمترجمة على الشريط بالدانمركية ، قام ذات يوم من الايام الأولى للعرض حوالي خمسة عشر غجرياً ، رجالا ونساء وأطفال: ممن لايتحدثون الدانمركية ، ولا الفرنسية بشراء تذاكر وشاهدوا الفيلم ، ثم أعادوا مشاهدته لستة عشر أو سبعة عشر يوما متتاليا . وحاول «كارلسون» جاهدا معرفة سبب هذه المواظبة ، ولكن دون فائدة ، بسبب صعوبة التفاهم بأية لغة مشتركة . وأخيرا قرر أن يدعهم يدخلون مجانا ، فانقطعوا عن الحضور نهائياً .

تريستانا

على الرغم من أن هذه الرواية لم تكن من أفضل روايات «غالدوس» فقد كانت تثير اهتمامي منذ وقت طويل ، عبر شخصية «دون لوبيه» ، كما كانت تجتذبني فكرة نقل الحدث من مدريد الى طليطلة ، وبهذا أقدم التكريم للمدينة العزيزة .

فكرت أولا بتصوير الفيلم مع « سيلفيا بينال » و « ارنستو الونسو » — اللذين ارتبطا بعمل آخر — ، ففكرت بـ « «فيرناندو راي » الذي تميز في « فيريديانا » وبممثلة ايطالية شابة كانت تعجبني كثيراً . هي « ستيفانيا ساندريللي » . الا أن فضيحة « فيريديانا » تسببت في ايقاف المشروع . ثم سمح به عام ١٩٦٩ ، فأكدت التزامي للمنتجين «أدواردو دوكاي » و « غوروتشاغا » .

لم يكن هذا العمل منتمياً على الاطلاق الى عالم « غالدوس » ، الا أنه جمعني . وبكثير من المتعة . مع «كاترين دونوف » التي كتبت الي مرات عديدة لتحدثني عن دورها . جرى التصوير بشكل شبه كامل في طليطلة ــ المدينة الملأى بالاصداء وبذكريات سنوات العشرينات بالنسبة الي — وفي أحد استوديوهات مدريد . ومثلما كانت الحال في «ناثارين» ، فقد حافظت الشخصية الرئيسية على أمانتها للعالم الروائي لغالدوس (وكان فيرناندو رأي رائعاً في هذا الدور) . الا أنني ادخلت تعديلات هامة في البناء وفي الجو العام للعمل ، حيث وضعته ، مثلما فعلت في « يوميات خارمة » ، في مرحلة تاريخية عرفتها شخصيا ، وكانت تتسم باضطراب اجتماعي بالغ .

ادخلت في فيلم « تريستانا » بمساعدة « خوليو اليخاندرو » أشياء كثيرة من تلك التي كان لها طوال حياتي تأثير خاص لدي ، مثل برج اجراس طليطلة . وتمثال الكاردينال « تافيرا » الذي تنحني فوقه تريستانا وحيث انني لم أعد الى مشاهدة هذا الفيلم فيما بعد . فقد أصبح من الصعب علي الحديث عنه الآن . ولكن مازلت اذكر انه قد اعجبني منه قسمه الثاني ،بعد عودة الشابة التي قطعوا لها رجلها،واتخيل حتى هذه

اللحظات صوت خطواتها في الممر وصوت عكازيها . وحديث الرهبان التافه وهم يحتسون اكواب الشيكولاته .

لا استطيع التفكير بهذا الفيلم دون ان اتذكر دعابة قمت بها مع « فيرناندو راي » . صديقي العزيز الذي ارجو ان يسامحني اذ ارويها الآن : فيرناندو ، مثل الكثيرين من الممثلين ، يهتم بشعبيته ، ويعجبه — وهذا أمر طبيعي — ان يتعرف عليه الناس في الشارع ، وأن يتبعوا خطواته . وذات يوم ، قلت لمدير الانتاج ان يتصل مع تلاميذ أحد صفوف مدرسة قريبة . وأن يتم اختيار لحظة اكون فيها جالسا مع فيرناندو . فيأتون واحدا فواحدا ليطلبوا مني التوقيع على اوتوغرافاتهم، وفقط مني أنا . وهذ ما حصل . فبينما كنا — فيرناندو وأنا — جالسين واحدنا بجانب الآخر على رصيف أحد المقاهي . اقترب منا فتى وطلب ان أوقع له على أوتوغرافه . ولبيته بكل سرور . ومضى . ودون أن تبدر منه ولو نظرة واحدة باتجاه فيرناندو . وما كاد يبتعد ، حتى وصل تلميذ ثان ، وفعل الشيء ذاته تماما . وعندما جاء الثالث ، انفجر فيرناندو ضاحكاً فقد فهم الدعابة . لسبب بسيط جدا ، وهو انهم كانوا يتجاهلونه تماماً ويكتفون بالطلب الي للتوقيع على اوتوغرافاتهم ، وهو ما بدا له غير معقول على الاطلاق وقد كان على حق طبعاً .

سحر البورجوازية الجميل

بعد تريستانا ، الذي عرض في فرنسا « مدبلجاً » . للأسف ، عدت إلى « سيلبرمان » ولم انفصل عنه فيما بعد على الاطلاق . كما عدت الى حيي - مونبارناس - إلى فندق « ايغلون » ونوافذ غرفتي المطلة على

على المقبرة . وإلى غدائي المبكر في « لاكوبول » و « لاباليت » في « لا كلوسيري دي ليل » . والى نزهاتي المعتادة . وسهراتي ، التي كنت أعد فيها طعامي بنفسي . في الوقت الذي كان يفصل ما بين عملي في فيلم وآخر . كان ابني « خوان لويس » يعيش في باريس مع عائلته ، وكثيرا ما كان يعمل معي .

سبق أن تحدثت بمناسبة « الملك المبيد » عن الجاذبية التي أشعر بها ازاء الحركات أو العبارات المتكررة وكنا نبحث عن مبرر لادخال حركة متكررة . عندما روى لنا « سيلبرمان » الحادثة التالية : قام بدعوة عدة اشخاص لتناول العشاء الى منزله ، ذات ثلاثاء على سبيل المثال . ونسي ان يقول ذلك لزوجته ، كما نسي أيضاً انه كان في ذلك الثلاثاء قد ارتبط على العشاء خارج المنزل . وصل المدعوون حوالي الساعة التاسعة ، حاملين باقات الزهور . لم يكن « سيلبرمان » موجودا وفوجئوا بزوجته ترتدي ثياب الراحة وهي تجهل أي شيء وقد انتهت من تناول طعام العشاء وتأهبت للذهاب الى النوم .

لقد تحول هذا . إلى المشهد الأول في « سحر البرجوازية الجميل » ولم أفعل أكثر من صياغة ما حدث فعلا . مع تصور بعض التفصيلات ما حدث فعلا . مع تصور بعض التفصيلات المختلفة : هؤلاء الأصدقاء قرروا تناول العشاء معا . دون أن يتمكنوا من ذلك . كانت فترات العمل طويلة جداً ، كتبنا خمس صيغ مختلفة للسيناريو . وكان علينا ايجاد التوازن الصحيح بين واقعية الموقف الذي كان يجب ان يكون منطقيا وممكن الحدوث . والتراكم الكبير للعقبات غير المتوقعة ، والتي لا يجوز مع ذلك . أن تبدو غريبة أو غير ممكنة . ثم جاء الحلم

لمساعدتنا . وكذلك الحلم داخل الحلم . وأخيرا احسست بالرضى العميق لانني تمكنت من ان اقدم في هذا الفيلم وصفتي الخاصة : الـ « دراي مارتيني » .

وهناك ذكريات لطيفة عن أيام التصوير . فكثيرا ما كان يدور الحديث حول مسألة تهيئة الطعام خلال ساعات العمل . وكان الممثلون ، وخاصة « ستيفان اودران » ، يجلبون لنا الى البلاتوه طعاماً لذيذاً يعيد الينا القوى ، ومشروبات منشطة منعشة . كما اتخذنا عادة القيام باستراحة قصيرة حوالي الساعة الخامسة ، وكانت فترة نختفي فيها لفترة عشر دقائق .

بدءاً من فيلم « سحر البورجوازية الجميل » الذي صور عام ١٩٧٢ في باريس . اتخذت عادة العمل مع مجموعة تجهيزات فيديو ، فمع التقدم بالعمر ، لم تعد لدي نفس المرونة وخفة الحركة . كالسابق ، لضبط التعليمات أمام الكاميرا . كنت أجلس أمام « مونيتور » يعطيني بالضبط ، نفس الصورة التي لدى المصور . فأصحح الكادر كما أصحح عمل الممثلين وأنا جالس على كرسي . وقد وفرت علي هذه التقنية ، الكثير من الجهد والكثير من الوقت .

هناك عادة سيريالية في مسألة اختيار العنوان عبارة عن البحث عن كلمة أو مجموعة من الكلمات غير المتوقعة ، تقدم رؤية جديدة للوحة أو لكتاب . وقد استخدمتها عدة مرات في السينما ، في « كلب اندلسي » و « العصر الذهبي » بطبيعة الحال ، الا ان هذا كان أيضاً في « الملاك المبيد » .

عندما كنا نعمل على السيناريو ، لم نكن نفكر على الاطلاق . بالبورجوازية وفي الليلة الأخيرة – في نفس اليوم الذي مات فيه ديغول – في استراحة طليطلة ، قررنا ايجاد عنوان . كان أحد تلك العناوين التي خطرت لي « يسقط لينين » أو « العذراء في الاسطبل » ، وآخر ، وبكل بساطة : « سحر البوجوازية » . ولفت « كاريير » نظري الى ان هذا العنوان تنقصه تتمة ، صفة ما ، ومن بين الف منها تم اختيار « الجميل » كان يبدو لنا انه بهذا العنوان « سحر البرجوازية الجميل » سيكتسب شكلا آخر . بل وحتى عمقاً آخر ، وسينظر إليه بشكل مختلف .

بعد ذلك بعام . عندما تم اختيار الفيلم للاوسكار في هوليورد ، وكنا نعمل في المشروع التالي ، جاء اربعة صحفيين مكسيكيين ممن أعرفهم لتناول طعام الغداء الى جوارنا في مطعم « الباولار » ، وخلال الطعام قاموا بطرح بعض الأسئلة علي وبتسجيل بعض الملاحظات . وطبعا لم يفتهم سؤالي :

– هل تعتقد انك ستحصل على الاوسكار ، سيد لويس ؟

– نعم ، أنا متأكد – أجبت بكل جدية – فلقد دفعت الخمسة والعشرين الف دولار التي طلبوها مني . أنا اعرف ان الأمريكيين لهم عيوبهم ، لكنهم يحترمون كلمتهم .

لم يلمس المكسيكيون أي خبث في كلماتي . وبعد ذلك بأربعة أيام نشرت الصحف المكسيكية انني اشتريت الأوسكار بخمسة وعشرين الف دولار . وكانت فضيحة في لوس انجلس وانطلق تلكس أثر

تلكس . ووصل « ميلبرمان » من باريس منزعجا جداً . وسألني عن هذا الجنون الذي قمت به . وأجبته بان الأمر كان عبارة عن مجرد مزحة بريئة .

وهدأت الأمور ، ومرت ثلاثة اسابيع . واذا بالفيلم يحصل فعلا على الاوسكار مما سمح لي بأن أعيد على من حولي :

— الأمريكيون لهم عيوبهم . الا انهم يحترمون كلمتهم .

شبح الحرية

كان هذا العنوان الجديد من نوعه ، والذي ورد في « درب التبان » — حريتكم ليست سوى شبح — ، يريد تقديم التحية لكارل ماركس ، لهذا « الطيف الذي يتجول في اوروبا والذي يدعى « الشيوعية » . الى اسس البيان الشيوعي . والحرية ، التي كانت في المشهد الأول من الفيلم عبارة عن الحرية السياسية والاجتماعية (المشهد مستوحي من احداث حقيقية ، اذ كان الشعب الاسباني يصيح « تحيا السلاسل » لدى عودة آل بوربون كرها بالأفكار الليبرالية التي ادخلها نابليون) . هذه الحرية . سرعان ما اتخذت معنى آخر مختلفا جداً ، لتصبح هي حرية الفنان والمبدع . والتي هي مخادعة مثلها مثل تلك الاولى .

لقد بدا لي هذا الفيلم . الطموح جداً . والصعب جداً (كتابة وتحقيقا) ، مخيبا للأمل نوعا ما . فقد كانت بعض مقاطعه تطغى على مقاطع اخرى بصورة لا يمكن تلافيها . لكنه مع ذلك ، يبقى واحدا من افلامي المفضلة لدي . وجدت محتواه ممتعاً ، واعجبني مشهد الحب بين العمة وابن الأخ في غرفة الفندق الصغير ، كما اعجبتني أيضاً عملية البحث عن الطفلة الضائعة ، وكذلك زيارة مفتشي البوليس للمقبرة ،

المأخوذة من احلى الذكريات البعيدة ، ثم النهاية في حديقة الحيوانات . وتلك النظرة للنعامة ، التي بدت وكأنها تضع أهدابا صناعية .

ويبدو لي الآن ان « درب التبان » و « سحر البورجوازية الجميل » و « شبح الحرية » ، التي جرى تحقيقها بناء على ثلاثة سيناريوهات أصلية ، تشكل ، بمعنى ما ، ثلاثية ، أو على الأصح ، لوحة ذات أجزاء ثلاثة : المواضيع نفسها في الافلام الثلاثة ، وحتى أننا نجد أحيانا نفس العبارات ، التي تدور حول البحث عن الحقيقة ، التي تفر في اللحظة التي نعتقد أننا قد عثرنا عليها ، وعن الطقوس الاجتماعية غير المتسامحة ، والبحث الذي لا غنى عنه عن الاخلاق الشخصية . وكذلك الغموض الواجب احترامه .

وكمجرد ملاحظة ، اشير الى ان الاسبانيين الأربعة الذين يطلقون النار على الفرنسيين في بداية الفيلم هم « خوسيه لويس باروس » — الأكثر بدانة — ، و « سيرج سيلبرمان » — الذي يضع عصابة فوق جبينه — ، و « خوسيه بيرغامين » — الكاهن . وأنا — المتخفي وراء لحية وقلنسوة راهب — .

هذا الغرض الغامض للرغبـة

بعد « شبح الحرية » الذي جرى تصويره عام ١٩٧٤ (وكنت آنذاك في الرابعة والسبعين) ، فكرت في الاعتزال بصورة نهائية ، وكنت بحاجة ماسة ، لكل ذلك الأصرار من أصدقائي . وبخاصة من « سيلبرمان » ، كي أعاود العمل من جديد .

عدت الى مشروع قديم ، هو اعداد لـ « المرآة والدمية » لـ « بيير

نويس » ، وقمت بتصويره عام ١٩٧٧ . مع « فيرناندو راي » وممثلتين لنفس الدور . هما « انخيلا مولينا » و « كارول بوكيه » . والكثيرون من المشاهدين لم ينتبهوا الى أنهما اثنتان .

انطلاقا من تعبير « بيير لويس » «غرض غامض للرغبة» سمي الفيلم « هذا الغرض الغامض للرغبة » . ويبدو ان السيناريو كان مبنيا بشكل جيد : لكل مشهد بداية وتطور ونهاية . وبالرغم من ان الفيلم حافظ على امانته للكتاب ، فقد قدم عدداً من الاضافات التي غيرت طابعه بالكامل . في المشهد الأخير . حيث كانت يد امرأة ترفو بعناية تمزقا في دانتيلا ملطخة بالدم ، « وهي آخر لقطة صورتها في حياتي » . كنت منفعلا بشكل لم استطع ان أفهمه . وهو ما سيبقى غامضاً الى الأبد ، قبل الأنفجار الأخير .

كانت هناك ، وعلى امتداد الفيلم ، حكاية الأمتلاك المستحيل لجسد امرأة . ولقد رغبت ، بعد « العصر الذهبي » بكثير ، في ادخال بعض اجواء الاعتداءات والاحساس بفقدان الامان ، هذه الاجواء التي كنا نعرفها جميعاً ، ونعيشها في هذا العالم . وفي السادس عشر من تشرين الأول عام ١٩٧٧ . انفجرت قنبلة في صالة « ريدج » بسان فرانسيسكو ، حيث كان يعرض الفيلم . وادى ذلك الى تلف أربعة فصول من نسخة الفيلم . ووجدت على الجدران كتابات متوعدة ، مثل « هذه المرة تذهب بعيداً أكثر من اللازم » ، وكانت واحدة من تلك الكتابات موقعة بـ « ميكي ماوس » . وقد سمحت دلائل مختلفة بالظن أن مجموعة منظمة من الشاذين جنسيا هي التي قامت بالاعتداء . وبالمناسبة ، فالفيلم ، بوجه عام ، لم يعجب الشاذين جنسياً ، ولم استطع أبداً ان أفهم سبب ذلك .

اغنيــة التــم

وفق ما ترويه الأخبار الأخيرة ، فاننا تمتلك حالياً قنابل نووية تكفي ليس فقط لتدمير كل أثر للحياة فوق سطح الأرض ، بل ولتُخرج الأرض عن مدارها وتجعلها قاحلة باردة تسبح في آفاق غير محدودة إن هذا ليبدو لي رائعاً ، وأكاد أحس بالرغبة في أن أصيح ! برافو ! . . فها هي مسألة واحدة قد أصبحت أكيدة : العلم هو عدو الإنسان . إنه يستحث فينا غريزة الاحساس بالمقدرة على كل شيء ، والذي يقود إلى دمارنا .

استطلاع حديث أظهـــر أنه من بين سبعمائة ألف عالـم « من ذوي الكفاءات العالية » يعملون الآن في العالم . هناك خمسمائة وعشرون ألف ، يجهدون من أجل تحسين وسائل الموت ، ومن أجل تدمير الإنسانية ، وفقط مائة وثمانون ألف هم الذين يعملون على ابتكار وسائل لحمايتنا .

أبواق القيامة تصدح على أبوابنا منذ عدة سنوات ، ونحن نصم آذاننا . وهذه القيامة الجديدة ، كالقديمة ، تعدو مسرعة بفرسان أربعة : التزايد السكاني (وهو أول الفرسان ، الرئيس ، الذي يحمل الراية السوداء) ، والعلم ، والتكنولوجيا ، والإعلام ، أما كل المساويء الأخرى التي تهاجمنا فهي ليست إلاّ نتائج لهذه . واني لاأتردد أبداً

في وضع الإعلام بين الفرسان الأربعة المشؤومين . كان السيناريو الأخير الذي عملت عليه ، ولم أستطع تحقيقه أبداً ، يرتكز على مشاركة ثلاثية : العلم والارهاب والإعلام . وهذا الأخير ، الذي يقدم ، وبكل بساطة ، على أنه فتح ، ومصدر للمنافع ، وحتى أحياناً كـ « حق » ، ربما هو الأكثر أذى من بين فرساننا ، حيث يقبع قريباً من الثلاثة الآخرين ليتغذى من حطامهم ، ولو أنه سقط صريعاً بسهم لاسترحنا من كل ذلك الهجوم الذي يستهدفنا به .

يشغلني موضوع الانفجار السكاني كثيراً ، وقد قلت مراراً ــ حتى في هذا الكتاب ــ أنني لاأفتأ أحلم بكارثة كونية تودي بألفي مليون من السكان ، حتى ولو كنت أنا من بينهم . وأضيف أن هذه الكارثة لن تكون ذات معنى أو قيمة في نظري ان لم تكن ناجمة عن قوة طبيعية ، زلزال ، وباء غير معروف ، فيروس مدمر لايمكن قهره . إني أحترم وأقدر القوى الطبيعية ، لكني لاأحترم صانعي المصائب الحقيرين ، الذين يقومون يومياً بحفر قبرنا الجماعي ، وهم يقولون لنا ، بكل نفاق وإجرام : « ليس بالإمكان عمل شيء آخر » .

ليس للحياة الإنسانية ، في تصوري ، من قيمة ، أكبر مما لحياة ذبابة ، وأنا في الواقع ، احترم كل حياة ، بما في ذلك حياة الذبابة ، هذه الحشرة الغامضة العجيبة وكأنها جنية .

وحيداً وعجوزاً ، لاأستطيع أن أتصور إلا الكارثة أو العدم ، ولا مفر من هذا أو تلك . أعرف جيداً أن الشمس ، بالنسبة للعجائز ، كانت أكثر طراوة أيام شبابهم البعيدة . وأعرف أيضاً أنه مع نهاية كل ألف من السنوات ، يُعلن عادة عن النهاية ، لكن يبدو لي مع

ذلك أن هذا القرن بكامله يتجه نحو الكارثة . لقد انتصر الشر في الصراع القديم الفظيع .انتصرت قوى التدمير والتخريب . لم تحقق روح الإنسان أي تقدم باتجاه الإشراق ، بل انها ربما قد تقهقرت ، وأحاط بنا الرعب والضعف والاعتلال . من أين ستأتي كنوز الطيبة والذكاء التي يمكن أن تنقذنا ذات يوم ؟ حتى المصادقة تبدو لي عاجزة عن ذلك .

لقد ولدت مع بزوغ فجر هذا القرن ، الذي يبدو لي أحياناً وكأنه مجرد لحظة ، وان كل سنواته انقضت ومضت بأسرع ما يمكن . عندما أتحدث عن وقائع أيام شبابي ، والتي تبدو لي قريبة ، أضطرني مضطراً للقول : « كان هذا قبل خمسين أو ستين سنة » .وفي لحظات أخرى ، تبدو الحياة جد طويلة ، وان ذلك الطفل وذاك الشاب ، الذي كان يفعل هذا ، أو يفعل ذاك ، لم يكن أنا أبداً .

في عام ١٩٧٥ ، كنت في نيويورك مع « سيلبرمان » ، وأخذته إلى مطعم ايطالي كنت أتردد عليه قبل خمسة وثلاثين عاماً . كان صاحبه قد مات ، لكن زوجته تذكرتني في الحال ، حيتني ، ودعتنا إلى الجلوس . كان إحساسي هو أنني كنت قد تناولت طعامي هناك قبل أيام . ليس الزمن الشيء نفسه دائماً .

حتى الخامسة والسبعين ، لم أكره الشيخوخة . حتى أنني كنت أجد فيها شيئاً من الرضى ، والهدوء الجديد ، والاحساس بالتحرر الذي قدمه إليّ اختفاء الرغبة الجنسية ، وكل الرغبات الأخرى . لاأطمع بشيء ، لاأحتاج إلى شاطيء البحر ولا بسيارة « رولز رويس » ولا بالقطع الفنية . وأقول لنفسي ، متراجعاً عن صرخات شبابي : « ليسقط الحب الذي لايكبح جماحه ، ولتحيا الصداقة » ! . .

حتى الخامسة والسبعين . كنت عندما ألتقي رجلاً مسناً جداً وضعيفاً جداً في الشارع أو في رواق أحد الفنادق ، أقول لمن معي : « هل رأيت بونويل ؟ غير معقول ، لقد كان ما زال قوياً حتى العام الماضي . . ! أي انهيار هذا الذي أصابه ؟ ! » . . كنت أقرأ ، وأعيد قراءة « الشيخوخة » لـ « سيمون دو بوفوار » ، ذلك الكتاب الذي يبدو لي مدهشاً . لم أعد أظهر بسروال السباحة في المسابح ، بسبب حياء السن . بدأت أسفاري تقل يوماً بعد يوم ، لكن حياتي حافظت على فعاليتها وتوازنها . وعملت آخر أفلامي وأنا في السابعة والسبعين من العمر .

فيما بعد ، في السنوات الخمس الأخيرة ، بدأت الشيخوخة بشكل حقيقي . هاجمتني علل مختلفة ، دون خطورة شديدة . بدأت أشكو من رجليّ ، اللتين كانتا سابقاً قويتين ، ثم من العينين ، وحتى من الرأس (نسيان بين الحين والآخر ، ونقص في التركيز) . وفي عام ١٩٧٩ ، وبسبب مشكلة في المرارة ، كان عليّ أن أمضي ثلاثة أيام في المستشفى أتغذى بالمصل . ترعبني المستشفى ، في اليوم الثالث ، نزعت كافة الأنابيب والأربطة وذهبت إلى البيت . في عام ١٩٨٠ أجريت لي عملية البروستات . في عام ١٩٨١ كانت المرارة مرة أخرى ، وبدت صحتي محاطة بكثير من التهديدات ، وأنا في كامل وعيي لهذه الشيخوخة الزاحفة .

أستطيع أن أشخص حالتي بكل بساطة ! أنا عجوز ، هذا هو مرضي الرئيسي . لا أشعر بالراحة إلاّ في بيتي ، مخلصاً لتفاصيل حياتي اليومية الروتينية . استيقظ ، أشرب فنجان قهوة ، أؤدي بعض التمارين البسيطة لمدة نصف ساعة ، أغتسل ، أشرب قهوة أخرى مع تناول

شيء من الطعام . في التاسعة والنصف أو العاشرة . اخرج القيام بجولة في الحي . ثم أغرق في الملل حتى منتصف النهار . عيناي ضعيفتان . لاأستطيع القراءة إلا باستخدام عدسة مكبرة ، وإضاءة خاصة ؛ وسرعان ما أتعب . صممي يمنعني منذ زمن ، عن الاستمتاع بالموسيقا . لذلك ، فاني أنتظر ، أفكر . أتذكر ، أتحرك بنفاد صبر مجنون ، دون أن أكف عن تكرار النظر إلى الساعة .

منتصف النهار هو الساعة المقدسة للمقبلات . التي أتناولها في غرفة مكتبي ببطء شديد . بعد الأكل : استرخي في نوم قصير فوق المقعد . حتى الثالثة . من الثالثة حتى الخامسة هي الفترة الأكثر اضجاراً لي . . . أقرأ بعض الأسطر . . أجيب على رسالة . . أتحسس بعض الأغراض . . وابتداء من الخامسة تتزايد نظراتي إلى الساعة : كم بقي من الوقت للمقبلات القادمة ، التي أتناولها دائماً في السادسة ؟ . . وأحياناً أسرق ربع ساعة . أستقبل أحياناً بعض الأصدقاء ابتداء من الخامسة ؛ فأتحادث معهم. في السابعة أتناول العشاء مع زوجتي ، وأنام مبكراً جداً .

لم أذهب إلى السينما منذ نحو أربع سنوات ، بسبب نظري وسمعي ، وتخوفي من حركة السير ومن الازدحام ، ولاأشاهد التلفزيون إطلاقاً .

أحياناً ، يمر أسبوع كامل دون أن أستقبل أي زائر . وأحس بنفسي مهملاً . حينئذ يصل واحد لم أكن أتوقعه ، ولم أكن قد رأيته منذ وقت بعيد . في اليوم التالي يأتي أربعة أو خمسة أصدقاء دفعة واحدة . فيمضون ساعة من الزمن ، من بينهم « الكورثيا » الذي عمل معي في الماضي كسيناريست و « خوان ايبانييث » أفضل مخرجينا المسرحيين ، الذي لا ينقطع عن شرب الكونياك طوال الوقت ، وكذلك الأب

« خوليان » الدومينيكي العصري والرسام الممتاز والمتمكن من فن الحفر ، ومؤلف فيلمين متفردين .تحدثنا في مناسبات مختلفة حول الإيمان ووجود الله . قال لي ذات يوم :

— قبل أن أعرفك ، كانت تمر بي لحظات أشعر فيها بتزعزع إيماني . ومنذ أن بدأنا نتحادث معاً ، عاد إيماني يتعمق من جديد .

وأستطيع أنا أن أقول الشيء ذاته عن إلحادي . لكن ماذا لو كان لـ « بريفير » و « بيريه » أن يشاهداني بصحبة راهب دومينيكي ! .

من خلال هذا الوجود الآلي والمنظم بشكل دقيق . كان تحرير هذا الكتاب ، بمساعدة « كارييز » بمثابة « فورة » سريعة التلاشي ، ولا آسف لها . فقد سمح لي هذا بأن لا أغلق الباب بالكامل .

* * *

منذ بعض الوقت ، أسجل في دفتر صغير . أسماء أصدقائي الذين يختفون ، وأدعو هذا الدفتر « كتاب الأموات » ، أعود إلى تصفحه باستمرار ، ويحتوي على مئات الأسماء . بعضها إلى جانب بعضها الآخر ، حسب الترتيب الأبجدي . أسجل فيه فقط أسماء أولئك الذين كانت لي معهم ، ولو لمجرد مرة واحدة . صلة إنسانية حقيقية . أما أعضاء المجموعة السيريالية فكانت أمام أسمائهم إشارة باللون الأحمر . وكان عام ١٩٧٧ — ١٩٧٨ بالنسبة للمجموعة عاماً فظيعاً : مان راي ، كالدر ، ماكس ارنست ، بريفير ، اختفوا جميعاً خلال أشهر قليلة .

بعض أصدقائي يكرهون هذا الكتيّب ، لخوفهم ، دون شك ، من أن يظهروا فيه ذات يوم ، وأنا لاأفكر مثلهم ، فهذه القائمة الحميمة

تسمح لي بأن أتذكر هذه الشخصية أو تلك ، وبدونه ، كان سيغلبني النسيان .

ذات مرة ، أعلمتني أختي « كونتشيتا » ، خطأ ، بموت كاتب اسباني يصغرني كثيراً ، وبعدها بفترة قصيرة ، وكنت جالساً في أحد مقاهي مدريد ، رأيته يدخل من الباب ويتجه إليّ مباشرةً ، واعتقدت للحظات أنني قد صافحت يد أحد الأشباح .

منذ زمن ، والتفكير بالموت مألوف لديّ ، فمنذ ان كانت الهياكل العظمية تتنزه في شوارع « كالاندا » في مواكب الأسبوع المقدس ، يشكل الموت جزءاً من حياتي ، ولم تتنزه في شوارع « كالاندا » في مواكب الأسبوع المقدس ، يشكل الموت جزءاً من حياتي ، ولم أرغب أبداً بتجاهله أو بنفيه . لكن ليس هناك شيء هام يمكن أن يقال عن الموت عندما يكون الأمر متعلقاً بملحد مثلي ، سيموت مع الغموض . أحياناً ، أقول لنفسي بأنني أود لو أعرف ، لكن ، أعرف ماذا ؟ ليس هناك ما يُعرف . . لاأثناءه ، ولا بعده ، بعد الـ « كل شيء » هناك الـ « لاشيء » . . لاشيء ينتظرنا إلا التعفن ، تلك الرائحة الحلوة للأزل .

ومع ذلك ، فانني أتساءل عن شكل هذه الميتة ، أحياناً ، ولمجرد الاسترسال في التسلية ، أجد نفسي طافياً في ظلمة كاملة ، مع جسدي ، وبكامل قواي ، التي ستكون ضرورية من أجل القيامة النهائية ، وفجأة يصطدم بي جسد آخر ، في تلك الأجواء الجهنمية ، إنه رجل من سيام مات قبل ألفي عام عندما سقط من فوق شجرة لجوز الهند . . ثم يبتعد في الظلمات . . وتمر ملايين السنين ، ثم أشعر بخبطة أخرى على الظهر .

إنها إحدى صاحبات نابليون . . وهكذا أدع نفسي أتنقل للحظات عبر الظلمات المزعجة لهذا الجحيم الجديد . . ثم أعود إلى الأرض التي لم أكن قد غادرتها .

وأسأل نفسي مع ذلك ، دون أية أوهام حول الموت ، حول تلك الصور التي يمكن أن يتخذها . فأقول أحياناً ، إن موتاً مفاجئاً سيكون مدهشاً ، مثل ميتة صديقي « ماكس اوب » الذي مات فجأة وهو يلعب الورق . لكن اختياراتي تتجه عادة إلى ميتة أكثر بطأ . . أكثر انتظاراً . تسمح بالقاء التحية ، للمرة الأخيرة ، على الحياة التي عرفناها . منذ عدة سنوات ، أصبحت ، عندما أغادر مكاناً من تلك التي عرفتها جيداً ، حيث عشت وعملت ، وشكلت جزءاً من نفسي ، مثل « باريس» و « مدريد » و « طليطلة » و « الباولار » و « سان خوسيه بوروا » ، أتوقف لحظة لأقول وداعاً لذلك المكان . أتجه إليه وأقول ، مثلاً : « وداعاً ، سان خوسيه ، هنا عرفت لحظات سعيدة . بدونك كانت حياتي ستكون مختلفة . والآن ، أنا ذاهب . لن أراك بعد الآن ، وأنت ستستمر بدوني . أقول لك وداعاً » . أقول وداعاً لكل شيء ، للجبال ، وللنبع ، وللأشجار ، وللضفادع .

ومن الطبيعي أن أعود أحياناً إلى مكان من تلك التي أكون قد ودعتها . إلا أن هذا لايهم ، فعندما أغادره من جديد ، أعود لأحييه وأودعه للمرة الثانية .

أريد أن أموت ، عارفاً بأنني لن أعود . منذ عدة سنوات ، أصبحت أجيب من يسألني عن سبب تناقص أسفاري يوماً بعد آخر ، وانني لم أعد أذهب إلى أوروبا ، إلا فيما ندر : « خوفاً من الموت » . يجيبونني

بأن هناك احتمالات عديدة للموت هنا كما هي الحال هناك . وأقول : « ليس هو الخوف من الموت بشكل عام ، إنك لاتفهمني بصورة صحيحة . فلا يهمني أن أموت . لكن أن لايكون هذا خلال السفر » . إن الميتة الشنيعة بالنسبة إليّ . هي تلك التي تقع في غرفة بفندق وسط الحقائب المفتوحة والأوراق المبعثرة . وتماثلها في البشاعة ، بل ربما تكون أسوأ منها ، تلك الميتة التي يجري تأخيرها لفترة طويلة ، عن طريق التقنيات الطبية . هذه الميتة التي لاتتم في ظل يمين « أبو قراط » الذي أصبح يستخدم بعيداً عن أي احترام للحياة الإنسانية . لقد أوجد الأطباء أرقى أنواع التعذيب العصري : « الإبقاء على الحياة » ، ويبدو لي هذا نوعاً من الإجرام . لقد وصلت إلى حد الإشفاق على « فرانكو » الذي حوفظ عليه حياً بصورة اصطناعية لعدة أشهر ، متحملاً آلاماً غير معقولة ، من أجل ماذا ؟ إذا كان الأطباء يساعدوننا حقاً بعض المرات ، فهم في معظمها . صانعو أموال ، مستسلمون للعلم ولرعب التكنولوجيا . فليدعونا نمت عندما تأتي اللحظة ، بل ليعطونا دفعة صغيرة كي نستطيع أن نمضي بسرعة أكبر . أنا متأكد أنه وخلال وقت قصير . وأتوقع ذلك ، سيكون هناك قانون يسمح بالمساعدة على إنهاء الحياة ، ضمن شروط معينة . احترام الحياة الإنسانية لامعنى له عندما يقود إلى سلسلة من العذاب الطويل للذي سيذهب وللذين سيبقون .

مع اقتراب نفسي الأخير ، كثيراً ما أتصور دعابة أخيرة : أدعو أولئك الأصدقاء القدامى . الملحدين عن قناعة مثلي ، فيلتفون حول فراشي ، حزينين . يصل حينئذ رجل دين كنت قد بعثت لاستدعائه . وبطريقة فضائحية كاملة ، وأمام هؤلاء الأصدقاء ، اعترف ، واطلب

المغفرة لكل ذنوبي ، وأتلقى « اللمسة » الأخيرة . بعد ذلك ، أستدير إلى الجانب الآخر ، وأموت . .

لكن ، هل سأقوى على الدعابة في تلك اللحظة ؟

ويبقى شيء واحد آسف له ، هو عدم معرفة ما الذي سيجري ، أعتقد أن هذا الفضول تجاه ما سيقع بعد الموت لم يكن موجوداً في الزمن القديم ، أو لربما كان موجوداً ، لكن بدرجة أقل ، في هذا العالم الذي لم يتغير إلا قليلاً . واعتراف أخير : بالرغم من كل كراهيتي للإعلام ، أتمنى أن أكون قادراً على النهوض من بين الأموات ، مرة كل عشر سنوات ، لأذهب إلى أحد الأكشاك فأشتري مجموعة من الصحف ، ولاشيء آخر ، وأعود إلى المقبرة ، حاملاً صحفي ، بوجهي الشاحب ، متكئاً في طريقي على الجدران فأقرأ عن كوارث العالم . قبل أن أعود إلى النوم ، راضياً ، في ملاذ القبر المريح .

الفهـرس

الاهداء إلى صفاء المدني زوجتي وصديقتي وحبيبتي	٥
الذاكرة	٧
ذكريات من العصور الوسطى	١١
طبول كالاندا	٢٥
سرقسطة	٢٩
ذكريات كونتشيتا	٤٣
تلك المتعة الخاصة	٥٣
مدريد : المدينة الجامعية ١٩١٧ – ١٩٢٥	٦٧
باريس ١٩٢٥ – ١٩٢٩	١٠٣
الاحلام .. واحلام اليقظة	١٢١
انا والسريالية ١٩٢٩ – ١٩٣٣	١٣٣
امريكا	١٦٩
اسبانيا وفرنسا ١٩٣١ – ١٩٣٦	١٨٥
الغرام ، والغراميات	١٩٧
الحرب الاسبانية ١٩٣٦ – ١٩٣٩	٢٠٣
هوليود : تتمة ونهاية	٢٤٥
المكسيك ١٩٦٩ – ١٩٦١	٢٥٧
مع ، وضد . .	٢٨٣

قبل وفاته ، عام ١٩٨٣، باشهر قليلة ، انتهى المخرج السينمائي الاسباني الكبير لويس بونويل من كتابة مذكراته التي صدرت تحت عنوان « انفاسي الاخيرة » . وتنبع قيمة مذكرات بونويل من غنى تجربته الفنيةوالثقافية والسياسيةوالحياتية وتنوعها ، الى جانب تفرد تجربته السينمائية وخصوصيتها ، وهي تجربة لم تقتصر حدودها على بلده اسبانيا ، بل تجاوزتها الى بلدان عديدة ، بدءا من انضمامه الى الحركة السريالية في فرنسا ، وتحقيقه فيلمه الشهير « كلب اندلسي » بالتعاون مع سلفادور دالي ، ومن ثم انتقاله الى الولايات المتحدة الامريكية ثم الى المكسيك ، التي امضى فيها جانبا كبيرا وهاما من حياته الابداعية ، قبل ان يعود من جديد الى فرنسا ، ومن ثم ليستقر في سنواته الاخيرة في العاصمة الاسبانية مدريد .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩١

سعر النسخة داخل القطر ٧٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٤٠ ل.س